تسريح الابصار

في

ما يحتوي لبنان من الآثار

للاب هنري لامنس اليسوعي

الجزء الثاني

نقلًا عن مجلّة المشرق

(طبعة ثانية منقّحة زيدت عليها فهارس المواد)

طبع في بيروت

بالمطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين

سنة ١٩١٤

ܒܝܬ ܡܪܕܘܬܐ

ܕܡܠܦܢܐ ܓܘܪܓܝܣ ܒܪ ܐܢܛܘܢ ܕܒܝܬ ܟܝܪܐܙ

Ex Libris

Beth Mardutho Library

The Malphono George Anton Kiraz Collection

ܟܠ ܐܢܫ ܕܢܣܒ ܠܗ ܠܟܬܒܐ ܗܢܐ ܡܢ ܒܝܬ ܐܪ̈ܙܐ
ܐܘ ܦܣܩ ܡܢܗ ܡܕܡ ܢܗܘܐ ܡܫܬܐܠ ܩܕܡ ܒܝܡ̈ܐ
ܘܗܘܒܢܐ ܡܢ ܒ̈ܢܝ ܡܠܟܘܬܐ ܘܗܒܪܐ ܕܢܣܒ ܢܟܠ ܐܘ
ܒܠܐ ܠܗ ܫܪܝܐ ܟܠܠ ܢܣܒ ܢܗܘܐ ܠܗ ܫܪܝܐ ܒܠܐ
ܥܕܡܐ ܟܬܒܐ ܕܢܗܦܘܟ ܠܗ ܠܕܘܟܬܗ܀

Anyone who asks for this volume, to read, collate, or copy from it, and who appropriates it to himself or herself, or cuts anything out of it, should realize that (s)he will have to give answer before God's awesome tribunal as if (s)he had robbed a sanctuary. Let such a person be held anathema and receive no forgiveness until the book is returned. So be it, Amen! And anyone who removes these anathemas, digitally or otherwise, shall himself receive them in double.

تسريح الابصار

في

ما يحتوي لبنان من الآثار

للاب هنري لامنس اليسوعي

الجزء الثاني

نقلًا عن مجلّة المشرق

(طبعة ثانية)

طبع في بيروت

بالمطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين

سنة ١٩١٤

تسريح الابصار

في ما يحتوي لبنان من الآثار



القسم الثاني

جغرافية لبنان وتعريف الامم التي سكنتهُ



١ اسم لبنان وسعة نطاقه في التاريخ

قد بلغ بنا تقصّينا لآثار لبنان الى تخومهِ الشماليَّة فرأينا ان نحطّ برهةً عصا التسيار لنبحث في قسم ثانٍ عن بعض احوال هذا الجبل الشهير ممَّا يشمل تاريخهُ اجمالًا ويعمُّ شؤونهُ من حيث تقاسيمهُ الجغرافيَّة مع تعريف الامم التي سكنتهُ في سالف الاعصار. وهو امرٌ يفيدنا لادراك ما بقي علينا من وصف آثارهِ في جهاتهِ الأُخرى

لا جرم ان القارئ اللبيب قد لحظ في خلال فصولنا السابقة انَّ اسم لبنان لم يُطلق في كل اطوار التاريخ على ثغور معروفة وربَّما اتسع او انحصر معناهُ على اختلاف الظروف ونزَعات الكتَّاب. فالحَسْر لثام الشبهات وازالة كل المعضلات رأينا ان نبيّن حدود لبنان في الازمنة الغابرة بما امكن من التدقيق

ليس من احد يجهل اليوم موقع لبنان ونواحيهُ الاربع وكلٌّ يعرف انَّ المراد به

تلك السلسلة الجبليَّة الممتدَّة بين البحر المتوسّط او بحر الشام والنهرين الشهيرين النهر الكبير والليطاني

بيد ان معنى لبنان لدى القدماء لا ينطبق على مفهومنا بهِ في عهدنا . واوَّل مـا ينبغي استفتاؤهُ من كتب التاريخ الاسفارُ المقدَّسة فان هذا الاسم ورد فيهـا على صورة لَبْنُون (לבנון) وهكذا عرفهُ ايضاً الفينيقيُّون . امَّا الاشوريون فيدعونهُ لَبْنانو . ومما يستفاد من الكتاب الكريم انَّ لبنـان جبل شاهق فخيم في شمالي نهر الليطاني يحدّ ارض الميعاد من تلك الجهة

وقد تكرّر ذكر لبنان في صُحُف العهـد القديم وان كان هذا الجبل خارجاً عن ملك بني اسرائيل . واكثر ما ورد اسمهُ في اوصاف الكتاب الشعريَّة كما اثبتنا ذلك في مقالتنا عن ارز لبنان (المشرق ٤ : ٩٣٠ — ٩٣٨) . وذكروا بين خواصـهِ الثلوج الغراء التي تكلّل هامتهُ (راجع سفر ارميا ١٨ : ١٤) فبيَّنوا بهـذه الاوصاف انهم ارادوا لبناننا دون سواهُ

وممَّا جاء ذكرهُ ايضاً في الكتاب الكريم وادي البقـاع المخصب الذي يفصل لبنان عن جبل الشيخ وهو يدعى هناك « مدخل حماة » او « الطريق الى حماة (١ » وهو اسم يطابق المسمى لانَّ سهل البقاع اشبه بطريق لاحبة تنفذ بين جبلين عاليين . وفي هذا الاسم ما يُشعر بخطر مدينة حماة وعظم شأنها وهي اول مدينة كبرى كان بنو اسرائيل يلقونها عند خروجهم من تخومهم الشماليَّة الشرقيَّة . اما اليونان ٢) فيدعون البقاع باسم ماسياس (Massyas) او مرسياس (Marsyas) وربما دعوهـا ايضاً بسوريَّة المجوَّفة (Célésyrie) لانعطافها بين الجبلين على شبه الجوف (٣

ويؤخذ من سفر الملوك الثاني (٨ : ٨) ان لبنان كان غنيًّا بمعادن النحاس . والرَّجح

١) راجع سفر العدد ١٣ : ٢٢ و ٣٤ : ٨ ويوشع ١٣ : ٥ الخ وحزقيال ٤٧ : ٢٠ الخ وعاموس ٦ : ١٤ الخ

٢) راجع تاريخ پوليب ك ٥ ف ٤٥ , ٤٦ , ٦١ وجغرافيـة اسطرابون ك ١٦ ف ٢ و ١٠ الخ

٣) راجع معجم الكتاب المقدَّس لڤيكورو في المـادَّة وجغرافية فلسطين القديمة لبول (Buhl) ص ٨٢

ان موقعها كان على العطف الشرقي من لبنان الحالي بازاء سهل البقاع

على ان اصحاب الصُحُف الكريمة لا يفرقون بين لبنان الغربي والشرقيّ فاطلقوا على كليهما اسم لبنان . وهو امرٌ يسهل ادراكهُ لانَّ الجبلين متشابهان تشابهاً تامّاً يسيران على خطين متوازيين الى وجهة واحدة وطولهما واحدٌ على التقريب وهما يتركبان من صخور كلسيَّة متجانسة . ولا غروَ انهما كانا في القرون الخالية جبلًا واحداً ففصل بينهما طارئ جيولوجي غيَّر هيئتهما فانخسفت بينهما الارض وليس وادي البقاع الَّا نتيجة هذه القارعة . ومن ثمَّ لا حرج على كَتَبة الاسفار المقدَّسة اذا اعتبروا هذين الجبلين كطود واحد وان كانوا لم يدقّقوا في تعريفهما كما يفعل اليوم الجغرافيون . وليس الامر كذلك في تعريف اسطرابون لوقعهما فانهُ قد وهم وهماً جسيماً في بيان وجهتهما كما سترى

واوَّل من احكم الفصل بين الجبلين السابق ذكرهما كتبةُ اليونان فانهم قد افرزوا بينهما وخصُّوا احدهما باسم لبنان ودعوا الآخر انتيليبانوس (Antiliban, Ἀντιλίβανος,) ومعناه الجبل القائم بازاء لبنان وكلا الاسمين شائع حتى ايامنا بين الكَتَبة . وممَّا يدلُّ على قِدَم اسم انتيليبانوس ان اصحاب الترجمة السبعينيَّة في القرن الثالث قبل المسيح نقلوا اسم لبنان العبراني الى اليونانيَّة باسم انتيليبانوس لمَّا رأوا انَّ مدلولهُ الجبل الشرقي لا لبنان الحالي. وذلك في خمسة اماكن من الاسفار الالهية (١ . وكذلك ورد في النصّ اليوناني من سفر يهوديت (١ : ٧)

وقد تصفَّحنا تآليف يوسيفوس اليهودي فوجدناهُ متردّداً في تعريف لبنان كانهُ لم يطَّلع على اصطلاح اليونان وهو يكتب في لغتهم . فتراهُ اذا ذكر جبل حرمون والجبال المجاورة لدمشق دعاها كلها باسم لبنان

وما لا ريب فيهِ ان كتبة العهد القديم اذا ما ذكروا لبنان وارادوا بهِ الجبل الموازي لهُ انَّما مرادهم فقط القسم الجنوبي من هذا الجبل المعروف اليوم باسم جبل الشيخ وذكرهُ كثيرٌ في التوراة. وقد دوَّنا في بعض مقالاتنا السابقة (٢ اسماء جبل حرمون عند

---

١) تثنية الاشتراع ١ : ٧ و ٣ : ٢٥ و ١١ : ٢٤ يوشع ١ : ٤ و ٩ : ١

٢) راجع الجزء الاوَّل . ص ٢٤

قبائل سوريَّة وفلسطين فلا حاجة الى التكرار والى بيان صحّة هذه الاسماء لئلّا نخرج عن الموضوع

امَّا اتساع لبنان وحدوده فانَّ الكتاب المقدَّس لا يذكر غير حدّه الجنوبيّ اعني شمال نهر الليطاني . ومن ثمَّ لا بدَّ من نقل نصوص قدماء اليونان لتعريف بقيَّة الحدود

☆

لعلَّ المؤرخ پوليب (١ اوّل من سبق فبيَّن بضبط وتدقيق تخوم لبنان . وهو يفصلهُ عن الجبل الشرقي فصلًا صريحاً ويذكر بين السلسلتين سهل البقاع ويجعل في هذا السهل مخرج نهر العاصي . وممَّن اجادوا في تعريف اتساع لبنان ديودور الصِقليّ (٢ في القرن الاول قبل الميلاد حيث قال انَّ لبنان يمتدُّ من صيداء الى جبيل وطرابلس وانَّ غابات الأرز تظلّل قممهُ (٣

امَّا معاصرهُ اسطرابون فانَّ في كلامهِ لبساً وابهاماً وهاك تعريب ما كتب قال: « انَّ سوريَّة المجوَّفة واقعة بين جبلين تفصلهما على التقريب مسافة واحدة في طولها. وكلاهما يبتدئ قريباً من البحر امَّا لبنان فانَّ اوَّلهُ عند طرابلس وجبل ثيو پروسوپون (راس الشقعة . راجع تسريح الابصار ١ . ص ١٤٠). واما جبل انتيليبانوس فبدوءُهُ بقرب صيداء (كذا) وهما ينتهيان عند الجبال العربيَّة التي تُشرف على اقليم دمشق » .

وفي الفصل ذاتهِ قد اثبت اسطرابون ان منتهى لبنان عند رأس الشقعة وهو يروي ان اعالي لبنان كصنّا . وبوروما يأوي اليها قوم من اللصوص وقطَّاع الطرق . وكذلك يزعم انّ هؤلاء الاوباش يملكون على البترون وجيغرتا ويسكنون الكهوف المشرفة على البحر وحصن الشقعة (٤

فترى ممَّا تقدَّم انَّ اسطرابون يفرق بين لبنان والجبل الشَّرقي ويجعل بينهما سهل البقاع وكذلك لم يشذَّ عن الصواب اذا دلَّ على حدود لبنان الشماليَّة وهو يجعلها تقريباً

---

١) في كتابهِ الخامس (ف ٤٥ , ٥٩ , ٦٩) ٢) ك ١٩ ف ٥٨

٣) راجع الجزء الاوَّل ص ١٣٧

٤) الجزء الاوَّل ص ١٤٦

عند طرابلس لانَّ جبل عكّار يُعَدّ ايضاً من لبنان فيتّصل بهِ ويمتدّ بعض اميال الى النهر الكبير الذي يحجز لبنان عن جبال النصيريَّة . غير انَّ اسطرابون وهم وهماً جسيماً بزعمهِ ان كلا الجبلين يبدأ بقرب البحر عند صيداء وهو خطأٌ لا صحَّة لهُ في انتيليبانوس . وكذلك قد اخطأ بقولهِ انَّ الجبلين ينتهيان عند دمشق وهذا لا يصدق عن لبنان وقد ساء ظنُّهُ في الجبلين اذ وصف سيرهما من الغرب الى الشرق اي من البحر الى داخل بلاد الشام وهما في الحقيقة يسيران من الشمال الى الجنوب فيجاريان سِيف البَحر

امَّا التفاصيل التي ذكرها اسطرابون عن لبنان ولصوصهِ فقد مرَّ ذكرها في محلّها مع بيان ما صدق منها

وفي وصف پلينيوس (١ للبنان ما هو اقرب الى الحقيقة من سواهُ . وهو يجعل اوَّل لبنان عند صيداء ثمَّ يذكر امتدادهُ شمالاً الى مدينة سيمرَّة القديمة اعني وراء مصبّ النهر الكبير بقليل حيث يبتدئ جبل برجيلوس وهو جبل النصيريَّة . وناهيك بهذه الافادة تدقيقاً وضبطاً . وكذلك لم ينِدَّ في وصفهِ لبنان وتمييزهِ لهُ عن الجبَل الشرقي وذكر البقاع وذكر العيون التي يتكوَّن منها العاصي

وممن ذكروا لبنان من قدماء النصارى اوسابيوس القيسري في كتاب الأَعلام (Onomasticon) . وتبعهُ القديس هيرونيموس وكلاهما يقول انَّ لبنان سلسلة الجبال الغربيَّة المحاذية لبحر فينيقية اما السلسلة الشرقية من جهة دمشق فجبل انتيليبانوس اي الجبل الشرقيّ

فترى من ثمَّ ان القدماء في حدود القرن الرابع كانوا وقفوا على حقيقة موقع لبنان وافرزوهُ عن الجبل الذي هو قائم في وجههِ وبيَّنوا وِجهة امتدادهما . غير ان كتَبَة القرون التالية عادوا فخلطوا بين الجبلين . وممَّا حدا بهم الى هذا اللبس التقاسيم السياسيَّة التي ادخلها ملوك الروم في ذلك العهد فاختلطت الاسماء وصارت الاعلام تدلّ على غير ما وُضعت لهُ سابقاً

فمن ذلك سوريَّة المجوَّفة التي كانت تدلُّ في اول الامر على سهل البقاع ليس

---

١) راجع تاريخهُ الطبيعيّ (ك ٥ ف ٧٨)

الَّا اصبحت اقليماً واسعاً يمتدُّ شمالًا الى ما وراء انطاكية بحيث اضحت هذه المدينة قصبةً لهُ . وكذلك لم يعد اسم فينيقية يُطلق على الساحل المنحصر بين لبنان والبحر بل صار يعني بلادًا متسعة تبلغ حدودها الى دمشق وحمص وتدمر

وعلى هذا المنوال تغلَّب اسم لبنان الشهير على جبل النصيريَّة المجاور اذ لا يفصل بينهما الَّا وادي النهر الكبير. فأُبطل اسم برجيلوس الذي خصَّهُ بهِ بلينيوس الكاتب واعتُبر كانهُ لاحقٌ بلبنان

ومن غريب ما جرى وقتئذٍ من التقلُّبات في تقسيم الايالات ان الاقليم المعروف بفينيقية اللبنانيَّة لم يضمّ في دائرتهِ لبنانَ الغربي وأُدخلت فيهِ تدمر مع بُعدها عن لبنان. وكفى بذلك دليلًا على ان اسم لبنان لم يؤخذ بمعناهُ الاصلي او انهُ كان ادلَّ على جبل انتيليبانوس منهُ على لبنان لاسيما بعد ان جُعلت مدينة دمشق كعاصمة فينيقية اللبنانيَّة. ولذلك نرى في اعمال القديس صوفرونيوس الدمشقي انهُ دعا وطنهُ « المتوَّج بلبنان » (λιβανοστέφανος) ولعلَّ هذا اللقب حمل البعض على الظن بانهُ لبنانيّ الاصل

وعُدَّت حمص قبل دمشق مدَّةً كقصبة ولاية فينيقية اللبنانية فصار الاهاون يدعون الجبال الواقعة بازائها وفي شماليها باسم لبنان وهكذا شمل هذا الاسم جبال النصيرية. وفي تاريخ سوزومين (ك٣ ف١٥) ترى اسم لبنان مختصاً بالجبال المحاذية لمدينة افامية واغرب من ذلك ان تاوفانوس المؤرخ في اثناء كلامهِ عن المَردة اطلق اسم لبنان على كل جبال الشام الواقعة بين مصبّ نهر العاصي وبلاد فلسطين (١) . وقد جرى بقيَّة المؤرخين البوزنطيّين على هذا الاصطلاح نخصُّ منهم بالذكر المؤرخ قدرينوس

☆

ولمَّا ظهرت دولة العرب حفظ ملوكهم التقاسيمَ الجغرافيَّة الجارية قبل عهدهم ولذلك ترى الكتبة السريان كابن العبري (٢) وجغرافيّي العرب يتأثرون اعقاب الروم في وصفهم جبل لبنان فربما اصابوا او اخطأوا كاسلافهم . فالمقدسي مثلًا يقول في كتاب معرفة الاقاليم (ص٦٠) ان لبنان جبل ساحلي مشرف على صيداء وطرابلس . امَّا ابن

---

١) راجع تاريخهُ في اعمال الاباء اليونان لمين (ج ١٠٨ ص ٧٣١)

٢) راجع تاريخهُ المدني بالسريانية (ص ٢٨٣)

الفقيه الهمذاني (ص ١١٢) فانهُ يزعم « انَّ لبنان بدمشق وانهُ متصل ببلاد الروم » يريد قيليقية . وبوصفهِ هذا اطلق اسم لبنان على جبل الشيخ وعلى كل الجبال الواقعة شمالي سوريَّة حتى اللكَّام وقسم من جبل طورس وهو تعريف واسع لم يخطر على بال كتبة الروم

وقال ابن جبير في رحلتهِ (ص ٢٥٦) : « وراء المعرَّة جبل لبنان وهو سامي الارتفاع ممتدّ الطول يتصل من البحر الى البحر وفي صفحتهِ حصون للملاحدة الاسماعيليَّة وجبل لبنان حدٌّ بين المسلمين والافرنج لانَّ وراءهُ انطاكية واللاذقيَّة وسواهما من بلادهم » فترى من قولهِ هذا انهُ ادخل في لبنان بلاد الاسماعيليَّة الواقعة في جبل النصيرية بين اللاذقية وحماة وهناك كانت حصونهم كمصياد والرصافة وخوابي وكهف والعُلَّيقة

وياقوت في تعريف لبنان أقوال غريبة قال (٢ : ١١٠ و ٤ : ٣٤٧) : « لبنان جبل مطلّ على حمص يجيء من العرج الذين بين مكة والمدينة حتى يتصل بالشام ... ويمتدّ الى ملطية وسميساط وقاليقالا الى بحر الخزر » فيجعل كل هذه الجبال جبلًا واحدًا تختلف اساميهِ باختلاف الامكنة . واختصاصهُ باسم لبنان يبتدئ في حلب وينتهي في حماة وحمص

وقد ذكر شمس الدين الدمشقي في كتابهِ عجائب البرّ والبحر غير مرَّة اسم لبنان وكلامهُ في الغالب مصيب الَّا انهُ يجعل حدودهُ الشماليـة الى اللاذقية ويعتبر لبنان كقسم من سلسلة عظمى اوَّلها في جنوبي بلاد العرب

اما ابن بطوطة (١ : ١٨٥) فيلوح من ظاهر كلامهِ انهُ يُطلق اسم لبنان على الجبل الممتدّ بين اللاذقية وطرابلس حيث وجد النصيريَّة فوصفهم . وكان النصيرية وقتئذٍ يسكنون ليس فقط الجبل المعروف باسمهم وجبل عكَّار بل ايضًا البلاد المجاورة لطرابلس والبترون حتى نواحي العاقورة وكسروان وذلك الى القرن الرابع عشر للمسيح كما سنبيِّن الامر في مقالة آتية . ولهذا السبب قد امكن ابن بطوطة ان يدعو باسم لبنان كلَّ بلادهم (١

١) راجع مقالتنا عن سكنى النصيرية في لبنان في مجلة الشرق المسيحيّ

وأضبطُ العرب وصفاً للبنان الكاتب الشهير ابو الفداء صاحب حماة ولا غرو اذ كانت سكناهُ في بلاد تجاور لبنان فميَّز في تقويم البلدان (ص٦٨و٢٢٩) لبنان عن جبل دمشق وقد دعا طرف هذا الجبل الجنوبي باسم جبل الثلوج ويدعو باسم سنير طرفهُ الشمالي وهو أنتيليبانوس . وسنير احد الاسامي الواردة في التوراة يراد بهِ حرمون وأُطلق حسب رأينا على كل القسم الشمالي من هذا الجبل . وذلك امرٌ يستنتج من كتبة العرب وهم شهود صدق على التقليد القديم

وقد جعل ابو الفداء لبنان بازاء جبل الثلج يمتدّ الى شرقي طرابلس فاذا تجاوزها عُرف بجبل عكار . وهو قول صواب جرى عليه ايضاً القلقشندي من بعدهِ . اما الجبل الواقع في شمال جبل عكار فان ابا الفداء يدعوهُ جبل اللكَّام (ص ٦٨) وهكذا ايضاً قد جعل الاصطخري وابن حوقل حدود لبنان الشماليَّة بالقرب من مدينة حماة

هذه بعض نصوص نقلناها عن جغرافيّي العرب تبيّن ان هؤلاء الكتبَة اصابوا في كثير من اقوالهم عن لبنان وان وهموا في بعض الامور اخذوها عن كتبَة الروم دون ان يتحققوها بانفسهم لاسيما في ما يختصّ بتعريف حدود لبنان الشمالية . فسبحان من تنزَّه عن كل خطاءٍ وعيب

٢

ما تستفيد سوريَّة من لبنان

بعد تعريفنا لِلُبنان وتطبيق اسمهِ مع اقوال المؤرخين لا نرى بدًّا من استلفات النظر الى فوائد هذا الجبل من حيث طورهُ الطبيعي

على انَّنا قد اشرنا الى هذا الامر في مقالاتنا السابقة (راجع الجزء الاوَّل ص٥١) واثبتنا انَّ لبنان بالنسبة الى سورية كالنيل بنسبتهِ الى مصر اذ انهُ كحوضٍ عظيم تتفجَّر منهُ المياه التي تسقي النواحي المجاورة امَّا على هيئة الامطار وامَّا بطريقة المجاري المائيَّة او بتكاثف الابخرة وسقوطها على صورة الندى . ولولا هذا الجبل لاضحت سورية اشبه ببادية جرداء او رملة صلعاء تابعة لمفاوز جزيرة العرب التي هي متَّصلة بها من جهتها الجنوبيَّة الشرقيَّة

ومما سبق لنا ايضاً في وصف لبنان انَّنا قابلنا بين هذا الجبل المنيف وجبل الالپ (المشرق ١ : ٧٢١) فبيَّنا ما خصَّ بهِ الله الطود السوريّ من المناظر الجميلة والمرافق

العديدة فترى فيهِ الرُّبى المكلّلة بالغابات والغياض الزاهية بضروب الاشجار والنبات والاودية العليلة النسيم ذات الظل الظليل مع جداول مترقرقة وسيول جاحفة وشلّالات مزبدة وبحيرات كالمرايا الصقيلة الى غير ذلك من المحاسن الطبيعية التي زيَّن بها الخالق تلك المشارف الزهيَّة التي اطنب الانبياء في اوصافها وعدَّدوا في الاسفار الكريمة معانيها والطافها

على انَّ لبنان يُورث سوريَّة غير هذه المنافع ممَّا يستلفت نظر ذوي العبرة. ولو تحرَّينا تعدادها لكتبنا فصلًا رائقًا جديرًا بان يُنظَم في سلك فلسفة الجغرافيَّة من شأنهِ ان يوسّع نطاق اهل الرويَّة ويبيّن لهم عجائب الكون

وهذه الفوائد الجمَّة التي تستفيدها سوريَّة من لبنان على اربعة اصناف منها هدروغرافيَّة وجيولوجيَّة ومنها نباتيَّة ومنها جويَّة ومنها ما يرجع الى الامزجة والاجسام

*

١ لا حاجة الى ان نسترسل في الكلام عمّا يجدي لبنانُ القطرَ السوريَّ من المنافع الهدروغرافيَّة اذ انَّنا وصفنا سابقًا ما يختصّ بمجاري المياه في لبنان (راجع الجزء الاوّل ص ٥١) وغاية ما نقولهُ هنا اننا لم نُغالِ في وصفنا المذكور وكفانا لتأييد مقالنا ان اكبر انهار سوريَّة وهو العاصي ينبجس من لبنان فيجري الى شمالي سوريَّة ويخصب نواحيهُ. وذلك ما حمل القدماء على انشاء مدن عظيمة في تلك الجهات كحمص وحماة وانطاكية ولولا هذا النهر لاصبح وادي العاصي قفرًا مقفرًا لا يأوي اليهِ سوى قوم من عرب البادية. وهو بهِ جنّةٌ غنَّاء يتقلّب فيها الوفُ وربوات من البشر في خصب دائم وعيش رفيه

وما قلناهُ عن وادي العاصي يصحُّ ايضاً في سهل البقاع وفي ساحل البحر من طرابلس الى صور فان هذه البطائح معروفة اليوم بوفرة خيراتها وريع مآتيها ونضارة حدائقها وإنْ ذلك الّا من فضل لبنان الذي يفيض عليها مياه ينابيعهِ النميرة مع دسم تربتهِ التي تنحدر من السيول وترسب في قاع الارض فتُخصبها وتسمّنها

ونزيد على ذلك ان التربة التي جرفتها المياه من مشارف لبنان هي التي صارت اليوم بطحاء فسيحة الارجاء زاهية الزروع تمتدُّ من طرابلس الى مصبّ النهر الكبير ولولا انَّ مجاري المياه تسحو هذا الطين اللزج من معاطف الجبل لكان هذا السهل

جوناً تغمره مياه البحر كما ترى في جهات اخرى . لانهُ من النواميس الثابتة تمام الموازاة والمقابلة بين السلسلة اللبنانيَّة والشواطئ البحريَّة اي انَّ لبنان كلَّما امتدَّ نحو البحر اصبح رأساً داخلًا في المياه واذا اندحر استبطنتهُ المياه فصارت في بطنهِ خليجاً . امَّا هذه نواحي طرابلس فانَّ انهار لبنان وجبل عكَّار كابي علي والنهر البارد ونهر عكار وعلى الاخصّ النهر الكبير انحدرت اليها وملأَت بالتربة التي سفتها الجونَ الذي كان هناك وهو يُعرَف حتى اليوم بجون عكَّار دلالةً على اصلهِ لكنَّهُ في الوقت الحاضر خبت منفسح ذو نعومةٍ وخصب

☆

٢ وليس لبنان اقلّ فائدة من حيث الملك النباتيّ . فان ارباب الطبيعة يقضون العجب من سورية لما فيها من اصناف النبات وضروب الاشجار . فانَّها تجمع بين نبات الاصقاع الشماليَّة ونبات الاقاليم المفرطة الحرارة في اواسط افريقية . والنباتيُّ اذا تفرَّع لبنان وجد في اعاليهِ اعشاب الصرود التي لا تُرى الَّا في شمالي اوربَّة وقمم الالب . اما حشائش البلاد الحارَّة فهي نامية في سفح لبنان عند وطإ بحيرة الحولة وهناك من نبات البرديّ الذي لا يُرى اليوم الَّا في اواسط افريقية عند البلاد المجاورة لينابيع النيل . والى لبنان يعود الفضل من هذا القبيل لما يوجد من الاختلاف بين برد رأسهِ المحلّق في العنان المعتمّ بالثلوج وحرارة حضيضهِ البارز لانوار الشمس واشعَّتها الحامية فيسوغ للنباتي في سوريَّة ان يجمع في بضع ساعات من اشكال الاعشاب ما لا يجدهُ في غيرها الّا بعد مشقَّة النفس والعناء الطويل

وهذا التباين العظيم بين نبات بلاد مختلفة لا يروق فقط عين الناظر اذ يرى الاشجار الجبليَّة كالسنديان والارز والاشجار الصحراويَّة كالنخل والبردي لكنهُ ايضاً يجدي الزارعَ نفعاً حيث يمكنهُ ان يستغني عن كثير من محصولات البلاد الاجنبيَّة . كيف لا وهو يجد في وطنهِ تربةً ملائمة لاصناف المزروعات والاشجار المثمرة وضروب الاخشاب وفي كل ذلك ايرادات طيّبة توفّر اسباب الغنى وتفتح ابواب الرزق لطالبيهِ . فياليت شعري كيف يسوغ لنا ان نتشكّى من فقر بلادنا وقحطها وفيها كل ما يلزم ليغني شعوباً جمّة . ولو شاء اصحاب الثروة لرأوا انَّ هذه البلاد يدرُّ منها اللبن والعسل كما في ايَّام بني اسرائيل لا ينقصها لذلك الَّا رجال جدّ وإقدامٍ ممَّن لا يستنكفون

من العمل ولا تثني عزائمهم المصاعب. فلا يمرَ على بلادنا ثلاثون سنة حتى يصير لبنان اغنى من بلاد نروج بغاباتهِ وتمسي السهول الساحليّة اشبه ببطائح الهند وخطّ الاستواء

✲

٣ وان انتقلنا الان من ذكر النبات الى وصف الهواء إذن لوجدنا انَّ حظَّ اهل سوريَّة لأَسعد من سواهم لوقوع لبنان في وسط بلادهم . وذلك ممَّا لحظهُ الكاتب الشهير ڤولناي (Volnay) في اواخر القرن الثامن عشر قال : « انّ بلاد الشام تجمع تحت سماء واحدة احوالًا جويّة مختلفة وتدّخر في اقطارٍ ضيّقة الارجاء مرافق لا تُرى في غيرها من البلاد الَّا متفرّقةً على مسافاتٍ قاصية . ففي غيرها من الاصقاع ترى فصول السنة تفصلها الشهور وامَّا سورية فيصدق القول فيها ان فصول سنتها لا تقسم بينها الَّا بضع ساعات فقط فان اثقلك توقُّد الحرّ في صيداء او طرابلس ايَّام القيظ فما لك الَّا ان تمشي نحو ستّ ساعات فتجد في الجبال المجاورة هواءً لطيفاً كهواء شهر اذار (١ »

فهذا الاختلاف في درجات حرارة الجوّ الذي تغبطنا بسببهِ البلاد المجاورة للشام كبلاد الجزيرة ومصر انَّما اصابهُ القطر الشامي بواسطة لبنان ليس بامتداد عرضهِ الذي يبلغ نحو تسع درجات . ولا لاجل طولهِ البالغ ١١٠٠ كيلومتر بل لاجل ارتفاعهِ فوق سطح البحر . ولولا علوّ جبالهِ لما كان فرقٌ يُذكر بين شمالي سوريَّة وجنوبها . فانَّنا نرى ان حالة الجوّ في غزَّة لا تختلف كثيرًا عن حالتهِ في الاسكندرونة وان الحرّ في دمشق كما هو في حلب . لكنَّ الفرق العظيم انَّما هو بين السواحل ومشارف لبنان بحيث نجد في الجرد لطف هواء الاصقاع الشماليَّة

وممَّا يساعد ايضاً على تكييف الجوّ وتلطيف لهَوات الحرّ هيئاتُ تركيب لبنان المختلفة واوديتهُ ووجهة تقاطيعهِ فان الارواح بهبوبها في بطون الارض وشجونها تغيّر احوال الهواء كما تؤثر في السُّحب والامطار التي تحملها الرياح . وترى بخلاف ذلك بعض مُنعطفات لبنان لحسن موقعها مصونةً من رياح الجنوب والشمال تنحدر الى البحر انحدارًا ليّناً وهي امكنةٌ تهنأُ فيها العيشة للطف نسيمها وتشبه جنوبيَّ فرنسة برطوبة هوائها

١) راجع رحلتهُ الى مصر وسوريَّة (ج ١ ص ٢٨١)

ولا عجب ان اضحى لبنان بعد زمن قليل كمستشفى الاعلّاء يتقاطرون اليهِ لعلاج ادوائهم كما يهرع اليهِ المصيفون لينجوا فيه من وقدات القيظ ويستبدلوا روائح المدن المستكرهة بالريح الطيّبة . امّا الشتاء فيجد ذوو العاهات امكنةً في لحف لبنان يدفعون فيها بردهُ القارس ويقضون فصلهُ في مأمن من اذاهُ اذ يحميها لبنان من نفح الرياح وشدَّة العواصف وهي تقوم لاهل بلادنا مقام مدينتي « نيس » و « كانّ » وسواحل فرنسة الجنوبيَّة التي يزدحم فيها شتاء الاوربيُّون والاميركيُّون فرارًا من صبارَّة القرّ . فياليت شعري أَليس خور جونية وما يُحدق بهِ من المزارع مقاماً شتويًّا يضاهي خَور نابولي . أَلا ترى كيف ان ريفهُ العجيب بارز لاشعَّة الشمس ولصفاء هواء البحر المُنعش وهو مع ذلك في حمىً من السموم والريح الشماليَّة . فلو شاء اصحاب الامر لجعلوا جونية محطًّا لذوي الامزجة النحيفة ومنزلًا للناقهين . وهذه البلدة تفضل من وجوهٍ عديدة وادي النيل وضفّتيهِ حيث المناظر قليلة والهواء يتقلّب تقلُّباً كبيرًا فيلي النهارَ المتوهّج الحرّ زمهريرُ الليل وصردهُ . امّا في مواطئ لبنان فترى للآفاق محاسن متجدّدة من جبال شاهقة وبحار زاخرة وهواء رطبٍ قليل الاختلاف . وهي لعمري منافع كبرى لا تخفى طويلًا على ذوي الخبرة

ولعلَّ منتقدًا يعترض علينا بقولهِ انَّ منعطف لبنان الغربي كثير الرطوبة لتكاثف الابخرة المتصاعدة من البحر في جوانبهِ . والرطوبة كما هو معلوم لا توافق مزاج كثيرين من الناس الذين يؤثرون على المقامات الرطبة الهواء المنازلَ اليابسة

أَجل ولكن لا يخلو لبنان من منافع المراكز اليابسة ايضاً وذلك في منعطفهِ الشرقيّ فاذا تسنَّمتَ اعالي هذا الجبل لا تلبث ان تبلغ بعد ساعاتٍ قلائل الى نواحٍ جافَّة الهواء لا يشوب سماءها غيمٌ ولا يقرب منها ندى البحر لتوسُّط لبنان بينها وبينهُ فانَّ لبنان يقسم بلاد الشام من حيث الهواء قسمين مختلفين احدهما ساحليّ نديّ الجوّ ليّن النسيم معتدل الهواء دون حرّ محتدم ولا برد شديد . والآخر شرقيّ برّيّ تختلف فيهِ الانواء وتتوالى الفصول المتباينة وهو يجدي بعض الامزجة قوّةً وصلابةً . وعلى كل حال مهما افتى الناس في تفضيل الهواء اليابس او الرطب فان العناية الصمدانيَّة لم تحرم لبناننا من خواصّ الهوائين فيختار كلٌّ منهم ما يشاء

*

٤ ولهذا الاختلاف في احوال الهواء نفعٌ آخر وهو تأثيرهُ في بنية الجسم وغنيٌّ عن البيان انَّ طريقة العيش في زماننا وكثرة الالتباك بالاشغال ومداولة الامور والتهافت الى رَشف إناء الملذَّات كلٌّ ذلك ممَّا يضعف بنية الناس ويفقر الدم ويحطُّ بالنسل. وهذه المضرَّات في الاقطار الحارَّة الكثيرة الرطوبة كما ترى في مدننا الساحليَّة اوفرُ منها في سواها من البلاد لازدحام الناس في البيوت الضيّقة ولتراكم الاقذار في الاسواق وقلَّة تغيير الهواء . فاذا بقي اهل المدن على ذلك زمنًا قليلًا فسد لا محالة دمهم ونضب ماء حياتهم لولا انَّ اهل لبنان يهاجرون الى السواحل فيأتون بدمٍ جديد يسري في عروق الجمهور فينعش اجسامهم ويشدّد قواهم . وكما انَّ هؤلاء القادمين من مشارف لبنان يؤتون اهل الحضر دماً جديدًا كذلك الاهلون اذا ما قضوا شهورًا من سنتهم في فصل الصيف فوق ربى لبنان تجدَّدت عزائمهم او تقوَّت اعصابهم فيعودون الى ديارهم وثيقي الاركان مضبوري الخَلق تتدفَّق منهم مناهل الحياة

هذه بعض ملاحظات ابديناها لنفيد مواطنينا عن فوائد لبنان من حيث مقامهِ الطبيعيّ . فلا ريب انهُ لو فُقد لتلفت ايضاً معهُ اكثر ارفاق بلادنا وقفرت المواطن واصبحت التربة عقيمةً خاويةً لا تأتي بغلَّاتها فكانت اشبه بفيافٍ جرداء لا يُرى فيها سوى بعض تلال من الرمل خلوة من النبات لا ماء يجري فيها ولا انهار ترويها يسكنها قوم من صعاليك البادية يتنقَّلون فيها لطلب كلأ الربيع ثمَّ يرحلون عنها . وبوجيز القول ان بلاد الشام لولا لبنان كانت كالبوادي التي تجاورها من جزيرة العرب ونواحي تدمر واقفار ما بين النهرين في جنوبيّ حرَّان ونصيبين

٣

انهار لبنان : منافعها واسماؤُها

١ منافع انهار لبنان جغرافيًّا واقتصاديًّا

ذكرنا غير مرَّة غنى لبنان بينابيع المياه وما يترتَّب على ذلك من الفوائد الهدروغرافيَّة فنقول الآن انَّ من اعتبر هذا الجبل ورأى هيئتهُ وموقعهُ فهم ان قربهُ من البحر لا يسمح للانهار الجارية منهُ ان تتَّسع احواضها اتساعاً كبيرًا .

والاحرى ان يقال ان اغلب انهار لبنان سيولٌ لا تتجاوز مسافة سيرها بضعة كيلومترات وهي تنحدر من مشارف الجبل وتندفع دفعةً واحدة الى البحر. وليس بين هذه الانهار نهر واحد يمكن زورقاً ان يجري فيهِ لكثرة انحراف هذه الانهار وما يتخلَّلها من الصخور في مسيرها . ونحن لا نذكر في هذا الباب من انهار لبنان الّا ما لا ينضب ماؤهُ في فصل القيظ مباشرةً من الشمال الى الجنوب (١ . وكذلك ضربنا صفحاً عن بعض التفاصيل الجغرافيَّة التي تصلح لاحداث المدارس ليس في ذكرها كبير امرٍ

١ً النهر البارد شمالي طرابلس على مسافة بضعة كيلومترات منها . وهو الفاصل بين لبنان وجبل عكار = ٢ً نهر ابي علي وهو المعروف بنهر قاديشا (٢ = ٣ً نهر ابراهيم = ٤ً نهر الكلب = ٥ً نهر بيروت = ٦ً نهر الدامور

وليس لهذه الانهار كلها من الجدوى سوى انها تسقي بعض السهول الساحليَّة فتخصب تربتها في مجاريها المختلفة الطول . وربما كان هذا الخصب الناجم عن مياهها بليغاً . ولو اراد اهل بلادنا لانتفعوا من هذه المياه لغاية أُخرى وذلك بان يجعلوها كمحرّكٍ لادوات كهربائيَّة يتخذونها لمعاملهم ولذلك سمَّى البعض قوَّة المياه في تحريكها بالفحم الابيض يريدون انها تقوم مقام البخار ومواقد الفحم الحجري . ولمَّا كان مهبط هذه المياه شديداً وكميتها وافرة لا غروَ أن ينجم عنها قوَّةً تناسب احصنةً بخاريَّة عديدة كافية لتحريك ادوات ضخمة. وقد بلغنا آخرًا انَّ شركة لبنانيَّة نالت امتيازًا لتوليد الكهرباء بمياه نهر بيروت لتنير القرى الساحليَّة حقَّق الله الاماني

على اننا نرى في مجاري هذه الانهار خللًا فان مصبَّها يتَّسع اتساعاً كبيرًا وذلك لما تأتي بهِ المياه من الطين المجروف ولما يدفعهُ البحر الى الساحل من الرمل فتتكوَّم هذه الموادّ في وجه النهر بحيث لا تقوى مياههُ على خرقها فتتدفَّق جوانبهُ وتسيل المياه ذات اليمين وذات الشمال على مسافة واسعة . وربما استنقعت هذه المياه فحدث عنها حُمّيات ملاريَّة خبيثة. وهذا الانحراف في مجاري الانهار قد لحظهُ العلماء في البحار التي يضعف فيها المدّ والجزر. لكنَّ هذا الخلل يسهل استدراكهُ بان يُحفَر للنهر مسيل عند مصبِّه. وكذلك تُنصَب اشجار الاوكالبتوس على ضفافهِ لتزول بها وخامة الهواء

١) ان نهر العاصي يستمدّ اكثر مياهِهِ من لبنان لكنَّ مسيلهُ خارج عنهُ

٢) لا نذكر نهر الجوز قرب البترون لانَّ ماءَهُ ينقطع في فصل الصيف

وفي مقالاتنا السابقة بيّنّا ان النهرين البارد وابا علي بما سحَواهُ من التربة من اعالي لبنان طمّا جون عكّار وكوّنا سهل طرابلس المعروف بجودة مزروعاتهِ . ولعلَّ نهر بيروت اتى بما هو اغرب فعلًا منهما

فكلٌّ يعرف ان مدينة بيروت مبنيَّة على شبه جزيرة يتَّصل بها البحر شمالًا وغربًا وجنوبًا غربيًّا . وقد ارتأى بعض العلماء ان هذه الحاضرة انما كانت في سالف الزمان جزيرة تحدق بها المياه من كل جهاتها (١ فصارت مياه نهر بيروت والجداول المجاورة لهُ كوادي غدير ووادي شويفات تأتيها بالطين والتربة حتى ملأت البوغاس الذي كان في جهة بيروت الجنوبيَّة الشرقيَّة بينما كانت الرياح الغربيَّة تحمل اليها رمالها فاصبحت بيروت متَّصلة بالبرّ وجرى لها ما جرى لمدينة صور لمَّا ابتنى لها اسكندر ذو القرنين سدًّا عظيماً وصل بينها وبين البرّ فتراكمت الرمال على هذا السدّ فصارت شبه جزيرة بعد ان كانت المياه تكتنفها من كل اطرافها . ولا عجب فان انتشار الرمل على سواحل سوريَّة امرٌ ظاهرٌ فترى الرمل يتقدَّم دون انقطاع . وممَّا شهد الثقةُ على صحّتهِ ان معدَّل امتداد الرمل في كل سنة بين مدينتي غزَّة ويافا يبلغ مترًا على التقريب

هذا وان اهل بيروت كانوا يتّخذون قديماً ألواء الرمل سكناً لهم ويزرعون فيها المزارع لان التربة التي يغطيها هذا الرمل طيّبة دسمة . والدليل على سكنى الاهلين فيها ما يجدهُ الحافرون من الخزف وقطع الزجاج القديم والمعادن والنواويس . والرملُ قد نشر عليها كلّها رداءَهُ وهو لا يزال يجري الى الامام . ومن يلحظ حركتهُ المتواصلة يتأكد بانهُ في مدَّة ربع قرن قد اخفى عن العيان املاكًا متَّسعة لبعض الوجهاء فالتهمها . ومنذ عهد قريب قد وجد البعض آثار بلدةٍ توارت تحت كثبان الرمل . وممَّا أثبتهُ الشاعر نونُس (٢ عن الطريق التي يسير فيها السائر عند خروجهِ من بيروت ميمّماً صيداء انَّها « رمليَّةٌ تظلّلها الاشجار ودوالي الكروم » على ان الشاعر لم يذكر التلال الرمليَّة التي تتخلّلها في يومنا هذا فتجري في وسطها وذلك دليلٌ على انَّ الرمل لم يَسْطُ عليها بعد . ومن الثابت المقرَّر ان العوامل الطبيعيَّة لا تزال تذرّي هذه الرمال فتجرف مياه

---

١) راجع كتاب ريتر (ص ٤٣٠)

٢) راجع كتاب شعره (Dionysiaques, ch. 41, v. 40 - 45)

البحر وتنسفها الرياح حتى نكاد نرى حركتها رأي العين فما قولك بعملها على كرور الادهار لاسيَّما اذا اضفتَ الى هذه العوامل ظواهرَ أُخر خارقة العادة كالزلازل والاهتزازات الارضيَّة التي ربَّما رفعت بحضيض الارض ومسيل الاودية . وفي سواحل فينيقية من آثار هذه الزلازل ما هو مشهور (راجع مقالتَيْنا عن الزلازل في المشرق ١ [١٨٩٨] : ٣٠٣ و ٢ [١٨٩٩] : ٩٧٠)

وممَّا يشهد على ما اصاب بيروت ونواحيها من الطوارئ الجيولوجيَّة انَّ هذه المدينة كانت في سالف الزمان مزدانةً بعدَّة جزائر لا نرى اليوم منها اثرًا . فان الشاعر اليوناني نونُس المذكور (١ اشار اليها في جملة وصفه لبيروت فدعا هذه المدينة « الجميلة الجزائر εὔνησος » وهي لعمري شهادة حسنة اتى بها شاهدُ عين سكن بيروت ردحاً من الدهر لم يفتهُ شيء من احوالها . وقد جاء في خارطة لاتينيَّة يرتقي عهدها الى القرن الثاني عشر رسم جزيرتين متوسِّطتين في الكبر قريبتين من بيروت (٢ . وكذلك ورد في تواريخ الصليبيين ان الرهبان المعروفين باسم پريمنتراي (Prémontrés) كانوا يسكنون ديرًا موقعهُ في جزيرة على مقربة من بيروت (٣ . وفي هذه الشواهد ما يدلُّ على انَّ هذه الجزر غير الصخور الثلاثة او الاربعة التي نراها اليوم عند راس بيروت او عند مصبّ نهرها

ولكن متى توارت هذه الجزائر ؟ ليس لنا في ذلك نصّ صريح ومن المرجَّح انَّها انخسفت في الزلزال الذي ذكرهُ المقريزي في تاريخ المماليك (٤ في تاريخ سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦١ م) حيث قال ان سبع جزائر بين عكَّة وطرابلس غاصت في لجج البحر . وقولهُ هذا يطابق الآثار التاريخيَّة التي لم تعُد تذكر فيما نعلم الجزائرَ المجاورة لبيروت بعد القرن الثالث عشر

والنهران الاخيران اللذان يجريان في جنوب لبنان هما الاوَّلي وهو نهر صيداء ثم الليطاني الذي يحدُّ لبنان في جنوبيِّهِ وهو نهر صور . ولكلا النهرين علاقة مع المدينة

١) راجع الكتاب السابق ذكره (Chant 41, v. 15)
٢) راجع المجلَّة الفلسطينيَّة الالمانية (ZDPV, XVIII)
٣) راجع المجلَّة ذاتها (ج ١٠ ص ٢١٠ و ج **٢١** ص ١١٦)
٤) راجع طبعة كاترمار Quatremère : *Sultans Mamlouks, I, 1re partie*, p. 145

التي يجاورها وقد اغناها بمنافعه الجمّة الاقتصاديّة . ونهر الاولي يجري في منعطف لبنان الغربي ولا يتجاوز طوله ٤٥ كيلومترًا اما الليطانيّ فينفذ في وسط هذه السلسلة ويتخللها . ومنبعهُ في البقاع بين الجبلين الغربيّ والشرقيّ وطول مجراه ١٥٠ كيلومترًا . وخطرهُ عظيم من حيث الزراعة والاقتصاد لانهُ ليس فقط يفتح طريقًا في خلال الجبل كما يفعل الاولي ولكن ايضًا لانّ هذه الطريق توصل ساحل مدينة صور بسهول فيحاء وبطائح غنّاء كالبقاع وغوطة دمشق ووادي العاصي . ولا غروَ ان تجار صور من الفينيقيين قدّروا هذه المنافع قدرها ونهجوا هذه الطريق رغبةً في الارباح البالغة

امّا وادي الاولي فهو دون وادي الليطاني شأنًا وخطرًا الّا انهُ اغنى منهُ واخصب وفي مسيرهِ على ضفّتيهِ مسالك وطرق تُفضي الى البقاع والى عدّة قرى كان الاهلون يقضون فيها فصل الصيف ويتاجرون بغلّاتها كما يفعل اهل صيداء في ايّامنا في القرى الواقعة قرب الباروك وجنوبيّ جزّين

ولولا الاولي والليطانيّ لما وُجدت صور وصيداء فان بُناتهما اختاروا مصبّ هذين النهرين لما كانوا ينتظرونهُ منهما من العوائد التجاريّة وهو الامر الذي جعل لهاتين الحاضرتين شأنًا تجاريًّا لم تبلغهُ بيروت وجبيل لخلوّهما من نهرين يجديانهما من المنافع ما احرزتهُ صيداء وصور بنهريهما

٣

اسماء انهر لبنان قديمًا وحديثًا

قلنا انّ اوّل أنهُر لبنان شماليًّا نهر البارد . والمظنون انهُ هو النهر الذي دُعي قديمًا بروتُّس (Bruttus او Brutus) وان اشتقاقهُ من اصل ساميّ

ولكنّنا نجهل الاسم الذي عُرف بهِ عند القدماء النهر الثاني اي ابو عليّ . كما اننا لم نجد في كتب العرب سبب هذه الكنية او الرجل الشهير الذي اعارهُ اسم ابي عليّ

امّا نهر ابراهيم فقد مرّ ذكرهُ في مقالة سابقة (راجع الجزء الاول ص ٥٨) حيث اثبتنا ما يختصّ باسمهِ القديم ادونيس (اي تموز) وباسمهِ الحديث

وكذلك لا حاجة الى تكرار ذكر نهر الكلب وتعريف اسمائهِ وقد سبق لنا في ذلك فصل مطوَّل (تسريح الابصار ج ١ ص ٦)

وان تخطَّينا الى نهر بيروت وجدنا ان اسمهُ مشبوهٌ بهِ وان كان الرأي الشائع انهُ هو نهر ماغوراس الذي ذكره بلينيوس في تاريخهِ الطبيعي (ك ٥ ف ١٧) فجعلهُ في جوار بيروت . وفي قولهِ هذا نظر اشرنا اليهِ في اول مقالاتنا عن آثار لبنان (تسريح الابصار ج ١ ص ٤)

وممَّا حمل العلماء على القول بانَّ ماغوراس هذا هو نهر بيروت ان بلينيوس جعله على مقربة من بيروت وليس لهذه المدينة نهر آخر الَّا النهر المنسوب اليها فضلًا عن اننا نعرف الاسماء القديمة التي أُطلقت على الانهر الواقعة جنوبيَّ بيروت وشماليَّها ما عدا اسم نهرها

على انَّ بعض العلماء شكُّوا في ذلك وظنُّوا ان مقصود بلينيوس بنهر ماغوراس انما هو نهر الدامور لانهُ في وصفهِ لمدن الساحل مباشرةً من الجنوب الى الشمال ذكر ماغوراس قبل بيروت كأنهُ جعله جنوبي هذه المدينة وهو كما لا يخفى في شماليها . ولأن بلينيوس ضرب صفحاً عن ذكر الدامور ظنُّوا انهُ دعا هذا النهر باسم ماغوراس

هذا الرأي لا يخلو من شبه الصحَّة بيد اننا نفضِل القول بان بلينيوس لم يُراعِ النظام الطبيعي فقدَّم ذكر النهر على ذكر المدينة بدلًا من ان يؤخرهُ . ومثل هذا التقديم والتأخير كثير في كتب القدماء . او يُقال انَّ هذا الامر جرى على يد النسَّاخ سهوًا منهم . ومن ثمَّ فانَّ الرأي الاصحّ عندنا ان ماغوراس هو نهر بيروت ليس نهر الدامور . فعسى العلماء ان يجدوا كتابةً تؤيد رأينا وتزيل كلَّ شبهة عن نصّ بلينيوس وهو الكاتب الوحيد الذي ذكر اسم ماغوراس

هذا وان نهر الدامور قد تكرَّر في كتب القدماء وهم يدعونهُ تاميراس وقد عرفهُ المؤرخ بوليبيوس باسم داموراس (Δαμούρας) والمشابهة بين الاسم القديم والحديث ظاهرة . وكذلك لا شبهة في تعريف اسم «الاوَّلي» القديم . فان الكتبة قد دعوهُ بُسترينوس (Bostrenus)

بقي آخر انهار لبنان جنوبيًّا وهو الليطاني فانَّ في تعريف اسمهِ القديم مشكلًا عظيمًا ولعلَّ القدماء لم يتعرَّضوا لذكرهِ وقد شاع اليوم عند الكتبة المحدثين ان

الليطاني هو نهر لاونتيس (Leontès) او نهر الاسد (Λέοντος πόταμος) الذي ورد اسمهُ في بعض تآليف اليونان فحُرِّف بالليطاني · وكنَّا نحن ايضاً جنحنا الى هذا القول (راجع الجزء الاوَّل ص ٩) لما فيهِ من شبه الحقيقة · لكنَّ في هذا الرأي عقبات كما سترى

فلنباشر اولًا بذكر الاشياء المقرَّرة التي لا يُختلف في صحَّتها

من المعلوم ان اسم هذا النهر حاليًّا الليطاني ويُدعى عند مصبّهِ بالقاسميَّة · وعلى الاصحّ انهُ عُرف بذلك لمزار هناك يدعى النبي قاسم · وزعم البعض ان القاسميَّة مشتقَّة من القَسْم كانَّ النهر قاسمٌ بين صور وصيداء او بين بلاد الشقيف وبلاد بشارة وهو رأي باطل لا سند لهُ والدليل على بطلانهِ انهُ لا يُطلق عليهِ هذا الاسم تحت قلعة الشقيف لمَّا يلتوي عن سيرهِ الجنوبي فيجري الى البحر بل عندما يتجاوز جسر القعقعيَّة. فلو كانت نسبتهُ الى قَسْم البلدين اصدق الاسم عن كل مجراهُ الجنوبي لا عن مصبهِ فقط · ثمَّ ان هذا الاسم معروف منذ بضعة اجيال ذكرهُ خليل الظاهري في كتابهِ زبدة كشف المالك والمقريزي في تاريخ المماليك (١

امَّا اسم الليطانيّ فانهُ قد ورد في اوصاف البلدان لكتبة العرب على صورة « ليطة » فكذا دعاهُ شمس الدين الدمشقي (ص ١٠٧) وابو الفداء في حاشية على تقويم البلدان وصاحب التعريف في المصطلح الشريف (ص ١٨٢) وقبلهم الشريف الادريسي في كتاب نزهة المشتاق (٢ · ويروى ايضاً في بعض النسخ « لنطة » بدلًا من ليطة وليس لليطاني ذكر في جغرافيي العرب غير هؤلاء · ولا عجب فان العرب قلَّما كتبوا في أنهر لبنان فلا تكاد تجد من اسمائها في تآليفهم سوى ثلاثة او اربعة

وان بحثنا عن الليطاني في مصنَّفات سابقة لعهد مؤلفي العرب اي قبل القرن الثاني عشر وجدنا كتبة اليونان والرومان اقل صراحةً من العرب ولعلَّهم ضربوا عنهُ صفحاً · وانما نستثني منهم اسطرابون الذي اشار الى الليطاني اشارةً صريحة حيث قال: «ويجري قرب صور نهر » بيد انهُ لم يُفدنا عن اسمهِ شيئاً · وان استطلعتَ بقيَّة المؤلفين

(١ Quatremère : *Sultans Mamlouks*, II, 1 partie, p. 174

(٢ راجع طبعة غلدميستر ص ١٢

كسكيلاكس وپمپونيوس ميلا وپلينيوس وبطلميوس لا ترى لهم كلمةً عن هذا النهر كما انهم لا يذكرون البتَّة نهر الزهراني الذي يجري جنوبي صيداء

قلنا ان كتبة اليونان لم يذكروا الليطاني . أجل لكنَّ بعضاً منهم ذكروا نهر لاونتوس (Λέοντος πόταμος) فلمَ لا يكون هذا النهر هو الليطاني فيكون جرى على الاسم اليوناني بعض تحريف لمَّا نُقل الى العربيَّة . نجيب اننا لم نكن لنتردَّد في تصويب هذا القول لولا ان بطلميوس (ك ٥ ف ١٤) جعل هذا النهر بين بيروت وصيداء وهذا لا يوافق الليطاني كما لا يخفى . وكذلك نرى تشويشاً عظيماً في ما كتبهُ هؤلاء المؤلفون في « لاونتوس » التي نُسب اليها هذا النهر فهم يقولون انهُ كان في ساحل فينيقية مدينة تدعى لاونتوپوليس ومنهم من يجعلها بين بيروت وصيداء جنوبي نهر الدامور . وهو رأي اسطرابون الجغرافي . امَّا پلينيوس فيزعم ان موقع لاونتوپوليس بين بيروت ونهر الكلب . وفي جغرافيَّة سكيلاكس ان هذه المدينة جنوبي صيداء . وهذه كلها آراء متضاربة واقوال متباينة لا يستفاد منها شيء صريح في امر اسم الليطاني عند اليونان امَّا لاونتوپوليس فسيأتي ذكر موقعها قريباً

ومن غريب الامور ان الاسفار الالهيَّة لم تنوّه باسم الليطاني مع انهُ كان على الرأي الارجح احد حدود الاراضي المقدَّسة (١ . فترى ممَّا سبق ان تعريف موقع هذا النهر واسمهُ وتاريخهُ القديم لمن المعضلات التي استغلق بابها على الباحثين في مجاري المياه اللبنانية

ولكن دعنا ننظر لفكّ هذا المشكل في الكتابات التي سبقت عهد بني اسرائيل فلعلّنا اذا رقينا في سلّم الادهار وقفنا على حقيقة الامر كما ان مياه الانهار تزيد صفاء اذا قربت من مخرجها

واعلم انهُ قد ورد في الكتابات المصريَّة الهيروغليفيَّة اسم قديم يدعى « رطنو » و « رنتو » و « رتينو » موقعهُ شمالي فلسطين وحيث اليوم سهل البقاع الذي فيهِ يجري الليطاني . ثم انَّ الراء في اللغة المصريّة من الحروف الذُلق التي كثيرًا ما تُبدل

١) راجع المجلّة الكتابيَّة سنة ١٨٩٣ (ص ٢٣)

باللام فتكون « رطنو » و « لطنو » عبارة عن اسم بلدٍ واحد (١ . ومن ثمَّ فليس بمستبعد أن يكون اسم الليطاني اشارة لهذا القطر ومعناهُ « النهر الجاري في بلد لطنو » فقيل اختصارًا « ليطاني » كما نقول نهر بيروت ونهر عكّار دلالةً على البلد الذي يجري فيهِ هذان النهران

وعلى رأينا ان هذا الشرح اقرب الى الحقيقة في تعريف اصل اسم الليطاني القديم أمّا اسمهُ اليوناني فلا سبيل الى توفيقهِ على ما كتبهُ اليونان بخصوص نهر لاونتوس . والله اعلم

٤

سُكنى لبنان في قديم الزمان

ان لبنان من احفل ولايات الدولة العليَّة بالسكان فان معدَّل أهاليهِ يبلغ ٦١ نفساً في كل كيلومتر مربَّع . وهو لعمري عددٌ بليغ لا تتجاوزهُ الّا ولاية دار السلطنة وجزيرة ساموس . فان معدَّل قاطني الولاية الاولى هو ١٦٢ شخصاً في كل كيلومتر مربَّع امّا ساموس فاهلها ١١٣ نفساً في الكيلومتر . الّا انهُ لا يجوز المقابلة بينها وبين لبنان لانَّ ولاية دار السعادة تشمل الاستانة العليَّة وهي كما لا يخفى من حواضر المدن واكثرها سكناً فيزداد بعدد اهلها معدَّل اهل الولاية التي هي داخلة فيها . وكذلك ساموس فانها جزيرة كثيرة الخيرات حسنة التربة ليس فيها جبال عالية فلا عجب اذا تقاطر اليها الناس ليستوطنوها . اما لبنان فعبارة عن سلسلة جبال عالية كثيرة الصخور قليلة الخصب ومع ذلك ترى مصانعهُ وقراه متقاربة كثيرة الاهلين بحيث يصحُّ القول انهُ لا يوجد في قطر آخر جبل يربو عدد سكّانهِ على سكّان لبنان

على انَّ الامر لم يكن كذلك في سالف القرون فانَّ لبنان طالما كان قفرًا مقفرًا لا يأوي اليهِ الّا كواسر الوحوش ولبيان ذلك ها نحن نبحث في هذا الشأن لنرى كيف احتلَّ لبنانَ سكّانهُ اوّلًا قبل عهد النصرانيَّة ثم ثانياً في زمن الرومان واخيرًا منذ

١) راجع في مجلة اللاهوت الكاثوليكي (Zeitschrift f. kathol. Theologie, 1902, p. 402) بحثاً حسناً في ما نحن بصدده للدكتور شندا نزيل كليّتنا سابقاً

دخول الموارنة فيهِ وهي اطوار ثلاثة توافق احوال هذا الجبل الثلاث من حيث السكن فنمت الاهلون الى ان بلغ عددهم الى ما نراه اليوم

*

اعلم انهُ ممَّا لا يختلف فيهِ اثنان ان جبل لبنان كان في الاعصار الغابرة قليل السكن ولا غروَ فانَّ وَضع هذا الجبل وهيئتهُ واحوالهُ الطبيعيَّة والجغرافيَّة ممَّا يمنع عن توارد السكَّان اليهِ . فانَّ مشارفهُ العليا جرودٌ لا يمكن سكناها لبردها ليس فقط في فصل الشتاء لكن ايضاً في بقيَّة السنة . وهي المنطقة التي تعلو ١٨٠٠ متر فوق سطح البحر . فان القسم الذي يعلو هذا الخط يُعرف بالجرود لانَّ ارضهُ جرداء كثيرة الصخور لا ينبت فيها الزرع الَّا ضاوياً وبعد عناء ومشقَّة . ونزيد على ذلك ان لبنان كلَّهُ لم يقم قطّ بمعاش اهلهِ لا سيما في عهدنا مع تزاحم السكان فيهِ . وليس هذا ناجماً عن تغافل اللبنانيّين وتكاسلهم لانَّ كل الكتبة لسان واحد على همَّة قطَّان هذا الجبل وملازمتهم العمل ومواظبتهم على الفلاحة . وفي جانب آخر ليس للبنان مناجم معدنيَّة يمكنهم الارتزاق بمرافقها تعويضاً عمَّا ينقصهم من الغلَّات . وكذلك ترى اسباب التجارة قليلة في لبنان لا يُعبأُ بها لانَّ الطرق التجارية لا تخترقهُ فتغنيه قوافل المتاجرين . بل الاحرى ان يُقال انَّ جبالهُ كسدٍّ قائم في وجه الامم الواقعة على عِطفَيهِ فترى بينهما فرقاً كبيرًا من حيث الهواء والنبات وكلاهما يختلف في وجه لبنان . واذا استقريت التاريخ وجدت سياسة شعوبهما متباينة يعيش كلُّ شعب على حدةٍ معتزلًا عن الآخر مع كونهم ينتمون كلُّهم الى عنصر واحد

وممَّا يشهد على صعوبة السكنى في لبنان انك لا تجد في خلال جبالهِ سوى مسالك حرجة وشعاب ضيِّقة لا تُقطع الَّا بالجهد الجهيد . امَّا السُّبُل التجاريَّة اللاحبة التي كانت القوافل تسلكها فانَّها كانت تمرّ شماليّ لبنان وجنوبيَّهُ فتعطف في وادي النهر الكبير او تُجاري سيرَ نهر الليطانيّ والطريق الاولى هي التي اغنت طرابلس في الزمن القديم امَّا الثانية فكانت مجلبةً لثروة صور العظمى . وبعكس ذلك لم تُصب بيروت مقاماً كبيرًا في التجارة اذ كان يفصل بينها وبين دمشق والبلاد الداخليَّة سلسلتان من الجبال المرتفعة الى ان فُتحت طريق الشام بعد السنة ١٨٦٠ ثمَّ أُنشئت

السكّة الحديدية فانتصر الانسان بكدّ جبينهِ على ما اقامتهُ الطبيعة في وجههِ من العراقيل والعوائق

هذا واذا تصفَّحنا أقدم ما سطَّرهُ المؤرخون عن لبنان وجدناهم يصفون هذا الجبل بغابات كثيفة تزينهُ . ويوافق هذا الوصف ما ورد في الاسفار المقدَّسة واقدم الآثار الاشوريَّة . وقد دامت هذه الحالة قروناً متواترة كما يشهد على ذلك مؤرخو اليونان والرومان الذين اثبتنا نصوصهم مراراً في مطاوي كلامنا عن الارز (ج١ ص١٣٤) وفي مقالتنا بين لبنان وجبال الالب (المشرق ١ [١٨٩٨] : ٧٢١) .ومن عجيب الامور انَّ هؤلاء الكتبة لا يذكرون البتَّة شيئاً من قرى لبنان وانَّما يعدّون فقط المدن الفينيقيَّة الواقعة على ساحل البحر . نعم انَّ بعض المستشرقين استشفُّوا من وراء اسم « امّيا » الوارد في مراسلات تلّ العمارنة (المشرق ٣ : ٧٨٩) قرية « اميون » الَّا انَّ الامر ليس بمقرَّر فضلًا عن ان اميون واقعة في سهل منبسط طيّب التربة قليل الارتفاع وليست هي في وسط لبنان

واوَّل ما ورد من اسماء الدساكر اللبنانيَّة في اساطير المؤرخين انما جاءَ في جغرافية اسطرابون اعني قبل تاريخ الميلاد بزمن قليل بعد ان فتح پمپيوس بلاد الشام أَلا وهي اسماء ثلاثة حصون او قل بالاحرى ثلاثة عشوش للُصوص تدعى جيغرتا وسنَّان وبرومة (المشرق ٢ : ٥٠٧) ومواقع اخرى مثلها اكثرها قريبٌ من البحر . وممَّا يستدلّ من مجرَّد ذكر هذه الحصون انَّ سكنى الجبل كانت محفوفةً بالاخطار لا يتوطَّنهُ الَّا قليل من السكَّان. وسنعود الى ذكر هؤلاء اللصوص عند كلامنا عن الايطوريين وهم قومٌ من عرب حوران امتزجوا بالعنصر اللبناني

أمَّا الكتابات القديمة فهي عزيزة جدًّا في لبنان وكلُّ ما وُجد منها لا يتجاوز قِدَمهُ اوائل التاريخ المسيحيّ وقد اكتُشف معظمُها قريباً من الساحل ليس بعيداً من جُبيل وبيروت وهذا دليل واضح على قلَّة سكَّان لبنان قبل المسيح . ولنا ايضاً على قولنا برهان آخر في ما نراه من الاخربة القديمة في لبنان فانك قلَّما تجد بينها من الآثار السابقة لعهد النصرانيَّة وكذلك النقوش المحفورة على الصخور فهي كلها من عهد الرومان اللهمَّ الَّا نقوش وادي بريسا قرب الهرمل وسيأتي ذكرها

ومع كلّ هذه الشواهد انَّنا نرجّح كون لبنان لم يخلُ من بعض المراكز الآهلة

كان موقعها في وسط الجبل اتّخذها الاقدمون في بعض الوديان والبطائح الحسنة التربة الكثيرة المياه السهلة الزراعة (١ . وكذلك كنت ترى في خلال الغابات منازل للحطّابين كانوا يعدّون فيها الخشب لاسيّما الارز الذي كان القدماء يقبلون عليهِ لتجهيز مبانيهم ومنهُ كان الفينيقيّون يعمّرون سفنهم واساطيلهم (٢ . ولعلّ بعض القرى التي تُعدّ من اقدم دساكر لبنان كاهدن وبشرّاي ابتدأت على هذه الصورة فكانت اوّل امرها كمصانع لتحطيب الارز وغيرهِ من الاشجار الجبليَّة العظمى . وقد اوردنا في ما مرّ كتابات يونانيَّة وُجدت في اهدن ترتقي الى التاريخ المسيحي ومنها يستدلّ على انّ تلك القرية سبقت عهد النصرانيّة . امّا بشرّاي فان اشتقاق اسمها على رأي البعض من اسم الالهة عشتار وبهِ دليل كافٍ على قدم عهدها

ومن القرى التي نرجّح قدمها الهرمل الواقعة على منعطف لبنان الشرقيّ . ولا غروَ فانّ موقعها في بطحاء مخصبة غزيرة المياه ممّا يستدعي الى استعمارها وبقربها وُجدت صفيحتان فيهما كتابات اشوريَّة قديمة نشير اليها قريباً

ومن الامكنة التي نزلها الناس في غابر الاعصار بعض المقامات التي اتخذها الاهلون كمناسك دينيَّة منها اليمّونة وفقرا ودير القلعة ومشنقة . فان هذه المحلّات وان لم يرد ذكرها قبل ايّام الرومان فانّ اصلها فينيقيّ محضٌ لا محالة

وعلى هذه الصورة اضحى لبنان شيئاً فشيئاً معدّاً للسكن . فانّ الاهلين ضربوا اطنابهم اوّلاً قريباً من المدن الساحليَّة وفوق رُبًى لا يتجاوز علوّها من ٤٠٠ متر الى الف متر حيث الهواء لطيف والرزق مضمون . ثمّ اخذ لبنان يُجرَّد من احراجهِ الكثيفة الدغلة لمتاجرة الاهلين بخشبها فصار الناس يفلحون الاراضي التي نُزعت عنها الادغال ويشيّدون المباني للسكن وكان ذوو الثروة من اهل الساحل يتوقّلون في فصل القيظ مشارف لبنان ترويحاً للنفس وطلباً للراحة بعد ما تجشّموه من الاسفار الشاقّة

*

فاخذ من ثمّ القطين يتوغّلون في لبنان فازداد عددهم ونموا خصوصاً بعد الفتح الروماني . وقد اسلفنا فوصفنا ما نجم عن دخول الرومان في سوريَّة من المنافع الجمّة

١) وممّا زُرع فيها الجَفنة فان هوشع النبيّ ذكر في كتابهِ (١٤ : ٨) خمر لبنان واطراهُ
٢) راجع ما سبق لنا في الجزء الاوّل في هذا الخصوص

(راجع الجزء الاوَّل ص ٢٠) فان تملُّكهم رفع بهـا الى اعلى مقامات العمران والتقدُّم . فهم الذين قصُّوا اجنحة الفتن ومـدُّوا أَروقة السلام فوق كل الاهلين على اختلاف اجناسهم . ومن اعمالهم المشكورة انهم استأصلوا شأفة اللصوص الذين كانوا تحصَّنوا في لبنـان فدكّوا معاقلهم واعادوا الأمن الى السكَّان (ج ١ ص ١٤٦) . فراجت اسواق التجارة واضحت المدن الساحليّة محطًّا للقوافل ومركزًا للمعاملات لاسيَّما جبيل وبيروت وصور فانتشرت منها هذه الحركة الى ضواحي لبنان المجاورة لها . وممَّا زاد في خصب الجبل ما ابتناه الرومان من القنيّ لجلب مياه لبنان من عيونهـا فكان ذلك من ادعى الوسائل لنشر الحضارة وتلطيف الهواء في مـدن الساحل . ومنها ايضاً السكك الرومانيَّة التي كانت تستدير سائرةً حول لبنان . واحدى هذه السكك كانت تخترق الجبل في عرضهِ سائرةً الى جنوب العـاقورة ومنها الى بعلبك (المشرق ٢ [١٨٩٩] : ٣١٤) . ولما كان لبنان لم يزل بعدُ مزداناً بغاباتهِ سعى الرومان باستثمارها ووضعوا لذلك قوانين مملوَّةً حكمة اشرنا اليها سابقاً

ولا عجب اذا رأينا لبنان في ايَّام الدولة الرومانيَّة تغيَّرت احوالهُ وترقَّت شؤونهُ والى ذلك العهد تنتمي عدَّة كتابات منها يُستدلُّ على وجود قرى وضياع او بالاحرى مزارع ودساكر . ومن غريب امر هذه الكتابات انَّها لا تحتوي عَلَماً لمكان واقعٍ في قلب لبنان . ومجمل ما تتضمَّنهُ اعلامٌ شخصيَّة فقط

وفي ذلك العهد استبدل الرومان المعابد الفينيقيَّة الصغرى بهياكل فخيمة يتولَّاها عدد غفير من السَّدَنة وارباب الدين فكان يتقاطر اليها الزوَّار زرافاتٍ ومنهم من كانوا يختارن تلك الامكنة لسكناهم فأُنشئت عدّة قرًى حول هـذه المقامات الدينيَّة . وكان لهذه الهياكل ارزاقها وغاباتها المقدَّسة واوقافها وكرومها . ومعلومٌ انهُ لا بُدَّ لحة للقيام بكل هذه الاملاك من عملة وفلّاحين يستثمرونها (١ . فلا غروَ ان ضيعاً كثيرة ظهرت على هذه الطريقة الى حيز الوجود نخصّ منها بالذكر قرية دير القلعة التي كان يحجُّ الى هيكلها اهل بيروت ويقضي فيها مستعمرو الرومان فصل الصيف

والى هذا الزمان ننسب ما اكتُشف في امكنة عديدة من الآثار الزراعيَّة وادوات

١) راجع قاموس العاديَّات اليونانيَّة والرومانيَّة لساغليو (Saglio) ك ١ ص ١٥٠١

الفلاحة كالمعاصر والاجران والرحيّ الضخمة (المشرق ٥ [١٩٠٢] : ١٠٧) والنواويس ومدافن لا يستقصى عددها منقورة في الصخور وكان الرومان كلفين بغرس الكروم فبعثوا همّة الاهلين على فلاحتها فما عتّمت صنوف الخمر اللبنانيّة ان اشتهرت في العالم الروماني فعُرفت بالخمور البيروتيّة (راجع بلينيوس ك ١٤ ع ٧ , ٩ وك ١٥ ع ١٧ , ١٨) . ومن ادلّة الزراعة انّك ترى بين اليمّونة وبعلبكّ كتابات عديدة تحدُّ الاملاك وتفرز بينها . وفي امكنة اخرى كتابات غيرها منها لاتينيّة ومنها يونانيّة يُستفاد منها تعدُّد السكّان وتوفُّر المنازل . وهذه الكتابات قد اثبتناها في مقالاتنا في مطاوي كلامنا عن كل محلّ بمفردهِ فلتُراجع . ولدينا غيرها ايضاً سنثبتها ان شاء الله عند بحثنا عن القرى الواقعة في المنعطف الشرقيّ من لبنان حيث نشأت قرى عامرة بعضها في جوار بعلبكّ وبعضها في ضواحي زحلة كفرزل ونيحا وجديتا . وممّا يجدر بنا ذكرهُ انّ كلّ هذه الكتابات والعاديّات لا تتجاوز القسم المتوسّط من لبنان اعني الى نحو ١٠٠٠ متر من سطح البحر وفي ذلك دليل على ان القسم الاعلى لم يُتَّخذ بعد للسكنى وانما كانت الغابات تكلّلهُ كما في القرون السالفة

☆

وفي اثناء ذلك ظهرت النصرانيّة ففتح ظهورها باباً جديداً للتمدُّن والحضارة في لبنان . فانّ المستعمرات الرهبانيّة التي ذكرناها سابقاً (ج ١ . ص ١٠٩) اتّخذت لبنان منزلًا لاعمالها النسكيّة وقد اختارت لذلك اقفر ما وجدتهُ من الاودية فصار النسّاك يُحيُون فيها يد الحراثة . حتى اضحت هذه المناسك بعد قليل مراكز لضياع عديدة كما جرى في اوربّة حيث ترى مدناً كثيرة كانت في اوّل امرها ديورة الرهبان أوى اليها القوم فصارت مع تمادي الايّام بلاداً واسعة

ولكن لا يسعنا السكوت عن امر يذهلنا ايّ انذهال وهو قلّة الآثار النصرانيّة في لبنان قبل القرن السابع فانك لا تكاد تجد اثرًا واحدًا منها يمكن نسبتهُ الى النصارى بلا رَيب مع كثرة العاديّات الوثنيّة الموجودة في انحاء الجبل . وكذلك ترى من الكتابات اليونانيّة واللاتينيّة قسماً صالحاً وهي كلّها لعبدة الاصنام اللهمَّ الّا خمس او ستّ منها باليونانيّة . فياليت شعري ما السبب في ذلك . أليس هذا دليلًا على ما لاقتهُ النصرانيّة في سبيلها من العراقيل لمّا حاولت ان تنشر تعاليم الخلاص

بين اهل لبنان . ولنا في تعليل ذلك سبب آخر وهو ان الفوز الاخير الذي نالهُ الدين النصراني في لبنان انَّما كان على يد قوم من الآراميين ليس من اليونان ولذلك لا تجد من الكتابات اليونانيَّة النصرانيَّة الَّا النزر القليل

فان تخطَّينا الآن الى ذكر تاريخ لبنان في القرن السابع وجدنا هذا الجبل قد دخل في طورٍ جديد بظهور المَردة والموارنة الذين لعبوا دوراً مهمَّاً في طوارئهِ المختلفة . وكان قبلهم لم يُفلَح منهُ الَّا ساحلهُ ووسوطهُ بعد تجرّدها من غاباتها امَّا لبنان الاعلى والجرد منهُ فانهُ لم يزل قفراً خالياً من السكَّان حتى أوى اليهِ الموارنة فاضحى معموراً حافلًا بالقطين كبقيَّة نواحي لبنان . وسنبيّن ان شاءَ الله قريباً كيف تركَّبت الامَّة المارونيَّة الَّا اننا نقدّم على هذا البحث فصلًا آخر في شعوب لبنان القديمة وسكَّانهِ الاوَّلين

٥ الامم البائدة في لبنان

انَّ بين الامم التي سكنت في سالف الازمنة مشارف لبنان واوديتهُ شعوباً دثر رسمهم وباد اسمهم . ومنهم من خلَّفوا لهم ذكراً كبني كنعان والفينيقيين والآراميين فاحتلّوا ربوعهُ وتوالوا في سكناه فصارت سلالتهم كنواة هذه الشجرة الكثيرة الفروع والعنصر الاصلي لسكَّان لبنان الحاليين . وليس في خاطرنا ان ندوّن هنا اساطير هذه الامم فانَّ ذلك يقتضي كتاباً ضخماً يخرج بنا عمَّا تحرَّيناهُ من الخطَّة في الكتابة وانَّما نبحث فقط عن بعض هؤلاء الشعوب الذين يهمُّنا ذكرهم ممَّن قحموا على لبنان فاستوطنوهُ كلَّهُ او قسماً منهُ ردحاً من الزمان ثم درسوا امَّا بالمهاجرة الى غيرهِ من الاقطار وامَّا بفتوح الفتاحين او باختلاط بعض بقاياهم بالعناصر الواردة الى لبنان

وهذا النظر العمومي مع قصره كافٍ ليحيط قرّاؤنا علماً باخلاط القبائل والامم الشتى التي يتركَّب منها اهل لبنان وفي بحثنا هذا نتبَّع آثار شعبٍ فشعبٍ على حسب توالي الازمنة وكرور الاجيال

١ الحثيُّون

لم يكن ذكر الحثيين مستفيضاً بين العلماء قبل اواسط القرن الماضي . وغاية ما كنَّا

نعلم من امرهم ما ورد من اخبارهم في الاسفار المقدَّسة . فانَّ ابراهيم الخليل عقد معهم عهدًا ذكرهُ سفر التكوين (ف ٢٣ ع ١٠ — ٢٠ وف ٢٥ ع ١٠) . وكذلك قد اتَّخذ عيسو بن اسحاق امرأتين من بني حثّ (تك ٣٦ : ٢) ومن نسلهم كان اوريَّا الحثّي زوج بتشابع احد قوَّاد جيوش داود . هذا الى اشارات أُخرى عديدة يلمح اليها الكتاب الكريم ويؤخذ منها ما كان عليهِ الحثيّون من عظيم الشأن وكبير الامر . على ان بعض الكتبة لم يأنفوا من انكار هذه الامور او الارتياب في صحَّتها وذلك لانهم لم يجدوا في غير الاسفار المقدَّسة ما يؤيد صدقها . وكانوا يزعمون انهُ ليس بين المؤرخين كاتب واحد ذكر الحثيين

وقد شاء الله ان تشهد الاكتشافات الحديثة لصحَّة ما ورد في كتبهِ المنزلة وهاك بيان الامر : كان بلغ علماء العاديَّات منذ اوائل القرن التاسع عشر انَّ في مدينة حماة صفائح من الحجارة الضخمة عليها كتابات تشبه بعض الشبه الكتابات الهيروغليفيَّة المصريَّة وهي تختلف عنها . ولم يتسنَّ لاحد من الآثاريين ان يفحصها فحصاً مدقَّقاً الى عام ١٨٧٢ . فلمَّا تفرَّغوا الدرسها في تلك السنة اخذ الدهش منهم كل مأخذ اذ تحقَّقوا انَّ الكتابات المذكورة للحثّيين وانْ هي الَّا الآثار الاولى التي تنبئ عن دولتهم العظمى التي امَّحى ذكرها (١ . فجعل العلماء ينعمون النظر في آثار تلك الامَّة ويبحثون عن دفائن أُخرى توقفهم على اسرارهم فما كذَّبوا ان اكتشفوا بعد زمن قليل عدَّة آثار ازالت كل الشبهة فوجدوا العاديَّات الحثيَّة متعدّدة في حلب الشهباء وفي سهل عمق شرقي انطاكية وقريباً من الاسكندرونة وفي مرعش وجرابلس على ضفَّة الفرات وفي جهات أُخرى من بلاد الاناضول . وكانت هذه العاديَّات امَّا كتابات منفردة وامَّا كتابات مع بقايا ابنية فخيمة او تماثيل او نقوش منقورة في الصخور او خواتيم وغير ذلك ممَّا أطلع اصحاب النقد على تمدُّن واسع قائم بذاتهِ . فمذ ذاك الحين دخل الحثيُّون في نطاق التاريخ ولم يعد احد يشكّ في وجودهم

ثم واصل العلماء ابحاثهم فاطلقوا رائد النظر في الكتابات المصريَّة القديمة والكتابات

---

١) راجع كتاب العلَّامة رَيْت W. Wright : *The Empire of the Hittites*
ثم الكتاب The City and the Land

الاشوريَّة لعلَّهم يجدون فيها ما يزيدهم علماً بهذا الشعب المجهول · فما كذب ظنُّهم بل اطَّلعوا على افادات عديدة تبيَّنوا منهـا اموراً لا تحصى بخصوص الحثّيين ودولتهم · ولحضرة الاب دي كارا اليسوعي فيهم مقالات مهمَّة نشرهـا تباعاً في مجلَّة الآباء اليسوعيين الايطاليَّة "التمدّن الكاثوليكي" احرزت لهُ ذكراً مستفيضاً بين المستشرقين · ومع كل ما كُتب عنهم في هذه السنين الاخيرة لا يزال العلماء يجهلون اشياء كثيرة من اخبارهم واسرار تاريخهم وسيبقى الامر كذلك ريثما لم يسعد الحظّ احداً من ارباب العلم على قراءة الكتابة الحثيَّة التي لا تزال مجهولة · ولا نظنّ احداً يقوى على قراءتها حتى يجد كتابةً بلغتين حثيَّة وغيرها تكون كمفتاح لها كما جرى لشمپوليون عند ما فكَّ اسرار اللغة المصريَّة بواسطة حجر رشيد (راجع المشرق ٣ [١٩٠٠] : ٨٩٢)

ولكن من كان يا ترى هؤلاء الحثّيون ما اصلهم مـا فصلهم ؟ نجيب انَّ الحثيين ليسوا من اهل الشام وانَّما قدموا الى سوريَّة من جهات الشمال · امَّا عنصرهم فالرأي الشائع حتى الآن انهم ليسوا من بني سام (١ · وممّا ثبت من امرهم انَّهم كانوا تولَّوا منذ القرن السادس عشر قبل المسيح البلاد الواقعة في شمالي سوريَّة بين نهرَي عفرين والفرات · ثم تقدَّموا حتى سطوا في القرن الرابع عشر على وادي نهر العاصي وسهل البقاع حتى جنوب فلسطين في جوار مدينة حبرون حيث اجتمع بهم ابراهيم الخليـل وبنوهُ من بعده

وكانت في ذلك العهد حاضرة ملكهم في سوريَّة مدينة قدَس التي يظنّ العلماء انَّ موقعهـا كان في المحلّ المعروف اليوم باسم تلّ نبي مَنْد عند بحيرة قطينة قريباً من حمص (٢ ولا نريد هنا ان نبسط الكلام في الحثيين وانما غايتنا ان نذكر مـا كان لهم من العلائق مع لبنان

---

١) راجع ما كتبهُ في هذا الشان العلّامة مسپيرو في تاريخهِ القديم (٢ : ٣٥٢) ثم دي لنتشير (De Lantsheere) في كتابهِ عن اصل الحثّيين ولغتهم ثم جنسن في كتابهِ عن الحثّيين والارمن وهو يزعم ان الحثيين قبيلة ارمنيَّة

٢) راجع مقالتنـا المعنونـة Notes épigraphiques et topographiques sur l'Emésène, p. 46



صورة احد غُزاة الحثّيين (عن اثر قديم)

وان سألتَ هل احتلّ الحثّيون هذا الجبل ؟ أجبنا انهُ ليس لدينا اثرٌ صريح ينبئ بهذا الامر ولا غروَ لأنَّهُ كما قلنا سابقًا لا نعلم الّا النزر القليل من تاريخهم واتساع دولتهم . ونرّجح كونهم ضبطوا على الاقلّ جهات لبنان الشماليَّة ولعمري كيف يقبل العقل انَّ امَّة قويَّة رجالها مغاوير حروب اتَّخذت لها عاصمةً مدينة قدَس لم تمدّ ظلّ سطوتها على شمالي لبنان وليس بينهما الّا قاب قوسين اعني سهلًا ضيّقًا فقط . ولو افترضنا انَّ لبنان في زمانهم كان عبارة عن غابات كثيفة هل اهمل الحثّيون امرهُ وفي وسعهم ان يستثمروا خشب ارزهِ الفاخر ويستخدموه لمبانيهم الكبرى وعمائرهم (١

١) راجع مقالتنا في ارز لبنان (ج ١ . ص ١٢٤)

وعلاوةً على ما تقدَّم لا يمكنّا ان نسلّم بان الحثّيين تغاضوا عن احتلال وادي النهر الكبير الذي يفصل لبنان عن جبل النصيريَّة وهم يعلمون انَّ هذا الوادي طريق للامم الفاتحة. وذلك يظهر من تاريخ الفراعنة انفسهم اذ انَّ رعمسيس الثاني لمَّا اتى لمقاتلة الحثيين سارَ الى محاربتهم مارًّا بهذه الطريق

فلا بُدَّ اذن من القول ان الحثيين بعد ان استولوا على البقاع ملكوا ايضاً عطف لبنان الشرقي والمسالك التي تفضي الى لبنان الغربي . ومما يؤيد هذا الرأي ان سهول البقاع المتوسطة كانت في تلك الازمنة القاصية عبارة عن مستنقعات مائيّة لا يمكن استيطانها فلزم اذًا الحثيين ان يسكنوا الجهات المرتفعة فوق تلك البطاح

على اننا نرى دلائل أُخرى باقية الى عهدنا تحملنا على ترجيح هذا الامر وهي اسامي عدَّة امكنة في سوريَّة تُدعى « حتَّا » او « كفرحاتا » فارتأى العلماء انَّ هذه الاسماء اشارة الى احتلال الحثيين في بلاد الشام لانَّ « حتَّا » او « ختَّا » هو اسم الحثيين نفسهُ. فان صدق هذا القول ولعلَّ فيهِ شيئاً من الصحَّة أَفليس لنا ان نقول عن القرى الموجودة في لبنان باسم « حتَّا » او « كفرحاتا » انَّها آثار باقية من زمن الحثيين. بيد انَّ هذا القول ليس بقاطع لانهُ يُمكن اشتقاق « حتَّا » من لفظة سريانيَّة « ܚܕܬܐ » التي معناها « الحديثة » او « الجديدة » ويؤيد ذلك انَّ قرى لبنانيَّة عديدة تدعى ايضاً «حدَث» و«مُحَيدثة» ونعدّ « حتَّا » اقرب الى السريانيَّة من سواها. ولسيادة المطران بطرس شبلي كلام حسن في هذا الشان اثبتهُ في المجلَّة الكتابيَّة (Revue Biblique, 1901, p. 587)

ومن الاسماء اللبنانيَّة الكثيرة الورود اسم « شغور » او « شاغور » كعين شاغور في حمَّانا وغيرها . وكذلك « جسر الشغر » او « جسر الشغور » في ولاية حلب . وقد ثبت الآن انَّ شاغور كلمة حثّية الاصل وهي فيها « ساغورة » (١

هذه آثار جمعناها هنا للاستدلال على اقدم الشعوب البائدة في لبنان وهي كما ترى خفيفة الَّا انَّ املنا وطيد ان الاكتشافات المستقبلة سوف تطلعنا على ما هو اقوى منها حجّةً وادلُّ بياناً والله على كل شيء عليم

١) راجع مقالة لحضرة الكاتب ا. شندا في مجلّة Mittheil. d. Vorderasiat. Gesell., 1902, p. 19

٢ اليونان

انتقض حبل الحثيين في الشام (ولبنان معها) بتغلُّب الفراعنة على سورية . ثم تبعهم ملوك اشور الكلدانيُّون وخلف الفرسُ الاشوريين . وكلٌّ هذه الدول بعد كسرتها تركت من آثارها شيئاً في بلادنا ولا بُدَّ ان يكون تخلَّف من تلك الامم بعض بقايا امتزجت باهل فينيقية امتزاج الماء بالراح حتى لم يَعُد يمكن افراز هذه العناصر الغريبة عن الاهلين الاصليين . وكان لبنان في عهد كل هذه الدول قليل السكّان للاسباب التي ذكرناها في مقالاتنا السابقة وان كان عدد المهاجرين اليهِ لم يزل يزداد يوماً فيوماً بتزاحم السكَّان وحراثة الآكام الواقعة عند منعطف الجبل

ولمَّا كانت اواخر القرن الرابع (ق م) ظهر ذاك البطل الصنديد والملك العظيم اسكندر ذو القرنين المقدوني فكان اوَّل ما تطالَّ اليهِ عنقهُ البلاد السورية وكان يملك عليها وقتئذٍ داريوس ملك الفرس فزحف اليها بجنودهِ بعد ان غلب اعداءهُ في سهول قيليقية قريباً من مدينة ايسُّوس فما مرَّ عليهِ بضعة اشهر حتى فتح سواحل فينيقية وخضعت لهُ دمشق ولم يقم في وجههِ الَّا صور فحاصرها مدَّة الى ان اخذها عنوةً في تمُّوز من سنة ٣٣٢

وكان في اثناء محاربة الاسكندر لصور قد اغتال بعض اجلاف اللبنانيين قوماً من اصحاب الملك فقتلوهم . فسار الاسكندر بقسم من عسكرهِ الى لبنان فلم يلقَ في وجههِ عدوًّا ثم وصل الى البقاع والجبل الشرقيّ فعاد بعد عشرة ايَّام غانماً ظافراً

وما لبث ذو القرنين بعد فتح صور حتى اخضع بلاد فلسطين ومصر ثمَّ سار الى اقاصي المشرق ففتح ما فتح ومات بعد عشر سنوات في بابل سنة ٣٢٣ ق م

فصارت سوريَّة من بعده الى احد قوَّادهِ سلوقوس نيقاطور فتملَّكها وألحق لبنان بها فدخل هذا الجبل تحت حكم السلوقيين الى ايَّام الرومان

وهنا مبحثٌ مهمّ لم نكن لنتعرَّض لهُ لولا انَّ بعض المحدثين استندوا الى حجج واهية ليؤيّدوا زعمهم الباطل

ودونك القضيَّة المطلوب بيانها هل يا تُرى لمَّا استوى اليونان على جبل لبنان غلب العنصر اليونانيّ العنصرَ الفينيقيّ او الآراميّ بحيث يصحُّ القول انَّ اليونان من الامم التي استوطنت لبنان

نجيب على هذا القول بالاجمال انَّنا بيَّنا غير مرة انَّ العنصر المتغلّب على سوريَّة في عهد اليونان كان العنصر الآراميّ لا اليونانيُّ (راجع المشرق ٣ : ٢٦٨) · فان صدق ذلك عن سوريَّة عموماً فهو اصدق واحقّ عن لبنان خصوصاً فلأنَّ آراميَّة سكَّانهِ في ايَّام الدولة اليونانيَّة اوضح من النهار

وكأني بالمعترض يستوقفني هنا ليردّ على هذا القول بدليلين على زعمهِ مقنعين اوَّلهما اسماء اعلام الامكنة وثانيهما الكتابات اليونانيَّة في لبنان

نجيب على الاعتراض الاوَّل انَّنا اذا استثنينا بعض امكنة من سواحل فينيقية او من مستعمرات اليونان (راجع المشرق ٣ : ٢٧٠) لا نكاد نجد اسم قرية في لبنان مشتقّ من اليونانيَّة بل اكثر الاسماء ان لم نقل كلّها آراميّ محض مع بعض اسماء عربيَّة احدث عهداً · وترى المعابد الكبرى نفسها كدير القلعة والمشنقة التي فُقدت اسماؤها الآراميَّة لا نعرف لها اسماً يونانياً · ومما لا مراء به انَّ المدن الساحليَّة التي صحَّف اليونان اسماءها الآراميَّة عادت بعد حين الى اسمائها الاصليَّة

امَّا الاعتراض الثاني المستند الى الكتابات اليونانيَّة التي وُجدت في لبنان فانهُ يظهر لاوَّل وهلة اقوى حجةً وادلّ بياناً ولكن اذا سبرناهُ بمعيار الانتقاد وجدناهُ واهناً كالاعتراض السابق ولا يثبت البتَّة زعم المحتجّ

لا ننكر وجود الكتابات اليونانيَّة في لبنان وقد اسعدنا الحظّ على اكتشاف كثيرٍ منها ابرزناها الى عالم الوجود في المجلّات الاوربيَّة · لكن مجرَّد وجود الكتابات اليونانيَّة في محلٍّ ما لا يدلُّ على كون اهل هذا المكان من اليونان · نرى اليوم في لبنان عدَّة كتابات تركيَّة او افرنسيَّة على بعض المباني المستحدثة فهل يستنتج احدٌ من هذه الخطوط انَّ اهل لبنان من العنصر التركيّ او الفرنسيّ ؟ وكذلك في لبنان عاديَّات وكتابات لاتينيَّة كثيرة من عهد الرومان فمن يا تُرى زعم لاجل ذلك انَّ اهل لبنان كانوا رومانيين · وغاية ما يُستدلُّ من الامر ان الرومان ملكوا لبنان او انَّ بعض أُسرات منهم احتلَّت بعض انحاء الجبل لترويح النفس كما يفعل اليوم كثير من الاوربيين. فكذلك الكتابات اليونانيّة انَّما تدلُّ على انَّ اللغة الرسميَّة كانت في ذلك العهد لغة اليونان وانَّ بعض وجهاء اللبنانيين جنحوا الى آداب اليونان ولغتهم كما يتفرنج اليوم ابناء الوطن فلا يتكلّمون بغير اللغة الفرنسويَّة ولا يكتبون الَّا بها

فدليل الكتابات وحدهُ لا يجدي اذًا نفعًا لبيـان عنصر أمَّةٍ ما اللّهمَّ الَّا بان يضاف الى ادلَّة أخرى تاريخيَّة وضعيَّة تزيل الشبهات. وقد لحظ ذلك احد علماء عصرنا وهو نُلدكه الشهير (١ قال : « انهُ لا يجوز الاستنـاد على مجرَّد وجود كتابات في احدى اللغات او عدم وجودها للقول بان اهل ذلك البلد كانوا من ذلك العنصر او لا ». مثال ذلك مدينة بيروت التي لم يُلقَ فيها حتى الآن كتابـة فينيقيَّة أفيسوغ ان نقول انَّها لم تكن فينيقيَّة ؟ كلَّا. وكذلك لبنان ساء من زعم ان اهلهُ كانوا يونان او رومان لوجود كتابات قديمة فيهِ من عهد هاتين الدولتين

وعلاوةً على ما تقدَّم انَّنا نرى الكتابات اليونانيَّة المكتشفة في لبنـان مشحونةً بالاغلاط مشوَّهة بالتصحيفات غير تامَّة المعاني وكلُّ ذلك دليل على انَّ النُّسَّاخ والحفَّارين كانوا يرسمون الالفاظ رسمًا ماديًّا وهم لا يدركون معانيها (ج ١ ص ١٢٧)

وان قال قائلٌ انَّ اعلام الاشخاص المرسومة على هذه الآثار يونانيَّةٌ اجبنـا مع اكبر العلماء باحوال الروم وهو العلَّامة الشهير مُمْسِنْ (Mommsen) في تاريخهِ (٢ : « انَّ اغلب هذه الاسماء ليست يونانيَّة او ان كانت يونانية ترى معها الاسم الفينيقيَّ او الساميَّ الذي كان يُعرَف بهِ الشخص » . وفي هذا القول بيِّنة واضحـة على انَّ اليونانيَّة لم تكن سوى مسحةٍ ظاهرة وزيّ خارجيّ تزيَّا بهِ اهل لبنان حبًّا بالجاه وتشبُّهًا بمتأدبي ذلك العصر

ولعلَّ المعترض يزيد على ما سبق اعتراضًا ثالثًا بقولهِ : « ان قيام معبودات اليونان مقام آلهة فينيقية والشام دليل على تغلُّب اليونان » . اجبنا ان هذا البرهانَ والحقَّ على طرفي نقيض. فانهُ لا يوجد بلدٌ حافَظَ اهلهُ على معبوداتهِ القديمة مثل لبنان والشام فانَّ الدين الآراميَّ والفينيقيَّ صبر على كل التقلُّبات السياسيَّة الى ان غلبتهما النصرانيَّة. وكلُّ ما يمكنَّنا ان نسلّم بهِ من هذا القبيل ان بعض اسماء الآلهة الفينيقية برزت على صورة يونانيـة في لفظها . وكذلك اطلق الكتبَة اليونان واصحاب الامر على هذه

١) راجع المجلَّة الاسيوية الالمانيَّة ZDMG, 1885, p. 333

٢) راجع Roem. Geschichte, V, 453



تمثال المشتري (بعل) البعلبكيّ في دير القلعة

الالهة اسماء غريبة فدعوا هذا «جوبتير» وذاك «ابولون» اما الاهلون فحافظوا على اسماء آلهتهم بكل حرص حتَّى انَّ المؤرخ مُمسِن السالف ذكرهُ بيَّن في تاريخهِ (ج ٥ ص ٤٥٢) ان اهل سوريَّة لم يختلطوا باليونان الَّا اختلاطاً سطحيًّا واثبت ذلك بانَّهم حافظوا على اديانهم الخصوصيَّة في حلب وافامية وحمص وتدمر . وكذا قُل عن دير القلعة حيث شاعت عبادة بعل مرقد . وهذا البعل كان مشهورًا وقد ورد اسمهُ في الكتابات اللاتينيَّة على لفظ «جوبتير» لا لكونهِ الهاً رومانيًّا بل مراعاةً للدولة واستجلابًا لخاطر اليونان والرومان واستدرارًا لعطاياهم اذ كانوا يحجُّون اليهِ . ولعلَّ سدَنة بعل مرقد سمَّوهُ ايضاً بهذا الاسم دلالةً على امانتهم للسلطة الرومانية واعتصامهم بحبلها . ولذلك

ترى بعل بعلبك وبعل دير القلعة ملقّبين في الكتابات بالقاب جوبتير رومية العظمى المعروف «بجوبتير كابيتولان» فيُدعيان مثلهُ بالاله الصالح الاعظم (Jupiter optimus maximus) وكذلك ترى إلهةً سامية ملقّبة باسم إلهة الرومان «جونون الملكة (١ » (Juno regina)

وقد رسمنا هنا صورة تمثال جوبتير بعلبكّ الذي اكتشفهُ حضرة الاب رنزفال في دير القلعة لترى كم يختلف الإله الفينيقيّ عن الإله الرومانيّ في الصورة والهيئة (انظر الصورة في الصفحة السابقة)

واذا عدلت الى هيكل افقا وجدت كذلك عبادة عشتاروت الفينيقيّة مستترة برداء الإلهة الزُهَرة اليونانيّة وان كانت كل واحدة مختلفةً عن الاخرى. وذلك يظهر من شعارها الذي لا يشبه في شيء شعار إلهة اليونان

وما قلناهُ عن العنصر الآرامي في لبنان يصحّ ايضًا عن لغتهم الدارجة فانّها كانت الارامية. وهو رأي المؤرخ الشهير مُمْسِن اذ قال (ص ٤٥٢) : « اني اظنّ انّ اللغة الآراميّة كانت اللغة السائدة دون غيرها في لبنان على عهد قياصرة رومية » . وان نسب احد هذا الكاتب الى الغلوّ والمبالغة ورأى انهُ بخس حقوق اليونانيّة في الشام تصدّى لهُ احد ائمّة العلماء المبرزين وهو نلدك الالمانيّ الذي ليس فقط يوافق وطنيَّهُ مُمْسِن بل وجد انهُ مقصِّر في حقوق الآراميَّة وقد اتى مصداقًا لقولهِ بحجج تثبت شيوع الآرامية بحيث لا يبقى بعدها ريب (٢

ثم ولو سلّمنا بان اللغة اليونانيّة طمست في لبنان آثار اللغة الآراميّة فلا ينتج من ذلك انّ اصل اللبنانيين يونانيّ . وليست اللهجة وحدها كافية لتعريف الاصل . وانّما ذلك دليل يُقتضى تأييدهُ بدلائل أُخرى تجلي الحقيقة وتوضحها . فانّ التاريخ ينبئ بوجود امم عديدة تكلّمت بلغة غير لغتها الاصليّة . فانّ اللاتينية مثلًا درجت بين شعوب شتّى لم يكن بينها ادنى علاقة. وقس عليها العربيّة وغيرها

وخلاصة القول انّ العنصر اليونانيّ كان دائمًا في لبنان عنصرًا زهيدًا لا يُعبأ بهِ . ونستميح القارئ عذرًا على انّنا اطلنا القول في هذه القضيّة التي لا يختلف فيها اثنان بين علماء العاديّات

١) Beitraege z. alten Gesch., II, 196 ٢) راجع ZDMG, 1885, 332-351

٣ الايطوريُّون

سبق لنا القول (ج ١ ص ١٤٤) انّ الرومان لمّا فتحوا الشام وجدوا لبنان في حوزة قوم من الغزاة كانوا عشّشوا في جبالهِ الساحليَّة الممتدَّة من طرابلس الى جبيل . وهم الايطوريّون

وليس هؤلاء القوم من لبنان وانما اصلهم من اللجأ ومن جبال حوران وكانوا ذوي بأس وطمع فتحاملوا على الجبل الشرقي واتّخذوا خيراتهِ كطعمةٍ ثمَّ تشوَّفوا الى لبنان فاستولوا عليهِ قبل زمن الدولة الرومانيَّة بقليل

والايطوريّون احدى القبائل العربيَّة او الاراميَّة (١ التي كانت مذ ذاك العهد مدَّت ظلَّ سطوتها على البلاد الواقعة في جنوبيّ دمشق وشرقيّها . وكان شيخ القبيلة اوانئذٍ يدعى بطلميوس ابن منَّايوس من اعظم اهل سوريَّة ثروةً وقدرًا . وكان يحكم على بلد الايطوريين الاصليّ (٢ ويتولَّى الجبل الشرقيّ وجهات البقاع الشماليَّة مع مدينتي بعلبكّ وكَلسيس (Chalcis) وكان لهُ عسكرٌ من الفرسان يبلغ عددهُ ٨٠٠٠ فارس

ولمَّا زحف پمپيُّوس على لبنان وجد طرابلس وما يجاورها من لبنان الشمالي (٣ في قبضة احد الايطوريين من قرابة بطلميوس بن منَّايوس يُدعى ديونيسيوس . فاضطُرَّ الرومان لتوطيد دعائم سلطانهم ان يحاربوا هؤلاء الدخلاء حربًا عوانًا كانت نتيجتها وبالًا على اهل ايطوريَّة فاسر پمپيُّوس قائدُهم ديونيسيوس وأمر بقطع رأسهِ ثم توغل في لبنان فاخرب حصون جيغرتا وسنَّان و بوروما (٤ وكان غزاة الايطوريين يقحمون من هذه المقامات المنيعة على المدن الساحليَّة فيوسعون اهلها نهبًا وقتلًا . وقد حاولنا في مقالاتنا السابقة ان نبيّن مواقع هذه الحصون فلتُراجع

١) كل الاعلام الايطوريَّة الاصل الواردة في الكتابات القديمة امَّا عربيَّة وامَّا آراميَّة . راجع مجموع الكتابات اللاتينيَّة (CIL, III, n° 4371 etc.) راجع ايضًا تفاصيل اخبار الايطوريين في معجم الكتاب المقدَّس (Vigouroux : *Dict. de la Bible*, art. *Iturée*) ٢) ايطوريَّة الاصليَّة توافق بلاد اللجأ وجيدور الحاليَّة . وقد ورد ذكر ايطوريَّة في انجيل لوقا (٣ : ١)

٣) اعني ما يشمل اليوم قائمقاميَّات الكورة والبترون وقسم من بلاد جبيل

٤) ان صحَّ قولنا عن وقوع سنَّان و بوروما في كسروان فيكون ملك الايطوريين بلغ هذه المعاملة ايضًا

وقد حارب بمپيّوس مدينة كلسيس الايطوريَّة فدمَّرهـا · وكلسيس على الرأي الراجح هي مدينة عين جرّ التي تُرى اخربتُها في سهل البقاع · امَّا قول البعض انَّها هي زحلة فلا نصيب لهُ من الصحَّة كما سنبيّنهُ في كلامنا عن هذه البلدة

وخلاصة القول انَّ الآثار تنبئنـا بامتداد سلطة الايطوريين في قسم كبير من لبنان الشماليّ · ولمـا انتصر الرُّومان عليهم وفتحوا معاقلهم تقلَّص ظلُّهم وباد ذكرهم من التاريخ ولا رَيب انَّ بقاياهم امتزجت باهل لبنان

وممَّا يدلّ على وجود الايطوريين في لبنـان ما وجدنا في الكتابات اليونانيَّة من الأَعلام العربيَّة لاسيَّما في رأس الشقعة والنخاء جبيل

وليس الايطوريّون القبيلة العربيَّة الوحيدة التي دخلت في عداد اهل لبنان · بل نجد قبائل غيرها توطَّنت ذلك الجبل لاسيما التنوخيين (١ · وهذا الامر مهمّ لمعرفـة عناصر اهل لبنان نكتفي اليوم بالاشارة اليهِ فقط

٤ الرومانيُّون

استفدنا من الفصل السابق ان الجيوش الرومانيَّة قهرت الايطوريين في لبنـان وكسرت شوكتهم · ولسائلٍ ان يسألنا وهل احتلَّ الرومان في لبنان فاستعمروه ؟ اليس وجود الكتابات اللاتينيَّة المتعدّدة في هذا الجبل دليـلًا على سكناهم فيهِ ؟ نقول انَّ جوابنا عن توطُّن الرومان في لبنان كجوابنا عن اليونان وقد اثبتنا ان الكتابات اليونانيَّة وحدها لا تدلُّ على انَّ اليونان استخاروا لبنان لسكناهم · فهكذا قُل عن الرومان فان الكتابات اللاتينيَّة تشير الى تملّكهم على الجبل وتدلُّ على انّ اللغة اللاتينيَّـة اضحت اللغة الرسميَّة في بلاد الشام في القرن الاوَّل السابق لعهد المسيح والقرنين التابعين لهُ

هذا ولا ننكر انّ بعض الرومان وخصوصاً اصحاب مستعمرتي بيروت وبعلبـكّ الرومانيين كانوا يملكون في لبنان اقطاعات كثيرة من جملتها املاك الايطوريين لكنّ الرومان في الغالب لم يتولّوا بانفسهم زراعة هذه الاملاك وانَّما كانوا يعهدون امرها الى

---

١) جاء في كتاب البلدان لليعقوبيّ انَّ لبنان المجاور لصيداء كان يسكنهُ قوم من قريش ومن اهل اليمن (راجع المجلَّة الالمانيَّة الفلسطينية ZDPV, IV, 87)

شركاء وطنيين يقومون بشؤونها ويستثمرونها باسمهم · وان وُجد منهم احد في لبنان فالصواب ان يقال انّهم كانوا نفرًا قليلًا · ومن ثمَّة لا يجوز ان ننظم الرومانيين بين الشعوب اللبنانيَّة القديمة

٥ المرَدَة

في بُهرة القرن السابع اعني سنة ٦٧٧ م يذكر مؤرخو اليونان لاوَّل مرَّةً قومًا يجعلون سكناهم في جبال الشام من جبل اللكَّام شمالًا الى حدود فلسطين جنوبًا وهم يدعونهم مردانيّين ويعرفهم المحدثون باسم المرَدَة · ومن غريب امر هذا الشعب انهُ لم يبدُ في بادئ ذي بدء ضعيفًا ضئيلًا بل نراه جاثمًا فوق مشارف لبنان ضابطًا مضايقهُ شاغلًا كلَّ نقطهِ الحصينة على مدى طولهِ من الشمال الى الجنوب وليس من يقوم في وجههِ بل كثيرًا ما ينقضُّ من مراكزه الحريزة فيغزو المعاملات القريبة منهُ دون ان يردّ احد هجماتهِ · ولم يزل امر هؤلاء المرَدَة في اشتداد حتى صار كلُّ الملهوفين والمطرودين من اهل الوطن واصحاب الفاقة يلتجئون اليهم ويلوذون بحمايتهم ويزيدونهم عددًا وقوَّةً · ولا غروَ انهم لو ثبتوا مدَّة على ذلك لأتوا بالاعمال الخطيرة لولا انَّ ملوك الروم الذين كان المرَدَة يخضعون لهم امروهم بالخروج من لبنان بعد ظهورهم فيهِ ببضع سنين فاندثر امرهم على فورٍ كما ظهروا بغتةً دون ان يبقوا في لبنان اثرًا من مرورهم (١

فمن ذا تُرى هذا الشعب ؟ كيف ظهر فجأةً دون ان يذكر احد وجودَهُ في بلاد الشام ولبنان سابقًا ؟ أنَّى خرج ؟ هذه اسئلة اقترحها قبلنا العلماء وحاولوا حلَّ عقدتها · وممَّا يدلُّ على ان الامر ملتبس عويص ان العلماء ذهبوا في ذلك مذاهب شتَّى ندوّنها هنا دون ان نبدي فيها رأيًا تاركين لقرّائنا ان يصوّبوا الرأي الذي يرونهُ اصحّ واثبت

ولا بُدّ قبل بسط هذه الآراء المتباينة ان نروي اقوال الكتبة الاوَّلين الذين ذكروا المرَدَة مباشرةً لانَّ اقوالهم من شأنها ان تعرّف هذه الطائفة وتبيّن خواصّها

---

١) زعم رينان في كتاب بعثة فينيقية انَّ قلعة سمَر جبيل من آثار المرَدة في لبنان وهو قول بلا دليل عوَّدنا على مثلهِ هذا الكاتب الذي يتَّخذ مخيّلتهُ حجَّةً لمزاعمهِ · وقد بيَّنا غير مرَّة انهُ كثيرًا ما يرمي الكلام على عواهنهِ ولا يسندهُ الى الادلَّة

يؤخذ من اقدم ما ورد عن المَرَدَة ان لبنان لم يكن مركزهم الاوّل. قال المؤرخ تاوفانوس عنهم (١ : « انَّ المَرَدَة دخلوا لبنان » . (εἰσῆλθον εἰς τὸν Λίβανον) وفي هذا القول ما لا شبهة فيهِ عن مجيئهم الى لبنان من محلّ آخر. ثم اردف تاوفانوس قائلًا : « والتجأ اليهم الوطنيّون » وفي هذا دليل على انَّ المردة لم يكونوا من اهل لبنان بل غرباء عنهُ . امَّا عددهم فكان وافرًا يبلغ « اثني عشر الف رجلٍ » شاك السلاح دون النساء والاطفال . وممَّا يدلُّ على بطشهم انهم في مدَّة اقلّ من نصف قرن ملأوا القلوب رعبًا بغزواتهم المتواصلة

والمؤرخون اذا اشاروا الى المَرَدَة دعوهم بلفظة عسكريَّة وهي τάγμα يراد بها فرقة من الجند او الطابور . واسمهم هذا دليل على انَّهم لم يكونوا شعبًا كبقيَّة الشعوب بل كانوا على هيئة عسكريَّة ونظام حربيّ يفلحون الارض وقت السلم وهم على أُهبة لمباشرة الحرب في ايَّة ساعةٍ كانت . ولنا مثَل على هذا التنظيم في امَّة الكرواتيين التي كانت في القرن الثامن عشر تحافظ على حدود النمسا في جنوبيها . وكان للرومان ايضاً فئات عسكرية من هذا الصنف كانوا يقيمونها عند ثغور مملكتهم فيدعونهم لاجل ذلك بالفئات الحدوديَّة (limitanei) اعني انهم يذبّون عن الحدود ويدفعون عنها الاعداء . وكان اولادهم يرثون تلك الاملاك من بعدهم ويجرون مجراهم في الدفاع عن ثغور الدولة . وكان الرومان يختارون لمثل هذا المشروع قدماء الجند المحنَّكين في آداب الحروب ثمَّ وكلوا ذلك بعدئذٍ الى بعض اهل البلاد المجاورة لحدود المملكة (٢

وان سألت عن الدولة التي كان المَرَدَة يخدمونها اجبناك انَّهم كانوا تحت حكم ملوك الروم فهم الذين تقدَّموا اليهم بالمدافعة عن الثغور الشاميَّة وهم الذين صرفوهم عنها وانزلوهم في نواحي آسيَّة الصغرى كما سيأتي

فهذه الافادات عن المَرَدَة لا ريب يقرُّ بصحَّتها كلُّ المحدثين لانها وردت في

---

١) راجع تاريخهُ في مجموع الآباء اليونان المجلّد ١٠٨ (PG. T. 108, p. 722, 733, 737,) والترجمة اللاتينيَّة هنا لا تؤدي المعنى تمامًا فقد ترجم « aggressi sunt » اي « هجموا » بدلًا من « ingressi sunt » اي « دخلوا » ٢) راجع معجم العاديَّات اليونانيَّة والرومانيَّة Saglio et Darenberg : *Dict. des antiquités grecques et latines*, I, 1374

تواريخ مشاهير الكتبة الذين عرّفوا هؤلاء القوم ووصفوا احوالهم

ولكن هنا مسألة أُخرى لا يتّفق فيها ارباب العلم نريد اصل المردة وجنسيّتهم ·
فقد ارتأى بعض الائمّة ومنهم العلّامة السمعاني والحاقلاني ومرهج بن نمرون والدويهي
ومن تبعهم من علماء الموارنة وبعض الكتبة الاوربيين كبارونيوس ولوكيان وغيرهما انّ
المردة هم الموارنة · واقوى حججهم لبيان ذلك انّ المَردَة كانوا قوماً من النصارى
يسكنون لبنان ولا نعرف في القرن السابع شعباً يدين بالنصرانيّة ويسكن لبنان غير
الموارنة · وان اعترض معترضٌ على اصحاب هذا الرأي بقولهِ انّ المردة كانوا فرقةً جنديّة
موفدة من ملوك القسطنطينيّة الى بلاد الشام انكروا الامر قائلين لو كان المردة
طائفةً من الجند لخرجوا من لبنان بعد انعقاد الصلح والامر ليس كذلك فانّ المؤرخين
يذكرون انّهم داوموا غزواتهم بعد الصلح الذي عقدهُ يستنيان الثاني وانهم لم يكفّوا
عن عاداتهم حتى ابرم هذا الملك معاهدةً ثانيةً وارسل الى المردة عصبةً تصرفهم من
لبنان بالوعد والوعيد الى بلاد الارمن حيث كان الملك وقتئذٍ (١ · فهذا الاحتجاج لا
يخلو من القوّة وهو يبيّن ما في هذا البحث من المعضلات

امّا اصحاب الرأي الآخر فينكرون توحيد المَردَة والموارنة ويسندون رأيهم الى
كون المَردَة ليسوا وطنيين كالموارنة بل غرباء عن لبنان اتوهُ من الخارج كما سبق القول
ثم استولوا عليهِ فحصّنوهُ في وجه العدوّ مدّةً الى ان برحوهُ بعد زمن قليل

وممّا يدعم بهِ هؤلاء رأيهم في اختلاف المَردَة عن الموارنة ان المَردَة كانوا خاضعين
لملوك الروم · قال ابن العبريّ في تاريخهِ السريانيّ (ص ١١٥) : « ان المَردَة جنودٌ
للملك قسطنطين اللحياني ارسلهم الى الشام المدافعة عنها » · وكل هذا لا يوافق
الموارنة الذين خلعوا عنهم ربقة ملوك الروم كما يظهر من تواريخهم ومن تصرُّفهم مع
ملوك بوزنطية والملكيين انصارها

ويزيد اصحاب هذا المذهب الثاني انّ كلام تاوفانوس وقدرينوس (Cedrenus)
وغيرهما ممّا ينفي عن المَردَة اصلهم اللبنانيّ · والمردة على قولهم كانوا قبل دخولهم في لبنان
يقطنون بلاد الارمن وولايات آسيّة الصغرى واليها رجعوا بعد غزواتهم في لبنان · وقد

١) راجع ردود المثلّث الرحمات المطران يوسف الدبس على الاب الصمودي قاليه (ص ٤)
ورسالته الينا في المشرق (٥ [١٩٠٢] : ٩١٤)

كتب احد علماء الفرنج اسمهُ انكتيل دوپارون (Anquetil-Duperron) مقالتين مطوَّلتين في مجلَّة الكتابات والفنون ليثبت ان المرَدَة من الشعوب التي كانت قبل المسيح وانهم هاجروا الى بلاد عديدة في ممرّ الاجيال ومنهم مرَدة لبنان ومن ثمَّ ليسوا بالموارنة (١

وان سألت الذاهبين الى هذا القول : وما هي على رأيهم جنسيَّة المردة . اجابك بعضهم انَّهم اصلاً قبيلة ايرانيَّة دخل فيها اخلاطٌ من عناصر سوريَّة وارمنيَّة (٢

والاب مرتين في كتابهِ المخطوط « تاريخ لبنان » يقول انَّ المردة من العرب وهو يشتقّ اسمهم من « التمرُّد ». وهذا رأي ضعيف لان المردة لم يأتوا من جزيرة العرب ولا من جهة الشرق وانما دخلوا لبنان قادمين من الشمال . وهذا مما يرجّح رأي القائلين بان المردة اتوا لبنان من جهة آسية الصغرى . ثم لم يُفِدنا احد من المؤرخين عن دخول العرب الى لبنان في القرن السابع . وان قال القائل انَّ هؤلاء كانوا من نصارى غسَّان من الذين استعان بهم ملوك الروم اجبنا ان الغسَّانيين لم يخدموا اوانئذٍ ملوك القسطنطينيَّة خدمةً تُذكر بل لم يلبثوا ان انحازوا الى العرب مواطنيهم وكلُّ ذلك يخالف ما جاء عن المردة في كتب المؤرخين . وعلاوةً على ذلك انَّ الغسَّانيين كانوا من اليعاقبة وفي عهد المرَدة كان ملوك الروم يطاردون هذه الشيعة ولم يكن المردة من قبيلة عربيَّة أُخرى لانَّ العرب كانوا في ذلك العهد من ألدّ اعداء الروم فليس المردة اذن عرباً

هذا ومن المقرَّر الثابت انَّ ظهور الموارنة كأُمَّة مستقلَّة قد اتَّفق مع عهد حروب المردَة في لبنان . وان لم يسلّم القرَّاء بان الموارنة هم المرَدة فانَّهُ لا سبيل الى النكران بانهُ وجدت بين الفئتين علاقات وديّة . وممَّا يتَّضح ايضاً من تاريخ ذلك العصر انَّ الموارنة عند خروج المردة من لبنان لم يتبعوهم في مهاجرتهم الى آسية الصغرى بل ثبت معظمهم في جبالهم

امَّا المردة فجعلوا بعد عودتهم سكناهم في وطنهم القديم بلاد الارمن . ونزل منهم من قطن في جوار اضالية . ورحل قسم منهم الى جزيرة قبرس واحتلّ غيرهم بلاد اليونان

١) راجع Anquetil - Duperron : *Mémoires sur les migrations des Mardes* Mém. Acad. Inscr., T. XLV, 87 et L. 1 *et seqq.*

٢) راجع تاريخ دولة الروم Rambaud : *L'Empire Grec au X^e Siècle,* p. 213

ومورة ونواحيها . ولم يزالوا في كلّ هذه البلاد على نظامهم العسكري وكان لهم ضبّاط يدعونهم كاتيبانو (κατεπάνω) . هذه خلاصة ما ورد في امر المَرَدة ومن استزاد امكنهُ ان يراجع ما كتبهُ عنهم قدرينوس (ك ١ ص ٧٦٥ و ٧٧١ طبعة بون) وزوناراس في مجموع اعمال الآباء اليونانيين (ج ١٣٤ ص ١٢٩٧) وتاريخ قبرس (ج ١ ص ١٠٦) للعلّامة ماس لاتري (Mas-Latrie) والسمعاني في المكتبة الشرقيَّة ومجلّة اصداء الشرق (١٩٠١ ص ١٥٦) وساخاس (Sachas : Μεσαιωνίκη βιβλιοθήκη, II, 45 seqq.)

٦ الجراجمة

قد رأى القرّاء ما في مسألة المَرَدة من المعضلات التي لم يحلّها حتى الان فطاحل العلماء (راجع الصفحة ٤١ والمشرق ٥ : ٩١٤) على انَّ هذا المطلب يقودنا الى بحثٍ آخر لهُ معهُ بعض العلاقة نعني بذلك امَّة الجراجمة

يفيدنا التاريخ ان في القرن التاسع قبل الميلاد كانت في شمالي غربي سورية مملكةٌ صغرى تدعى جرجومة عاصمتها مرعش . والمرجَّح انَّ هـذه الدولة أُنشئت من بقايا دولة الحثيين البائدة (راجع ص ٢٩ من هذا الجزء) خلفتهـا في ولاية قسم من بلادها في زمنٍ لا يمكن تعريفهُ بالتدقيق . بيد اننا نعلم ان اهل هذه المملكة لم يكونوا من عنصر آرامي لان دولة الآراميين لم تمتدّ الى تلك الجهـات على الاقل في الجيل المذكور . واسم الجراجمـة واردٌ في الكتابات الاشوريَّة التي تفيض في احوال هذا الشعب والتقلّبات التي طرأت عليهِ . ولا نجد بعد الآثار البابليَّة ذكرًا للجراجمة الى عهد المردة في لبنان اعني القرن السابع للمسيح

قال البلاذري في كتاب فتوح البلدان (ص ١٥٩ — ١٦٣) في مطاوي كلامهِ عن فتح العرب لبلاد الشام : « انَّ الجراجمة من مدينةٍ على جبل اللُكّام عند معدن الزاج فيما بين بيّاس و بوقا (١ يقال لها الجرجومة » فيظهر من هذا القول انَّ الجراجمة لم يلبثوا ساكنين في المكان الذي اشارت اليهِ كتابات الاشوريين قبل خمسة عشر قرنًا الّا انهم كانوا منحصرين في قسم من اللكّام (ألما داغ) بين مدينة بيّاس الساحليّة ونهر قراسُو . وكانت مدينتهم الكبرى التي منها اتّخذوا اسمهم لا تزال تدعى جرجومة

١) لم نجد في كتب البلدان لجغرافيّي العرب ما يعرّفنا بموقع بوقا الّا كونها من عمل انطاكية

ثم يذكر البلاذريّ تاريخ الجراجمة على مألوف عادته في ذكر غيرهم من الشعوب القديمة فترى في كلامهِ بعض الابهام لانهُ يروي في حقّهم الروايات المختلفة التي جمعها دون ان يكدّ ذهنهُ في ثبات صحّتها او التوفيق بينها . الّا انّ الذي يتروّى في كلامهِ ويقابل بين هذه الروايات الشتّى يأخذهُ الانذهال لما يجد بين اخبار الجراجمة والمرَدة من التشابه . فان ما ذكرهُ المؤرخون اليونان عن قدوم المرَدة من شمالي سوريّة الى جنوبها وعن احتلالهم جبل لبنان وسكونهم في جوار حمص وبعلبك ودمشق قد رواهُ البلاذري عن الجراجمة على عهد الخليفة الامويّ عبد الملك وهو على وشك السير الى بلاد العراق . ثم اردف البلاذريّ قولهُ بقولهِ : « وَضوَتْ اليها (اي الروم) جماعة كثيرة من الجراجمة وانباط وعبيد أباق من عبيد المسلمين » . وهو كلامٌ ينطبق على قول المؤرخ تاوفان في المرَدة كانّ المؤرخين اليونانيّ والعربيّ سندا قولهما الى رواية واحدة لا تكاد تختلف حتى في اللفظ

ثم ينتهي امر الجراجمة في تاريخ البلاذري كما ينتهي امر الردة في تاريخ تاوفان اعني بعقد معاهدة بين الخليفة الامويّ وملك الروم . وكان من نتيجة ابرام الصلح كما روى البَلاذريّ (ص ٢٦٠) أن « تفرّق الجراجمة بقرى حمص ودمشق ورجع اكثرهم الى مدينتهم اللكّام » وهي ايضاً رواية شبيهة برواية تاوفان عن تفرُّق المردة ورجوعهم الى وطنهم . امّا مدينة جرجومة فخربت بعد ذلك بزمن قليل

ومما روى ايضاً البلاذريّ (ص١٦١) في تاريخ سنة ٨٩ ه‍ (٧٠٨م) انّ « الوليد بن عبد الملك وجّه الى الجراجمة مَسلَمَة بن عبد الملك فافتتح مدينتهم على ان ينزلوا بحيث احبّوا من الشام وعلى ان لا يُكرَهوا على ترك النصرانيّة ولا يؤخذ منهم جزية . . . اما بطريقُهم فنزل في جماعة معهُ انطاكيةَ ثم هرب الى بلاد الروم». وجاء في فتوح البلدان ايضاً ان الخلفاء اجروا الارزاق على هؤلاء الجراجمة واستعانوا بهم في حروبهم (١ وما ذلك الّا لانّ موقع بلادهم كان في جبال ومضايق تجري فيها صوائف العرب عند نفوذهم في بلاد الروم . وكلُّ هذه التفاصيل التي ذكرها البلاذريّ لا نكاد نجد لها اثرًا في كتبة العرب اللهمَّ الّا ياقوت في كتاب معجم البلدان في مادّة « جرجومة »

---

١) راجع فتوح البلدان (ص١٦١) . ومعجم البلدان لياقوت في مادّة جرجومة

وهو ينقل هناك شيئًا ممّا اثبتهُ البلاذريّ . ويظهر من كلام ياقوت ان الجراجمة في زمانهِ كانوا امتزجوا بغيرهم من الملل وان جرجومة عاصمتهم لم تزل خرابًا . وفي تاريخ حمزة الاصفهانيّ (ص ٣٩) ورد ذكر « مَن بالشام وفلسطين من الجرامقة (١ والجراجمة »

ولا بُدَّ ان يسألنا القارئ هنا عن رأينا في الجراجمة أيكونون من المَردة او يمتازون عنهم . (قلنا) انَّ ما يوجد من الاتفاق بين احوال المردة وامور الجراجمة من حيث موقع بلاد الفريقين وبسالتهما في الحروب وتواريخهما يحملنا على ان نطابق بينهما . ولا غروَ فانَّ اعظم المستشرقين في المانية وهو العلّامة نُلدِك (Noeldeke) يؤكد لنا ان العرب في تواريخهم يدعون المردة باسم الجراجمة وانَّ كليهما امّة واحدة (٢ ونحن ايضًا نصادق على كلام هذا الكاتب الثقة بعد التروي في ما كتب بهذا الصدد وان كنا نجد في اقوال البلاذريّ بعض الإشكال الّا انّ ذلك من الامور العرضيَّة دون الاصليَّة

فان صحّ هذا القول نتجت عنهُ نتائج في امر المَردة لم ينتبه اليها الكتبة الاقدمون منها ان هؤلاء القوم لم يكونوا من اهل لبنان الاصليين بل قدموا اليها من شماليّ سوريَّة اذ انّ الجراجمة على قول البلاذري كانوا يسكنون جبل اللكّام الذي يختلف عن لبنان . وممّا يثبت انَّ هؤلاء الجراجمة لم يكونوا آراميين اي من اهل سوريّة الاصليين انّ البلاذري يذكر في جملة من انضوى اليهم الانباط وهو الاسم الذي يدلُّ بهِ كتبة العرب على العنصر الآرامي (٣ . وكذلك اذا فحصنا عن الامر على حسب قوانين علم الجغرافية وعلم اصول الشعوب وجدنا انّ الجراجمة ينتمون الى آسيَة الصغرى ولذلك نراهم يرحلون بعدئذٍ الى بلاد الروم ويسكنون قيليقية لقرب موطنهم

١) الجرامقة قوم من انباط او آرامي العراق وقد ارتأى نُلدِك الالماني الشهير ان كتبة العرب لم يفرقوا بين الجراجمة والجرامقة والصواب انّ الجرامقة غير الجراجمة . وعندنا ان فرقة من الجرامقة استوطنوا الشام كما يظهر من تاريخ حمزة (ص ٣٥ و ٣٩) وياقوت (١ : ٣٦) وكلاهما يذكر « جرامقة الشام » ولعلّ « جبلَي جرمق » في جنوبي لبنان وبلاد بشارة نُسبا اليهم

٢) راجع المجلة الاسيويّة الالمانيَّة ZDMG, 1875, p. 85 . وقال نُلدك في ذيل تلك الصفحة « ان العلماء لم يثبتوا حتى الان وحدة المَردة والموارنة »

٣) راجع المجلّة الاسيويّة الالمانية ZDMG, 1871 p. 124-125

منها . وفي فتوح البلدان للبلاذري انهم احتلّوا جبل الحوّار وهو من اعمال فيليقية كما نبّه اليه ياقوت في المادّة

ومما يستفاد ايضاً من كلام البلاذري امرٌ آخر ذو بال وهو ان قسماً من الجراجمة كانوا ضربوا اطنابهم في لبنان قال في اثناء كلامهِ عن الجراجمة (ص ١٦٢) : « خرج بجبل لبنان قومٌ شكوا عامل خراج بعلبكّ فوجّه صالح بن عليّ بن عبدالله بن العبّاس مَن قتل مقاتلتهم واقرَّ من بقي منهم على دينهم وردّهم الى قراهم واجلى قوماً من اهل لبنان ». وهذا دليل واضح انّ قوماً من الجراجمة كانوا قبل هذا العهد في لبنان وليس هذا حدساً على سبيل التخمين بل امرٌ راهن يثبتهُ المؤلف نفسهُ في كلامهِ عن ميمون الرومي المعروف بالجرجمانيّ الذي كان مولى لبني امّ الحكم اخت معاوية ابن ابي سفيان قال (ص ١٦٠ و ١٦١) : « وانّما نُسب الى الجراجمة لاختلاطهِ بهم وخروجهِ بجبل لبنان معهم ». فكان اذن في لبنان قومٌ من الجراجمة وهذا ما اردنا بيانهُ

فترى من بحثنا هذا الحاضر ما يؤيد قولنا السابق في انّ المردة والموارنة ان لم يكونوا شعباً واحداً قد كانت على الاقلّ بينهم علاقات متينة . وكذا قُل عن الجراجمة ولذلك افردنا لهم فصلاً ونظمناهم في سلك الامم التي سكنت لبنان . وسنبيّن قريباً انّ هذه الامم كلها امتزجت بعد قليل امتزاج الماء بالراح

٧ العجم

جاء في كتاب البلدان لاحمد بن ابي يعقوب اليعقوبي (١ انّ الخليفة معاوية لما فتح بلاد الشام وجد مدنها الساحليّة فارغةً من السكّان فاستقدم قوماً من العجم ليتخذوها لهم سكناً . وقد ذكر ذلك عن طرابلس وجبيل وبيروت وصيداء . بل خصّص بذلك ايضاً بعلبك وعرقة في بلاد عكار . فصارت كل النواحي المحيطة بلبنان في يد العجم بل اضحى قسمٌ من لبنان في حوزتهم وهي الايالات القريبة من المدن المذكورة كما يصرّح اليعقوبيّ بهذا الامر

فقول اليعقوبيّ السابق ذكرهُ يضطرُّنا الى ان نجعل العجم بين الشعوب البائدة من لبنان التي بقيت منها فيهِ بعض بقايا امتزجت باهلهِ . وشهادة اليعقوبي المذكور لم نجد

١) راجع الصفحة ١١٤ (ed. Juynboll)

لها ما يؤيّدها في سائر التواريخ واوصاف البلدان (١ الّا انهـا تستحقّ الاعتبار وتستوقف الانظار. كيف لا وهي لكاتب من اقدم كتبة العرب عاش في القرن الثالث للهجرة وهو من المشاهير الموثوق بكلامهم وصف في تآليفهِ احداثًا قريبة من زمانهِ

وما يحملنا على تصديق قول اليعقوبي انّنا نجد في لبنان قومًا من الشيعة كالمتاولة والنصيريين توطّنوا الجبل وبسطوا عليهِ سطوتهم وخلّفوا فيهِ آثارًا تنبئ بصحّة ما سطّره المؤرخ الموما اليهِ . ومن جملة هذه الآثار ما نراه في بعض اهل لبنان من هيئة الجسم وتقاطيع الوجه وسحنة البشرة التي يُعرف بها العجم

وقد وردت ايضًا في القرن العاشر شهـادة اخرى تؤكد قول اليعقوبي وهي في كتاب رحلة احد الاعجام الى بلاد الشام وجزيرة العرب وهو نصري خسرو الذي نشر كتابهُ العلّامة شرل شيفر الشهير. وممّا قالهُ صاحب هذا الكتاب (ص ١٠٠) انّ « اهل طرابلس كلهم من الشيعة » وكذا قال عن صور ولا نشكّ انهُ يريد ابناء هؤلاء الاعجام الذين استقدمهم معاوية لسكنى بلاد الشام

ولم يعد الكتبة بعد هذا العهد يذكرون العجم وعندنا انّ امرهم ضعف بعدئـذٍ لِما حدث في بلاد الشام من الحروب في القرن الثـاني عشر فانتُقض امرهم واختلطوا باهل لبنان . ومنهم النصيريّة والمتاولة الذين ظهروا بعدئذٍ

٦

انتشار الأمّة المارونيّة في لبنان

للأُمّة المارونيّة في لبنان مقام ممتاز لتوفُّر عددها فيهِ ولما بينها وبين هذا الجبـل من العلاقات التاريخيّة المتواصلة حتى جاز لها ان تعتبر لبنان كوطنها الخاصّ. ومن ثمّ لا يسعنـا ان نصرف عنها النظر في غضون تسريح ابصارنا في آثار لبنان

وليس كلامنا في الأمّة المارونيّة تاريخيًا اذ لم نتوخَّ في مقالاتنا تاريخ الجبـل بل آثارهُ ولا سيما ان تاريخ هذه الطائفـة قد شاع اليوم فلا حاجة الى اعادة ما يعرفهُ القرّاء (٢ وعليهِ فنقتصر في هذا الباب على ما يختصّ بنشوء الطائفة وانتشارها في لبنان

١) الّا ابن رُسته والبلاذري

٢) راجع تاريخ الطائفة المارونيّة للدوحي الذي نشرهُ الاستاذ المرحوم رشيد الشرتوني

فنُعدّ بهذه الدروس الخاصّة الموادّ لتاريخ اعمّ واكمل . وفي الفصول السابقة توطئة لهذا الباب وفيها ذكرنا الشعوب الذين جعلوا قبل الموارنة سكناهم في لبنان . ومنهم من خلّف فيهِ شُعَباً من عُنصرهِ كالمردة والجراجمة بقي منهم فئات في القسم الثاني من القرن السابع الذي نخصُّهُ الآن بالبحث

وكان الموارنة في ذلك العهد عبارة عن مجموع زُمَر آراميَّة لم يمسَّها العنصر اليوناني وتمدُّنهُ تقيم خصوصاً على مقربةٍ من أفامية في جهات دير مار مارون ومنهُ اتخذوا اسمهم . ومن ثمّ انتشروا في وادي العاصي وخصوصاً في معرَّة النعمان وفي شيزر وحماة وحمص كما يظهر من نصّ للمسعودي ورد في كتابهِ المعنوَن بالتنبيه والاشراف ألمعنا اليهِ غير مرَّة

واذا راجعنا اقاويل قدماء المؤرخين كابن العبريّ في تاريخهِ الكنسي السرياني (١ وابن بطريق (٢ وغيرهما وجدنا الموارنة في مقامات أخرى اقرب الى الشمال كمنبج وقنّسرين والناحية المعروفة بالعواصم . ومن المحتمل ايضاً انَّهم كانوا في انطاكية وجوارها لان انطاكية تُعدّ كحاضرة هذه الناحية وفيها تدخل مدينة قورس المتكرّر ذكرها في ترجمة القديس مارون لتاودوريطس اسقف هذه المدينة (٣ . وكتبة الموارنة يوافقون على انتشار طائفتهم في تلك الانحاء وشهاداتهم في ذلك صحيحة مستندة الى نصوص وضعيَّة لا تُنكر . ونحن اوّل من يرضى بمثل هذه الشهادات المؤيَّدة بالبرهان

وان سأل سائل هل يُعرف عدد هذه العشائر المارونيَّة المستعمرة في سوريَّة الشماليَّة وسورية الوسطى . اجبنا انهُ ليس في وسعنا ان نعيّن ذلك بالتدقيق لكنَّهُ يؤخذ من نبذة سريانيَّة تاريخية اوردهـا المشرق في سنتهِ الثانية (ص ٢٦٧) نقلاً عن المجلَّة الاسيويَّة الالمانية (ZDMG, 1875) انَّ هذا اللفّ كان ذا عدد وافر اذ حضر بصفة

١) الجزء الاوَّل منهُ (ص ٢٧٠ – ٢٧٤)

٢) راجع تاريخهُ في مجموع الآباء اليونان (ج ١١١ ص ١٠٧٧ و ١٠٧٨) ومنهُ في مكتبتنا الشرقية نسخة خطيَّة قديمة ويزعم ابن بطريق انهُ دخل بين الموارنة قوم من الروم لعلهُ يريد الآراميين المتجنسين بالجنسية اليونانية كما كان منهم كثير في سوريَّة . وان صحّ قولهُ كان لهُ شأن لتقرير العناصر السوريَّة وغيرها

٣) راجع كتاب البلدان لابن رسته (ص ١٠٧) وفتوح البلدان للبلاذري وكتاب التنبيه للمسعودي وغيرهم من كتبة العرب . وقد تبعناهم في كتابة اسم قورس بالسين بدلاً من قورش بالشين وفقاً للفظ الآرامي

فرقة دينيَّة امام الخليفة معاوية فجرى بينها وبين اليعاقبة جدال كانت فيهِ الدَّولة على اليعاقبة . وكان اصحاب هذه البدعة جيلًا كبيرًا في ذلك العهد فلولا انَّ الموارنة كانوا على نوعٍ ما يعادلونهم عددًا لما حكم لهم الخليفة على اخصامهم

وكان دخول الموارنة الى لبنان على رأينا في القسم الثاني من القرن السابع هاجروا الى الجبل من وادي العاصي . وكأني هنا بالقارئ يتعرَّض لي فيقول : مالك تذكر مهاجرة الموارنة الى لبنان أليس أصحّ ان يقال انَّ سكَّان لبنان الاصليين هم الموارنة . فالجواب على انَّ مبادئ تاريخ الموارنة الدينيّ تشير صريحًا الى كون هذه الطائفة كانت اولًا خارجًا عن لبنان . ومن المعلوم انها تنتسب الى القديس مارون وقد عاش القديس مارون في شماليّ سوريَّة في البلاد الواقعة بين انطاكية وقورس ثم تراها مواصلة سيرها في وادي العاصي في زمنٍ لم نسمع لها بذكر في لبنان . ثم بعد ذلك بمدّة نجد الموارنة يتوقّلون في هذا الجبل مهاجرين اليهِ من الشمال ونواحي سوريَّة المتوسّطة . فلا بُدَّ اذن من التسليم بتنقُّل الامّة . وفي تاريخ تاوفانوس كما في فتوحات البلاذري اشارة الى هذه المهاجرة كما سنبيّن آنفًا

ولكن تُرى ماذا حمل الموارنة الى مبارحة وادي العاصي واستبدال مقاماتهم فيهِ ليسكنوا لبنان نجيب ان الرأي عندنا انهم عدلوا الى لبنان تملُّصًا من اضطهادات مجاوريهم نخصّ منهم بالذكر اليعاقبة اعداءهم . وكان اليعاقبة في ذلك الوقت اصحاب بطش وسطوة لهم في افامية ونواحيها الكعب الاعلى . وكان لهم قريبًا من افامية دير عظيم على اسم ماري باسُّوس (١ بلغ عدد رهبانهِ ٦٣٠٠ . ولما كان الفريقان على طرَفَيْ نقيض قُضي على الموارنة المهاجرة

وقد بيَّنَّا ما كان بين الأُمّتين من العداوة . ولنا على ذلك برهان آخر اقدم عهدًا ورد في تاريخ الكنيسة لابن العبري (المجلّد الاوّل ص ٢٧٠–٢٧٤) قال ان في عهد الملك هرقل حدث بين رهبان مار مارون واليعاقبة مشاحنات (٢ . فانتزع الاوّلون من ايدي

١) راجع مقالة الاب شابو في مار باسوس L'abbé Chabot: *La légende de Mar Bassus et de son couvent à Apamée*, p. 55, 60, 63.

٢) انَّ في هذه المناظرات بين الموارنة واليعاقبة دليلًا واضحًا على بطلان مزاعم بعض الكتبة الذين نسبوا الموارنة اضاليل يعقوب البرادعي في طبيعتي المسيح

اليعاقبة كنائسهم برضى ملوك القسطنطينيّة فحاول اليعاقبة استرجاعها في ايام معاوية فلم ينالوا بالمرغوب. ولا غروَ انَّ اليعاقبة كانوا يترقَّبون الفرصة ليزاحموا الموارنة شيئاً فشيئاً ويضطرّوهم الى ان يخرجوا من اماكنهم فطلب الموارنة لهم ملاجئ حريزة يحصلون فيها على الدعة والسكينة. ولعلّ خراب دير مار مارون حدث في ذلك العهد وكان بعض اليعاقبة سبباً لخرابهِ

بيد انَّ هذه المهاجرة لم تكن دفعةً واحدة وانما حدثت في ازمنة متوالية فكان المهاجرون ينتقلون الى لبنان زرافاتٍ زرافاتٍ. وفي عهد المسعودي اي في القرن العاشر نجد منهم بقايا في وادي العاصي خارجاً عن لبنان. اما دخولهم في هذا الجبل فكان في وقت المرَدَة والجراجمة وفيهم يصحّ خصوصاً قول تاوفانس « ان كثيرين من اهل البلاد احتموا في ذراهم (اي المردة) » وقول البلاذري في فتوح البلدان (١ « انَّ جماعة كثيرة من الجراجمة والانباط والعبيد الأبَّاق ضوَوْا الى الروم » اراد بذلك الموارنة فدعاهم باسم الانباط دلالةً على اصلهم الآراميّ

وكان دخول الموارنة الى لبنان من الشمال اعني انهم تبطَّنوا وادي الأُرنُط فاجتازوا افامية وحماة وحمص الى ان قرَّ قرارهم في الجبل. فسكنوا اوَّلًا جهاتهِ الشماليَّة ثم تقدَّموا الى اواسطهِ ثم بلغوا جنوبَهُ. هذا ما يمكن استخلاصهُ من النصوص التاريخيَّة التي ورد فيها ذكر انتشار الموارنة في لبنان

وقد بيَّنَّا في مقالتنا عن سكنى لبنان في قديم الزمان (راجع الصفحة ٢٣) ان مشارف الجبل والجهات المعروفة بالجرد بقيت الى القرن السابع قليلة السكَّان كثيرة الغابات. امَّا « الوسوط » فكانت مأهولة وان كان اهلها اقلّ عدداً من الارياف والسواحل. فلا مراء انَّ الموارنة سكنوا اعالي لبنان لخلوّها من السكَّان. واحتلُّوا اوَّلًا اودية الجبَّة اعني مقاطعات اهدن وبشرّاي وحدَث ولعلَّهم لقوا هناك بعض الدساكر التي كانت سبقت عهدهم على الاصحّ كقرية اهدن وقرية بشرّاي (٢ وعندنا

١) راجع الصفحة ٤٧ من هذا الكتاب

٢) راجع آثار لبنان ج ١ ص ١٢٧ وهناك بيَّنا ما يختصّ باهدن وبشراي. امَّا الحدَث فمن اقدم قرى لبنان ورد اسمها في نزهة المشتاق للادريسي وتكرَّر ذكرها في اخبار اصول الطائفه المارونيَّة

انَّ الموارنة نزلوا ايضاً في بعض اماكن من منحدر الجبل قريباً من البترون عند دير كفرحيّ القديم (١ . ولعلّ مدينة البترون نفسها اضحت من اوَّل مساكن الموارنة كلّها او على الاقلّ قسم منها

فيكون اذن اوَّل مركز احتلَّهُ الموارنة عند ولوجهم لبنان معاملة الجبَّة وقسم من بلاد البترون فهناك كان مهد الامَّة المارونية كما اشرنا اليهِ غير مرّة

ومن الحوادث التاريخيَّة الاولى التي جرت بعد سكنى الموارنة في لبنان ما ذكرناه في مقالتنا عن الجراجمة وهي شكوى اهل الجبل من عامل بعلبك وكان الامام الشهير محمَّد الاوزاعي ممَّن دافعوا عنهم وانتصروا لهم. قال البلاذري في فتوح البلدان (ص ١٦٢) عن محمَّد بن سعد عن الواقديّ قال: خرج بجبل لبنان قومٌ شكوا عامل خراج بعلبك فوجَّه صالح بن عليّ بن عبــدالله بن العبَّاس من قاتل مقاتلتهم واقرَّ من بقي منهم على دينهم وردَّهم الى قراهم واجلى قوماً من اهل لبنان. فحدثني القاسم بن سلَّام انَّ محمَّد بن سعد حدَّثهُ ان الاوزاعيّ كتب الى صالح رسالة طويلة حُفِظ منها وقد كان من اجلاء اهل الذمَّة من جبل لبنـان ممَّن لم يكن ممالئاً لمن خرج على خروجهِ: «ممَّن قتلتَ بعضهم ورددتَ باقيهم الى قراهم ما قد علمت فكيف تؤخذ عامَّة بذنوب خاصَّة حتى يُخرَجوا من ديارهم واموالهم . . . »

ولمَّا كثر عدد الموارنة في القرون الثامن والتاسع والعاشر اخذوا شيئاً فشيئاً في الامتداد الى الجنوب واحتلُّوا بلاد جبيل وممَّا يشهد على سكناهم في معاملتَي جبيل والبترون مذ ذاك العهد عـدَّة كنائس سبق لنا وصفها في مقالتنا عن كنائس لبنان القديمة (راجع الجزء ١ . ص ٧٩) وقد لقي الموارنة في تلك النواحي قوماً من اهل البلاد كانوا يسكنون السواحل والوسوط . غير انَّ عددهم لم يكن متوفّراً . وكان اكثرهم نصارى يتكلَّمون باللغة الآراميَّة ويقيمون فيها طقوسهم الدينيَّة . وعندنا انَّ هؤلاء الآراميين لم يلبثوا ان يمتزجوا بعد قليل بالموارنة امتزاج المـاء بالراح كما امتزج بهم ايضاً بقايا المَردة والجراجمة الذين تخلَّفوا في لبنان . وكانت مهاجرة سكَّان وادي الأرنط الى لبنان لا تزال متواصلةً متتابعةً لمزاحمة اليعاقبة واضطهادهم للموارنة

١) راجع الجزء الاول ١٢٤

وكان الملكيُّون مع هذا يقطنون بعض قرى لبنان في بلاد البترون وجبيل مثل كفرشليمان وحدتون (١ وبقسميا (٢ ودوما والقرى المجاورة (٣ وكفور (٤ وغرزوز وغيرها . وكان الملكيّة في لبنان يتبعون آنئذٍ في فرائضهم الدينيَّة طقس انطاكية اعني على الراجح ليتورجية القديس يعقوب التي ناقضها بعد ذلك البطريرك ثاودوروس بلسمون (٥ واستبدلها بليتورجيَّة القسطنطينيَّة . وفي ما خلا ذلك لم يختلف الملكيُّون عن بقيَّة الآراميين في اصلهم ولغتهم . وما لا ريب فيهِ ان الكتابات اليونانيَّة لنصارى لبنان قليلة جدًّا لا يُعرف منها الَّا كتابتان او ثلاث كتابات . امَّا الكتابات التي تُرى على بعض الصوَر في سيّدة نايا بكفرشليمان مخطوطةً باليونانيَّة فليست هي للوطنيين وانَّما كتبها مصوّرون بوزنطيُّون او مثَّلها الوطنيُّون كما وجدوها في امثلةٍ بوزنطيَّة قديمة

وبعض القرى التي كان يسكنها سابقًا الملكيُّون نراها بعد ذلك مأهولة بالموارنة إمَّا لانَّ الموارنة دخلوها فامتزج بهم الملكيُّون . وإمَّا لانَّ الملكيين هاجروها فانتقلوا الى امكنة غيرها او لاسباب نجهلها

وخلاصة الامر انَّنا اذا استثنينا اليهود نجد في تركيب الامَّة المارونيَّة ما نجدهُ في تأليف جميع الامم التي تتركَّب أُصولها من عناصر شتَّى . وكذلك الامَّة المارونيَّة اذا اعتبرتها في اواخر القرون المتوسّطة رأيتها تتألف من اصول مختلفة اوَّلها واعظمها شأنًا الموارنة المهاجرون الى لبنان من سوريَّة الشماليَّة وسوريَّة الوسطى ضوى اليهم قومٌ من الأُبَّاق والطرداء الذين لاذوا بحمى المردة والجراجمة الباقين في لبنان فضلًا عما كان هناك من القطين الاصليين . فهذه العناصر كلُّها تمازجت بعد حين وصارت امَّةً كبرى ذات لغة واحدة وهيئة واحدة وغاية واحدة لا يمكن الآن اصحاب النظر مهما دقَّقوا في البحث ان يفرزوا جنسيَّاتها الاصلية

١) راجع في الجزء ١ . ص ٨٦ و ٨٧ مقالتنا عن هذين المحلَّين

٢) تاريخ الدويهي (ص ٢٠٧)

٣) منها كفرحلدا وقد وجدت فيها آثار ابنية للملكيين

٤) راجع كتاب خزائن الكتب في دمشق وضواحيها للاديب حبيب افندي زيَّات (ص ١١٩ الخ) والمشرق (٥ : ١٠٤ و ١٠٦)

٥) راجع المشرق (٣ : ٢٧٢)

فاذا لحظنا نموّ الأمّة المارونيَّة كما تقدَّم واعتبرنا انَّ عدد المواليد يفوق كثيرًا عندهم الوفيات لا نعود نستغرب ما ذكرهُ غليلموس الصوري في تاريخ الصليبيين حيث احصى الموارنة اربعين الفًا . وهذا الاحصاء الاجمالي ينطبق على ما رُوي في تواريخ الاعصار المتوسّطة عن الموارنة انهم منتشرون في جهات طرابلس وبلاد البترون وجبيل والجبَّة الى نهر ابراهيم . وهو قول صحيح غالبًا مع بعض شذوذ كما سترى قريبًا عند ذكرنا لقوم من غير المسيحيين سكنوا في ايالات لبنان الواقعة شمالي نهر ابراهيم

ومما ورد ايضًا في التواريخ الصليبيَّة ذكر مقدّم مارونيّ يدعى سمعان تولّى عينتاب في شمالي سوريَّة (١ ولا نعلم من اي فرقة من الموارنة كان أمن الذين في لبنان او ممَّن تخلّفوا في بلاد العواصم . امّا كونهُ من موارنة العواصم فاقرب الى الصواب

ونجد قبل هذا العهد قومًا من الموارنة في بلاد ما بين النهرين اشتهر منهم توفيل ابن توما الماروني المنجّم الرهاوي قال ابن العبري في تاريخ الدول (ص٢١٩ و ٢٢٠) : «كان رئيس منجمي المهدي . . . وكان على مذهب الموارنة الذين في جبل لبنان من مذاهب النصارى ولهُ كتاب تاريخ حسن (٢ ونقل كتابي اوميروس الشاعر على فتح مدينة ايليون في قديم الدهر من اليونانيَّة الى السريانية بغاية ما يكون من الفصاحة» . وكذلك نجد في عبر دجلة بين الموصل وبغداد جماعة من الموارنة ذكرها في القرن الثالث عشر الراهب ريكلد دي مونكروا (Ricold de Montcroix) وروى ان لها مطرانًا يدبّرها (٣ . ولعلَّ قيسًا الماروني المؤرخ الذي اسهب في ذكره المشرق(٣ : ٢٦٥ و ٣٥٦ و ٤٥١) كان من تلك الجماعة . وعلى كلّ لا نرى احدًا من كتبة الموارنة ذكر هذا المطران في ما وراء دجلة . وكل هذا دليل على انَّ في تاريخ الأمّة المارونيَّة امورًا عديدة لم يُحسر بعد عنها اللثام . ومن المحتمل انَّ الكتبَة سكتوا عن هذا المطران كما سكتوا عن غيرهِ لانَّ الاساقفة المارونيين كانوا مدَّة الاجيال السالفة

---

١) راجع تاريخ مملكة اورشليم Roehricht : *Geschichte des Koenigreichs Jerusalem* p. 220, note 6.

٢) وجدت منهُ بعض مقاطيع مختصرة في تاريخ المنبجيّ الذي نشرهُ الاب ل . شيخو (ص ٢٦٩)

٣) راجع Quatremère : *Mémoire sur les Nabatéens* ,p. 149

كنوّاب للبطرك ومعاونيه دون لزوم كرسي خاصّ . وانما جُعلت لهم مراكز منفردة في القرون المتأخرة فقط

وكان القرنان الثاني عشر والثالث عشر قرنَي نهوض وترقٍّ في لبنان . وفي ذلك العهد بُنيَت كنائس عديدة على طرزٍ خاصّ تزينهـا الكتابات السريانيَّة وفيها من نقوش الفسيفساء والتصاوير الملوّنة ما سبق وصفهُ (١ . وفي هذه الابنيـة دليل على وفرة عدد اللبنانيين وهمَّتهم . لم يزل ينمو هذا العدد ويتزايد حتى هاجر قسمٌ منهم الى النواحي المجاورة من فلسطين ولاسيَّما القـدس الشريف وكان لهم فيه عدَّة كنائس (٢ . وكذلك انتقلت منهم مستعمرات الى قبرس ثم رودوس . امَّا قبرس فقد سكنوها منذ القرن الحادي عشر ونرى لهم في هذه الجزيرة ديرًا (٣ في تاريخ سنة ١١٢٠ . وقد نموا نموًّا عظيمًا حتى انهم كانوا يسكنون منهـا ثلاثين ضيعةً (٤ وكان يرعاهم مطران من طائفتهم . وكان بعضهم في مدن قـبرس الكبرى وخصوصاً الماغوصة (٥ وكانت في ذلك العهـد واسعة التجارة . امَّا دخول الموارنة في رودس فنظنُّهُ انهُ جرى على عهد الفرسان المعروفين بالاسبيتالار (Les Hospitaliers (لما احتلُّوا تلك الجزيرة فتبعهم الموارنة . وكذلك ذهب قسم منهم في القرن السادس عشر مع فرسان رودس الى جزيرة مالطـة ولحق بهم بعض من اخوانهم من موارنة قبرس في اواخر ذلك القرن . ولعلّ وجود الموارنة في مالطـة ممَّا ساعد على حفظ العربيَّة ونَشْرها في تلك الجزيرة . ومن المعلوم انَّ اهل مالطة يتكلَّمون باللغـة العربيَّة مشوبةً بالفاظ دخيلة من اللغات الاجنبيَّة

امَّا حلب فيظهر من نصٍّ لتوما الكفرطابي ورد في المشرق (٦ : ١١٨) ان الموارنة

١) راجع في الجزء الاول مقالاتنا عن كنائس لبنان القديمة

٢) المشرق ١ : ٩٢

٣) راجع سلسلة بطاركة الموارنة للدويهي (الطبعة الثانية ص ٢٢ الحاشية الاولى)

٤) راجع تاريخ قبرس L. Machéras: *Chronique de Chypre,* trad. f. 15, 16

٥) وجاء في رحلة يعقوب دي برن (J. von Bern) سنة ١٣٤٦ انـهُ وجد الموارنة في هذه المدينة يقيمون رتبهم على طريقة الروم . ولا نفهم ما يعني بذلك ألعلَّهُ يريد ان الموارنة كانوا يستعملون اليونانيَّة في طقوسهم وهي لغة اهل الجزيرة ؟ فهذا ممكن

كانوا فيها منذ زمن قديم لكنّ اخبارهم في الشهباء مجهولة الى القرن الخامس عشر حيث اتاهم مددٌ جديد من لبنان (راجع المشرق ٥ : ١٠٣٩ في الحاشية الثانية)

ولنعودنّ الان الى الموارنة المستوطنين لبنان فانهم كانوا في نموّ وازدياد يتمدّدون شيئاً فشيئاً في النواحي المجاورة . قال الدويهي : « وبسبب ما اشتهر بهِ لبنان اوانئذٍ من الامن والطمأنينة قصدهُ الناس من الاماكن البعيدة (١ » لسكنى النواحي التي يهجرها المهاجرون الى قبرس وجزائر البحر المتوسّط

ومع هذا النموّ لا نرى الأمّة المارونيّة تتقدّم الى الامام في القرنين الثالث عشر والرابع عشر . امّا لاجل مهاجرة قسم منها الى قبرس ورودس كما سبق وامّا لاجل الحروب التي انتشرت في كسروان في ذلك العهد فبقي الموارنة ما وراء نهر ابراهيم

وهنا لا بُدَّ من تكرار ما قلناهُ غير مرّة في مقالاتنا (٢ ان كسروان ليس من المقاطعات التي اوى اليها الموارنة قبل القرن الخامس عشر . وقد اوردنا نصّاً للادريسي ذكر فيهِ وجود اليعاقبة في جونية (المشرق ١ : ١٠١٨) . وان سأل القارئ ومن كان يسكن اذن كسروان قبل هذا العهد . اجبنا انّ معظم اهل هذه الناحية كانوا من المتاولة او من النصيريين . وكان النصيريّون قاطنين ايضاً في بعض نواحي لبنان الشماليّة كجهات البترون ونواحي المنيطرة والعاقورة (٣ ولكنّ عددهم الاوفر انّما كان في كسروان . وقد ذكر صالح بن يحيي صاحب تاريخ بيروت (٤ الغزوات التي باشرها نوّاب الشام في ايّام السلطانين الملك الاشرف خليل بن قلاوون والملك الناصر محمّد بن قلاوون فحاربوا النصيريّة في جبال كسروان ولم يزالوا يناجزونهم القتال حتى اخرجوهم من كسروان وجعلوا مكانهم قوماً من التركمان على الاقلّ في بعض النواحي وبقي كثير من المتاولة معهم . هذا وان اموراً كثيرة من تاريخ كسروان لا تزال مجهولة حتى يومنا الّا اننا نعلم بلا ريبٍ انّ النصارى لم يحتلّوا هذا الجبل قبل القرن الخامس عشر

١) راجع تاريخ الدويهي (ص ١٤٠)

٢) راجع المشرق (١ : ٥٦)

٣) ولنا في النصيريّة مقالة افرنسية جمعنا فيها كل ما يختصّ بآثار النصيريين واحوالهم وسمّيناها باسم « النصيريّة في لبنان » ونشرناها في مجلّة الشرق المسيحي سنة ١٩٠٢

٤) راجع تاريخ بيروت (ص ٤٤ – ٥١)

ولمّا كانت اوائل القرن الخامس عشر جعل الموارنة يتجاوزون نهر ابراهيم ويصعدون الى كسروان . وكان انتشارهم فيهِ سريعاً حتى صارت هذه المقاطعة في القرن السابع عشر كلّها لهم . وامتدَّ من ثمَّ الموارنة الى مقاطعتي المتن والشوف . لكنّنا نقف عند هذا الحدّ لئلّا ندخل في اخبار قريبة من عهدنا وليست غايتنا كما قلنا ان نسطّر تاريخ لبنان بل ان نبيّن بوجه الاجمال كيف انتشرت الامّة المارونيّة . امّا تفاصيل اخبارها فليست الان من شأننا وقد مرَّ منها كثير في ابحاثنا السابقة وسنورد ان شاء الله غيرها في ما بعد



بحث جغرافي

في سيرة القديس مارون الناسك

إكمالًا لبحثنا عن منشإ الطائفة المارونيّة وتكوّنها نضيف الى ما سبق من الكلام بعض افادات تتعلّق بحياة القديس مارون الذي خلّف اسمهُ للطائفة المومإ اليها . غير أننا لا نتجاوز الحيز الجغرافي الذي رسمناهُ فنتكلّم من ثمَّ على حياتهِ لا من الوجه التاريخي بل من الوجه الجغرافي لاسيّما وان هذا الوجه قد كثر تغاضي الباحثين عنهُ حتى الآن فبقيت فيهِ مشاكل كثيرة لا بُدَّ من تفكيك معضلاتها

*

ليس في ايدينا شيء يروي اخبار القديس مارون غير مصدر واحد اصلي اي الترجمة التي تركها توادوريطوس اسقف قورس(١ وهي تركة جليلة القدر يكفي انتسابها الى هذا المؤرخ الجليل للحكم على مكانتها من الاهميّة ولولا ايجازها المفرط لما وجدنا فيها مساغاً للانتقاد ونأخذ عليهِ انهُ اهمل الوجه الجغرافي اهمالًا تامّاً حتى اننا لا نجد في ترجمة القديس مارون سوى اسم واحد من اسماء الامكنة وسبب ذلك هو انهُ دوّن ما

---

١) راجع تأليفهُ المعنون « تاريخ الرهبان » في مجموع الاباء اليونان مج ٨٢ واليهِ نشير في هذه المقالة

دون لحمل معاصريهِ على سلوك طريق الفضيلة بايراد سير الزهّاد والقديسين فلم يخطر لهُ في بال ان يشفي رغائبهم في امور كان يفترض انّها معروفة عند جميعهم

وبناءً عليهِ نأسف كل الاسف على عدم التفاتهِ الى هذا الشأن الذي لو اراد الكتابة فيهِ لكان وفاهُ حقَّهُ من البيان بغاية الضبط والدقّة . وهب انهُ لم تكن لهُ معرفة شخصيَّة بالقديس مارون فقد كانت لهُ صداقة بليغة مع القديس يعقوب (١ اشهر تلاميذه الذي اطلعهُ على كل ما يتعلَّق بمن يصفهُ هذا المؤرخ اليوناني تارةً بمارون الكبير وتارةً بمارون « الالهي » (٢ . وكأنَّ تاودوريطس خشي في كلامهِ على الابطال المسيحيين الكثيري العدد من تكرار اخبار الخوارق والمعجزات فبالغ في اختصار سيرة القديس مارون بنوع انَّ من يطالعها تتبادر الى ذهنهِ في الحال مسائل كثيرة لا يجد لها حلًّا وهي: أين ولد القديس مارون وأين عاش واين دُفن واين هو الدير الذي تسمَّى باسمهِ . فاتماماً لهذه النواقص عزمنا على ان نسرد في الصفحات التابعة كل ما تيسَّر لنا جمعهُ من المعلومات المؤدية على قدر المكنة الى العلم الكافي باحوال الناحيـة التي تعطَّرت باريج هـذا الناسك العجيب ولهذا نضرب صفحاً عن الاطناب في حياتـهِ متوسعين بوصف البلاد التي صرف فيها ايَّامه لان ذلك اعون على فهم ترجمتهِ

١

في القسم الشمالي الشرقيّ من سوريَّة كانت تمتدّ في ذلك الزمان القديم مقاطعـة كومَّاجينة وهي ناحية متَّسعة الاطراف يحدُّها من الشمال جبل طوروس ومن الشرق نهر الفرات ومن الغرب قيليقية . وامَّا من الجنوب فيصعب تحديدها ويجوز لنا رسمها بخطّ غير منتسق يذهب من الفرات الى ما تحت هيرابوليس (منبج) حتى يتصل بجبل امانوس (الما داغ) مارًّا تحت مدينة حلب وشماليّ بحيرة العمق بالقرب من انطاكية

هذا هو اعظم اتساع ادركتهُ كوماجينة عندما كانت تشتمل ايضاً على المقاطعة « القورسيَّة » (٣ التي دُعيت بهذا الاسم نسبةً الى مدينة قورس حاضرتها وكان موقع

١) راجع في تاريخ الرهبان تراجم تلامذة القديس مارون

٢) Θεσπέσιος

٣) وفقاً لبعض قدماء المؤرخين

هذه المقاطعة الثانية في جنوبي الاولى وسنذكر بُعَيد هذا مقدار امتدادهــا (١ لان الكلام عليها لا يخلو من فائدة كبرى للاطلاع على اخبــار القديس مارون

وحتى يكون للقــارئ تصوُّر صائب بهذه المقاطعة نكتفي الآن من القول ان كوماجينة تنطبق في الحاضر على قسم من ولايتَي معمورة العزيز وحلب غــير ان الجزء الاكبر من كوماجينة هذه كان في ضمن ولاية حلب اعني انهُ كان يشمل بالتقريب كلَّ متصرفيَّة مرعش ويدخل فيهِ من متصرفيَّة حلب المركزيَّة اقضية عينتاب وكلّس والباب وحارم وجبــل سمعان ومنبج . امَّا من متصرّفية اورفة فما كان يحتوي غير قضائين غربي الفرات اي جزءا من قضاَئي بيرجيك وروم قلعة

وكان الذين استوطنوا هذه المقاطعة من بادئ الامر قبائل الحثيين ومنها امتدُّوا بعد ذلك الى بقية سوريَّة . يدلّ على ذلك ما عثر عليــهِ الباحثون من الآثار التي ابقاها للاجيال الغابرة هــذا الشعب الذي لم يُعرف من اخبارهِ حتى الآن شي كثير (٢ . على ان القبائل المذكورة ما لبثت ان اختلطت بالآراميين الذين أسَّسوا هناك كثيرًا من الممالك أخصّها بيت عدين وارباد وكانت قاعدة هذه المملكة الثانية مشيَّدة في موقع تلّ أرفاد شماليّ حلب

وكانت كوماجينة في عهد دولة السلوقيين من جملة مقاطعات المُلك الذي اسسوهُ غير انها ما لبثت ان استعادت استقلالها وارجعت ولايتها الى ملوك من اهلها . وبعــد وفاة انطيوخوس الثالث في السنة السابعــة عشرة للمسيح صارت الى الرومانيين فادخلوها في جملة مستعمراتهم وانَّمــا ذلك لم يدُم الَّا سنوات قليلة لانهــا في السنة الثامنــة والثلاثين رُدَّت الى ابن الملك انطيوخوس السابق ذكرهُ وبعد مرور اربع وثلاثين سنة اي في السنة الثــانية والسبعين ضُمَّت بوجه نهائي الى المستعمرات الرومانيَّة وكانت سميساط حاضرةً لها (راجع ماركارت في نظام المملكة الرومانيَّة . مج ٢ من الترجمة الافرنسيَّة ص ٣٤١ و ٣٤٢)

امَّا سكَّان المقاطعة المذكورة فكانوا آراميين أصلًا ولغةً . نعم ان الآداب اليونانية

١) راجع استرابون (ك ١٦ ف ٢) وپلينيوس (ك ٥) الخ
٢) راجع الصفحة ٢٩

كانت قد دخلت البلاد بدخول السلوقيين واصابت نجاحاً جديداً في ايام الرومانيين غير ان هذا النجاح كما نبَّه على ذلك العلَّامة نُلدك لم يتَّصل الى درجة امتدَّت معها اللغة اليونانيَّة او الآداب اليونانية امتداداً عظيماً بل كانت غاية ما نالوا منهُ ان صنائع المغرب وطريقة المعاش فيهِ قد فازت بشيء من التقدّم وان بعض عناصر الحضارة الغربيَّة قد تسرَّبت الى افكار القوم المتمدّنين ولغتهم . قال نُلدك : « امَّا القول بان اللغة السريانيَّة قد زالت من المراكز المتهذّبة فهو من قبيل المبالغة والغلوّ لانَّ الآراميّة كانت لغة قديمة استعملها اهل التمدن في التخاطب والكتابة بينما كان القوم في رومية وارباضها لا يعرفون في ذاك الوقت حروف الهجاء . وفي ايَّام ملوك الفرس الذين كان اشهرهم قورش الملك اتُّخذت الآرامية لغة رسميَّة في مصر وفي آسية الصغرى ايضاً اي في خارج موطنها الاصلي . وفي ايَّام الامبراطرة الاوَّلين الرومانيين نجد الآرامية ايضاً كلغة رسميَّة لا في تدمر وحدها بل ايضاً في المملكة النبطيَّة حتى بلاد العربيَّة في الجهة التي تُعرَف اليوم اي في ناحية غريبة عن منشإ اللغة المذكورة على انَّ ذلك لم يكن نتيجةً لتغلُّبها السالف بدليل ان آثار تدمر والنبط تنطق بان هذه اللغة اصابت نموًّا وانتشارًا فيما بعد ايَّام ملوك الفرس وعلى ذلك فقد كانت اللغة الحيَّة في سوريَّة وبها كان القوم يتخاطبون ويتكاتبون

« نعم انَّ اليونانيَّة كانت من زمان قد حلَّت محلّها في الاصطلاح الرسمي لكن القوم في ما خلا ذلك لم يكونوا يكتبون ولا يتكلَّمون الَّا بالآراميَّة ولا يصحّ في كل حال تعليق اهميَّة كبيرة على ما كان يعملهُ بعض اهل المدن من تكليف معلمي المدارس بكتابة بعض تواريخ يونانيَّة على مدافن امواتهم مع انهم يكادون لا يفقهون منها كلمة واغلب هذه التواريخ مشوَّهة بالاغلاط فوق ما يمكننا وصفهُ (١ » انتهى كلام نلدك

فيُستدلّ ممَّا مرَّ بيانهُ ان مقاطعة كوماجينة كانت كبقيَّة سوريَّة آراميَّة محضة كما سبق لنا اثبات ذلك في غير هذا الموضع . امَّا مستخدمو الحكومة وقليلاون غيرهم من افراد السكَّان فكانوا يفهمون اليونانيَّة ويتكلَّمون بها لا اكثر

وفي اثناء القرن الثالث والقرن الرابع تقسَّمت سوريَّة تقسيماً اداريًّا جديداً

---

١) راجع المجلَّة الاسيويَّة الالمانيَّة (ZDMG) سنة ١٨٨٥ ص ٣٣٢

وسنذكر تفصيل هذا الامر واخباره في خلال مقالتنا هذه . امَّا كوماجينة فتسمَّت على إثر التقسيم المذكور بسوريَّة الفراتية نسبةً الى الفرات وجُعلت هيرابوليس (منبج) قاعدةً لها وجرى كذلك بعض التعديل في حدها الجنوبي فتمدَّد الى الجنوب ولاسيما في النواحي القريبة من الفرات غير انهُ سُلخت عنها ناحية حلب وأُلحقت بسوريَّة الاولى

وكانت في جنوبي كوماجينة ناحية تُدعى « القورسيَّة » ولا بدَّ لنا من توفية الكلام حقَّهُ على هذه الناحية نظرًا لما يترتَّب على تعريفها من الفائدة في المسألة التي نحن بصددها

وكان لهذه التسمية كما لغيرها من التسميات الجغرافيَّة امتداد يعظم ويقلُّ بحسب الازمنة ففي ايَّام استرابون كانت تُطلق على ارض واسعة تذهب من جبل امانوس الى الفرات وتشمل خلا ناحية قورس ناحيتي حلب ومنبج . غير انَّها بعد ذلك كايَّام القديس يوحنَّا فم الذهب والقديس مارون مثلًا انحصرت بناحية مدينة قورس فعن هذه الناحية الاخيرة نتكلَّم الآن ولمزيد التوضيح ندعوها « القورسيَّة الصغرى » وسنبحث عن وصفها في كتب توادوريطوس الشهير الذي تولَّى اسقفيَّتها مدَّةً طويلةً من السنين

كانت مسافة القورسية الصغرى اربعين ميلًا في عرض مثلها وكانت فيها جبال معتدلة الارتفاع بين سبعمائة وثمانمائة متر معظمها كاسٍ بالغابات . ومع انها ليست بذات ثروة وغنى كان فيها نحو ثمانمائة محلّ بين دساكر وقرى كبيرة كما يتبيَّن ذلك من رسالة لتوادوريطوس كتبها الى القديس لاون الكبير فيها يخبر البابا المشار اليهِ انهُ يعتني بثمانمائة كنيسة (١ . ولم تكن فيها سوى مدينة واحدة اعني بها قورس التي باسمها تسمَّت الناحية كلها . وسنذكر كيف كانت المدينة في ايَّام القديس مارون غير انَّنا قبل ذلك يجب ان نعيّن موقعها وموقع الناحية التي كانت قاعدة لها ومركزًا مدنيًا ودينيًا

على مسافة ستين كيلومترًا شماليّ حلب تجد مدينة كلّس التي هي قصبة قضاء يسمَّى باسمها واذا توغَّلتَ في الجبال على مسافة خمسة عشر كيلومترًا نحو الشمال الغربي تدلُّك الخارطة على شبه وادٍ ففي هذا الوادي كانت مدينة قورس التي كان توادوريطوس اسقفاً لها وحتى اليوم ما زالت خرائبها ناطقة بكبرها واتساعها واهل البلاد يسمونها

١) راجع الرسالة ١١٧ وفيها يعترف توادوريطوس باولية الحبر الروماني . راجع ايضاً الرسالة ٤٢

« قورس » او « كورس » وليس بين ايدينا لسوء الحظ وصف مدقّق لهذه الخرائب والبلاد المجاورة لها لأننا لم نزرها كما ان السيّاح القليلين الذين زاروها لم يتركوا لنا شيئاً من نتيجة ابحاثهم عنها . وآخر من زارها من السيّاح هو المسيو برتلمي ترجمان قنصليّة فرنسة في حلب وذلك في شهر ايلول سنة ١٨٩٤ غير انّنا لم نرَ من تقريره سوى خلاصة يسيرة ظهرت في نشرة مجمع الكتابات لسنة ١٨٩٥ (١ تتضمّن ثلاثة رسوم شمسيّة تمثّل « اخربة قورس العظيمة » ووُجد ايضاً بين اوراق المستشرق الشهير غيلدمَيْستر مقالة عن قورس لم تُنشر بالطبع (ZDPV, XIV, 82) وكل هذه الناحية التي يهمّ البحث عنها كثيراً توضيحاً لمنشإ الطائفة المارونيّة وتاريخ النصرانيّة في سوريّة تستحقّ ان يقصدها الباحثون وينقّبوا في آثارها بالتفصيل والتدقيق . غير انّنا استدراكاً لتقصيرهم بذلنا الجهد حتى نجمع من الكتب كل ما له بالقورسيّة علاقة قريبة او بعيدة وسنجعل جلّ اعتمادنا في هذه المسألة على مصنّفات توادوريطوس ونتخذهُ إماماً لنا في بحثنا هذا

٢

اذا تابعنا فورير (٢ وجب القول بان قورس من اقدم المدن السوريّة وانّها سبقت دمشق لانّ هذه على موجب قوله قد أسستها احدى المستعمرات التى اتت من قورس . غير انّ تعليل فورير منقوض لان آية النبي عاموس (٩ : ٧) التي يعتمد عليها لا تصح له الّا اذا ثبت انّها تشير الى مدينة سوريّة لا الى ناحية من اسية الصغرى مع ان هذا الراي الثاني اقرب واوفر احتمالاً (٣

وزعم آخرون انّها تأسست اكراماً واجلالاً لقورس العظيم ملك الفرس ولعلّ هذا الزعم ناجم عن كتابة بعض المؤرخين البيزنطيين الذين كانوا يكتبون Κύρος بدلاً من Κυῤῥος . وكان موقع المدينة في ناحية قليلة التضاريس وكان فيها على عهد الرومانيين طريقان رومانيان تتّجه أحداهما الى الرها والأُخرى الى حماة (٤ ويظهر من التاريخ انّها

١) راجع Comptes-rendus de l'Acad. des Inscriptions, 1895, p. 469

٢) Furrer, ZDPV VIII, p. 39

٣) راجع قاموس الاداب الكتابية لفيكورو في مادة Cyrène

٤) كتاب المسالك لانطونين (Itinerarium Antonini (ed. Parthey, 84, 86, 87

كانت اذ ذاك مهمة لأنَّها احالت اسمها الى ناحية كبيرة مثل « القورسيَّة » التي كانت تشتمل كما سبق القول على نحو النصف من مقاطعة كوماجينة غير ان اتساعها تبدَّل اخيرًا بالضيق كما تقدَّمت ايضاً ملاحظة ذلك

ويحتمل ان تكون قورس قد ابتدأت في هذه الفترة تنحطّ قليلًا عن مقام مجدها غير انَّها كانت في ايَّام توادوريطوس والقديس مارون موقعاً حصيناً يحمي قلاع ناحية الفرات (١ واستمرَّت كذلك حتى الفتح العربي فأُلحقت فيهِ بناحية العواصم (٢ وفي ايَّام عبد الملك ضُربت فيهِ سكَّة (٣ ممَّا يثبت انها كانت اذ ذاك صاحبة شأن ومقام وقد استرجعها نور الدين من الصليبيَّة ومن بعدهِ لم نعثر لها على ذكر ونظن انهُ ما طال الامر حتى أُهملت وهُجرت غير انَّنا لا نجسر على متابعة من قال بان نور الدين المذكور هو الذي اخربها . وهذا كل ما نعلمهُ من تاريخ قورس المدني

وفي ايَّام توادوريطوس التي نهتمّ لها بنوع خاصّ لانها كانت بالوقت نفسه ايام القديس مارون تظهر قورس كمدينة صغيرة لان المؤرخ المذكور يسميها « πολίχνη »(٤ غير انهُ يجب الحذر من اتخاذ هذه التسمية على حرفيتها فكما ان اهالي لندن وباريس الذين يضارعون او بالحري يتجاوزون شعب مملكة او اكثر قد ينزّلون سائر المدن منزلة اماكن حقيرة لا اهمية لها هكذا يمكن ان يكون قد خطر مثل هذا الخاطر للمؤرّخ توادوريطوس الذي ائتلف رؤية محاسن انطاكية وطنهِ وجزيل اتساعها . ومعلوم انها كانت اذ ذاك ثالثةَ حواضرِ العالم المتمدّن او على الكثير رابعتها . وبناء عليهِ سترى بعد هذا انهُ لم ينل عزاء تامًّا بسبب اضطراره الى فراق انطاكية والاقامة في حاضرة اقليميَّة كمدينة قورس التي يشهد باهميتها الحقيقيَّة ان الحكومة شيَّدت فيها ثكنةً للعساكر ما بين طريقين عظيمين رومانيين

والظاهر انها لم تحوِ غير قليل من الآثار التي وفَّرها التمدُّن اليونانيُّ الروماني في المدن السوريَّة كالاقنية والمناهل والاروقة المغطَّاة المستندة الى اعمدة ممَّا كان يُبنى في

١) راجع C. R. Acad. Inscript., 1902, p. 513

٢) راجع فتح البلدان البلاذري ص ١٣١ و ١٤٩ وقدامة ص ١٥٣ (طبعة دي غوري) امَّا العواصم فمرَّ ذكرها في المشرق (٦ : ١٢١)

٣) المجلَّة الاسيويَّة الالمانيَّة ZMDG, 1889, p. 684

٤) راجع مجموع آباء اليونان لمين (ج ٨٣ ص١٢٢١)

الشوارع المهمّة ليقي المارّة في ايام الصيف من حرّ الشمس وفي ايّام الشتاء من الامطار (١ وكل ما احتوتهُ من هذا القبيل قد تمَّ بمساعي وعناية اسقفها العظيم الذي لا نبالغ اذا سمّيناهُ مؤسسها الثاني

قال توادوريطوس المذكور: « انني شيدتُ في قورس من اوقاف الكنائس اروقةً عموميّة وبنيت جسرين عظيمين واعتنيت بالحمّامات العموميّة ثم انني اتخذت قناةً واجريتُ فيها مياه النهر القريب وهكذا متَّعتُ المدينة بالمياه الغزيرة التي كانت محرومةً منها قبلًا (٢ » وكانت قورس خاليةً من طبيب فسعى توادوريطوس كل السعي في حمل احد الاطباء على الاقامة بمدينتهِ الاسقفيّة (٣ ولهُ غير ذلك ايضاً من الاعمال الدالّة على اهتمامهِ العظيم بالحاجات الزمنيّة لابناء رعيتهِ

واننا لنأسف عن عدم تمكننا في هذا المبحث الجغرافي خاصةً من الاطناب في مآثر هذا الرجل العظيم الذي يُعدّ من مشاهير عصره ونوابغ دهرهِ فقد كان متَّسع المدارك رفيع الفهم محتقراً حطام الدنيا وكان مع ميلهِ الى المفاخر والمعالي يقدم على العظائم ويبذل كل مقتناه في سبيل الفقراء والآثار النافعة للجمهور. وكان من الذكاء على جانب عظيم يرتاح الى الاطلاع على كل شيء والوقوف على كنههِ وحقيقته. ومن الخطابة في اعلى مقاماتها لا يفوقهُ فيها احد غير فم الذهب. ومن المنصب الاسقفي في اسمى مراتب الهمّة والغيرة والتقى بحيث يصح ان يُجعل إماماً وقدوة لكل الاساقفة في كل عصر (٤ ولهذا كان احقّ مؤرخ بتدوين سير الابطال المسيحيين كالقديس مارون الذي لولا آثار قلمهِ لجهلنا ترجمتهُ

ان ما نعلمهُ من الجغرافية الطبيعيّة لقضاء كلّس يشرح ويتمم وصف القورسيّة

---

١) كانت كل المدن السوريّة المهمّة مشتملة على مثل هذه الاروقة كما يتبيَّن ذلك من مشاهدة تدمر وجرش (عجلون). ومن بقايا الاروقة المذكورة العمد الكثيرة المتراكمة حتى اليوم في ميناء جبيل وشوارعها ٢) تاريخ الرهبان (فصل ٢١ والرسالة ٨١)

٣) يتكلم توادوريطوس في الرسالتين ١١٤ و ١١٥ عن كاهن اسمهُ بطرس عانى التطبيب زماناً طويلًا في قورس. واكتشفوا ايضاً في ديامس روميه حجر ضريح لكاهن من المتعاطين صناعة الطبّ. غير انّ القوانين التي ترتّبت بعد ذلك حظرت الطب على رجال الاكليروس

٤) ان سيرة تواودوريطوس هي من السير البالغة حدّ الكمال تستحقّ ان يطالعها كل من اختارهم المولى لحمل عبء الأسقفيّة الثقيل

مثلما يُفهم من الافادات المنشورة في كتابات توادوريطوس فان البلاد كلها مشغولة بجبل الاكراد وهو عبارة عن أسناد اي جبال صغيرة منفصلة عن سلسلة امانوس الكبيرة ولم تزل هذه الجبال حتى ايامنا كثيرة الآجام والغابات (١ بحيث تدهش جميع السيَّاح الذين اعتادوا النظر الى تعرّي بقيّة سوريَّة من الاشجار . غير انهم اذا بحثوا عن القرى الثمانمائة التي كانت في القرن الخامس لا يقفون لها على اثر

وقد علمتَ ان توادوريطوس يتكلم على نهر جرَّهُ الى المدينة وعن جسرين كبيرين شيَّدهما هناك . وفي الحقيقة انهُ تمرّ في جوار قورس عدَّة انهار منها نهر عفرين اخصّ السواعد الشماليّة لنهر العاصي . وبالقرب من قورس يلتقي بالنهر المذكور نهران صغيران احدهما صابون سو والثاني جاموس ديرسي ولعلَّ مياه نهر صابون القريب من اخربة قورس هي التي جرَّها توادوريطوس الى كرسي اسقفيَّته

ومع قرب الانهر المذكورة كانت بقيّة الناحية القورسيَّة كثيرًا ما تصاب بالجفاف وقد ذكر توادوريطوس خبر جفافٍ اصابها في رسالةٍ وجهها الى اريوبنداس يسألهُ فيها ترك الديون التي لهُ على المزارعين باراضيهِ الواسعة في القورسيَّة (الرسالة ١٣) ويذكر ايضًا خبر جفاف آخر في ترجمة بوليخرونيوس (٢

هذا ما استطعنا جمعهُ من المعلومات عن مدينة قورس وجيرتها غير اننا لم نقف على معلومات تُذكر عن سائر اماكن القورسيَّة لان توادوريطوس لا يشير في ما خلَّفهُ من الكتابات الَّا الى قليل منها مثل اسيكا ونيتيس وتيليا وترغالا وراما وسيتَّا ونيارا ونيموزا (٣ ولم يلحق بهذه الاماكن شيئًا من الاوصاف ما خلا نيارا فانهُ وصفها بانها مدينة . وقد رأيتَ انَّ لاكثر الاماكن السابق ذكرها اسماء آراميــة وهو امر طبيعي في ناحية آرامية خالصة كما مرَّ لنا اثبات ذلك في الكلام على كوماجينة إجمالًا وكما سنثبتهُ بعد هذا في الكلام على القورسيَّة خصوصًا

---

١) ممَّا يجب التنبيه اليهِ هو انهُ يوجد بين اشجار هذه الغابات اشجار مثمرة تنبت من تلقاء نفسها . وهكذا كانت الحال في ايَّام توادوريطوس لانهُ يخبر عن القديس يعقوب الناسك الشهير انهُ كان يقتات من ثمار اشجار الغاب (مج ٨٢ ص ١١٠٩)

٢) راجع مجموع الآباء لمين اليونان (ج ٨٢ ص ١٢٦١)

٣) في المجلَّد نفسهِ ص ١٢٢٩ , ١٢٣٣ , ١٢٥٣ , ١٢٥٤ , ١٢٥٧ , ١٢٥٩ , ١٢٦٠ , ١٢٦٤

ولم يكن سكّان القورسيّة من ذوي الغنى والثروة بدليل ان اسقفهم كان يضطرّ الى اسعافهم والقيام بالاشغال العموميّة لديهم · وكان في بعض المرّات يرفع العرائض من اجلهم الى الامبراطورة بوخرية القديسة وغيرها من كبراء المنصبين (١ وهي تدلّ من جهة على شهامة قلبه وحنانه ومن جهة ثانية على شقاء الاهالي الذين بهظتهم الضرائب وثقلت عليهم جدًّا حتى ان الكثيرين منهم لعجزهم عن القيام باعبائها كانوا يؤثرون التسوُّل وهجر الاوطان (الرسالة ٤٢)

وان قيل ما اللغة التي كان القوم يتكلّمون بها في القورسيّة اجاب الذين يتسرّعون في الاحكام قبل الوقوف على كنه المسائل انها ينبغي ان تكون اليونانيّة لان توادوريطوس اسقف البلاد كتب بها · غير انّ هذا التعليل لا يرضينا ولا يصلح حجّةً لاقناعنا لانّ لدينا من الادلّة الواضحة ما يؤيد العكس (٢

رأينا في مقالة سابقة (المشرق ٤:١٠٨٦) ان توادوريطوس مع ان لغتهُ الاصليّة هي اليونانيّة (٣ كان عارفاً ايضاً بالسريانيّة · غير ان المقام لم يسمح اذ ذاك بالافاضة في الكلام على هذه المسألة المهمّة ولولا ذلك لأتينا بشهادة المؤرخ اليوناني ملالا (٢ : ١١٠) طبعة اكسفورد) وهو يثبت ان العامّة في انطاكية كانوا يتكلّمون الآراميّة واماَّ الباقون فاذا كانوا لا يتكلّمون بها فكانوا على الاقل يفهمونها · ويثبت الاستاذ العالم كوغنير (Kugener) اثباتاً صريحًا (في الشرق المسيحي ١٩٠٢ ص ٢٠٢) ان السريانيّة كانت اللغة الشائعة في انطاكية وضواحيها

وهنا نستأذن في ان نضمّ الادلّة التابعة الى البراهين التي سبق ايرادها : ان ابوي توادوريطوس كانت لهما علائق مكينة مع الناسك القديس مقدونيوس وقد اخبر توادوريطوس بالتفصيل كيف ان تجرُّده لخدمة الله كان نتيجة تحريضات الناسك

١) راجع رسائلهُ ٤٢ – ٤٥

٢) اذا كان برهاننا صحيحاً اثبت خروج الذين يعلّلون التعليل الآتي عن قواعد الاستدلال العقلي وهو قولهم : « ان جملة اساقفة في سورية كتبوا باليونانيّة فاذًا سوريّة كلها كانت تتكلّم اليونانيّة » وسنثبت في ما يلي من كلامنا عن القورسيّة ان نتيجتهم هي اوسع من المقدّمات · وقد سبق لنا تبيان ذلك في كلامنا على ناحية انطاكية (المشرق ٤:١٠٨٢) التي يحاول البعض ان يصوّروها لنا مثل بلاد يونانية · وفي املنا اننا نستطيع اثبات الامر نفسهُ عن سائر نواحي سورية متى تيسّرت الفرصة

٣) كما قد صرح بذلك راجع مجموع مين (في المجلد ٨٣ ص ٨٤٣)

المذكور فقال ان مقدونيوس كان يتردّد على منزلهم في انطاكية فلمّا ترعرع توادوريطوس اخذ الناسك يرغّبهُ ترغيباً شديداً في خدمة الله (١ والحال ان مقدونيوس لم يكن يعرف غير السريانيَّة (٢ واذ قد ثبت ذلك وكان التسليم صعباً بان مخاطبات هذا الرجل القديس كانت تجري بواسطة ترجمان فيترجَّح عندنا انهُ لم يكن توادوريطوس وحدهُ يفهم السريانيَّة بل ان ابويهِ ايضاً كانا يفهمانها وكانت هذه العيلة كما هو معروف من العيال الوجيهة في انطاكية

ولنا في الحادث الآتي بيانهُ دليل اقوى واصرح فقد اخبر توادوريطوس في تاريخ الرهبان (٣ ان الشيطان ظهر لهُ ذات ليلة في قورس وهو اسقفها فهدَّدهُ تهديداً مخيفاً مرعباً وكان يخاطبهُ باللغة السريانيَّة وكان احد رفقائهِ راقداً معهُ في غرفتهِ فسمع ايضاً الكلام عينهُ وسمعهُ كذلك الحشم الذين في المنزل. فمن هذا الحادث الذي اقتصرنا على ذكر خلاصته يسوغ لنا ان نستنتج النتيجة الآتية :

ان ظهور الشيطان الذي اخبر عنهُ توادوريطوس لا يخلو من ان يكون امَّا حلماً مجرَّداً او رؤيا حقيقيَّة. على ان الظروف التي قارنت الحادث تُرجّح انهُ كان من قبيل الثاني ومع ذلك لا نجد بأساً اذا عدَّدناهُ من قبيل الافتراض الاوَّل بل انهُ ربَّما جاء من هذه الحيثيَّة أَوفق وأَفيد لما نحن بصددهِ وعليهِ اذا قلنا انهُ كان حلماً مجرَّداً فبما ان النائم لا يحلم اصلًا بلغة لا يعرفها او بلسان لا يتكلَّم بهِ الَّا نادراً ينتج عن ذلك ضرورةً ان توادوريطوس كان يتكلَّم عادةً السريانيَّة او بالاقلّ انهُ كان يفهمها بسهولة. واذا قلنا ايضاً انهُ كان رؤيا حقيقيَّة يصعب ان نبيّن كيف ان جميع سكان الدار الاسقفيَّة فهموا مثل توادوريطوس تهديدات الشيطان لو لم تكن اللغة السريانية مألوفة عندهم

ويقول توادوريطوس ايضاً (في المجلد ٨٣ ص ٣١٣) انهُ وجد كتباً كثيرة سريانيَّة من تآليف برديصان والراجح انهُ لقيها ضمن ابرشيتهِ حيث كانت اقامتهُ او في انطاكية التي كان يتردَّد اليها حيناً بعد آخر كما سترى في اثناء مقالتنا هذه . ولا نجد

---

١) تاريخ الرهبان (مين ٨٢ ص ١٢١٤ , ١٢١٥)

٢) راجع المشرق (٤: ١٠٨٣) امَّا الناحية الواقعة بين انطاكية وحلب فراجع بشأنها الاباء اليونان المجلد ٨٢ والصفحة ١١٦١ حيث ورد ذكر السريانية كلغة البلاد

٣) راجع مجموع الاباء لمين (مج ٨٢ : ١٣٤٣ , ١٣٤٤)

ادنى صعوبة للتسليم بالفرض الثاني لانهُ يدلُّ على انتشار الكتب السريانيَّة في مدينة قد طالما صوَّروها لنا يونانيَّة محضة

وكان توادوريطوس يرغب في زيادة النسَّاك الكثيرين بابرشيَّتهِ ويلتذّ بمحادثتهم طويلاً وسنرى بعد هذا انهُ لم يكن احد من هؤُلاء النسَّاك يعرف اليونانية . وبما انهُ لا يأتي في كل ما خلَّفهُ من الكتابات بذكر ترجمان وجب التسليم بان محادثتهُ التي كانت تطول في بعض الاحيان ايَّاماً (١ قد كانت تجري بالسريانية وانهُ كان يعرف هذه اللغة حقّ المعرفة ويتكلّم فيها بسهولة

وممَّا يجب التسليم بهِ وينتج ضرورةً عما قدَّمناهُ هو ان الاسقف المذكور ما كان وحدهُ يفهم السريانية بل ان جميع عشرائهِ من سكان الدار الاسقفيَّة كانوا يفهمونها ايضاً ولا يبعد انهم كانوا يتكلَّمون بها . واذا صدق هذا الامر على الدار الاسقفية فماذا ينبغي القول عن سائر المدينة التي كان الاسقف كما سبق القول اعظم شخص معتبر فيها ؟

ليس الجواب على هذا السؤال بصعب لانَّ كاتب ترجمة توادوريطوس يصرّح دون مواربةٍ « بان الجميع تقريباً في قورس وفي القورسيَّة كانوا يتكلمون باللغة السريانية وان عدد اليونان لم يكن فيها شيئاً مذكوراً (٢ » ويؤخذ من كلامهِ انَّ ذلك كان أخصَّ الاسباب التي حملت توادوريطوس على القبول رغماً عن ارادتهِ باسقفيّة هذه المدينة لانهُ لمـَّا كان عالماً بارعاً وخطيباً مفلقاً يُضاهي فم الذهب بل يكاد يفوقهُ ايضاً في مسائل تفسير الكتاب المقدَّس رضي ولكن مع كرهٍ ومشقَّة نفس بان يدفن كل ما رُزق من مواهب العقل في مدينة صغيرة قد لا تأتي فيها هذه المواهب بفائدة لعدم وجود جمهور من السامعين يقدر على مجاراتهِ في السبيل الذي يرومهُ . غير انهُ ما لبث ان ذلَّل هذه العواطف البشريَّة وانقطع بكلّيتهِ الى الاهتمام بمنفعة وخير القطيع الذي فُوّض الى تدبيرهِ

وللقارئ ان يعترض بخطب توادوريطوس ويقول انها كُتبت كلّها باليونانية فنحن نتلقَّى الاعتراض بالقبول غير واجدين شيئاً من الصعوبة في ردّهِ وسبب ذلك ان غالب

١) راجع في تاريخ الرهبان ترجمة مار يعقوب الناسك (ف٢)
٢) الاباء اليونان لمين (مج ٨٤ ص ١٤٣ ,١٤٤)

الخطب التي لتوادوريطوس ألقاها في خارج قورس لانهُ كان من محبّي الحركة والتنقّل وكثيرًا ما كان يزايل ابرشيّته بدليل انهُ لمّا ثارت الخصومات بسبب بدعة نسطور وكان اسقف قورس صديقاً للمبتدع من صباه صدرت لهُ الاوامر من قبل الامبراطور ان لا يبارح مركزهُ فشقّ عليهِ هذا المنع كثيرًا كما يتبيّن ذلك من رسائلهِ ولكن ما لبث المنع ان ارتفع بعد مدّة وجيزة فعاد الاسقف المذكور الى اسفارهِ

وكان توادوريطوس يتردّد خاصّةً على اثنتين من المدن اعني بهما انطاكية وبيريه (حلب) وكانت الاولى على مسيرة يومين من مركزهِ والثانية اقرب من هذه المسافة (١

اما انطاكية فكانت وطنهُ ولهذا كان يكثر التردّد اليها حتى اضطرّ الى الاعتذار لرؤسائهِ عن طول اقامتهِ بها (٢ . واشهر خطبه وافصحها كما هو معلوم عشر خطب موضوعها العناية الالهيّة وقد شهد في رسالتهِ الى البابا انهُ ألقاها كلها في مدينة انطاكية ثم انهُ في رسالتهِ الخامسة والسبعين يذكر خمسة اسباب حماتهُ على اعزاز اهالي حلب وآخر هذه الاسباب هو انهم «كانوا يسمعون خطبهُ بلذةٍ ومسرّة ولهذا كان يبذل جهدهُ في أن يلقي عليهم احسن وافضل ما عنده من هذا الصنف» . ولنا ان نقول بعبارة أخرى انهُ كان يحب الكرازة في انطاكية وحلب ليقينهِ بان السامعين في هاتين المدينتين يفهمون خطبهُ اليونانية ويقدّرون فصاحتها بخلاف الحال في قورس

على انهُ لا يصحّ الاستنتاج من هذا ان حلب كانت بلدة يونانيّة فقد ذكر نلدك (٣ ان الاحوال فيها من الوجه التاريخي كانت شبيهة باحوال الرُّها ومن المعلوم ان الرُّها كانت في ذاك العهد آراميّة بحتةً بل مركز الآداب الآراميّة ولهذا يجب القول ان حلب ايضاً كانت اراميّة بسكّانها ولغتها ولكنها لمّا كانت مدينة كبيرة تجاريّة لم يكن ليصعب فيها وجود جمهور من السامعين يجيدون فهم اليونانيّة . فان السوريين في كل زمان كانوا يتعلمون كثيرًا من الالسنة والامثلة على العارفين بينهم بلغات عديدة لم تفت

---

١) اخبر توادوريطوس انهُ كان يسافر مساء النهار من حلب فيصل الى قورس في صباح اليوم التالي

٢) اعمال الاباء اليونان (مج ٨٣ ص ١١٢٥ و ١١٤٦)

٣) راجع المجلة الاسيوية الالمانيّة (ZDMG) سنة ١٨٨٥ ص ٣٣٤

قطّ من يلتمسها . وكما اننا اليوم نجد في المدن السوريَّة عدداً غفيراً ممَّن يفهمون الخطب باللغات الاجنبيَّة هكذا كان الامر في ايام توادوريطوس . ومثلما لا نستطيع ان نستنتج في الوقت الحاضر ان اللغات الاجنبية متغلّبة على اللسان الوطني هكذا القول ايضاً عن خطب اسقف قورس

فاذا كان الذين يفهمون اليونانيَّة في قورس قوماً قليلين فما ظنُّك بسائر الناحية ؟ وقد اخبر توادوريطوس ان سكّان المقاطعة الفراتية التي كانت القورسيَّة تابعةً لها كانوا يتكلمون السريانية (١

هذا فضلاً عن ان هيرابوليس (منبج) مركز رئيس الاساقفة الذي كان يخضع لهُ اسقف قورس كانت ايضاً مركزاً مهمّاً سريانيّاً . وبعد قليل لوفاة توادوريطوس تولى الكرسي المذكور فيلكسينوس احد مشاهير الكتبة عند السريان . وفي جرمانيقية التي تسمى اليوم مرعش كان القوم ينصبُّون ايضاً على آداب اللغة السريانية

ولقد سبق لنا ايضاح ما كان من هذا القبيل في مدينتي انطاكية وحلب (٢ وعلى ذلك لم يبقَ من داعٍ للتسليم بان ابرشية قورس وحدها التي كانت في شمالي سوريَّة محفوفةً من كل انحائها بالبلدان الآرامية قد خرجت عن هذه الدائرة . والحقّ يقال ان هذه الناحية كلها لم تكن لها غير لغة واحدة اي الآرامية التي كان المتأدبون يضيفون اليها معرفة اللغة اليونانية . قال المستشرق ساخو : « من اعظم مَرافق النصرانية ان الوعّاظ كانوا يستطيعون ان يكرزوا بلغة واحدة اي الارامية من حدّ انطاكية حتى بابل »

واذا حصرنا الكلام في المتوحدين الذين كانوا يسكنون صحاري القورسية نرى الادلّة متظاهرة على انهم كانوا باسرهم تقريباً آراميين يتسمّون باسماء سريانية مثل مايسيماس واشبسيماس ومارون وسلامانس وماريس وزابيناس وباراداتوس وتاليلايوس

١) تاريخ الرهبان (٨٠ ص ٣٢٧ راجع ايضاً المجلَّد **٨٢** ص ١١٦٣ و ١١٦٤) وفيه يخبر كيف ان رهبان دير على الفرات كانوا يرتلون المزامير بالسريانية التي هي لغتهم الاصلية كما ذكر ذلك بالنص الصريح

٢) راجع كذلك المشرق (٤ : ١٠٨٢)

ومارانا (١ وقد قال توادوريطوس عن الاوَّل اي مايسيماس قولًا صريحًا « انهُ كان سريانيًّا بلغتهِ (٢ » امَّا الراهب القديس ابراهيم الذي ترقَّى بعد ذلك الى اسقفية حرَّان في بلاد ما بين النهرين فذكر توادوريطوس في معرض اخباره عن زيارة الامبراطور لهُ مع كل حاشيتهِ ان الموما اليهِ لم يكن يفهم كلمة واحدة يونانية (٣ . وروى في موضع آخر عند كلامهِ على الناسك تاليلايوس انهُ لمَّا زارهُ تعجب كثيرًا « اذ سمعهُ يجاوبهُ باليونانية » (٤ لان الناسك المذكور كان على حسب رواية اسقف قورس فيليقيّ الجنس وكل ذلك يدلّ على ان معرفة اليونانية لم تكن شائعة بين السوريين الوطنيين

وان قيل ما هي الليتورجية التي كان اكليروس قورس يجري عليها قلنا ان الجواب على هذه المسألة امر صعب بالنظر لعدم وجود معلومات صريحة بشأنها . ولكن بما اننا قد اثبتنا ان الارامية كانت لغة الناحية ساغ ان نستنتج ان الليتورجية كانت تجري بهذه اللغة ذاتها ولعلها لم تكن تجري بغيرها الَّا في كنيسة قورس الكاتدرائية . وفي ترجمة الناسك ابراهيم الذي سبقت الاشارة اليهِ دليل ظاهر على ما نقول فقد كان على ما روى توادوريطوس من ابناء القورسية حيث صرف زمانًا طويلًا في الحياة النسكية وفي الختام شخص الى لبنان وهدى فيهِ كثيرين من الوثنيين وعلَّمهم العبادة الالهية الحقيقية . ولا ريب انهُ كان يخاطبهم بالسريانية لانهُ لم يكن يعرف سواها ويُقيم لهم الليتورجية كما قد شاهدها مستعملةً في القورسية وطنه (مج ٨٢ ص ١٢٢٥) قال ساخو : « ان الاراميين نشروا النصرانية في الشرق » وعلى ذلك فان الكنائس التي أسَّسوها قد علَّموها بالضرورة ليتورجية آرامية . وكانت السريانية كما هو معلوم اوَّل لغة ليتورجية مستعملة (٥ وفي ما اوردناه بهذا الشأن كفاية للقارئ حتى يتيسَّر لهُ

---

١) راجع تاريخ الرهبان

٢) راجع مين (مج ٨٢ ص ١٢١٦)

٣) تاريخ الرهبان ص ١٢٢٨

٤) هذا ممَّا يوجب الافتراض ان الاسقف خاطبهُ اولًا باليونانية

٥) راجع في معجم اللاهوت الكاثوليكي (١ : ١٤٠٢) مقالةً للاب قاليه الصمودي الذي نسب اليهِ بعضهم رأيًا مخالفًا لما نحن فيهِ

الحكم فبقي علينا ان نبحث عن احوال النصرانية في القورسية وهكذا نتمم كلامنا عن جغرافية هذه الناحية

٣

ان القورسية كانت كلها بالتقريب مسيحية في ايام تاودوريطوس كما يُفهم ذلك من عدد الثمانمائة كنيسة التي يقول الاسقف المذكور انهُ كان مكلَّفاً بتدبيرها . ويظهر انهُ كان قد اتخذ بعض اعوان لهُ من الخوارنة الاسقفيين لادارة الكنائس الكبرى في ابرشيتهِ وفي رسالتهِ ١١٣ يسمي اثنين من هؤلاء الخوارنة . وبناء عليهِ يجوز ان نحسب القورسيَّة كلها مسيحية في زمانهِ اذ لم يكن فيها من الوثنيين الَّا افراد قلائل (١

وكان في القورسيَّة جماعة من الهراطقة وعلى الخصوص من المرقيونيين . قال تاودوريطوس : « ان ثماني قرى افسدتها هرطقة المرقيونيين مع الاماكن المجاورة لها ارجعتُها الى الطريق القويم (٢ . وكانت هناك ايضاً قرية اخرى عامرة بالتابعين لمذهب الاونوميين وقرية غيرها اريوسية فتوفقتُ لانارة الجميع بالنور الالهي وهكذا بنعمة الله لم اترك في ابرشيتي اثراً للهرطقة ولم يكن ذلك ليستطاع دون اقتحام اخطار وإراقة دم لأنني كثيراً ما تعرَّضت لرجم الهراطقة » . ويشهد في موضع آخر (٣ انهُ عمَّد عشرة آلاف من الهراطقة المرقيونيين وإثر هذا الانتصار الاخير على الجحيم ظهر لهُ الشيطان كما سبق الخبر محاولًا توقيفهُ عن قتال الغواية والضلال

امَّا دخول النصرانيَّة الى القورسيَّة فلا نعلمهُ بالتحقيق ولكننا نظن انهُ كان في الصدر الاول بالنظر الى قرب هذه الناحية من انطاكية احد مهود الدين المسيحي وقد حضر اساقفتها مجمع نيقية . واماَّ خلفاء تاودوريطوس فلا نعلم منهم غير اسماء ثلاثة فقط (٤ ولا ريب ان كرسي قورس فقدَ اهميتهُ من بعد انتشار بدعتي نسطور ويعقوب البرادعي . ومع ذلك فقد وجدنا في جريدةٍ لاسقفيات بطريركية انطاكية ترتقي

١) راجع رسالتَيهِ ٦٧ و ٦٨
٢) الرسالة ٨١
٣) تاريخ الرهبان ١٢٤٣ الخ والرسالة ١٤٥ و ١١٣)
٤) لوكيان : الشرق المسيحي (٢ : ٩٣٠ الخ)

على ما نظنهُ الى القرن الثامن ان قورس كانت معدودةً في ذلك العهـد من جملة الكراسي المطروبوليطية لكن لم يكن لهـا اسقفيات تتبعها (راجع اخبار بطاركة انطاكية والقدس في الاسفار الاورشليمية ص ٣٣٧)

ونعلم ان جسدي الشهيدين المعظمين قزما وداميانوس قد دُفنا في قورس ولذلك قد تُسمَّى هـذه المدينة في بعض الاحيان اكراماً لهما بمدينـة القديسين . واخبر توادوريطوس نفسهُ كيف انهُ في ذات يوم نجى من الحريق الكنيسة المشيَّدة على ذكر هذين الشهيدين (١ القديسين . وفي موضع آخر يذكر ايضاً في جملة كنائس مدينتـه الاسقفية كنيسة على اسم الشهيد ديونيسيوس (٢ ويخبر كذلك عن دير قائم بجذاء احدى كنائس قورس (٣ وفي رسالتيهِ ٦٦ و ٦٧ يتكلَّم على هيكل شيَّدهُ هو وكرَّسهُ للرسل القديسين (٤ . وكان في قورس ايضاً مصلًّى على اسم الناسك القديس مرقيانوس ومن العجيب انهُ تشيَّد في حياة الناسك المذكور (٥

فكل هذه الآثار الدينيَّة تجيز لنا الحكم بان الديانة كانت في القورسية زاهرةً زاهيةً بايَّام راعيها الاثيل واسقفها الغيور

ولنا ايضاً دليل آخر على ازدهار الديانة نأخذهُ من وفرة عدد المناسك في الناحية المذكورة التي كانت احسن البلاد ملاءمةً لحياة الزهد والعبادة لانها كثيرة الجبال بعيدة عن المراكز الكبرى والطرق التجاريَّة وافية بحاجات قوم يكتفون بالقليل حتى كان يصحُّ ان تُدعى فردوس المتوحدين ونعيمهم وهذا هو السبب الذي من اجله انتشرت فيها كثيراً هذه الهيئة الاخيرة من حياة النسك . وفي تاريخ الرهبان لتوادوريطوس الذي خصَّص منهُ النصف بتراجم عظماء الرهبان في القورسية قلَّما يأتي بذكر الاديار (٦

١) مجموع الاباء (مج ٨٤ : ص ٧٨٦ و ٧٨٧)
٢) تاريخ الرهبان الفصل ١١
٣) وكانت الكنيسة على اسم الرسل الاطهار . تاريخ الرهبان ١٣٢٩
٤) راجع كذلك المجلَّد ٨٢ ص ١٣٥٠
٥) راجع المجلَّد عينهُ ص ١١٤٧ و ١١٤٨
٦) في الرسالة ١١٧ يتكلم عن أليبوس ويقول عنهُ انهُ « إكسَرخوس الرهبان عندنا » وهي عبارة تدلُّ على وجود دير في قورس او في الابرشية التابعـة لها . ويذكر ايضاً اديارًا أخرى في المجلد ٨٢ والصفحة ١٢٢٥ و ١٢٦٠ غير ان الاديار كانت هناك قليلة جدًّا

بل يذكر المتوحدين الذين كان يحتشد حولهم بعض التلاميذ فيقتفون آثارهم وينهجون نهجهم غير انهم كانوا يعيشون هم ايضاً متوحدين دون ان يجتمعوا ضمن حظيرة دير

وكان توادوريطوس يحبّ ويكرّم هؤلاء الرهبان القديسين الذين كانوا يعطّرون ابرشيَّتهُ بعرف فضائلهم ولهذا كان يكثر من زيارتهم ومحادثتهم وكل ما كتبهُ عنهم في تاريخ الرهبان قد رآهُ فيهم او سمعهُ منهم . على انَّ الرهبان المذكورين قابلوهُ بمثل عواطفه واثبتوا لهُ ذلك لمَّا أُبعد عن ابرشيَّتهِ فانهُ لم يجد اذ ذاك اصدقاء اشدّ اخلاصاً من هؤلاء القوم الذين كانوا كما قال عنهم « يحتقرون هذه الحياة الزائلة متوقعين الحياة الابديَّة (١ » .

وقد سبق لنا تسمية بعض ابطال هذه العيشة النسكيَّة فبقي علينا ان نذكر اخصّ واحد بينهم اعني بهِ القديس مارون وكل ما تقدَّم من الكلام جعلناهُ كتوطئة تمهد لنا السبيل لتعيين وطن هذا القديس العظيم والمكان الذي صرف فيهِ حياته فاذا لم نتوصَّل دائماً الى نتائج نهائية واذا اكتفينا اكثر الاحيان بالظنّ والتقدير فالذنب كلُّ الذنب على فقد المعلومات المؤكدة في هذا الشان . غير ان ما سنبسطهُ ممَّا يستحق الانتباه واملُنا ان يكون محرّضاً لأُولي البحث على الجدّ والتنقيب لعلَّهم يتوفقون الى ما لم نتوفق اليهِ . وفي كل حال ليس من غايتنا ان نازم القارئ باتباع آرائنا ولكنَّنا نتوخَّى من كل ذي ادب ان ينظر فيها منتقدًا حتى تنجلي المشاكل وتتبدَّد الغياهب . وممَّا يسرّنا جدًّا هو ان نداءنا للطوائف المسيحية الشرقيَّة حتى تبذل الجدّ اللازم في الابحاث التاريخية (٢ قد لاقى قوماً يسمعون فهبَّ بعض الادباء واخذوا ينقبون في تواريخ طوائفهم ونشروا منها اشياء حريَّة بالاعتبار واملنا ان يزدادوا حميَّة في هذا الشان لما يُرجى عن عملهم من المنفعة . وفي هذا المقام لا نرى بدًّا من الثناء على بعض أُدباء الطوائف الشرقية لما اتحفوا بهِ الدروس التاريخية من التآليف النافعة كما نمدح ايضاً سائر الذين نشروا في مجلَّة المشرق ابحاثاً مهمة في شؤون طوائفهم وآدابها الطقسيَّة وآثارها القديمة

١) الرسالة ١٣٥

٢) راجع في مجلة المشرق (١ : ٢٦١) مقالتنا المعنونة : « هيَّا الى درس تاريخنا »

٤

اين وُلد القديس مارون ؟ هذه مسألة كان في وسع توادوريطوس كاتب ترجمة هذا القديس ان يجاوب عليها جواباً شافياً غير انهُ لسوء الحظ لم يذكر عنها شيئاً في الكلام الوجيز الذي تركهُ ولهذا وجب علينا ان نسعى بالافصاح عمّا سكت عنهُ . على اننا لسنا باوّل من سعى وراء هذا الامر فان حضرة الخوري ميخائيل غبريل يقول في كتابهِ تاريخ الكنيسة المارونية (ص ٨٤) ما نصّهُ : « ان القديس مارون ولد . . . في بلدة تدعى مارونيا البعيدة نحو ثلاثين ميلًا عن انطاكية في جوار مدينة قورش »

ورد ذكر « مارونية » في ترجمة الراهب مَلْخُس التي كتبها القديس ايرونيموس فقال عنها انها بلدة صغيرة (haud grandis viculus) على مسافة ثلاثين ميلًا شرقيَّ انطاكية (١ كانت ملكاً لصديقهِ ايفاغريوس الكاهن الذي ارتقى بعد ذلك الى اسقفية انطاكية . وكان القديس ايرونيموس ايَّام اقامتهِ في انطاكية يتردَّد الى القرية المذكورة مع صديقهِ ايفاغريوس الموما اليهِ . وهذا برهان آخر على انها كانت قريبة من انطاكية لكن لا يسوغ ان نزيد عليهِ انَّها كانت في جوار مدينة قورس اذ كان بينها وبين هذه المدينة الاخيرة مسيرة يومين على الاقلّ

فالى ايّ شيء اذًا يستند قول من يقولون ان القديس مارون وُلد في قرية مارونية ؟ لا علم لنا بذلك لان توادوريطوس الذي هو المستند الوحيد لكل ما كتبهُ الكاتبون عن القديس مارون لا يذكر شيئاً عن مكان مولدهِ وكل المؤرخين الذين جاؤوا بعد اسقف قورس نقلوا عنهُ واذ كانوا قد اضافوا بعض زيادات الى كلامهِ فليس لهذه الزيادات عند اهل التحقيق الّا قيمة كاتبها . نعم انَّهم قصدوا قصدًا حسناً فرغبوا في ان يوضحوا ما سكت عنهُ توادوريطوس غير انهُ لا غنى للمؤرّخ المدقّق في امور كثيرة عن الاقرار بالجهل والقصور . وزيادةً على ذلك ان التقليدات التي يتناقلها الموارنة ساكتة ايضاً عن مكان ولادة ابيهم القديس مارون ولو كان شيء من ذلك لما تأخر

١) وذكر الجغرافيّ بطلميوس ايضاً مكاناً آخر في سوريَّة يدعى « مارونية » لكن يصعب القول انَّهُ عنى مارونية التي نحن بصددها ونرجح انهُ يريد بها مركزًا في اقليم قنسرين كما ذهب اليهِ هرتمن ZDPV, XXIII, 145 راجع كذلك Ritter, XVII, 1569

البطريرك اسطفان الدويهي عن ايراده . وعليه فاننا نعجب كيف يمكن في هذه المسألة بَسط الكلام اكثر من توادوريطوس والدويهي

ثم اردف صاحب تاريخ الكنيسة الانطاكية (ص ٨٤) قولهُ عن ولادة القديس مارون في مارونية بقولهِ « انهُ درس العلوم في احدى مدارس انطاكية » . وهو ايضاً امرٌ لم يُفدنا عنهُ توادوريطوس وهذا قد اسندهُ الكاتب الحديث الى المودَّة التي زعم انَّها نشأت بين القديس يوحنا فم الذهب والقديس مارون الناسك (١ منذ كانا يدرسان معاً في انطاكية . على انَّنا نقرّ بسذاجة اننا لا نفهم قوَّة هذه الحجّة لا بل نظنُّ انَّ القديس مارون كبقيَّة نُسَّاك زمانهِ في القورسية (٢ كان من اصل آرامي ويجهل اللغة اليونانية ومن ثم انهُ لم يدرس في مدارس انطاكية . وخلاصة القول انَّ الاحرى بنا ان نقرَّ بجهلنا المكان المعيَّن الذي وُلد فيهِ القديس مارون

وان طلب منّا القارئُ رأينا في ذلك رجَّحنا كونهُ لم يولد في جوار انطاكية . وعلى كل حال لا نرى صواباً في ما اثبتهُ حضرة الخوري غبريل (ص ٨٧) حيث قال : « انَّ البرّية التي انحاز اليها القديس مارون قيل انها مجاورة لتلك التي رسمها القديس ايرونيوس عندما اعتزل اليها . . . وذكرها في جملة كتاباتهِ » . لانَّ البرّية التي اعتزل اليها القديس ايرونيموس معروفة محدَّدة الارجاء وهي ناحية متَّسعة الفناء موقعها جنوبي شرقي حلب كانت تدعى كلسيديَّة (Chalcidène) باسم عاصمتها كلسيس التي تُعرف اليوم باسم قنسرين وهي عبارة عن قفر قَفِر احرقتهُ الشمس يجاور برّية الشام لا يسكنهُ الّا بعض عرب البادية (٣ . ومن راجع وصف هذا المكان للقديس ايرونيموس لا يراه موافقاً لما قالهُ توادوريطوس عن البلاد التي عاش فيها القديس مارون وهي القورسيَّة كما سبق . فالرأي عندنا ان مولد رجل الله كان في الناحية التي فيها قضى اكبر قسم من حياتهِ كما سيأتي نقلًا عن توادوريطوس . ولو كان مولد القديس مارون في انطاكية او جوارها لكان اختار ازهدهِ احدى البراريّ

١) استناداً الى الرسالة ٣٦ من رسائل القديس يوحنا فم الذهب

٢) وسيأتي بيان ذلك قريباً

٣) وكانت لغة هذه الناحية السريانية . وكان القديس ايرونيموس يفهمها (راجع مجلة الشرق المسيحيّ المطبوعة في رومية « Oriens christianus » لسنة ١٩٠٢ ص ٢٠٢)

العديدة الواقعة على مقربة من هذه الحاضرة والمقدَّسة بعيشة كثيرين من مشاهير العبَّاد وذلك ما يتَّضح من التواريخ البيعيَّة المكتوبة في ذلك العصر (١ كفانا شاهداً على قولنا مثال القديس يوحنا فم الذهب الذي وُلد في انطاكية ثم انقطع الى النسك في دير قريب من موطنهِ. وكذلك نظنّ انَّ القديس مارون الذي عاش ومات في القورسيَّة وُلد ايضاً فيها ما لم يأتنا احد ببرهان جليّ على خلاف هذا الرأي

امَّا ان القديس مارون صرف حياتهُ في القورسية وقضى فيها نحبهُ فالامر واضح وضوحاً تامًّا بما ورد في تاريخ الرهبان لتوادوريطوس . فان هذا الكاتب العظيم بعد ذكرهِ من اشتهر من النسَّاك في انطاكية وجوارها يعلن جهاراً انهُ يباشر بتراجم المتنسكين في القورسية (٢ ثم يذكر اعمال ميسياس واشبسياس ويتخلَّص الى ذكر القديس مارون فبيَّن بذلك انَّ هذا العابد الشهير كان في الناحية ذاتها . وقد زادنا ايضاحاً في اثناء كلامهِ عن القديس : « انهُ هو غارس الحديقة (يريد حديقة العيشة الرهبانيَّة) التي تزهو الآن في القورسيَّة (٣ »

هذا ولا نجهل بان توادوريطوس قال في ترجمة ابراهيم الناسك التي أَلحقها بترجمة القديس مارون « انهُ هو ايضاً كان ثمرةً نمت في بلاد قورس » ثم اردف قولهُ بهذه الفقرة قائلًا : « وبها كان مولدهُ » . فلماذا يا ترى ضرب الصفح عن التصريح بموطن القديس مارون ؟ فهل كان ذلك سهوًا منهُ او جهلًا ؟ فهذه معضلات امكن توادوريطوس ان يحلَّها فلم يفعل . ولكنهُ اكتفى بقولهِ عن ابراهيم « انهُ هو ايضاً كان ثمرة نضجت في القورسيَّة » ليشير الى انَّ اصل القديس مارون الذي سبق ذكرهُ كان كذلك من القورسية فليحكم القرَّاء

هلمَّ بنا الان ننظر في ايّ مكان من القورسية تألَّه قديسنا الجليل . نجيب على ذلك انَّ غاية ما اعلمنا بهِ توادوريطوس في هذا الصدد انهُ « تسلَّق الى قمَّة جبل كان اقام فيهِ سابقاً عبدةُ الاوثان هيكلًا للابالسة » (٤ . والظاهر انَّ هذا الجبل كان على

---

١) راجع كتاب توادوريطوس في تاريخ الرهبان

٢) راجع التاريخ ذاتهُ في مجموع مين (ص ١٢١٦)

٣) راجع الصفحة ١٢٢٣ منهُ

٤) فيهِ (الصفحة ١٢٢٤)

بعض المسافة من قورس كما يلوح من ترجمة القديس يعقوب تلميذ القديس مارون حيث قال عنهُ توادوريطوس « انهُ بعد ما سكن مدَّةً مع معلّمهِ جاء فسكن على جبل يقرب من قورس ثلاثين غلوةً » اعني على مسافة ساعة ونصف من هذه المدينة (١ . ولكن في اي جهة كان موقع جبل القديس مارون أفي شمال قورس او جنوبها او جهة أُخرى والرأي عندنا انهُ سكن احد الجبال الواقعة على طريق حلب اعني جنوبي شرقيّ قورس . ليكون مقام القديس اقرب الى افامية في اقليم سوريَّة الثانية حيث شُيّد بعد ذلك الدير الذي عُرف باسم دير القديس مارون كما سترى في فصلنا الخامس آنفاً

الّا انَّ تعريف الجبل بعينهِ الذي اوى اليهِ القديس مارون ليس بممكن ما لم يبحث عن ذلك اهل البحث في نواحي قورس . وممَّا يساعد على ذلك فحص اخربة الهياكل الواقعة على قمم تلك الجبال والمقابلة بينها وبين ما يرويهِ اهل تلك النواحي بالتقليد مع البحث الجغرافيّ عن مواقع تلك الاصقاع . فلا غروَ انَّ من يتبع هذه الخطَّة يَلقَ ما لم يكن في حسبانهِ من آثار الامكنة الدائرة في سوريَّة . وما ادراك انهُ لا يجد كتابة قديمة تميط السرَّ عن عدَّة امور غامضة (٢

ولم يُدفَن القديس مارون في محبسهِ فان سكَّان القرى المجاورة تنازعوا ذخائرهُ المقدَّسة حتى فاز بها اهل بلدة قريبة فنقلوها الى وطنهم واقاموا للناسك القديس هيكلًا جعلوها فيهِ . ويؤخذ من بعض نصوص توادوريطس انَّ الهيكل المذكور كان على مسافة من قورس . قال هذا الكاتب الشهير : « ومع اننا بعيدون عن القديس فانَّ بركتهُ تشملنا وذكرهُ يقوم لدينا مقام ذخائرهِ » . فعنى بهذا بُعد مدينتهِ قورس عن ذلك المقام . على انَّ المكان لم يكن خارجاً عن دائرة ابرشيتهِ قورس لانَّ مدفنهُ كان قريباً من محبستهِ وقد بيَّنَّا في ما سبق انَّ القديس عاش في القورسيَّة . ومن ثمَّ صحَّ عندنا ان قبر القديس وهيكلهُ الاوَّلين انَّما كانا في شمالي سوريَّة جنوبي قورس في نحو نصف المسافة بينها وبين حلب

١) فيهِ (الصفحة ١٢٢٦)

٢) كالكتابة المكتوبة بلغتين يونانية فآرامية التي وجدناها في كراد الداسنيَّة شمالي غربي حمص على ناووس قديس يُدعى توما لم يمكنَّا حتى الان بيان احوالهِ (راجع المجلَّة البلجيكية موزيه (Musée belge, 1901) . وقد نشر حضرة الاب س. رنزفال النصّ الارامي في مجلَّة الشرق المسيحي (ROC, 1902)

٥

هيَّا بنا الان نبحث عن امرٍ آخر لا تفوت فائدتهُ كلَّ بصير اعني مقـام دير القديس مارون الشهير . قد تكرَّر ذكر هذا الدير في اخبار سوريَّة واشتهر رهبانهُ بما ابدوا من البسالة في الدفاع عن الايمان . ولكن تُرى اين كان موقع الدير المذكور هل أُقيم بجوار هيكل القديس « مارون العظيم » (كذا دعاهُ توادوريطوس في تاريخ الرهبان ص ١٢٥٤) قريباً من ذخائرهِ المباركة كما تُرجح ذلك التقاليد الشائعة او كان بالاحرى موقعهُ في غير مكان من سوريَّة

مهما كان من صحَّـة احد الرأيين نرى الاجدر بنا ان نتصفَّح الآثار القديـة ونستضيء بنبراسها لتعريف موقع هذا المكان الذي في ظلِّهِ نشأت الطائفة المارونية . ولا شكَّ انَّ نصوص القدماء تساعدنا على ازالة الشبهات التي تكاثفت بهذا الخصوص . وقد عددنا ما كتبهُ المحدثون بهذا الصدد فوجدنا آراءهم متباينة متناقضة فمنهم من يجعل دير القديس عند انطاكية (١ ومنهم من يرجّح كونهُ في ضواحي حمص (٢ وبين البلدين كما لا يخفى مسافة ثمانية ايَّام بنيّف . وربَّمـا رأيتَ الكاتب الواحد مضطرباً متحيرًا يجعل الدير تارةً في محل وتارة في موقع آخر حتى انَّنا عددنا لبعض كتبة زماننا خمسة آراء في هذا الشأن

وعندنا انَّ درس الجغرافيَّة المدقَّق يُفضي بصاحبهِ الى الراي الصحيح ويُرشدهُ الى الطريق المثلى . ولا بُدَّ لنا لبيان هـذا الامر من تعريف الاقسام السياسية التي كانت عليها سوريَّة الشمالية وسوريَّة الوسطى في عهد القديس مارون اعني في القرنين الخامس والسادس فاذا وقفنا عليها تبيَّنا على التقريب الايالة التي فيها كان موقع هذا الدير المشهور . ثم نضيف الى هذه الاعلامات العموميَّة بعض نصوص جغرافية تزيد بحثنا ايضاحاً

كان الرومان على عهد تواددوريطوس يدعون باسم سوريَّة الرومانية كل البلاد المتَّسعة الارجاء الواقعة في وسط التخوم الطبيعية التي يحدق بها البحر المتوسّط وجبل طورس

١) راجع الدويهي (ص ٢٩ و ٦١)

٢) اعني في وسط الطريق بين افامية وحمص (راجع اصداء الشرق السنة الرابعة ص ٩٦)

وبادية الشام وبرية طور سينا . وكانوا يقسمونها الى اربعة اقسام كبرى او اعمال اعني سورية وفينيقية واقليم العرب وفلسطين . ومن هذه الاعمال لا يهمُّنا هنا سوى سورية وفينيقية فنقصر كلامنا عليهما

وكان عمل سوريَّة يُقسَم الى ثلاثة اقسام او ولايات يسمُّونها سوريَّة الاولى او سوريَّة المجوَّفة ثم سوريَّة الثانية او سورية الطيّبة ثم سورية الثالثة المدعوَّة ايضاً سوريَّة الفراتيَّة

وكانت قاعدة سورية الاولى المعروفة بالمجوَّفة انطاكية العظمى وهي تمتدّ من جبل امانوس (اللكّام) شمالًا الى مدينتَي اللاذقيَّة وجَبَلَة جنوباً ويحدُّها شرقاً سوريَّة الفراتيَّة . فكانت سورية هذه تشمل القسم الغربيّ من ولاية حلب الحالية ومتصرفيَّة اللاذقيَّة من ولاية بيروت

وكانت سوريَّة الثالثة اي الفراتيَّة تضمُّ كلَّ البلاد المعروفة سابقاً باسم كوماجينة (راجع خريطة سوريّة) وقد مرَّ وضعها فلا حاجة الى اعادة الكلام فيها . وكانت حاضرة سورية المذكورة مدينة منبج (Hierapolis)

امَّا سورية الثانية (١ المدعوَّة بالطيّبة (Syria Salutaris) فكانت حاضرتها افامية (قلعة المضيق) وكان يدخل في حيزها ايبفانيا او حماة . وكانت حدود هذه الولاية الجنوبية تنحدر الى جوار حمص فيلحق بها اراثوسة ومريمين ورفانية التي موقعها على مسافة ثماني ساعات الى عشر شماليَّ غربي حمص . وعليهِ فتكون هذه الولاية مطابقة لقسم من ولاية حلب في جنوبها الشرقي ولقائمقامية حماة المركزيَّة في ولاية دمشق . وكلامنا في هذه المقالة خصوصاً عن هذه سورية الثانية فلا بُدَّ للقارئ ان يودعها ذاكرتهُ ليتبعنا في بحثنا

وكان عمل فينيقية وهو القسم الثاني من سورية الرومانيَّة ينقسم الى فينيقية لبنان وفينيقية الساحليَّة

١) وعليهِ فلا نرى وجه التدقيق في تحديد بعض المحدثين لسوريَّة الثانية حيث قال : « سمَّاها الاقدمون سوريَّة الثانية لتتميَّز عن سوريَّة الاولى التي تعمّ جميع ما هو من عريش مصر الى نهر دجلة »

ففينيقة لبنان التي مدار كلامنا عنها هنا كانت حاضرتهـا حمص على الاقلّ مباشرةً لانَّ قسماً من سيطرتها بعد ذلك صار الى دمشق . وكفانا هنا علماً ان فينيقية لبنان كانت جنوبي سورية الثانية الطيّبة

فلنعودنَّ الآن الى دير القديس مارون لتعريف موقعهِ . وممَّا اتَّفق عليهِ في هذا الباب لفيف الكتبة ان هذا الدير كان على ضفَّة نهر العاصي . وكذلك لا خلاف بانَّ موقعهُ كان في سورية الثانية . وهذا امرٌ يلوح كالشمس في رائعة النهار لمن طالع العريضة التي وجَّهها رهبان هذا الدير الى البابا القديس هرمزداس مع سائر الكتابات الرسميَّة التي ورد فيها ذكرهُ فانها كلّها بلا استثناء تجعل دير القديس مارون في سورية الثانية

فان صحَّ ذلك بطل زعم الذين بحثوا عن دير القديس مارون خارجاً عن هـذه الولاية . ومن ثمَّ فلا صحَّة لقول من ذهب الى انّ هذا الدير كان بجوار انطاكية (١ او قريباً من حمص لانهُ لو كان في ضواحي انطاكيـة لكان من سورية الاولى اي المجوَّفة ولو جاور حمص لعُدَّ من فينيقية لبنان

ولكن بقي ان نعيّن مكان هذا الدير ضمن تخوم سورية الثانية في جوار نهر العاصي . ولبيان الامر نرى هنا ايضاً اصلاح بعض الاغلاط الجغرافيَّة التي شوَّشت هذه المسألة وجعلتها مرتبكةً مغلقة

فالغلط الاوَّل هو غلط الذين قرَّبوا موقع افاميـة من حمص فجعلوا المدينتين مجاورتـين وهو غلط عظيم ورد في تاريخ سرياني لدير مار باسُوس نذكرهُ لننتقدهُ فقال صاحبهُ : « ودير الشهيد مار باسوس في بلاد افامية على مقربةٍ (كذا) من مدينة حمص الكبرى » . وقد شطَّ كاتب هذه الاسطر وسبب شطوطهِ انهُ وضع تاريخهُ في زمنٍ كانت حمص بلغت فيهِ مقاماً سامياً فبهرهُ نور شهرتها . ومن ثم فانَّنا نعذر الذين استندوا الى هذا القول ليجعلوا موقع دير القديس مـارون في جوار حمص بدلًا من

١) راجع تاريخ الكنيسة الانطاكيَّة (ص ١٠٩) وتاريخ الطائفـة المارونيَّة للدويهي (ص ٣٩) وقد روى هذا العلَّامة (ص ٦٥) نصاً قديماً في سَروم ورد فيهِ ما نصُّهُ : « قرية سروم في جبل السويديَّة على مسافة متساوية بين انطاكيـة ودير القديس مارون » . قلنا ان كان المراد بالسويديَّة القرية الحاليَّة المعروفة بهذا الاسم اقتضى القول بان دير القديس مارون كان موقعهُ بين انطاكية والبحر . وهو زعم مردود

افامية لاسيَّما انَّ افامية كانت آنئذٍ خربت بعد ان احرقها كسرى الثاني فزادت حمص بخرابها عظيماً

وممَّا يشهد لنا ايضاً على ارتقاء حمص ونفوذها في تلك الاعصار ان العرب بعد فتح الشام لمَّا قسموا سورية الى اعمال متعدّدة دعوها اجنادًا جعلوا حمص جندًا وادخلوا تحت حكمها مدينتي حماة وافامية . وهذا دليل واضح على عظم شأن حمص عند دخول العرب بلاد الشام اذ انها كانت من اكبر مدن سوريّة في وسطها الشرقيّ . فلا عجب اذن ان كان البعض اتّخذوا حمص كقياس لتعريف المسافات كما انهم حسبوا افامية وحماة قريبتين منها لوقوعها تحت حكمها

والغلط الثاني في هذا الباب انَّ قوماً خلطوا بين افامية وحماة وجعلوهما مدينة واحدة وذلك لبعض التشابه بين اسم افامية وابيفانية (اسم حماة اليوناني) . وهو زعمٌ باطل غوي به كتبة عديدون الى غاية القرن الثامن عشر منهم الكاتب دي لاروك في رحلتهِ الى سوريّة (de la Roque : *Voyage en Syrie*. I, 239) ولوكيان في الشرق المسيحيّ وغيرهما كثيرون بعدهما فسرى منهم الوهم الى بعض المحدثين من الكتبة الشرقيين

والصواب في ذلك انَّ افامية هي كما قلنا سابقاً قلعة المضيق شمالي شرقيّ حماة . وقد اماط القناع عن هذه الحقيقة للمرَّة الاولى العلَّامة بورخردت (Burckhardt) فتبعهُ العلماء المحقّقون في قولهِ بعد ذلك بنحو ربع القرن . وعليهِ فلا تثريب على بعض كتبة الشرق العلماء ان ضلُّوا في ذلك سواء السبيل

ولعلَّ سبباً آخر دفع هؤلاء الكتبة الى ان يجعلوا دير القديس مارون في ضواحي حمص وهو موقع مغارة الراهب . فانَّ هذه المغارة او بالحري هذه سلسلة المغاور التي وصفناها في الجزء السابق (ص ١١٠ وفي المشرق ٤ : ٢٦٤) موقعها جنوبي حمص عند راس العاصي . ولما كان بعض العامَّة يعرفونها باسم دير القديس مارون ظنَّ قومٌ انَّ المراد بهذا المكان ذلك الدير الاوَّل الذي بُني على اسمهِ قريباً من افامية

فكل هذه المزاعم اوهام لا يجوز القول بها . ومن ثم لا نرى ما كتبهُ البعض في هذا الصدد مضبوطاً حيث جعلوا دير القديس مارون « على تخوم حمص » او « في بلاد

حمص وحماة » او « بين حمص وحماة » (١ او « في حمص » كما ورد في تاريخ ابي الفداء (٢ وقد تبعهُ الاب ميشال جوليان اليسوعي (٣ او في وسط الطريق بين افامية وحمص على رأي الاب ڤاليه الصعودي (٤

والقول الفصل عندنا في ذلك ان موقع دير القديس مارون فُوَيق هذه الامكنة شمالًا ما وراء حماة . وممَّن كادوا يصيبون الهدف في ذلك العلَّامة المسعودي من كتبة القرن العاشر للميلاد فانَّهُ عيَّن موقعهُ بقولهِ في كتاب التنبيه (ص ١٢٣) : ان هذا الدير كان « شرقي شيزر . . بقرب نهر الأُرنط نهر حمص وحماة » . وشيزر هذه تُعرَف في عهدنا باسم شَيْجَر وهي في نصف الطريق بين حماة وافامية اي قلعة المضيق . وقد افادنا الكاتب عينهُ ان الموارنة كانوا كثيرين في معاملات شيزر ومعرَّة النعمان وافامية يسكنون في وسط تلك البلدان . وعندنا ان سبب نموّ الموارنة ووفرتهم في تلك الجهات انما كان قُربهم من هذا الدير العظيم فتألَّبوا حولهُ ومنهُ قدموا وانتشروا في جهات البترون وجبيل كما بيَّنَّا ذلك في مقالة سابقة

واصدق ما ورد في ذلك انَّما جاء في الآثار المارونيَّة التي نشرها الخوري نو (Nau) الافرنسي (Opuscules Maronites, II, 22) وقد ذُكر هناك ان دير القديس مارون كان « قريباً من افامية في وادي العاصي » . وقد آثرنا قولهُ على سواهُ لانَّ كاتب هذا الاثر اقدم من سواهُ عهدًا سبق غيرهُ الى ذكرهِ (٥ وقد عرَف موقعهُ بدقَّة وضبط . فمن هذا النصّ مع ما يستفاد من مراجعة اقوال المؤرخين يتَّضح لنا ليس فقط ان دير القديس مارون كان في سوريَّة الثانية بل انهُ ايضاً كان في نحو مركز هذه الولاية

وممَّا يؤيّد رأينا ما ورد في تاريخ رهبان القديس مارون المستشهدين . قال كاتب اخبارهم ان هؤلاء الرهبان بعدد ٣٥٠ خرجوا سنة ٥١٧ يريدون دير القديس سمعان

١) راجع تاريخ الكنيسة الانطاكيَّة (ص ١٠٩, ١٧٥, ٢٥٧, ٢٦٩)
٢) راجع تاريخ ابي الفداء (Hist. anteisl., ed. Fleischer., p. 112)
٣) في رحلتهِ الى سوريَّة وسينا (١٧٨)
٤) راجع اصداء الشرق (الجزء ٤ ص ٩٠)
٥) لا نجهل ان عريضة رهبان القديس مارون الى البابا هرمزداس اقدم من كاتب هذه الآثار المارونيَّة الَّا انَّ تلك العريضة لا تفيدنا عن موقع الدير سوى كونهُ في سوريَّة الثانية

العمودي اذ هجم عليم المتعصبون فقتلوهم . فيؤخذ من هذه الرواية انهُ كان بين رهبان الديرين علاقات متواصلة وانهما لم يكونا مبتعدين كثيرًا الواحد عن الآخر . على اننا نعلم ان دير القديس سمعان كان موقعهُ في جبل بركات على مسافة بعض ساعات من حلب غربيّها (١ . فلا بُدَّ اذن من القول ان دير القديس مارون كان ايضًا من جهة قريبة من افامية كما سبق . وان اعترض علينا احد ان المسافة بين الديرين لا تزال كبيرة اجبنا ذلك صحيح لكن الامكنة التي يختارها غيرنا لموقع هذا الدير اذا جعلناهُ في حمص او حماة تزيد هذه المسافة زيادة بالغة بحيث لا يدرك القارئ سهولة هذه المخابرات بين الديرين لاسيما كيف امكن نحو ٤٠٠ راهب (٢ ان يخرجوا في وقت واحد فينتقلوا الى الدير الآخر . ومن ثمَّ لا بُدَّ القول ان دير مار مارون كان ارقى شمالًا كما تشهد عليه الآثار التي استندنا اليها

وان كانت النتائج السابقة هي صحيحة فيبقى ان تنحصر ابحاث العلماء عن دير القديس مارون منذ الان فصاعدًا في وادي العاصي قريبًا من قلعة المضيق . فينبغي على الاثريّين ان يتجوّلوا في تلك الجهات ويفحصوا الاخربة ويجمعوا التقاليد الباقية بين اهل تلك النواحي ريثما يطّلعوا على موقع هذا الدير الجليل الذي احتلّهُ مئون من الرهبان الصالحين فقدّسوه باعمالهم وبرّ حياتهم ويشهد على ذلك المسعوديّ في كتاب التنبيه حيث قال (ص ١٩٣) : « ودير مارون بنيان عظيم حولهُ اكثر من ثلاثمائة صومعة فيها رهبان وكان فيهِ آلات من الذهب والفضّة والجوهر شيء عظيم فخرب هذا الدير وما حولهُ من الصوامع بتواتر الفتن » . فلا شكَّ ان بناءً عظيماً كهذا لم يخرب دون ان يبقَ منهُ شيء من آثارهِ . وان قيل ان خرابهُ سبق القرن العاشر فيصعب وجود بقاياهُ . اجبنا انَّ هذا الدير كان موقعهُ بعيدًا عن البلاد الآهلة بالسكّان كما انَّ قلعة المضيق اصبحت منذ اجيال متعدّدة معتزلةً عن الطرق اللاحبة

١) وليس كما زعم حضرة الخوري فبريل « حذاء انطاكية » (ص ١٧٥) كذلك لا يمكننا ان نسلّم بما جاء في ذيل الصفحة نفسها

٢) قلنا ٤٠٠ راهب . ولعلّهم كانوا اكثر والثابت المقرَّر انَّ عدد القتلى المستشهدين منهم كانوا ٣٥٠ وقد فرَّ منهم كثيرون هاربين . وسيأتي قريبًا ذكر دير آخر قريب من دير مار مارون بلغ عدد رهبانهِ ستة آلاف راهب بنيّف

فلم يكثر فيها الخراب والنهب فلا ريب ان تكون ايضاً آثار هذا الدير الذي عُرف باسم دير البلّور باقيةً بجوارها حتى اليوم

٦

اثبتنا في ما سبق انّ القديس مارون عاش وتوفّي في القورسيّة . وفيها دُفن ايضاً ليس بعيدًا عن مكان وفاتهِ . وذلك واضحٌ لمن اعتبر قول توادوريطوس . وقد أدّى بنا من جهة أُخرى مجال البحث في الفصل السابق الى ان نجعل دير القديس مارون قريبًا من افامية اعني على مسافة نحو مئة كيلومتر جنوبيًا من قورس . وكأني بالقارئ يستغرب الامر ويجد في تعيين موقع هذا الدير خارجاً عن القورسيّة بعض التناقض ويشكّ في صحّة النتائج التي استنتجناها

كلّا لا تناقض في ما قلنا . وان يكن في الامر مشكل . وانما المشكل اعظم واقوى اذا ما جعلنا موقع دير القديس مارون في جهات حمص

اعلم انّهُ لا يُعرف نصٌّ واحد يذكر صريحاً انّ جسم القديس مارون دُفن في افامية . بل في قول توادوريطوس ما هو عكس ذلك . وانما يثبت التقليد انّ رأس الناسك القديس بعد خراب ديرهِ القريب من افامية نُقل الى لبنان

اما ذخائر القديس فلا نعلم أَنُقِلَت ايضاً بعد وفاتهِ ببضع سنوات الى جهات افامية ام لا وان كان الامر محتملًا ولعلّ الباحثين يجدون حلًّا لهذا المشكل في التفاصيل التاريخيّة النادرة التي كُتبت عن اديار افامية ونواحيها

وكانت هذه الاديار كثيرة قد ذكر منها توادوريطوس في رسالتهِ الـ ١١٩ ديرًا « موقعهُ على ثلاثة اميال من افامية » طلب ان يعتزل فيهِ وهو يسميهِ ديرَهُ كانهُ عاش فيهِ العيشة الرهبانيّة (١

ونعرف فضلًا عن هذا الدير قرب افامية ديرًا آخر شهيرًا وهو دير مار بسُّوس (٢

---

١) انّ توادوريطوس كان راهبًا لى سنة كهنوتهِ فدخل في جملة اكليرس انطاكية

٢) راجع كتاب العلّامة روبنس دوفال في الآداب السريانيّة (ص ٣٥٢) والمجلة الشرقيّة الالمانيّة (ZDMG, XXX 217)

الذي نشر عنهُ الخوري شابو كتاباً موسَّعاً (١ ومماً ورد في اثنائهِ انَّ عدد رهبانهِ بلغ ٦٣٠٠ راهب (ص ٦١) . الَّا انَّ صاحب هذا الكتاب قد وهم بقولهِ انَّ هذا الدير كان في بلاد حمص او قريباً من هذه المدينة (٢ والصواب انَّ دير مار بسُّوس كان بجوار افامية . وفي ما سبق اشرنا الى هذا الغلط وسببهِ ولا نخال انَّ الكتبة خلطوا بين دير مار بسُّوس ودير مار مارون لوقوع كلا الديرين في جوار افامية . والدليل عليهِ انَّ للديرين اسماً مختلفاً فضلاً عن انَّ دير مار بسُّوس اضحى بعد قليل مركزاً للبدعة اليعقوبيَّة (٣

فوجد عدد وافر من الاديار في نواحي افامية برهان جديد على ما كان لتلك المناسك من المقام الرفيع والشهرة الذائعة ولا حَرَج بعد ذلك ان نسلّم بصحّة ما رواهُ الرواة عن خطر دير القديس مارون وعظم شأنهِ

ومما اخبر بهِ توادوريطوس ايضاً انَّ القديس الناسك مرقيان القورسيّ ارسل واحداً من تلاميذهِ اسمهُ اغابيتس فوكل اليهِ بان يعمّر اديرة عديدة بقرب افامية وبالاخص عند نقيرتا (Νικερτα) « وهي بلدة واسعة كثيرة السكَّان ابتنى فيها اغابيتس معهدين لتعليم الحكمة السمويَّة دُعي الواحد باسمهِ . وجمع فيهما فوق المئتي راهب تجنَّدوا للفضيلة ولازموا التُّقى (٤ » . وقد ورد اسم نقيرتا هذه في كتابتين يونانيَّتين تراهما في مجموع الكتابات اليونانيَّة (٥ تحت العددين ٩٨٥٥ و٩٨٧٧ وفي جدول المخطوطات السريانيَّة المصونة في المتحف البريطاني (Wright, Cat. 756. c. 2) اسم رئيس تولّى رئاسة دير نيقرتا . امَّا نيقرتا المذكورة فليس لدينا نصٌّ صريح يفيدنا عن موقعها بالتدقيق في جوار افامية لقلّة ما نعلم من امور تلك الناحية (٦

---

١) راجع J.-B. Chabot: *La légende de St Bassus et son couvent à Apamée*, 1893

٢) قد جاء في مجلّة الشرق المسيحي ذكر دير ثالث في افامية (KOC. p. 1902, 611.)

٣) راجع ايضاً مقدّمة الخوري شابو (ص ٥ و ٩)

٤) راجع تاريخ الرهبان في مجموع مين (ج ٨٢ ص ١١٣٨)

٥) CIG, 9855 et 9877

٦) طالع ما كتبهُ في هذا الصدد الاستاذ هرتمان (ZDPV, XXIII, 145)

ولعلَّ سائلًا يطلب او ليس دير القديس مارون احد الاديار التي ابتناها القديس اغاپيتوس في جوار افامية ؟ اجبنا انَّ هذا لرأي سبقنا اليهِ حضرة الاب جوليان اليسوعيّ في كتابهِ عن جبل سينا وسوريَّة (١ » ولا نرى داعيًا لانكارهِ اذ انَّ درس الامكنة ومواقعها لا يخالف هذا المذهب ولهُ سندٌ في التاريخ لانَّ وفاة القديس اغاپيتوس وقعت بعد وفاة القديس مارون · على انَّنا لا نوافق حضرة الاب جوليان في زعمهِ بان « دير القديس مارون كان بين افامية وحمص على ضفَّة العاصي ليس بعيدًا عن حمص في المكان المعروف اليوم بالدير الكبير (٢ »

قد مضى علينا نحو ثلاث سنوات منذ زرنا هذه القرية الواقعة على مسافة ساعة ونصف من حمص في شمالها الغربيّ على ضفَّة العاصي الغربيَّة ووجدنا فيها آثارًا قديمة بيد انَّ نظرها لم يُعدل بنا عن رأينا وفي حججنا السابقة ما هو كافٍ لبيانهِ · وعندنا انَّ حضرة الاب جوليان خُدع بما كتبهُ المؤرخ الشهير صاحب حماة الملك المؤيد ابو الفداء وهو يجعل الدير في حمص نفسها · ثم غرَّهُ ايضاً اسم « الدير الكبير » الَّا انَّ سالنامة ولاية سورية روت اسم هذه القرية على صورة اخرى فدعتها « الدار الكبير » ولعلَّ الصواب « الضهر (الظهر) الكبير » كما سمعناهُ او فهمناهُ من اهل القرية وهذا الاسم يوافق المسمَّى لان القرية على ظهر ربوةٍ

وقد ذهب الاب مرتينوس اليسوعي في تاريخهِ المخطوط عن لبنان الى رأي آخر نستلفت اليهِ نظر القارئ · قال المؤلف المذكور الذي وقف كل حياتهِ على البحث عن لبنان وتاريخهِ : « لا يبعد ان القديس ماري (Marès) الراهب القسّ في ناحية افامية الذي وجَّه اليهِ القديس يوحنا فم الذهب رسالةً (٣ هو القديس مارون عينهُ (٤ لان الاسمين ماري ومارون لا يختلفان عند كتبة اليونان في سوريَّة وليس ماري سوى مارون مع اختلاف حركة الاعراب في اليونانيَّة فشاع هذا الاسم في الناحية · امَّا تلقيبهُ

---

١) P. M. Jullien s. j. : *Sinaï et Syrie*, p. 178

٢) فيهِ صفحة ١٧٨

٣) هي الرسالة ٥٧ وهي غير رسالتهِ الى مارون الكاهن

٤) هذا زعم لا يمكننا التسليم بهِ اذ انَّ فم الذهب يثبت في هذه الرسالة ان ماري عاش في مقاطعة افامية خلافًا لما نعرفهُ عن القديس مارون

بالقديس فقد جرى على ذلك رهبانهُ تبجيلًا لهُ فاقتدى بهم فم الذهب
« ومثالنا في ذلك مثال ديرين آخرين في جهات افامية عُرف الواحد منهما باسم القديس سمعان والآخر باسم القديس اغاپيتوس (١ وتؤَيد هذا الراي المخالف للراي العمومي رواية توادوريطوس في تاريخهِ (٢ الذي يفيدنا انَّ جمهور الرهبان الذين اتوا من القورسيَّة الى بلاد افاميــة لينشئوا فيها الاديار كانوا تلامذة لقديس الناسك مارقيان ليس تلامذة القديس مارون لانَّ المؤَرخ المذكور افادنا انهُ لم يخرج احــد من رهبان القديس مارون من بلاد قورس (٣ . ولا يبعــد ان تلاميذ القديس مارقيــان وكان اصلهم من بلاد قورس (٤ دعوا احد الاديرة التي شيَّدوهــا في بلاد افامية باسم القديس مــارون لاكرامهِ الَّا انَّ كلام توادوريطوس صريح في القديس مارقيان حيث قال : « ومارقيان الالهيّ هو الذي انشأ كلّ اديرة بلاد افامية (٥ » فلا يمكن اذن ان يُنسب انشاء احد هذه الاديرة لتلامذة القديس مارون . . . ومن ثمَّ لا نستغرب القول بان ماري الذي اوفد اليــهِ القديس يوحنَّا فم الذهب برسالتهِ كاحد رؤساء الدير مع القديس سمعان (٦ هو منشئ الــدير وان عُرف باسمهِ اولًا دير القديس مارون . هذا ونقرّ انَّ الافادات التاريخيَّة في هذا الخصوص لمخلَّة جدًّا . ومن المحتمل انهم لم يميّزوا بين القديس مارون والقديس مارقيان الذي ورد مكتوبًا في بعض النسخ ماريان (٧ »

هذا ما رواهُ الاب مرتينوس في تاريخهِ وهو زعم نوردهُ على علَّاتهِ دون ان نحكم فيهِ (٨ . وما يزيدهُ بعض الرجوح شهرة القديس مارقيان فان اسم هذا القديس كان ذائعاً مستفيضاً حتى انَّ معاصريهِ شيَّدوا بيعةً على اسمه قبل وفاتهِ أَفيستغرب احــد

١) راجع توادوريطوس في تاريخهِ المذكور (ج ٨٢ ص ١١٢٨)
٢) في المجلَّد والصفحة عينهما
٣) راجع تاريخ الرهبان (ع ١٦ و ٢٥)
٤) او على الاقلّ كبارهم الذين شيَّدوا الاديرة
٥) تاريخ الرهبان (ع ٣)
٦) راجع رسالة القديس يوحنَّا فم الذهب الـ ٥٥
٧) راجع تاريخ الاب مرتينوس الصفحة ٢٢٢٨ و ٢٢٢٩
٨) الَّا زعمهُ بان ماري ومارون اسم واحد فاننَّا لا نسلّم بهِ

ان يكون رهبانه حاولوا بعد مجيئهم من بلاد قورس الى انحاء افاميــة ان يخلّدوا ذكرهُ بابتناء دير على اسمهِ . وعلى كل حال لو صحّ هذا الرأي لفُضّ المشكل الذي نحن بصددهِ ويظهر لكل العيان كيف دُعي احد اديرة افامية باسم القديس مارون الذي توفّي في القورسيَّة . وما لا شبهة فيه انَّ في السنين الاولى من القرن السادس كان الدير المذكور لا يُنسب الى غير القديس مارون وان افترضنا انَّ رهبــان الدير حصلوا على قسم من ذخائر القديس مارون او على جسمهِ الطاهر كلّهِ فلا عجب ان يكون التعبُّد للقديس امتدَّ الى كل جهات بلاد الشام

امَّا ما حدث بعد ذلك لدير القديس مارون فيفيدنا بهِ ابو الفداء اذ يعلمنا في كتاب تقويم البلدان (ص ١١٤) انَّ الملك مرقيان وسَّعهُ في السنة الثانية لملكهِ اعني سنة ٤٥٢ . ولمَّا تحامل اليعاقبة على ابنيتهِ فاخربوها (١ في اوائل القرن السادس اعاد بناءَهُ الملك يوسطنيان الكبير (٢ الذي ضبط زمام الملك من سنة ٥٢٧ الى ٥٦٥

وقد اخبر سعيد بن بطريق في تاريخهِ انَّ هرقل الملك تفقَّد هذا الدير سنة ٦٢٨ لمَّا رحل ظافرًا الى سوريَّة فاوقف عليهِ اوقافًا عديدة (٣ . وفي عهد هذا الملك جرت بين اليعاقبة ورهبان دير مار مارون مخاصمات ذكرها ابن العبريّ في تاريخهِ الكنسي وقال ايضاً ان الموارنة اخذوا من اخصامهم عــدَّة كنائس أبى هرقل ان تُردّ الى اليعاقبة (٤ . ولم يزل هذا الدير زاهرًا في سنة ٧٤٥ كما ورد في نصّ سرياني نشرهُ الخوري نو ترجمتهُ بالفرنسيَّة (٥

والمظنون انَّ خراب هذا الدير تمَّ في القرن التاسع فاضطرَّ رهبانهُ ان يأتوا الى لبنان مع سكَّان الناحية المجاورة لهُ . وفي قول المسعوديّ الذي اوردناهُ سابقًا انَّ دير القديس مارون كانت اغتالتهُ في عهدهِ (اعني في اواسط القرن العاشر) يد الزمان

---

١) وقيل انهُ خرب بزلزال

٢) راجع كتاب بركوبيوس في الابنية (ك ٤ ف ٩)

٣) راجع اعمال آباء اليونان لمين (PG, CXI, 1089) وراجع الصفحة ٢٦ من الجزء الثاني من تاريخ ابن بطريق Eutychius, *ed. Cheikho*, II 269

٤) Chronicon Eccl. I, 270-274

٥) Bulletin de S. Louis des Maronites, Janvier, 1903, p. 346

فخرب . ثمَّ لا تعود ترى لهُ من بعد ذلك اثرًا في التاريخ حتى انَّ ياقوت الرومي لم يذكرهُ في معجم البلدان مع انهُ افاض في وصف اديرة كثيرة اشتهرت في بلاد الشام منها خربة ومنها مأهولة بالرهبان . وكذلك تصفَّحنا تآليف جغرافيي العرب المتعدّدة لعلّنا نجد شيئًا عن دير القديس مارون فذهبت مساعينا سدًى ولم نقف على ضالّتنا مع انَّ هؤلاء الكتبة كرّروا مرارًا اسماء الاديار الشاميَّة ورووا من ابيات الشعراء ما ورد فيهِ ذكرها

وهذا لعمري من الامور الغريبة انَّ ديرًا طار اسمهُ في البلاد مدَّة القرنين السادس والسابع فاصاب من الشهرة ما اصاب في تاريخ سوريَّة الديني يصبح بعد مجدهِ نسيًا منسيًّا لاسيَّما ان دير القديس مارون لم يكن ديرًا منقطعًا لا نفوذ لهُ بل كان يدخل تحت حكمهِ اديار أُخرى تعرف لهُ حقوق السيادة كما كان شأن الاديرة في سوريَّة الشماليَّة وسوريَّة الوسطى فانَّ اديرتها الرهبانيَّة كانت ترتبط بين بعضها بروابط متينة بحيث تكون السيطرة لدير اعظم تخضع لرئاستهِ بقيَّة الاديار المجاورة لهُ (١ . وهو امرٌ يصدق في دير القديس مارون الذي امتدَّت رئاستهُ على سائر اديار سوريَّة الثانية . غير انَّهُ يعزّ علينا ان نبيّن حدود هذه الرئاسة وسعة نطاقها . فلا نعلم أَكانت هذه الرئاسة شرفيَّة محضًا او كان لرئيس الدير الكبير بعض السلطة على بقيَّة الاديرة . كما انهُ يصعب علينا ان نبيّن اصل هذه السلطة فلا ندري أَكانت ناتجةً عن تفرّع دير من آخر او بارادة منشئ الاديرة او بخروج مستعمرة رهبانيَّة من الدير الاكبر فكل هذه المباحث عويصةٌ لا يُستطاع حلُّها سهلًا

وعلى كل حال انَّ تقدّم دير مار مارون ورئاستهُ على بقيَّة الاديار لمن الامور الحريَّة بالاعتبار فانَّ ذلك يبيّن لنا كيف امتدَّت سريعًا الطائفة المارونيَّة ليس فقط في بلاد افامية لكن في الايالات الخارجة عنها ايضًا . وعلى راينا انَّ كل دير من هذه الاديار المنوطة بدير القديس مارون اضحى بعد مدَّة مركزًا لفئة من المؤمنين الذين نموا عددًا بعد حين وانتسبوا الى القديس مارون . وفي مقالتنا السابقة عن انتشار الموارنة رأينا كيف خرج منهم فئات دخلوا لبنان واستعمروا الجهات الموافقة

١) راجع ما كتبهُ في ذلك العلّامة نلدك (ZDMG, 1875 p. 423, note)

لنموّهم وازديادهم

فيرى القارئ انّ هذا البحث الجغرافي عن سيرة القديس مارون يرتبط بالبحث السابق اعني اصل الطائفة المارونيّة وكيفيّة انتشارها (١ وهذا ما حملنا على التدقيق في تعريف الامكنة التي نشأ فيها القديس مارون كيف لا وهو ابو طائفة تُعَدّ من اعظم الامم اللبنانيّة عطّرها هذا الرجل العظيم بعيشتهِ وموتهِ

☆

وفي الختام احببنا ان نلخّص للقرّاء ما اتّسعنا في بيانه في هذه المقالة لتبقى خلاصتها في ذاكرتهم :

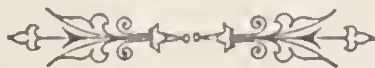
١ً لا مراء انّ القديس مارون عاش ومات في القورسيّة

٢ً انّ الرأي الاصوب في مولدهِ انهُ وُلد ايضاً في القورسيّة وليس في جوار انطاكية

٣ً دُفن القديس مارون في حدود القورسيّة الجنوبيّة

٤ً كان موقع دير القديس مارون مَهد الطائفة المارونيّة بين نهر العاصي وافامية . وهذا ممّا لا ريب فيهِ

٥ً امّا كيف دُعي هذا الدير باسم القديس مارون وكيف نُقلت اليهِ ذخائرهُ فامران لا يمكن القطع بهما فنتمنّى ان يحكم غيرنا فيهما حكماً فصلاً فيصرّح الحق عن محضهِ



١) راجع الصفحة ٤٩

٧

في لغات لبنـان القديمة

قد استدلّ القارئ من الابحاث السابقة (١ ان لبنان مع ما طرأ عليهِ من تقلّبات الاحوال وتعاقُب الامم في سكناه لم يزل مقاماً لشعب اصلي كان سامياً يغلب عليهِ العنصر الكنعانيّ والآرامي . ولنا في درس اللغات المستعملة في لبنان ما يؤيد هذه النتيجة فانّ التاريخ والبحث اللغوي يثبتان صريحاً انّ اللغة الشائعة في لبنان كانت ابداً لهجةً ساميَّة

ولنا في اكتشاف مراسلات تلّ العمارنة التي وصفناها سابقًا (٢ ما يرقي حجّتنا من هذا القبيل الى القرن الخامس عشر قبل المسيح . فانّ في هذه المكاتبات عدّة تقارير ارسلها ولاة صيداء وجبيل وبيروت الذين كان لبنـان تحت حكمهم الى فراعنة مصر وكلّها باللغة البابليَّة التي كان ينطق بها هؤلاء الامراء وعمّالهم اجمعون . وهو لعمري امرٌ ذو بال يؤخذ منهُ انّ اللغة الاشوريَّة كانت شائعة بين اهل لبنان ان لم تكن لغتهم الوحيدة . فيسوغ اذن القول بانَّ اوَّل لغةٍ شهد التاريخ على وجودها في لبنان انّما كانت لغةً ساميَّة اعني البابليَّة . وقد حاول المقتطف (١٩٠٣ ص١٧٥) في وصفهِ لكتاب تاريخ بيروت ان ينكر ذلك حيث قال: «انَّ استعمال اللغة الاشوريَّة في المكاتبات السياسيَّة والتجارية لا يكفي دليلاً . . . على انَّ اللسان الاشوري كان شائعاً في ظهراني الامَّة الفينيقيَّة» الّا انَّ في قولهِ لشططاً ولو تحقّق نفوذ الامَّـة البابليَّة في بلاد الشام منذ ثلاثة آلاف سنة قبل المسيح لمـا جحد ذلك (٣ والآثار المثبتة على مكان البابليين وكلمتهم الراجحة في هذه البلاد لعديدة حتى انَّ كثيرين

---

١) راجع الفصل المعنون « الامم البائدة في لبنان » وفصل « انتشار الامَّة المارونيَّة » الخ

٢) راجع مقالتنا « احوال لبنان في القرن الرابع عشر قبل المسيح » (في الجزء الاوَّل ص ٧١)

٣) راجع المقالات الحسنة التي كتبها في هـذا الصدد حضرة الاب دي لاتر اليسوعيّ (P. Delattre : *Le pays de Chanaan, province de l'ancien empire égyptien*)

من العلماء المبرّزين كفنكلر (١ وغيره يزعمون انَّ ملوك بابل استولوا على الشام في ذلك العهد العهيد وانَّ القبائل البابليَّة التي كانت على ضفَّة نهري الفرات ودجلة امتدَّت وانتشرت الى سواحل البحر المتوسّط · وهو رأي راجح كان يجيز لنا بان ننظم البابليّين بين امم لبنان البائدة لولا رغبتنا في اقتصار الابحاث · وما لا يُنكر من آثار المعاملات بين بابل ولبنان الوادُّ البنائيَّة التي وجدت في اخربة بابل مما نُقل من لبنان كالارز والرخام الابيض والحجارة · أفيُستغرَب بعد ذلك كون اللغة البابليَّة انتشرت في ضواحي لبنان

والظاهر ان سيطرة اللغة البابليَّة في الشام امتدَّت الى نحو القرن الرابع عشر قبل المسيح ومن تبصَّر في مكاتبات تلّ العمارنة وجد فيها الفاظًا وتعابير من اللغة الكنعانيَّة وهذا ناتج عن استيطان قبائل الفينيقيين والكنعانيين قبل ذاك العهد سواحل الشام ولم يلبث الاراميُّون أن يتعقَّبوا آثارهم ويجتمعوا بهم (٢

واعلم ان اللغة الكنعانيَّة (التي تشمل العبرانيَّة والفينيقيَّة) واللغة الآراميَّة متجاورتان حتى تغلَّبت الآراميَّة وصار لها السَّبق فكادت تكون هي اللغة الوحيدة بعد جلاء بابل · على ان بعض معاملات لبنان لاسيّما ما كان منها مجاوراً للمراكز الفينيقيَّة الكبرى ثبتت مدَّة بعد ذلك على استعمال اللغة الفينيقيَّة

فمن ثم لا نشطُّ اذا قلنا انَّ اللغة الآرامية ملكت دون منازع في لبنان مدَّة نيّف والف سنة · قال المؤرخ مُمسن الشهير في تاريخ الشام على عهد الفتح الرومانيّ « انَّ لبنان بحصر الكلام لم يغيّر قطّ عنصرهُ (٣ » اعني انهُ بقي آراميًا جنسًا ولغةً الى نحو القرن الرابع عشر من تاريخ الميلاد

ولما صار الامر الى الفرس بعد البابليين بقيت السيطرة للُغة الآراميَّة وكان ملوكها يتَّخذون هذه اللغة كاللغة الرسميَّة ليس فقط في بلادهم لكن ايضًا في

---

١) راجع كتابهُ الاخير H. Winckler: *Keilinschriften und das alte Testament*, *1903*

٢) راجع كتاب فنكلر Winckler : *Die Voelker Vorderasiens*

٣) راجع تاريخه (Roem. Gesch., V, *418*)

الاقطار الخاضعة لهم كمصر وآسية الصغرى . والاكتشافات الأثريَّة في مصر تؤيد ذلك فانَّ العلماء وجدوا عدَّة كتابات اصدرها ولاة الفرس باللغة الآراميَّة . وكذا فعل من بعدهم ملوك بني ساسان فانَّ رسائلهم كانت مكتوبة باللغة السريانيَّة (١

*

امَّا السلوقيُّون فانَّ نفوذهم في لبنان كان ضعيفاً لاسيَّما من حيث اللغة فان اللبنانيين داوموا على استعمال اللغة الآراميَّة ممزوجةً باللهجة الفينيقيَّة . ومن عجيب الامور انَّ انتشار لغة الآراميين بلغ على عهد السلوقيين مبلغاً عظيماً فاضحت اللغة السائدة في كل آسيَّة الساميَّة اعني في سوريَّة وما بين النهرين وبلاد الكلدان والعراق وجزيرة العرب (٢ الَّا انَّ اللغة الرسميَّة بين عمَّال الدولة ولغة العلماء كانت اليونانيَّة في كثير من تلك البلاد دون ان تشيع في عامَّتها (٣

ثم تولَّى الايطوريُّون على لبنان (٤ فلم يغيِّروا شيئاً من لغته وكان الايطوريُّون عرباً واصلهم من حوران من الجهات المجاورة لجبل حرمون . ومع كون المؤرخين لم يصرّحوا بأيَّة لغةٍ تكلَّمت قبائلهم لا نشكُّ في انَّ العربيَّة او الآراميَّة كانت لغتهم الخاصَّة كما يُستدلّ على ذلك من اسمائهم وهي عربيَّة اوآرامية

وان سلَّمنا انهم تكلَّموا بالعربيَّة لا نرى بُدًّا من القول بأنَّهم اتَّخذوا الآراميَّة كلغة معاملاتهم . وذلك لانَّ الطرق التجارية بسبب الحروب التي وقعت بين الملوك السلوقيين وملوك مصر اللاغيِّين كانت تحوَّلت الى جهات جزيرة العرب بعد مرورها سابقاً في سوريَّة الشماليَّة وسوريَّة الوسطى فصار العرب وَسَطاً لهذه التجارة الواسعة . ولمَّا لم يكن للعرب وقتئذٍ كتابة خاصَّة اضطرَّهم الامر ان يتَّخذوا اللغة والكتابة الآراميَّة الشائعة في حدود بلادهم بين مجاوريهم الآراميين

أمَّا النَّبط وهم من اقارب الايطوريين وجيرتهم فانَّ لغتهم النبطيَّة لم تكن سوى

---

١) راجع مقالة كاترمار عن النبط Quatremère: *Mém. sur les Nabatéens*, *137*.

٢) راجع المجلة الاسيويَّة الالمانيَّة ZDMG, *1885* p. *333*.

٣) راجع مقالة الدكتور شندا عن الآراميين Sanda : *Die Aramaeer*, *4*, *23* *etc*.

٤) راجع الصفحة ٣٩

لهجة آراميَّة . وامتدَّت اللغة الآراميَّة في شمالي جزيرة العرب الى حدود الحجاز وذلك في القرون الاولى من تاريخ الميلاد الى القرن السابع منهُ . والادلَّة على ذلك كثيرة فان الكتابات التي وُجدت في كل تلك الانحاء انَّما هي بالآراميَّة ليست بالعربيَّة (١

وما قلناهُ عن الشام وجزيرة العرب يصحُّ ايضاً عن شبه جزيرة طورسينا وفيها كتابات آراميَّة لا تُحصى ابقاها لنا عرب تلك الجهات

فمن ثمَّ نصادق تماماً على قول العلَّامة نلدك وقولهُ حجَّة في زماننا عند العلماء : « قد تناوبت في لبنان هذه اللغات الثلاث اعني الكنعانيَّة ثمَّ الآراميَّة ثمَّ العربيَّة ». وكان يمكن هذا المستشرق الشهير ان يقدّم على هذه اللغات اللغة البابليَّة الَّا انَّهُ لمَّا كتب هذه العبارة لم تُكتشف بعدُ مراسلات تلّ العمارنة . امَّا اللغة الفينيقيَّة فانَّ الآراميَّة محت آثارها في لبنان كما في سوريَّة كلها في قرون النصرانيَّة الاولى (٢

امَّا اللغات الاخرى غير الساميَّة فانها لم تَفُز قط بالسيطرة في لبنان . واذا خصصنا بالنظر اللغة اليونانيَّة وجدنا انَّ اللبنانيين لم يتكلَّموا بها مطلقاً . وقد بيَّنَّا في ما سبق ما معنى الكتابات اليونانيَّة التي وجدت في لبنان (راجع الصفحة ٣٥) واثبتنا ان وجودها ليس بدليل على شيوع هذه اللغة بين العامَّة كما انَّ وجود الكتابات اللاتينيَّة المتعدّدة فيه لا يدلُّ على انَّ اهل لبنان تكلَّموا بهذه اللغة . وعندنا انَّ هذه الكتابات لم يفهمها غير العمَّال الذين آمروا بصنعها . ولا نستثني من هذا الحكم الصنَّاع الذين حفروها فانهم كانوا ينقلونها نقلاً ويصوّرونها دون ان يقفوا على فحواها

☆

وقد زادت اللغة الآراميَّة شأناً بدخول الموارنة في لبنان فاضحت في أَظهرهم اللغة الوحيدة مدّة اجيال متوالية . وتشهد على ذلك اعلام قرى لبنان التي هي في الغالب

١) راجع مقالة كاتر مار في النبط (١٣٣ و ١٣٤) وقال المسعوديّ في كتاب التنبيه (ص ٧٩) : «وكانت بلاد العرب اليوم وبرّها ومدرها اليمن وتهامة والحجاز واليمامة والعروض والبحرين والشجر وحضرموت وعمان وبرّها الذي يلي العراق وبرّها الذي يلي الشام . وهذه الجزيرة كلّها . . . لسانها واحد سريانيّ ». راجع ايضاً مقالات نلدك ZDMG, 1871, 122 ومقالات ڤنكلر (H. Winckler: *Mitteil. vorderas. Gesel*, *1901*; 130) وكراسة فيليب برجه (L'Arabie avant Mahomet, p. 9)

٢) راجع Ad, Harnack: *Mission u. Ausbreit d. Christentums*, p. 430

مشتقّة من اصل سرياني كما بيّنّا ذلك سابقاً وسيأتي بيانهُ بنوع اجلى

ولمّا ظهر المسلمون واستولوا على سواحل الشام اخذت العربيّة تنتشر شيئاً فشيئاً في جهات لبنان. وساعد على انتشارها ايضاً دخول الايطوريين كما سبق (الصفحة ٣٩) ثم دخول المتاولة والنصيريين من بعدهم (١ الّا انّ اللغـة الآراميّة دافعت عن حقوقها مدافعةً جيّدة ويُتّخذ من كلام يعقوب دي ڤيتري من كتبة الحروب الصليبيّة انّ العربيّة امتدّت في الجبل ايّ امتداد (٢ ومع ذلك ان ابا الفرج ابن العبري (٣ كان يعتبر في القرن الثالث عشر السريانيّة كلغة اهـل لبنان الّا انّ لغة العرب لم تزل في نموّ وانتشار حتى غلبت السريانيّة شقيقتهـا في القرن الخامس عشر لكنّ هذه لم تتوارَ بالتمام الّا تدريجاً وكان اهل بعض القرى الداخليّة كبشرّاي وحصرون رجيرتهما يتكلّمون بها حتى في القرن السابع عشر (٤

وبقي من آثار السريانيّة بعد خمولها انّ كثيرين اتّخذوها لكتابة المؤلّفات العربيّة كما يظهر من كثرة الكتب المخطوطة بالكرشوني. هذا فضلًا عن عدّة الفاظ وتعابير سريانيّة باقية في لهجة اللبنانيين (٥ تنبئ بما كان من السيطرة للغة الآراميين في لبنان بل قُل في اكثر انحاء المعمور القديم. كيف لا ومن اقدم لهجاتها اللغة الاشوريّة التي وُجد من آثارها كتابات راقية الى ٤٠٠٠ سنة قبل المسيح في اكثر اقطار آسيّة الغربيّة واضحت السريانيّة مدّة اعصار عديدة حتى بعـد القرون المتوسّطة لغة علماء الشرق كما كانت اللاتينيّة لغة علماء الغرب وكان المسلمون ايضاً يدرسونها لكثرة فوائدها (٦. وقد كتب بها الارمن مدّةً قبل انتشار الارمنيّة وحروفها. وقد بلغ امتداد هذه اللغة الى اقاصي الشرق في الصين شمالًا وفي الاقطار الهنديّة جنوباً كما انها بلغت جنادل النيل. فلا نظنّ انّ لغةً اخرى حتى ولا اليونانيّة جارت السريانيّة في اتساعها اللهمّ الّا الانكليزية في عهدنا

١) راجع مقالتنا الافرنسيّة عن النصيريّة في لبنان (مجلّة الشرق المسيحي ,ROC, 1902)
٢) تاريخ القدس ف. ٧٧
٣) راجع تاريخ مختصر الدول (ص ١٨)
٤) راجع مقالتنا «فرا غريفون» في السنة الاولى من المشرق (ص ٥٧)
٥) راجع مقالة الاب پاريزو في المجلّة الاسيويّة الباريسيّة (١٨٩٨ ص ٢٨٦)
٦) فيها (ص ٢٤١)

فترى شطوط القائلين بانَّ اللغة الآرامية كانت لغة خاملة بربرية · وقد فنّد المشرق زعم الذين نسبوا الى اوريجانس مثل هذا القول. والارجح ان اوريجانس نفسهُ كان يعرف هذه اللغة ويقتبس من انوارها · وكذلك اولئك الرجال العظام الذين شرّفوا الشرق بعلومهم كاوسابيوس القيصري وتوادوريطوس ويوحنا الدمشقي وابي قرّة. وغيرهم وفي ما سبق كفاية لتعريف شرف السريانيَّة واتساع نطاقها في العالم

٧
رسم خرائط لبنان

لا يجهل احد فائدة الخرائط في الدروس الجغرافيَّة · فلولاها لضرب المدرّسُ الريح وكتب على صفحات الماء · فيكون مثَلُهُ مثل استاذ الطبيعيَّات لا يُثبت تعليمهُ بالعمليَّات او مثل مدرّس الرياضيَّات لا يقيّد علمهُ بالتمرينات الحسابيَّة

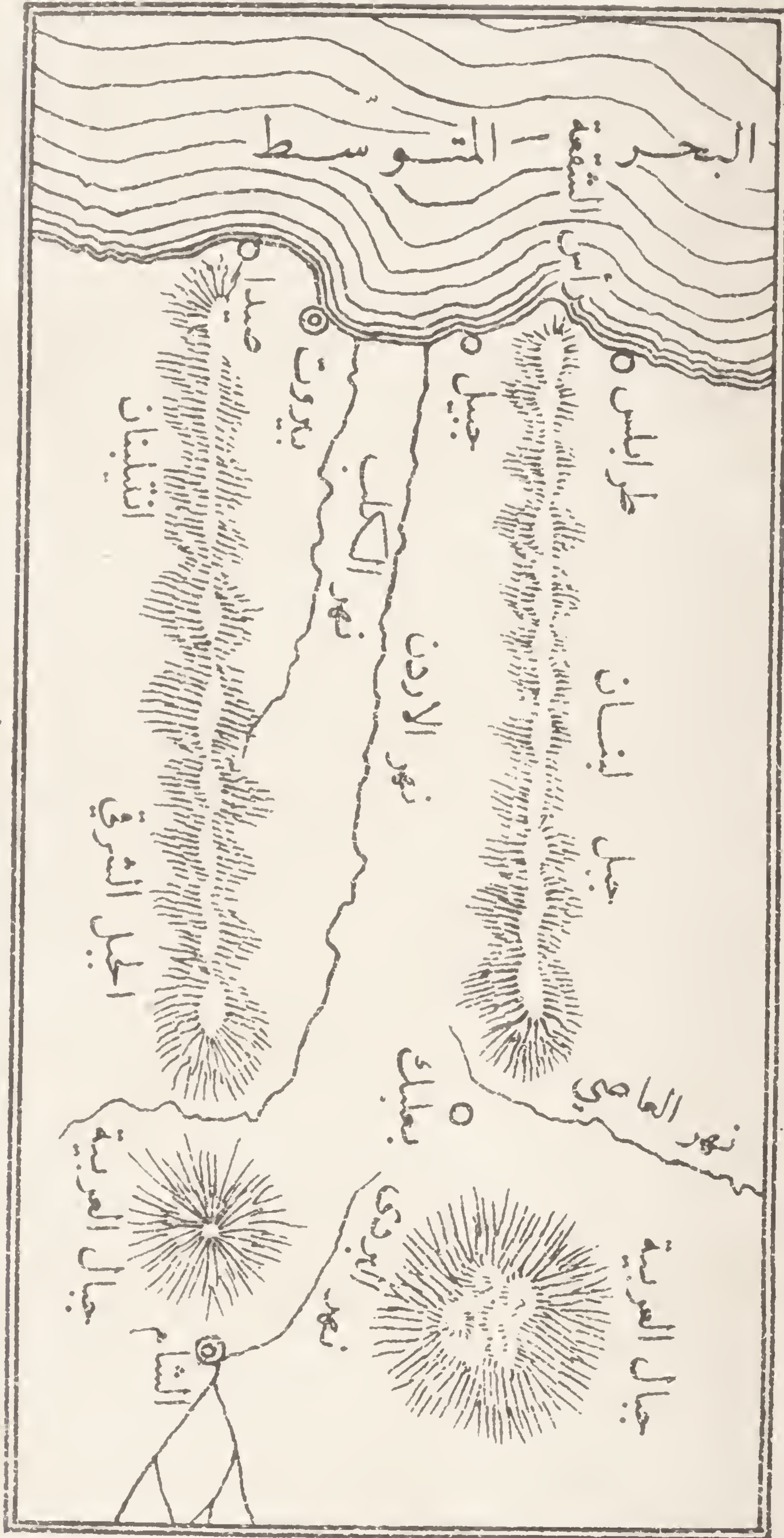
ولكن اين هذه الخرائط ؟ فانَّ لبنان الذي عليهِ مدار دروسنا محصور الحدود وليس لهُ خرائط خاصَّة بهِ الَّا النزر القليل . اماَّ خرائط سوريَّة العامَّة فان مقياسها قصير حرجٌ فلا تجد فيها للُبنان مكاناً يُذكر مع انك لو اردت درس هذا الجبل لا ندحة لك من خرائط كبرى ذات مقياس واسع ومثل هذه الخرائط عزيزة الوجود

☆

اوَّل من وصف لبنان سترابون الجغرافيّ العظيم الَّا انهُ اخطأ في هذا الوصف وبخطائهِ كان سبباً لاوهام الذين اتوا بعدهُ · وقد اثبتنا عند ذكرنا لبنان ووجهة امتدادهِ وحدودهُ في كرور الاجيال (راجع ص ٦) ما ارتاءَهُ هذا الكاتب الشهير في حقّ لبنان اذ بدل وِجهَتهُ فظنَّ انَّ هذا الجبل والجبل الشرقي يمتدَّان من الغرب الى الشرق بدلًا من الجنوب الى الشمال. اعني انهُ كان يجعل احد طرفَي هذين الجبلين عند بحر الشام والطرف الآخر عند دمشق كما ترى في الرسم الذي نثبتهُ في الصفحة التالية

فلعمري انَّ مثل هذا الوهم كان من شأنهِ ان يشوّه صورة لبنان كما تُشوَّهُ صورة الانسان لو جُعلت قدماهُ في رأسهِ ورأسهُ في قدميهِ. ومع سوء هذا التصوّر للبنان نال رأي سترابون الحظوة لدى كثيرين ولم يقدر بلينيوس الطبيعيّ وغيره ممَّن اصابوا المرمى في تعريف موقع لبنان ان يبطلوا هذا المزعم

ثم جـاء العرب ووصف كتبتهم البلدان وفي جملتها لبنان ولا تراهم يجورون عن طريـق الصواب في رسم وجهتهِ الَّا انَّهم لم يحسنوا بيان حدوده فربَّما ادخلوا في لبنان جبالًا ليست منهُ . ثم انَّ تآليفهم بقيت مجهولةً في اوربَّة الى القرن الثـامن عشر فكان مصطنعو الخرائـط يستنـدون الى اقوال سترابون فيرسمون لبنان كما تخيَّلهُ هذا الجغرافيّ. منهم العلَّامة بوشارت في كتابهِ « الجغرافية المقدَّسة » وسلَّاريوس صاحب « العالم القديم » وكلاهما من مشاهير الكتَّاب ازهرا في القرن السابع عشر



صورة لبنان على زعم سترابون

ومن اوَّل الذين عاكسوا هذا الوهم الهولندي ادريان ريلَنْد (Reland) في كتابهِ عن فلسطين (١ . وكان اوَّل امرهِ يذهب في ذلك مـذهب اسلافهِ الَّا انهُ لحسن حظهِ وقف على رحلةٍ كتبها الانكليزي هنري مَوْندرل (Maundrell) كان وصف فيها

(١ عنوانهُ Palæstina ex monumentis veteribus illustrata

سفراً باشرهُ في اواخر القرن السابع عشر من حلب الى اورشليم واكثر فيه من التفاصيل الجغرافيَّة . فنبَّه هذا التأليف افكار ريلند واستفاد من خريطةٍ كان رسمها موندرل المذكور ولم ينشرها بعد

فكانت هذه اوَّل خريطة للبنان وهي بالنسبة الى معارفنا اليوم مخلَّة من وجوهٍ عديدة كانها عمل تلميذٍ لا يُحسن الرسم فلا تكاد تجد فيها سوى بعض اسماء الامكنة الواقعة على ساحل البحر دون مراعاة للمسافات التي بين الانهار ومواقع المحلَّات . امَّا جهات لبنان الداخليَّة فهي خاوية ليس فيها اسم بلد اللهمَّ الَّا بحيرة اليمُّونة . ومع هذا ترى صاحبها قد اصاب في رسم وجهة لبنان والجبل الشرقيّ وجعل الجبلين موازيين مع الاشارة الى سهل البقاع المنبسط بينهما . وتلك نتائج حسنة بالنسبة الى ذلك الزمان لاسيَّما انَّ ريلند كان مهَّد بهذا العمل الطريق لمن يأتي بعدهُ وازال العقبات التي كانت تحول دون الترقي الجغرافي في درس لبنان

هكذا نشأت اوَّل خريطة لجبلنا فكانت مع نقصها اساساً بنى عليهِ كتبة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فحسَّنوها وكمَّلوها . وقد اشتهر بينهم الجغرافيّ الجرماني كرل ريتر (Ritter) الذي افرد لوصف لبنان قسماً كبيراً من المجلَّد السابع عشر من تأليفهِ المعنون « الجغرافية المقابلة » وهو اوسع وصفٍ يُعرَف لهذا الجبل لم يفقد شيئاً من محاسنهِ وفوائدهِ بعد نصف قرنٍ من عهد ظهورهِ

الَّا انَّ الخرائط اللبنانيَّة في هذه المدَّة لم تخطُ كهذه الخطوات في سبيل التقدّم بل بقيت على خللها . وانما كان اصحاب خرائط سوريَّة يخصّون لبنان بمكان صغير فيثبتون خريطة ريلند السابق وصفها مع شيء من التحسين في الدلالة على مصبّ الانهار ونتوءات الارض وقياس المسافات وكذلك ترى زيادةً في اسماء القرى وذكراً لاقيسة علوّ الآكام والقمم وقد امتازت بين هذه الخرائط خريطة فلسطين للراسم الالماني الشهير هنري كيپرت (H. Kiepert) التي نُشرت في سنة ١٨٥٦ ادرج فيها صورة جبل لبنان ولكنَّ هذه الخريطة كانت على مقياس $\frac{١}{٦٠٠,٠٠٠}$ فلم يمكن صاحبها لضيق المكان ان يتَّسع في ذكر هذا الجبل واعمالهِ . ثم اعاد كيپرت رسم خرائط سوريَّة غير مرَّةٍ دون ان ينال لبنان حظًّا اوفى من المرَّة الاولى

وبعد سنتين لظهور خريطة كيپرت ابرز سنة ١٨٥٨ الضابط الهولندي ڤان دي ڤلد

(Van de Velde) خريطة حسنة للاراضي المقدّسة جعل حدودها الشماليّة لبنان الى النهر الكبير . وكان مقياس هذه الخارطة ١/٣١٥,٠٠٠ اعني انّها كانت نحو ضعف خارطة كيپرت فنال لبنان حظّهُ منها وهي تستحقّ ذكرًا خصوصيًّا ليس فقط لِسَعَتها لكن ايضاً لسَيْر صاحبها على طريقة علميَّة . فان راسمي الخرائط السابقة كانوا بنوا رسومهم على اقوال اهل الرَحل والمسافرين الذين دوّنوا ملاحظاتهم بدون آلات رصديَّة او بلا تدقيقٍ كافٍ في الرسوم او الحسابات التريغنومتريّة . فاراد ڤان دي ڤلد ان يسدّ هذا الخلل فطاف جهات فلسطين لهذه الغاية امَّا لبنان فانهُ لم يُجرِ فيـهِ غير رصود قليلة بنفسهِ لكنَّهُ وجد في بعض زملائهِ ما اغنـاهُ نوعاً عن ذلك فانّ الاميركيّ روبنصن وقنصل بروسية في دمشق العلّامة وِتشتَين كانا باشرا بعض هـذه الرصود . وكذلك كان ضبَّاط البحارة الانكليزيَّة قاسوا سواحل لبنان والجهات المجاورة لها . فانتفع ڤان دي ڤلد من هذه المساعي العلميَّة الجليلة ورسم خارطتهُ وفقاً لها فجاء عملهُ محكماً وافياً يُعَدّ بروزهُ كنقطةٍ مهمَّة في تاريخ خرائط لبنان (١ . ثم زار ڤان دي ڤلد ثانيةً جبل لبنان وطبع خريطتهُ بعد مدَّة فزاد في تحسينها وتلافى شوائبها

هذا ومع فوائد الخرائط المذكورة لم يتفرّغ الى ذلك العهد احد من العلماء لرسم خارطة خاصَّة بلبنان دون سواه حتى نهض لهذا العمل الجليل قومٌ من ضبَّاط البعثـة الفرنسويَّة الى سوريَّة فرسموا بعد الرصود واقيسة مواقع الامكنة خارطـةً للبنان تُعرَف باسمهم مقياسها ١/٢٠٠,٠٠٠ طولها ٨٩ سنتيمترًا في عرض ٦٧ اودعوها من اعلام الامكنة ما لم يسبقهم اليهِ غيرهم وهي تحتوي ليس فقط اسماء معاملات لبنـان بل تمتدّ ايضاً الى الجبل الشرقي والبقاع وبلاد بشارة

ومن محسّنات هذه الخارطة انّ اصحابها كرَّروا اقيسة الارتفاعات التي قام بها سابقاً القنصل برتون الانكليزي مع غيرهِ من العلماء الاميركان والانكليز والالمان وكمّلوها . واصلحوا ايضاً اغلاطاً اخرى عديدة كما انهم اتقنوا تصوير لبنان في سلسلتهِ الكبرى وفي الفروع المتشعّبة منهُ مع حُسن رسم انجادهِ ومشارفـهِ ومنعطفاتهِ ووجهة أوديتهِ وكل حزونهِ وبطونهِ فضلاً عن طرقهِ وعقباتهِ . وكانت هذه الفوائد مدوّنةً في الخارطة

١) راجع المجلّة الاسيويّة الالمانيّة (ZDMG, XIII, 726)

على احسن هيئة واجود نظر

ولمّا ظهرت هذه الخارطة الفرنسويّة في غضون سنة ١٨٦٢ استحسنها ڤان دي ڤلد لكنّهُ ودَّ لو أَلحقها اصحابها بشرحٍ يرشد القرّاء الى بيان طرائقها والادوات المستعملة لرسمها ومركز اقيسة مثلَّثاتها الى غير ذلك من الفوائد اللازمة لضبط الرسوم وتحقيق صحّتها . وقد انتقد غيرهُ على هذه الخارطة فاخذوا عليها بعض المآخذ منها انَّ اقيسة السواحل لا توافق الخرائط البحريّة التي كان الانكليز يقومون برسمها آنئذٍ تحت نظارة الكومندان مَنسِل . فمن اين يا تُرى هذا الاختلاف وايّ الفريقين هو المُحِقّ او المحقوق ؟ فانَّ الرسّام ريشرد كيپرت بن هنري كيپرت الشهير اعلن انَّ اقيسة الضباط الانكليز لا تخلو من الخلل (١ وكذلك نرى كتبة الانكليز قد اثنوا اطيب الثناء على الخارطة الفرنسويّة للبنان (٢ التي يرجّح كون اصحابها استفادوا من اعمال الضابط الفرنسويّ ديمولين (Desmolins) في اقيستهِ الساحليّة . وزد على ذلك انَّ العلّامة النمسويّ دينر (Diener) من علماء الجيولوجيّة قد استصوب عمل الخارطة نفسها

وممّن لم يستحسنها السيّدة ايزابل برتون امرأة السائح الانكليزي الشهير (٣ بيد انَّ رأيها ضعيف في رسوم الخرائط ولعلّها ارادت بهذا الانتقاد ان تبيّن فضل خارطة زوجها التي ليست بشيء على رأي كيپرت . وكذلك الدكتور پوست من اساتذة الكليّة الاميركيّة في بيروت فانهُ «وجد الخارطة الفرنسويّة قليلة الضبط في تعيين مواقع الامكنة كثيرة الاغلاط في تدوين الاعلام العربيّة (٤ » ونحن وان كنّا نسلّم بما فرط في خارطة الضباط الفرنسويين من الاوهام في تعريف بعض مواقع الامكنة نرى انَّ اغلاط الانكليز والاميركيين في الاعلام العربيّة اكثر وافظع كما اشار الى ذلك العلماء الالمان كالعلّامة سوسين (٥ فيصحُّ فيهم المثل « ايُّها الطبيب اشفِ نفسك »

١) راجع ملاحظاتهِ في ملحق رحلة البارون فون اوپنهيم الى خليج العجم ج ٢ ص ٢٩٦ و ٤٠٥

٢) راجع المجلّة PEF, 1865, 75

٣) راجع الكتاب Unexplored Syria 1, 95

٤) راجع PEF 1892, 219

٥) راجع المجلّة الفلسطينية الالمانية ZDPV, III, 179, IV, 242, V, 243, XIII, 45

والرأي الارجح عندنا في خارطة لبنان التي رسمها الضباط الفرنسويُّون ما قالهُ فيها ريشرد كيپرت ابن المومأ اليهِ « ان خارطة لبنان حسنة الرسم يروق العين النظر فيها ولكن الواصفين قد بالغوا في وصفها (١ » . فكأنهُ اراد بذلك انَّ هذه الخارطة مع ما فيها من المحاسن ليست تامَّة كاملة . وهو حكم صائب الَّا انَّها لمَّا كانت الخارطة الوحيدة للُبنان انَّما المرجع اليها في تقويم هذا الجبل . وعندنا انَّ اصحاب هذه الخارطة لم يطوفوا كل ناحية عكَّار . امَّا جبل اكروم فقد تحقَّقنا في رحلتنا اليهِ سنة ١٨٩٩ انَّ الضبَّاط الفرنسويين لم يدخلوهُ مطلقاً (٢ . على انَّ هذه الملاحظات عرضيَّة لا تمسّ جوهر العمل الذي ادّى للعلم ولا يزال خدماً مشكورة . ولا بُدَّ من الرجوع اليها والاستناد الى معلوماتها الفريدة في بابها حتى يقوم قوم من اهل الضلاعة والخبرة فيتداركوا الخلل

ولهذه الخريطة رسم مصغَّر الحقهُ المسيو رينان بكتابهِ « بعثة فينيقية » مقياسهُ $\frac{١}{٥٠٠,٠٠٠}$ اصطنعهُ اصحاب الخارطة السابقة انفسهم الَّا انَّ الاعلام فيها قليلة لانَّ المقصود منها انما كان فقط الدلالة على العاديَّات في لبنان

هذا وقد ورد آنفاً ذكر خارطة الانكليزيّ مَنْسل البحريَّة . وهي مفيدة لتعريف اقيسة عدَّة مواقع كما انها تصلح لبيان علوّ مشارف لبنان الداخليَّة . وعلى رأي ريشرد كيپرت لا يُركن الى تعريفات هذه الخارطة الَّا في الخطّ الساحليّ . امَّا جهات لبنان الداخليَّة وتحديد مواقع القرى واسمائها ووصف الانهار والطرق ومنعطفات الجبل فانَّ مَنْسِل تصرَّف فيها على حسب مخيَّلتهِ (٣ . وقد اثنى الجغرافيّ دينر (٤ على ضبط اقيسة الانكليز في تعريف اعالي لبنان بينما ترى غيرهُ كريشرد كيپرت وبلنكنهورن قد انتقدوا عليها في صحَّة ضبطها

*

١) راجع رحلة اوبنهيم السابق ذكرها
٢) راجع مقالتنا Notes topographiques sur l'Emésène
٣) راجع رحلة البارون اوبنهيم السابق ذكرها ج ٢ ص ٣٩٦ و ٤٠٥
٤) راجع كتابهُ Libanon Grundlinien einer phys. Goegr. von Mittel-Syrien, 9

وفي سنة ١٨٨٤ نشر الدكتور لورته متقدّم المكتب الطبي في ليون كتاباً اسمهُ «سوريّة كما هي اليوم» اتقن طبعهُ وزيّنهُ بالتصاوير البديعة وهو يحتوي على فوائد جمّة في شأن الجغرافيّة. وخصوصاً تاريخ بلادنا الطبيعي وقد اضاف اليه خريطة فلسطين ولبنان مقياسها ١/٥٠٠،٠٠٠ استند فيها (على ما جاء في صدر الخارطة) الى اصدق الموارد واحدثها عهدًا دون ان يُطلعنا على طريقته في اصطناعها غير انَّ الذي يتصفَّحها لا يجد فيها شيئًا جديدًا والاحرى ان يقال انها دون خارطة البعثة الفرنسويَّة

فمن ذلك انَّ نتوآت الجبل ليست بواضحة فضلًا عن كونها غير صحيحة. ثم ان في اسماء الامكنة اغلاطًا عديدة. مثال ذلك انهُ يدعو بحيرة زينيَّة «لجميَّة» وكذا دعاهُ مرارًا في الكتاب. امَّا اقيسة العلو فلا توافق في الغالب اقيسة غيره من الكتبة ممَّن يُوثق بهم. والظاهر من كلام المؤلف انهُ دوَّن هذه الاقيسة نقلًا عن بعض الادوات الصغرى غير المضبوطة. وخلاصة القول يلوح من درس هذه الخارطة انَّ صاحبها لم يزد شيئاً على معلوماتنا السابقة وانَّما نقل ما اتى بهِ الكتبة المتقدّمون دون تروٍّ كافٍ وبلا اجهاد ذهنٍ. وهذه الخارطة مع قلَّة ضبطها متقنة الطبع تُفيد الذين لا يطلبون الدقَّة في التفاصيل ويكتفون بنظر عامّ وهي بالخصوص تساعد على مطالعة كتابهِ

وهذا الانتقاد والتنقير احقّ بخارطة الاميركان المطبوعة بالعربيَّة على الحجر سنة ١٨٨٩. فانَّها ليست فقط كثيرة الخلل لكنَّها ايضاً مبهمة لا تقرّ لنضارتها العين ولا يأنس بفوائدها العقل. والدليل على قلَّة ضبطها انَّ اصحابها لم يذكروا لها مقياساً وانَّما يقيسون المسافات على مشية الخيل وهي لعمري دلالة تناسب مجاهل افريقية وما شاكلها من الاقطار امَّا بلاد متمدّنة كسوريّة فلا ترضى بها

ومن معايب هذه الخارطة انَّ نتوآت الجبل وسلسلتهُ الوسطى مدلول عليها ببعض الخطوط المخرشبة العمل امَّا تفرُّعاتهُ وانجادهُ ومعاطفهُ واوديتهُ فكل ذلك مُهمل لا ذكر لهُ. وقد أُشير فقط الى مجاري الانهار بعض الاشارة. وعندنا انَّ هذه الخارطة لا تصلح للمدارس ولعلّها تؤدي بالاحداث الى الوهم والغلط. وزد على ذلك انَّ اسماء امكنة عديدة في هذه الخارطة لم تُذكر لضيق المحلّ امَّا صورة الاسماء فهي مضبوطة في الغالب لجبل لبنان لكنَّها مخلَّة لبقيَّة انحاء الشام كما لحظ الامر العلّامة المستشرق

فان بركم في المجلّة الاسيويّة (JA, 1895 ¹, 490) وانّما السبب في هذا النقص ان اصحاب هذه الخارطة لم يرسموها رسماً مستقلّاً بل اتّبعوا فيها الخرائط الانكليزية التي تكثر فيها مثل هذه الاغلاط · ومن اوهامهم انهم جعلوا مديريّة هرمل ملاصقة لبنان مع انّ موقعها في ولاية سورية وان كانت تخصّ متصرفيّة الجبل · وكلّ هذه الشوائب تنزع عن الخارطة الاميركيّة صفتها العلميّة ولذلك لا ترى احداً من المستشرقين يرجع اليها في اوصافهِ · وحكمنا هذا مختصّ في قسمها اللبنانيّ اما رسم بقيّة انحاء الشام فقد تعدّدت فيهِ الاغلاط وتوفّرت اسباب المزلّات وتشوّهت الاعلام لكنّنا نجتزئ بالاشارة لئلّا نخرج عن دائرة موضوعنا

ولا مندحة لنا من ذكر خارطة الدكتور النمسويّ دينر التي ترى في آخر كتابهِ عن لبنان المطبوع سنة ١٨٨٦ · والغاية من كليهما جيولوجيّة لبنان اي تعريف طبقات ارضهِ ويدخلهُ ايضاً فوائد عديدة جغرافية كوصف ارتفاع الجبال ووجهتها وانعطاف وديانها واقيسة معاليها · الّا انّ الاستاذ ريشرد كيپرت مرتاب في صحّة هذه الاقيسة الاخيرة لعدم وقوفهِ على اسلوب دينر في تدوينها · وكذلك تراهُ يذكر بالتحفّظ اقيسة الارتفاع التي اجراها احد معلّمي كلّية بيروت الاميركيّة المعلّم روبرت وِست ونشرها في مجلّة فلسطين الانكليزيّة (PEF) سنة ١٨٩١ (ص١٤٧) و١٨٩٢ (ص٢١٩) و ١٨٩٦ (ص ١٦٥) · ولا غروَ فان هذه الاقيسة لا تراعي درجات الحرارة وذلك امر واجب لضبط قياسات البارومتر · ثم انهُ اهمل في تدوين هذه الاقيسة رسم خارطة لبنان فيبقى القارئ متضعضعاً لا يميّز النقط المقيسة من سواها · امّا قياسات الدكتور بُست الاميركي فيرتأي ريشرد كيپرت (ص٤٠٧) انّها ليست ذات شأن · ومجمل القول انّ العلماء حتى اليوم لم يضبطوا ضبطاً تامّاً اقيسة مشارف لبنان فلا نزال على شكّ من صحّتها

هذا ولا يجهل احد من السيّاح دليل فلسطين وسوريّة المنسوب الى بيديكر وهو كتاب كثير الفوائد وضعهُ عالمان المانيّان شهيران سوتسين وبِنسِنغر واصحباهُ بخريطة للبنان مقياسها $\frac{1}{\ldots\ldots}$ وهي قسمان يحتوي احدهما شمالي لبنان والاخر جنوبهُ الّا انّها شمالًا لا تتجاوز خطّ طرابلس فلا تتضمّن جبل عكّار · وهذه الخريطة قد قام بعملها رجلٌ واسع الخبرة في فنّ رسم الخرائط ألا وهو هنري كيپرت · ومع شهرة هذا العمل و كثرة محاسنهِ لا يسعنا السكوت عن بعض نقائصهِ منها انّ اعلام القرى اقلّ

عددًا من الخريطة الفرنسويَّة · ولعلَّهُ اقتصر صاحبهُ على هذه الاسماء رغبةً في توفير المكان ثم انَّ الغاية من رسم هذه الخارطة ليست التعليم المدرسيّ فاكتفى الراسم بذكر الاعلام التي فيها ما تهمُّ المسافرين معرفتهُ · امَّا ضبط الاسماء فيحتاج ايضًا الى اصلاح لئلا تزلَّ بهِ قدم الطالعين لاسيَّما ان دليل بيديكر قد اتبع في نقل الاعلام العربيَّة طريقة الحروف المفردة المنقطة الشائعة عند كبار العلماء الاجانب · ولو قصد بيديكر لأمكنهُ سدّ هذا الخلل · ولعلَّهُ فعل في طبعتهِ الاخيرة التي لم نطلع عليها · لكنَّ الطبعة الرابعة التي في يدنا تاريخها سنة ١٨٩٧ وهي غير مصلحة ومع هذه النقائص نرى خريطة بيديكر حسنةً يُستفاد من مراجعتها وان لم تُغنِ عن الخريطة الفرنسويَّة

وفي الدليل عينهِ خريطة اخرى مقياسها كخريطة البعثة الفرنسويَّة $\frac{١}{٢٠٠,٠٠٠}$ تتضمَّن جهات بيروت على مسافة ٢٩ كيلومترًا طولًا في ١٩ ك عرضًا فيها كل ما يُرغب اليهِ من وصف الامكنة · وهي في هذا القسم أغنى من خريطة الضبَّاط الفرنسويين

امَّا احسن ما وُضع من الخرائط للبنان فهي خريطة حديثة رسمها ريشرد كيبرت الذي تكرَّر الثناء على براعتهِ في هذا الفنّ وألحقها بكتاب في جزئين ألَّفهُ البارون فون اوپنهيم عنوانهُ : Vom Mittelmeer zum persischen Golf. *Berlin*, 1900 · فالخريطة تاريخها ١٨٩٣ غير انَّها لم تتمّ الَّا بعد تلك السنة والدليل على قولنا انها تتضمَّن عدَّة فوائد من تاريخ سنة ١٨٩٨ · وهذه الخريطة مقياسها $\frac{١}{٨٥٠,٠٠٠}$ وحدودها شمالًا مرعش الى خطّ الناصرة فبُصرى ومن ثم لا ترى فيها لبنان الَّا مصغَّرًا · وهي مع ذلك غاية الاتقان ومثال يُقتدى بهِ من حيث رسم الجبل وتعريف عطفاتهِ واوديتهِ ومجاري انهارهِ وحسن ضبط اعلامهِ · وخلاصة القول لا نجد في هذه الخارطة غير محاسن اللهمَّ الَّا اقيسة قِمم لبنان فانَّنا في ريب من صحَّتها لاختلافها عن الاقيسة المعهودة · مثال ذلك جبل صنّين فانَّ العلماء يحسبون علوَّهُ عادةً ٢٦٠٨ م وقياسهُ في هذه الخريطة ٢٧٥٠ مترًا وكذلك اجمع العلماء سابقًا انَّ اعلى قمم لبنان تتراوح بين ٣٠٦٠ مترًا الى ٣١٠٠ م والعلَّامة كيبرت في خريطتهِ يزعم انَّ المشارف التي تطلّ على وادي الارز يبلغ بعضها ٣٢١٥ مترًا وغيرها

٣٣٦٠ م . ولم نعهـد احدًا من العلماء ذهب الى ذلك الّا بُرتِن الذي لا يوثق بكلامهِ من هذا القبيل

على انَّ العلّامة كيپرت يفيدنا في ملحقهِ أنَّهُ اخذ هذه الاعداد عن خريطـة مخطوطـة المخواجا عبدالله طعمه . وعندنا انَّ العلماء لا يكتفون بهذا السند الوحيد

وفي الختام ان طلب احد رأينا في الخرائط اللبنانيَّة اشرنا اليهِ ان يقتني خريطـة البعثة الفرنسويَّة سنة ١٨٦٠ مع خريطة ريشرد كيپرت وبهما غنى عن غيرهما الى ان يرسم لنا احد العلماء قريباً ان شاء الله خارطة جديدة تستوفي كل الشروط المرغوبة مستندًا الى الاعمال السابقة مع اصلاح شوائبها

٩

لبنان : بحث في انجادهِ واغوارهِ

قد اظهرت ابحاثنا السابقة غير مرَّةٍ خطر لبنان وعظم شأنهِ في سوريَّة . فان كان قول الكتاب الكريم عن بلاد الشام « بانهـا تدرّ لبناً وعسلاً » لا يزال صحيحاً في عهدنا كما صحَّ سالفاً فليس ذلك الّا من فضل الانهر التي تتولَّد في بطون لبنان ومن تأثير الجبال الشاهقة المكلَّلة بالثلوج الغرَّاء في الهواء واحوال الجوّ . وعليهِ فانهُ من الواجب اللازب ان نبيّن خواص لبنان في وضعهِ وهيئتـهِ وبطونهِ وحزونهِ فنشرحهُ تشريحاً انقف على دفائنهِ وخفاياه . وذلك اقوى عامل لبيـان مجاري مياههِ وتفرّع الانهار على جوانبهِ كما سيأتي بُعَيد هذا

*

قال اليزاي روكلو (E. Reclus : *Asie Antérieure*) في وصفهِ للبنان: « اذا ما ألقيتَ ببصرك من البحر الى سلسلة لبنان المستطيلة رأيت من هـذا الجبل نظرًا مهيباً فيلوح لك ازرق او ورديًّا في الصيف ومشتملاً في الشتاء والربيع بجلباب ثلجهِ الفضيّ . واذا تصاعدتِ الابخرة في الجوّ البست قممهُ النازحة ثوباً شفَّافاً هوائياً غاية في اللطف . وتراهُ مع عذوبة منظرهِ لا يخلو من سطوة الصلابة والشَّمَم فترى ذاك الجبَّار يتمطَّى بضلوعهِ الشديدة وينطح برأسهِ الشامخ لا يقوم في وجههِ قائم . على انَّ النظر الى محاسن هذا الجبل عن كثبٍ هي دون جمالهِ عن بعد . فترى ظهره على طول ١٥٠

كيلومترًا (والاصحّ ١٨٠ كيلومترًا) اقهب اجرد لا تكسوهُ الخضرة تجد وديانهُ متشابهة ومشارفهُ كأنها قُدَّت على قالبٍ واحد»

هذا هو الوصف الذي خصَّهُ ذاك الجغرافي الشهير بلبنان. وان دقَّقنا من بعده في تعريف هذا الجبل قلنا: ان لبنان اشبه بجدار عظيم من الصخور وجهتهُ من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقيّ. ومن الجهة الشرقيَّة تراه ينقطع بغتةً امَّا من جهة الغرب فهو يتفرَّع فروعاً متعدّدة على هيئات شتَّى من آكام وبطون وسهول ورُبى متسلسلة يدخل بعضها في بعض. واذا استثنيت هذه التفرّعات الثانويَّة والتجعُّدات غير المنتسقة تحقَّقتَ ان سلسلة لبنان العظمى قد وضعها الخالق على صورة نظاميَّة وجانب كبير من البساطة. ولذلك قلَّما ترى في لبنان تلك المناظر المتباينة التي تقرُّ لها العين في سواهُ من الجبال وانما البصر يقع على حاجز كبير في حدود الافق يتواصل على خطّ مستقيم لا تكاد قممهُ العليا تمتاز عن بقيَّة اقسامهِ

ومن درس جغرافيَّة سوريَّة ورأى نتوآتها وأفرد لبنان ببحثهِ لا يرى فيهِ تلك الأطواد العجيبة التي تقوم في السهول المنبسطة او في وسط الأنجاد المرتفعة فتخلب النظر بمشارفها وقرونها السامية كجبل ڤنتو (Ventoux) في فرنسة وجبل اتنا في ايطالية وبركان تناريف في جزائر كناري وجبل الاقرع في جهات انطاكية او الاولمپ في بروسّة فان مثل هذه الجبال تأخذ بمجامع القلب لتحليقها رؤوسها في الجوّ. امَّا لبنان فلا اثر فيهِ لمثل هذه القرون الباسقة التي تنتصب ضلوعها المهشَّمة بالاودية فوق فقراتها الاصليَّة. وكذلك ليس في لبنان مثال لتلك القنن المروَّسة المدعوَّة في بعض البلاد الجبليَّة كبلاد الالپ والپيريناي بالمسلّات والإبَر والاسنان كما انهُ خالٍ من القمم المخروطة الشكل او ذات المقاطيع المخروطيَّة. ومجمل القول انّ ظهر لبنان ينبسط انبساطاً متساوياً على خطّ سويّ يبلغ معدَّل علوّه ٢١٢٠ مترًا تركب فوقهُ اهاضيب ورواب محدَّبة تختلط في هيئتها مع السلسلة الوسطى الاصليَّة

الَّا انَّ للبنان خواصّ اخرى تجعلهُ من الجبال الممتازة ببهائها فمن ذلك تقاطيعهُ التي ترى في المنعطف الموازي للساحل. فهناك عددٌ وافر من الاودية والمهاوي والشعاب والألهاب الصعبة المرتقى والوهاد التي تفصل الجبل الى نشوز مختلفة كأنَّها القلاع الحريزة. وذلك ما سهَّل لاهل لبنان ان يعيشوا في جبلهم في الامن والراحة.

وكذلك تعدّدت فيهِ الامم المختلفة التي التجأت اليهِ وتوطّنتهُ فاختلطت الانساب وتوفّرت المشاكل في تعريف اصولها الشتى

١ اودية لبنان

وان انتقلنا الآن الى وصف اودية لبنان التي تنوط بها المجاري المائية وجدنا ان وضع هذه المنهبطات والبطون هو على خطّ عموديّ بالنسبة الى ظهر الجبل بالعرض منهُ . ولمّا كان الجبل موازياً للبحر مجارياً لساحلهِ تحدَّرت منهُ السيول الى هذه الاودية فانصبّت في بحر الشام على اقرب طريق . والمياه قد فتحت لها مسيلاً على خطّ مستقيم بعد نفوذها في اعطاف الجبل وخرقها لفروعهِ الثانويَّة . ولو اردنا ذكر الاودية التي هي في لبنان على شكل خطّ عموديّ معترض لتعدّدت الاسماء . فمن ذلك اكثر مجاري السيول كنهر بيروت ونهر الكلب ونهر ابراهيم وامثالها . واكثر وجود هذه الاودية المعترضة في شماليّ لبنان اي في مشارفهِ العليا حيث تبلغ معظم قوّتها

الّا انَّ ظهر الجبل عند بلوغهِ شمالًا رأس الشقعة يميل ميلًا ظاهراً الى الشرق وتتّسع فروعهُ الغربيَّة وتخفّ منحدراتهُ فترى الاودية اللاحقة بهِ تميل معهُ فتتَّجهُ الى الشمال الغربيّ وهي لا تزال مع ذلك تابعة للخطوط العموديّة الّا انّ زواياها بالنسبة الى الساحل اقلّ انفراجاً فتجري الى البحر من الجنوب الشرقي الى الشمال الغربيّ . واذا بلغتَ منتهى لبنان في الشمال الغربي رأيت ضلوع الجبل تتّسع فيها الوديان على شكل المروحة نصابها ظهر لبنان المركزي

وفي لبنان مـا خلا هذا الاودية العموميّة او المعترضة اوديةٌ اخرى توازي طول الجبل وتجري معهُ على خط مستقيم مثال ذلك شماليّ لبنان في جبل عكّار نهر خالد وما ينصبُّ فيهِ من الجداول والسيول . ومثل هذه الاودية الموازية للجبل كثيرٌ في لبنان الجنوبي على جهة طريق الشام الجنوبية فترى مسايل المياه تجاري في سيرها ظهر الجبل في اعاليهِ حتى اذا بلغتَ اسافلهُ عطفت بغتةً واعوجّت على شكل الزاوية المنفرجة . وان اعتبرتَ اغلب الانهار الواقعة في تلك الجهـات كالليطاني والزهراني والاوّلي والدامور وجدتها على هـذا المثال فانّها تجري اوّلًا من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي ثم تغيّر على فور وِجهتَها وتنفذ في مضايق تسيل منها الى البحر على خطّ عموديّ معترض

وليس بين هذه الانهار مـــا يقطع ظهر لبنان الّا الليطاني وحدهُ فانَّ رأسهُ على منعطف لبنان الشرقيّ وهو يصبُّ في البحر منحدرًا الى منعطفـــهِ الغربي وذلك من عجائب الامور اذا اعتبرت عمق وادي هذا النهر وقابلت بينهُ وبين ضخم الجبل الذي تخترقهُ مياههُ . ولعلَّ ما ارتآهُ في هذا الامر العلّامة ت . فيشر لا يخـلو من الصواب وهو قولهُ بان الليطاني كان قديمًا في اسفـل مجراه نهرًا متسرّبًا الى باطن الجبل فلم تزل مياههُ تعمل في الصخور التي تخفيهِ عن النظر الى ان اخترقها وعليهِ فيكون الجسر الطبيعي الذي يُرى حتى الآن في يحمور اثرًا لحالة النهر السابقة وبقيـــة من القناطر الصخريَّة الطبيعيَّة التي جرى تحتها النهر مدّة احقاب عديدة

وممَّا يجدر بنا قولهُ انَّ الاودية اللبنانيَّة وتقعيرها الجسيم انما هو من فعل العوامل الطبيعيَّة التي انجزتها . ألا وهي الثلوج والجليد والامطـــار والمياه الجارية وكلُّها قد تسلَّطت على صخور الجبل فنقرتها وحفرتها على شكل الوديان . وذلك امرٌ يسهل الوقوف عليهِ في الامـكنة التي ينهبط المسيل بين جدران الجبـــل المركَّبة من طبقات صخور نظاميَّة فهذه الطبقات ترى على الجهتين مناسبةً لبعضها . وقلَّما ترى في لبنان واديًا الَّا وتنظر آثار المياه على جانبيهِ فتتحقَّق علوّ مجراها سابقًا ثم هبوطها على مدى الاعصار

وهذا عمل المياه وجرفها للصخور يبدو للعيان في اخوار هلاليَّة تختلف سعةً وعمقًا حُفرت في اواسط الجبل وتتكوَّن من مجموع شعابهِ ومن انخسافاتهِ وتهوُّراتـــهِ . واجمل ما يُرى من هذه البطائح بطيحتـــان الواحدة في لحف صنين والاخرى تُحَيْت المنيطرة . وعند افقا ابطح آخر قليل الاتّساع لكنَّهُ غاية في الحسن لما يُحدق بهِ من المناظر البهيَّة الآخذة بمجامع الابصار

وهي المياه ايضًا حفرت الألهاب اعني الصدوع التي تقوم في الجبل تجاه الناظر اليها كالحائط لا يُرتقى . فانَّ السيول بقوّتها قد تخلَّلت الصخور ولم تزل تناصبها الحرب حتى غلبت صلابتها ودخلت في قلبها . فمن ذلك وادي نهر ابراهيم في مسيلهِ الاعلى نازلًا عن قرطبة ومضيق نهر الكلب وما يفضي اليهِ من الاودية كنهر صليب . كذلك نهر باروك الاعلى مع ملحقاتهِ ونهر الاوَّلي بقرب جزّين . واعظم هذه الالهاب نهر قاديشا فانّ عمقهُ لا يقلّ عن ٥٠٠ متر فيمثِّل نوعًا مضايق بلاد كولورادو في اميركة فترى فيهِ المياه تهبط من اعطافهِ الى اعماقهِ مزبدةً فتسيل متلوّيةً في تلك القناة الطبيعيَّة التي

خرقتها رغماً عن صخورها الصمّاء . وهو لعمري منظر مهيب يزيد روعاً اذا قوبل بما يحفُّ به على جانبي الوادي من الاشجار المتّسقة على شكل الدرج ومن الصخور المختلفة الالوان

وللبنان شعابٌ تصل بين منعطفيهِ منها المناقب يتوقّلها المسافر فيجتاز وسط الجبلين او الربونين متّبعاً لمنعرجات الوادي ومنها الثنايا والعقبات تسير بين الجبلين المنتصبين على متون مرتفعة . مثال ذلك العقبة التي بين العاقورة وأفقا التي تُدعى ثنيَّة المنيطرة وتُعدّ من اقدم مسالك لبنان ومنافذهِ بيد انّ مثل هذه الثنايا قليلة في لبنان لاستواء خطّ قسمهِ الاوسط في الارتفاع . فانّ السائر لا يتبطّن الغور بل كثيراً ما يجري على جانب الوادي او على ظهر الجبل . وفي بعض المجازات كمجاز الباروك وصنّين وجبل الارز الذي يبلغ علوّهُ ٢٦٠٠ متر ليس فرقٌ يُذكر بين الجبل وطريق السابلة

٢ منطقة الثلوج المخلّدة في لبنان

ان اسم لبنان يُشعر ببياض قممهِ فانهُ مشتقّ من اصل ساميّ « لبن » ومعناهُ الجبل الابيض ليس كما زعم البعض لاجل صخورهِ الكلسيَّة التي يتركّب منها بل لما يتوّج رأسهُ من الثلوج الغرّاء . فانّ هذا المنظر في بلاد تتّقد فيها وغرات القيظ كان من شأنهِ ان يؤثر في مخيّلة الامم البائدة

ومع هذا ليس في لبنان رأس يبلغ منطقة الثلوج المخلّدة . وكذلك المثالج الجليديَّة المتجمّدة فلا اثر لها اليوم . وغاية ما يلقاهُ المسافر في اعالي جبل الارز مُدَى احواض في أمن من الشمس تتراكم فيها كميّات وافرة من الثلج تبقى فيها حتى في معظم حرارة الصيف . وهذه المستودعات لا تُرى في قمّة جبل المكمل الذي يبلغ ٣٠٠٠ متر لكن في منعطفاتهِ المعتزلة عن اشعّة الشمس . وكذلك في صنّين وفي جبل المنيطرة بعض احواض مستديرة لا تعمل فيها الشمس لا لارتفاع الجبل لكن لكثافة الثلوج المتراكمة . وعلى رأي علماء الطبقات الارضية لا ينقص لبنان الّا مئة متر ليبلغ علوّ الجبال الخالدة الثلوج التي لا يذوب ثلجها صيفاً مع شتاء لارتفاعها وقلّة حرارتها

ومن تفرَّع الجبل من الجنوب الى الشمال وجد الجبل يتزايد علوّاً وكذلك يتسع عرضاً . ولو تأمّل الناظر من علوّ الجوّ عرض لبنان بين صيداء ومشغرة لوجدهُ لا يزيد عن ٢٩ كيلومتراً وهو يبلغ بين بيروت وقبّ الياس ٣١ ك ومعظم اتساعهِ بين طرابلس وهرمل ٤٦ ك . فيكون لبنان على شكل مربَّع منفرج عن زاويتيهِ العليوَين

٣ وصف قِمَم لبنان

ليس بوسعنا ان نصف كل قمم لبنان المختلفة وتفرّعاتهِ المتعدّدة وانما نذكر منها اخصَّها ليكون القرّاء على بصيرة من امرها

يبتدئ لبنان جنوباً عند الوادي العميق الذي فيهِ يسيل الليطاني وعليهِ تشرف قلعة الشقيف في علوّ ٦٧٠ مترٍ من سطح البحر. ثم لا يزال في تصاعد حتى يبلغ ١٠٣٠ مترًا عند جبل جرمق ثم يتّصل بجبل ريحان الذي بهِ دُعيت احدى مديريّات لبنان. واعلى قممهِ هناك ١٦٤٣ مترًا. ثم يزيد علوًّا عند قرنين محدَّبين يدعيان توأمات نيحا (١٨٥٠ مترًا) يراهما البحَّارة عن بعد وكانوا الى القرن الثامن عشر يستدلّوا بهما على موقع صيداء (١

ثم يرتصُّ الجبل وينضمّ الى بعضهِ متواصلاً فيسير قطبهُ المركزيّ على خطٍّ متساوٍ كأنَّهُ جدار اجرد لا نبت عليهِ فذاك جبل باروك وفي آخره وهدة ظهر البيدر (١٥٤٢ م) تقطع لبنان الى نصفين وهي نقطةٌ مهمَّة للمواصلات بين انحاء الشام وفيها تمرّ طريق دمشق والسكَّة الحديديَّة التي جعلت لبيروت مقاماً راجحاً في سوريَّة

على انهُ اذا كان هذا المضيق يقسم لبنان الى قسمين متساويين على التقريب فانَّ بين القسمين اختلافًا كبيرًا في الهيئة فان القسم الشمالي يأخذ في الانبساط وتتسع انجادهُ حتى تبلغ عدَّة اميال. منها نَجْد جبل الكنيسة (٢٠٣٢ م) ونَجْد صنّين (٢٦٠٨ م) الذي على شكل مثلّث عظيم فيهِ الشرفات والاغوار والاودية يلوح لمن يرقبهُ من سهل البقاع كأنهُ بحر عجَّاج. امَّا من جهة بيروت فينتصب هذا الجبل مع قرنيهِ الشاهقين فيخلب الابصار بمحاسنهِ ووفرة مناظرهِ

وصنّين في علوّهِ ثالث جبال لبنان بعد جبل المنيطرة وجبال الارز. ويبعد عن هذه الاخيرة ٢٠ كيلومترًا بينهما جبل المنيطرة الممتاز بشعبتهِ المستطيلة (٢٩١١ م) وفي منتهاها مجاز ظهر القضيب يمرُّ بهِ السَّفر من وادي قاديشا الى بعلبك

ثم تبتدئ اعلى قمم لبنان ومجموع جبال الارز الذي يلوح للناظر من طرابلس او من البقاع كأنَّهُ سورٌ منيع قائم كالعمود. وهو في الحقيقة نجد واسع مساحتهُ ١٠٠ كيلومتر مربَّع وفيهِ سلسلتان متوازيتان مختلفتان وجهتهما من الشمال الشرقي الى الجنوب

١) راجع Mémoires du Chevalier d'Arvieux, II, 467

الغربي طولها نحو ١٥ كيلومترًا فيها شعوف ورؤوس متعددة لم يُضبَط حتى اليوم قياس علوّها كرأس ظهر القضيب وجبل المكمل والقرنة السوداء وتمارون فترى الجغرافيين يحددون هذه الشُرُفات حدسًا فلا يتفقون بالقياسات كما ذكرنا سابقًا في بحثنا عن خرائط لبنان (راجع الصفحة ١٠٦) . وبيّنّا هناك سبب هذا الاختلاف

كان القائد مَنسل والضبّاط الانكليز اقتاسوا علوّ هذه المشارف بطريقة الرسوم المثلّثة . وتبعهم الضبّاط الفرنسويّون سنة ١٨٦٠ في خارطة البعثة الفرنسويّة دون ان يفيدونا عن طريقة اقيستهم . ثم اورد الجغرافي ر. كيپرت في خارطتهِ قياسات مخالفة للاقيسة الشائعة قبلهُ اخذها عن خارطة الخواجا ع. طعمه وافادنا عن سبب استناده اليهِ في رحلة البارون فون اوپنهيم (٢ : ٤٠٦ و٤٠٧) قال : « انهُ فضّل هذه الاقيسة لانَّ صاحبها نالها بواسطة ميزان البارومتر الزئبقي وهي توافق اضبط الأَقيسة دون ان نتحقّق ما بينهما من العلاقة » . وهو قول بين المدح والانتقاد يجعلنا في ريب عن صحّة هذه الاقيسة واستقلالها . والحق يقال انَّ في خارطة المسيو كيپرت اوضاعاً غريبة كجعلهِ مثلًا حمّانا فوق عين صوفر . وعليهِ فانّنا نفضّل مقاييس المهندسين الانكليز والفرنسويين اذ كانوا مجهّزين بالادوات المضبوطة لاتخاذ هذه الاقيسة وهم يُجيدون استعمالها

فدونك بعض امثلة لهذه القياسات لتعرف ما بين الجغرافيين من التباين : ١ً توأمات نيحا . الحساب الشائع انَّ علوّها ١٨٥٠ مترًا امّا دينر فانّهُ يحسب علوّها ١٧٨٠ م = ٢ً المضيق بين جبل الكنيسة وصنّين . تتراوح الاقيسة بين ١٧٥٧ م وهو عندنا الاصحّ و١٥٠٠ م = ٣ً صنّين يجعل برتون علوّهُ ٢٧١٢ م وكيپرت ٢٧٥٠ م . والباقون ٢٦٠٨ م وهو الارجح = ٤ً جبل الارز اعلى شرفاتهِ القرنة السوداء ٣٣٦٠ م (عن ر. كيپرت) ثم تمارون ٣٢١٥ (عنهُ) وهي اقيسة بالغة لم تجدها في غير خارطة كيپرت . وقد سبق ذكر سندهِ في روايتهِ امّا اصحاب الخرائط الاخرى فانّهم جعلوا ٣٠٦٦ مترًا لقياس أعلى مشارف الارز وهي ايضاً ارفع قمم لبنان . الّا انَّ برتون قد زاد شيئاً على قياس اسلافهِ وهو مع ذلك لم يبلغ قياس كيپرت . وليس لدينا داعٍ يحملنا على نبذ قياسات الاوّلين

وبعد هذه الملاحظة في اقيسة مشارف لبنان فلنواصلنَّ وصف الجبل . فانَّ جبل الارز شمالًا يهبط نحو ٨٠٠ م فتتّصل بهِ سلسلة جبل عكّار (٢١٣٩ م) وطولها ٤٠ كيلومترًا تنتهي شِعَبها الاخيرة عند وادي النهر الكبير الذي يحدّ لبنان في شمالهِ كما

يحدُّهُ الليطاني في شرقهِ وجنوبهِ والعاصي في شمالهِ الغربي والبحر في غربيّهِ
ولوادي النهر الكبير شأن خطير في التاريخ والاقتصاد . فانَّ الطبيعة نفسها قد اختطَّت هذه الطريق فانّها الوحيدة من الاسكندرونة الى حيفا حيث يمكن قطع الجبل بسهولة . لانَّ النهر وبقيَّة العوامل الطبيعيَّة قد بسطت في هذا المكان وادياً متَّسعاً قليل الانحناء لا يتجاوز اعلاهُ ٥١٠ امتار . وفي طرفيهِ سهلان احدهما شرقي وهو وادي العاصي ينفذ من شمال سوريَّة الى دمشق او سهل البقاع والآخر غربي ينفذ الى البحر . ولذلك قد اسرعت الامم فابتنت المدن العامرة على طرفَي هذه الطريق الطبيعيَّة فشيَّدت شرقاً حمص او مدينة قدَس القديمة التي خلَفتها لاذقيَّة لبنان . ومن جهة البحر بُنيَت سِيمِرَّة التي تعدَّد ذكرها في مراسلات تلّ العمارنة ثم عَرقة وارواد في الجزيرة المعروفة باسمها واخيرًا طرابلس . وقد نالت كلّ هذه المدن من الحضارة سهماً فائزًا لانَّ طريق التجارة كانت تمرُّ بها منذ العصور الخالية . وان كانت طرابلس لم تزل حتى يومنا هذا مدينةً معتبرة وتزيد كل يوم ترقياً فانَّ الفضل في ذلك لموقعها في طرف هذه الطريق التجاريَّة واذا ما اوصلتها يوماً السكَّة الحديديَّة بداخل البلاد وهو امرٌ قريب المنال كما رأيت اضحت مُجاريةً لبيروت تباريها في تجارتها ونفوذها

✲

هذا وممَّا يستحقُّ اعتبارًا في درس هيئة لبنان واحوالهِ الجغرافيَّة صخورهُ التي يتركَّب منها . فانَّ هذه الصخور كما سبق القول اغلبها من المركبات الكلسيَّة . والمعلوم انّ الحجارة الكلسيَّة كثيرة التفتُّت تعمل فيها العوامل الجوّية فتحلّها ولذلك تراها منخورة متقطّعة ذات تخاريب وثقوب عديدة كأنّها الغربال . وبعض هذه الصخور متراكمة بعضها فوق البعض فيها الشقوق والتخاريم والشرَفات يظنُّها الناظر من بعيد انّها بقايا ابنية قديمة . واذا رقيتَ اعالي لبنان من علو ١٠٠٠ متر الى ١٥٠٠ م وجدت من هذه الصخور الغريبة ذات التخاريم والشرفات ما يزيدك انذهالًا خصوصاً قرب افقا وريفون وعجلتون ومزرعة كفردبيان وتنورين . وهي قليلة تحت علو ١٠٠٠ م واذا فرعتَ الجبل فوق علو ٢٠٠٠ متر لا تجد منها شيئاً لانَّ البرد الذي لا يزال في اكثر السنة قياسهُ تحت الصفر لا يحلل الصخور بل ينفذ في قلبها ويشقّها شقّاً فترى قِطَعها تعمُّ كل قمم الجبل حتى انها في بعض الامكنة تتراكم كأنّ السائر في وسطها يجري في مقطع

من الحجارة

وكذلك للصاعقة في هذه القُنن فعلٌ لتوارد الانواء في اعالي الجبل . والصاعقة فضلًا عن ضرباتها وسحقها للصخور تحرّك الريح والهواء بتموّجاتها فتدوي لها الاودية وتتأثر منها جوف الجبال فتنخسف او تتساقط . واذا اضفت الى عمل الصواعق فعل الزلازل وفعل المياه في سيلانها فهمتَ كيف يندكُّ الجبل اندكاكاً ويتقوّض فتتحدّر جنادلهُ الى الاعماق جارفةً في مسيرها التربة والنبات

فكل هذه العوامل المخراب تقرّب الى الفهم رأيَ العلّامة دينر في تركيب لبنان (١ حيث يقول انَّ علو لبنان كان في الاعصار السالفة السابقة لعهد التاريخ اعلى منهُ اليوم بنحو ٣٠٠ متر فلم تزل دواعي الدمار تسحوهُ وتجرف تربتهُ الى السهول حتى صار على ما هو اليوم . وهذا امر محتمل فافترض انَّ في كلّ جيل تجرف عوامل الطبيعة خمسة امتار من رأس الجبال فلا يلبث ان يصحّ حساب دينر . وان كان هذا القول صواباً ادركنا صحّة قول الأقدمين بان جبلنا كان سابقاً متوّجاً بثلوج مخلّدة فدُعي لهذا السبب بلبنان اي الجبل الابيض

ومن مفاعيل هذه الجروف المائيّة المغاورُ والكهوف التي يمتاز بها لبنان . فانَّ الطبقات الكلسيَّة الافقيَّة الشكل او المنحرفة انحرافاً خفيفاً كثيرة في الجبل يعترض بينها شقوق او اقسام مختلفة التركيب والصلابة بينها قطع سريعة التفتُّت وشيكة الانحلال . فاذا جاءت العوامل الخارجيَّة جرفت الاقسام الضعيفة الباطنيَّة وتركت الطبقة الكلسيَّة العُليا فاضحت الصخور على شبه السَّقف . وهكذا كانت قديماً تلك المآوي الاولّيَّة التي كان يسكن تحت ظلّها السكّان الاقدمون . وبعض هذه المغاور قد احتفرتها عوامل الجوّ والمياه معاً اذ تسرَّبت الى باطن الصخور فأتْكَلَتْ قسماً منها وتركت وسطها خلوًّا على صور اغوار واسعة وكان للبعض منها مداخل طبيعيَّة ضيقة فنبعت المياه من داخلها فوسَّعتها وجعلت لها دهاليز . كما ترى مغارة انطلياس العليا المعروفة بمغارة البلّاني وكمغارتي نهر الكلب اللّتين نضبت اليوم مياههما ولا يزال حتى الآن يظهر فيهما اثر الماء

وكثرة هذه المغاور القديمة مكّن قبائل عديدة من سكنى لبنان في الاعصار الخالية

١) راجع كتابهُ Libanon, p. 384-385

كما اثبت ذلك الاب زّموفن في المشرق (١ : ٩٧ و ٣٥٣) . ومن هذه الكهوف الطبيعيَّة ما اصلحهُ الناس وزادوا في توسيعهِ امَّا ليتخذوهُ مدافن لموتاهم وامَّا ليأووا اليهِ مع قطعانهم او ليسكنوهُ زهدًا كما ترى في مغاور الفرزل وعدلون وهرمل (راجع ج ١ ص١٠٩) . وربَّما اضافوا اليهِ البنايات العظيمة فصارت هذه المغاور كقسم من اديار الرهبان كما ترى في قزحيًا وقنُّوبين . ومنها ما زيد في تحصينهِ فاضحى كالقلاع المنيعة مثل قلعة نيحا الشهيرة في تاريخ القرون المتوسّطة باسم شقيف تيرون . وهي عبارة عن صخر قائم عموديًّا على علوّ ٣٠٠ متر . وفي وسطهِ كانت عدَّة كهوف وسَّعها البنَّاؤون فسكنها الجند ولا يبلغ الصاعد هذه المغاورَ الَّا بمرقًى صعب الارتقاء . وفي هذه القلعة تحصَّن الامير فخر الدين المعنيّ في القرن السابع عشر كما ورد في تاريخ لبنان . وقد وجدنا في هذا المكان كتابة على اسم الملك الظاهر بيبرس بعد ان انتزعهُ من ايدي الفرنج

وكذلك تُنسب الى جرف المياه الجسور الطبيعيَّة التي في لبنان . فانَّ للمياه المتجمّعة سورةً تمكّنها من كل الحواجز التي تلقاها في سبيلها اذا لم تجد طريقًا اخرى لتحيد عنها . فتراها تصدم الصخور وتنخرها في اقسامها الاقلّ صلابةً فتفتح لها مجرى يتَّسع يومًا بعد يوم حتى تجري في مسيلٍ واسع وتبقى الصخور الصلبة فوقها على شبهِ جسر طبيعيّ . وطبقات هذه الجسور التحتانيَّة كثيرًا ما تسقط لضعف دعائمها التي تجرفها المياه ولتسلُّط العوامل الجوّيَّة عليها . وهكذا ذهب الزمان بقسم من تلك المعابر الطبيعيَّة التي كانت تجمع بين معاطف اودية لبنان وتجري فيها السيول الجارفة . وانَّما بقي منها بعضها الآخر

فمن هذه الجسور معبر طبيعي ليس بمعتبر عند العاقورة وهو عبارة عن صخور ثقبتها سيول المياه على شبه القبَّة . واعظم منهُ شأنًا الجسر القريب من نبع اللبن المعروف بجسر الحجر تراه فوق الميل كالقوس العظيمة وهو يحلّق على علوّ ٦٠ مترًا وطولهُ ٣٠م في عرض خمسة امتار . ومن نظر اليهِ عدَّهُ طرفةً من طُرَف الدهر قد شادتهُ الطبيعة وجعلتهُ كآية من آياتها التي تسبي القلب بعظمها وحسن صنعها . وفيهِ من التناسب والإحكام ما حمل بعض الكتبة على ان يزعموا بان ايدي البشر ساعدت على تركيبهِ . وهو قول بعيد

ثم يوجد جسر طبيعي ثالث على منعطف لبنان الشرقيّ يمتدُّ فوق وادي الليطاني الزهي وموقعهُ على بعد نصف الساعة غرباً من قرية يحمور في وسط الطريق بين جزين وحصبيَّا. وهو حتى اليوم معبر للسابلة بين القريتين. يدعونهُ جسر القوَّة. ونهر الليطاني يسيل تحتهُ على عمق نحو ١٠٠ قدم وطولهُ ٢٢ قدماً ومعظم عرضه ٦٨ قدماً ثم يضيق الى تسعة اقدام. وتعلو هذا الجسرَ طبقةٌ من التربة تنبت فيها الاعشاب والدَّغل

ولنختم هذا الباب بذكر النقطة التي عندها تنتهي المساكن. وهو خطّ يصعب تحديدهُ لقلّة الاقيسة القانونيَّة الدالَّة على علوّ الضياع والقرى. ثم انَّ هذا الخطّ يختلف مع اختلاف احوال الجوّ فانَّ لبعض الامكنة موقعاً حسناً يصونها من هبوب الرياح فيمكنها ان تشاد في معالي الجبل ولولا حُسن موقعها لما امكن الاهلين سكناها. وفي اوربة قائمة السكّان الذين يبيتون في القرى فوق ١٢٠٠ متر لا تتجاوز ٣٠,٠٠٠ نسمة. امَّا لبنان فان القرى التي فوق هذا العلوّ متعدّدة كبسكنتا مثلًا (علوّها ١٤٣٠ متر) وعين صوفر (١٣٠٠ م) والعاقورة (١٤٠٠ م). واقل منها الضياع التي فوق ١٥٠٠ م وهي عيناتا (نحو ١٧٥٠ م) واليمّونة (نحو ١٥٤٠ م) وعزرته قرية صغيرة شمالي غربي زحلة (١٥٤٠ م) (١. وفي الجبَّة قرى عديدة علوّها قريب من ١٥٠٠ م كاهدن وبشرّاي والحدث. امَّا فوق علوّ ١٨٠٠ متر فلا تجد الَّا اكواخاً ومآوي للرعاة وربَّما اختلف الكتبة في تعيين العلوّ لاختلاف مواقع اقيستهم في القرية نفسها. ومن المعلوم انَّ بعض القرى تشغل في الجبل نحو ١٠٠ م بين اسفل دورها واعلاها

امَّا النقطة التي ينبت فيها النبات فهي كما لا يخفى اعلى من نقطة المساكن البشريَّة فانَّ بعض مزارع لبنان موقعها على علو ١٨٠٠ م بل ٢٠٠٠ الَّا انَّ هذه المزدرعات الاخيرة لا تكون الَّا في الاودية والاغوار التي هي بمعزل عن الرياح. وترى في هذا الارتفاع شجر البلوط العادي الكبير الاثمار وشجر البطم البرّي والشوح والخوخ البرّي. ولبعض شجر العرعر ضِخَم عظيم وطول باسق. واشهر اشجار لبنان الارز الذي موقعهُ على علو ١٩٢٥ م

---

١) يزعم لورته في كتابهِ سورية الحالية (ص٦٢٤) انَّ علوّ عيناتا ١٨٠٠ م وعلو اليمّونة ١٦٥٠ م لكنَّ هذه اقوال تخمينيَّة لا يُستند اليها. ويجعل كيبرت علوّ عيناتا ١٦٨٠ م واليمّونة ١٤٤٠ م وهذا دون القياسات المقبولة. (راجع مقالة للاستاذ الاميركي وست (PEF, l. c., West

١٠

مياه لبنان ورسم مجاريها

ليس هذه المرَّة الاولى نبحث عن مجاري المياه في لبنان . فانَّنا في كلامنا عن عين افقا (راجع ج ١ ص ٥٠) ألمعنا الى هذا الامر . لكنَّ خطر الموضوع يحدو بنا الى ان نخصّص لهُ فصلًا اوسع مهَّد اليهِ العقول رَسْمُنا لأنجاد لبنان واغوارهِ . وليس بحثنا الحاضر جغرافيًا محضاً بل عمليًّا ايضاً واقتصاديًّا . فان المياه في البلاد الحارَّة من اعظم عوامل الاقتصاد كما سترى . ودرسُنا هذا لِمَّا يساعد على بيان النظام العجيب الذي وضعهُ تعالى في الطبيعة لموازنة قواها . ولولا ذلك لظنَّ الناس انَّ هذه الجبال الشاهقة ربَّما كانت كحاجز يعوق المواصلات بين الاهلين او اعتبروا هذه مجاري المياه التي تندفع احياناً كسيول جارفة طامية حدوداً لنشاطهم ودماراً لاعمالهم . ولو تروَّوا لأدركوا ان الجبال والمياه معاً أحرى بان تُنتظم بين العوامل المساعدة للمرء اللهمَّ اذا عرف ان يستخدمها لصوالحهِ

وبحثُنا هذا يتداول ثلاثة فصول : اولًا رسم عيون لبنان ثم رسم انهارهِ واخيرًا رسم المياه والشواطئ البحريَّة

١ رسم عيون لبنان

نقسم هذا الفصل ايضاً الى ثلاثة ابواب فنبيّن كيف تكوَّنت هذه العيون في لبنان ثم نعدّد صنوفها المختلفة ونختم بذكر الجداول السارية في اسراب الجبل

١

كيف تكوَّنت عيون لبنان

تصدر عيون لبنان من مياه السماء التي تجود بها الطبيعة على بلادنا فتغمرها بها امَّا بهبوط الامطار الغزيرة وامَّا بخزائن الثلوج المكتنزة في اعالي الجبل كما سبق . والارض ترتوي من هذه المياه الغائرة في كبدها فتتشرَّبها لقابليَّة ترشُّحها ولولا ذلك لانحدرت هذه المياه زاخرةً كالسيول الجاحفـة في ابَّان العواصف والامطار الفائضة ودفعت في مسيرها التربةَ بل سحفت الحصى واقتلعت الحجارة فقلبت البلاد ظهراً لبطن حتى انَّها

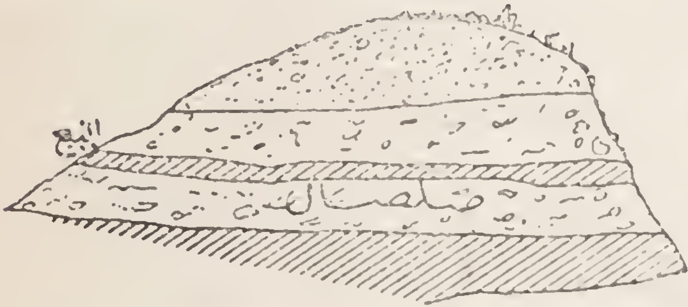
في بعض الاحيان تغيّر بزمن قليل صورة الامكنة ووَضعها الجيولوجيّ . وليس كذلك والحمدُ لله عمل المياه الداخلة الى قلب الارض فانّها اذا نفذت في باطن التربة صفت وتخلّصت من كل الاجسام الغريبة التي اجتذبتهـا ثم تروق بالتدريج وتأخذ من الطبقات التي تجتازها حرارتها وتحلّل ما تجد فيها من الاملاح القابلة التحليل ولا تزال تتحدّر وتنضب الى ان تبلغ طبقات الارض التي لا تخرقها المياه فتسيح فوقها حتى اذا وجدت لها منفذاً تبجّست منهُ عيوناً

ونفوذ الامطار في بطن الارض يجري على طرائق شتّى على اختلاف طبيعة التربة فاذا كانت الارض نباتيّة لا يبلغ الماء اعماقها لاسيّما اذا سحّ المطر ونزل شآبيب وكان وجهُ الارض مع ذلك مائلًا بحيث يسهل السيلان . ومن عادة التربة الزراعيّة المتركبة من بقايا النبات والحيوان ان تمتصّ كميّة عظيمة من المياه لتغذي بها النبات . فترى من ثم عظم شأن التربة الزراعيّة في الفلاحة . وممّا تغور فيهِ المياه بسهولةٍ الطبقات الرمليّة المختلطة بالحصى . وليس الحوّارى والصلصال كذلك فان الماء لا يخرقها للزوجتها وانضمام اقسامها فيجتمع فوقها امّا في الاسراب او في المستنقعات على وجه الارض ويُلحق بالنبات ضرراً لتراكمهِ في بعض الامكنة ونقصانهِ في أُخرى

امّا النبات فقد دلّ المسيو اليزاي روكلو على عماهِ بالنسبة الى الندوّة . فانهُ بعـد اخذهِ نصيبهُ من الماء المنحدر من الغمام يساعد على نفوذ ما فضل عنهُ الى اعماق الارض . فاوراق الاشجار مثلًا تخفّف وطأة سقوطهِ بان تصبّهُ نقطةً نقطةً على الارض فتبتلّ بهِ وتتشرّبهُ شيئاً فشيئاً بينما ينحدر قسمٌ آخر من ماء المطر على ساق الشجرة وجذورها فيدخل توّاً في اعماق الارض . وقد لحظ الطبيعيُّون انّ الخَلَى واصناف النبـات التي تنمو فوق الجبال اذا سقطت عليها الامطار او الثلوج رَويتْ ندوّةً وانتفخت كالاسفنج فخزنت في مطاوي تجعُّداتها ماء كثيراً تنال منهُ التربة حظّها بعد نضوب طراوتهـا . وفي بعض جبال اسكوسية وارلندة عدد لا يحصى من هذه النباتات يبلغ الماء المخزون في خلال اوراقها واغصانها آلاف الوفٍ من طنّات الماء (١ . ومن هنـا تعلم سوء عقبى رِعية العنز في الجبال فانها آفة للنبات وهي ليس فقط تجرّدها من خضرتها التي تزينها ولكن تحرمها من الندى والرطوبة التي تحتاج اليها بلادنا الحارّة

١) راجع كتاب الارض لروكلو Reclus : *La Terre*, I, 300

هذا والصخور عينها تمتصُّ كالتربة العادية كميَّات من الماء تختلف على اختلاف شقوقها وتباعد دقائقها . لا يخرج عن هذا الحكم الَّا حجر الصوَّان المانع وليس منهُ شي٠ في لبنان . وجبلنا على عكس ذلك يتركَّب اجمالًا من حجارة كلسيَّة كثيرة النخور والثقوب تنفذ فيها الامطار كما في غربال . وتحت هذه الصخور عادةً طبقات من الصلصال لا ينفذ فيها الماء سهلًا فاذا اجاز اليها الماء نضَّ قليلًا ونشأ منهُ جداول تجري على حسب ميل طبقات الصلصال واختلاف هيئتها بعمل المياه الى ان تجد منفذًا تسيل منهُ الى الخارج . والمياه التي تنحدر هكذا فوق الصخور الكلسيَّة ومنها الى الاراضي الصلصاليَّة هي اوفر بالاجمال من سواها لطول مسيرها في باطن الارض الذي ربَّما بلغ مئات من الاميال فتردُها على مدى سيرها المياه المتحلّبة اليها . ومثال هذه الينابيع عين انطلياس وعين نهر الكلب في جعيتا فان اكثر مياه مديريَّة القاطع تجري من الاولى كما انَّ معظم مياه كسروان الاسفل تجري من الثانية . ومن هذا الوجه يصحّ قول الجيولوجيّين عن وفرة هاتين العينين وعن يبوسة المعاملات الواقعة تحتهما



٢

اختلاف عيون لبنان

يختلف موقع هذه العيون حسب اختلاف الصخور التي تهبط عليها مياه الامطار . فترى بعضها بعيدة جدًّا من مهبط الغيوث والبعض الآخر ينبع تُحَيت الامكنة التي نزلت فيها هذه المياه . ففي لبنان عيون لا تبعد سوى بضعة امتار من قمَّة الجبل او نجودهِ . وهي نزرة المياه لقلَّة المساحة التي تجمع ماءها وقصر مسيلها في بطن الارض

اما العيون الغزيرة المياه فانَّها تنبجس خصوصاً في الاودية عند لحف الجبال او في وسط الاباطح الواقعة تحت سلسلة جبليَّة فمثال الاولى عيون العاصي الفائضة في سفح جبل هرمل وعيون نهر بيروت ونهر انطلياس ونهر الكلب السائلة في لحف لبنان اماَّ مثال الثانية التي تتفجَّر في وسط السلسلة الجبليَّة عند وطإِ المشارف الثانويَّة فالانهارُ الجارية في اوسط لبنان كنهر قديشا تحت جبل الارز ونهر ابراهيم تحت جبل منيطرة

ونهر دامور تحت عين زحلتا وكنهري الاوّلي والزهراني فانّ كل هذه العيون تتبجّس في سفوح الجبال اللاحقة بالسلسلة الاصليَّة التي يرتوي سطحُها الكلسي من مياه الثلوج والامطار الشتويَّة فتضحي كخزّان لا تَنفَد منهُ المياه التي تسيل الى ان تبلغ طبقةً من الصخر الرمليّ الصلب يُدعى بُرقةً (grès) لا يمكنها اجتيازها فتفتح لها سبيلًا وتسيح على ظهر الارض (١ . ومن اعتبر مساحة الجبل الذي يخزن في صخورهِ وارضهِ القاحلة كلّ هذه الكمية من الندوَّة وهو اشبه بمصفاة واسعة الجوانب بعيدة الغور لا يكاد يتعجَّب من وفرة المياه التي تجري بالعيون اللبنانيَّة

فترى من هذا الوصف صدق ما كرَّرناهُ غير مرَّة وهو انّ لبنان كحوض يكتنز في احشائهِ تلك الانهار الكبيرة وخصوصاً العاصي التي تحيي مياههُ بلاد سوريَّة وتغنيها بما تجديها من المرافق المتنوّعة . ومع صحَّة هذا القول تجد انحاء عديدة من لبنان في حاجة ماسَّة الى المياه كجهات البترون والشوف مثلًا . وخصوصاً بعض المعاملات السُفلى التي تفتقر الى الماء لا يشرب اهلها الّا من الآبار . والعيون في بعض هذه الايالات لا تتجاوز عدد الاصابع كما في جهات البترون والغرب التي لم تحظَ بنصيب صالح منها

وان سأل القارئ وما سبب هذا الاختلاف اجبناهُ انهُ ناشئ عن تركيب لبنان الاصليّ فانَّ بين نواحي تنُّورين وحصرون وبشرَّاي واهدن المتركبة من الصخور الكلسيَّة وبين بقيَّة القائمقاميَّة المتركّبة من الصخور عينها قطعةً مستطيلة من البُرقة ذات الصخور الرمليَّة الصلبة التي لا ينفذ فيها الماء فاذا بلغت المجاري فوجدت امامها هذا الحاجز اندحرت الى الجهات التي تعلوها فتنفجر فيها او نفذت في باطن الارض فتجري في اسرابها وتنصبُّ في البحر كما سيأتي . وما نقولهُ عن هذه الجهات قد تحقَّق بالبحث الجيولوجي وتراهُ مثبتاً بالمقابلة في نواحي الشوف حيث تجد ايضاً تحت قشرة الارض العليا طبقةً من الصلصال والحوَّارى لا تخرقها المياه (٢ . وهي حالة يصعب اصلاحها ومن ثمَّ فعلى اهل تلك النواحي ان لا يصدّقوا بسهولة اقوال بعض القناقن او بالاحرى المشعوذين الذين يدَّعون بمعرفة المياه التي تحت الارض

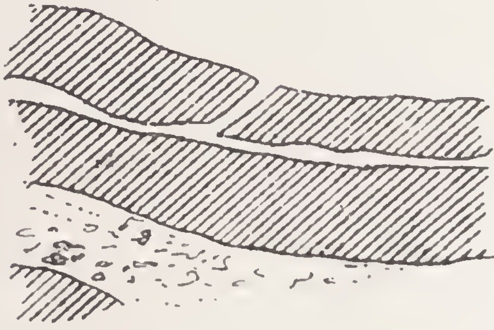
---

١) راجع كتاب العلّامة دينر (Diener, p. 129) وخارطتهُ الجيولوجية للبنان

٢) راجع الخارطة الجيولوجيَّة التي رسمها الاب زُموفن اليسوعي في كتابهِ المعنون « صفة لبنان الجيولوجية » (Esquisse géologique du Liban)

واعلم انَّ ما يمكن قولهُ اجمالًا انَّ كميَّة المياه الجارية من العيون تختلف على اختلاف غزارة الامطار. بل ترى بعضها لا يظهر الَّا في فصول السنين الكثيرة الامطار

امَّا العيون الثابت جَريُها فان كميَّة مائها ليس بثابت . وكلٌّ يعلم انَّ لبعض هذه العيون منافذ ثانويَّة (estavelles) متعدّدة هي فوق المنبع الاصليّ بل تبعد عنهُ احياناً مسافة تُذكر وتنفتح عند تواتر الامطار واذا صار الصيف بقي المنبع الاصليّ وحدهُ فتكون هذه المنافذ كمصارع تخفّف سورة المياه على العين الاصليَّة كما ترى ذلك شتاء في وادي نهر انطلياس بين العين الحالية ومغارة البلاني



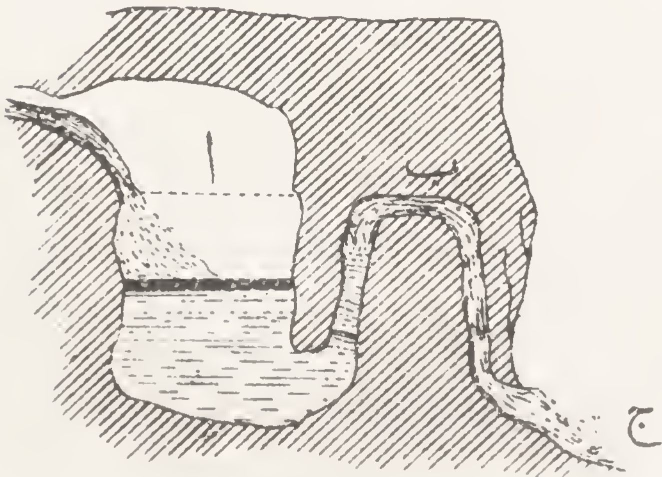
وما نقولهُ عن هذه المنافذ يمكن قولهُ عن بعض المغاور التي كانت المياه تجري فيها سابقاً كمغارة انطلياس مثلًا المعروفة بالبلّاني التي موقعها نحو عشر دقائق فوق المنبع الكبير فانَّ هذه المغارة راقية الى الطور السابق للتاريخ وآثار المياه فيها ظاهرة على حضيضها وجدرانها وبما يُرى في وسطها من الحصى المصقولة باحتكاك المياه. والمرجَّح ان قسماً من الصخور في باطن المغارة انخسفت فسدَّت مؤَخر الفوهة القديمة التي كانت تسيل منها المياه. وذلك في اعصار قديمة جدًّا لانَّ هذه المغارة صارت بعدئذٍ مأوى لاهل لبنان الاوَّلين كما اثبت ذلك حضرة الاب زُموفن في المشرق (١ : ٩٧) . وكذلك مغارتا نهر الكلب العُلْيَوَين. ولعلّ اجمل هذه الاغوار المائيَّة مغارة نهر بيروت وهي على مسافة ساعة من منبع النهر الحالي. وعلو موقعها يصدُّ عن التوقُّل اليها ولكن ترى عند مدخلها آثار المياه القديمة. والتقليد الشائع عند اهل تلك الجهات انَّ هذه قناة او سرب يتَّصل بدير القلعة وهو زعمٌ مردود. وكذلك اخيرًا مغارة افقا العليا فانها منفذ ثانويّ تسيل منهُ المياه في وقت الفصول الكثيرة الامطار

هذا وانهُ ليصعب احيانًا بيان العلاقة الموجودة بين العين الاصليَّة والمنافذ الثانويّة التي تجري على مسافات تختلف عن بعضها بعدًا . كما انهُ لا يسهل ادراك سرّ اتّصال عينين احداهما متواصلة الماء والاخرى متقطّعتهُ

وقد ظهر في ما سبق انَّ كميَّة الماء التي تجري مع عيون لبنان لعظيمة جدًّا وقد قاس منها الجيولوجي فراس (Fraas) ما يبلغ في الثانية اربعين قدماً مكعباً . فعين

جزين التي يتجاوزها غيرها في غزارتها تصبُّ في الثانية ٣٩٠ ليترًا · ومن الامور المقرَّرة انَّ بعض ينابيع لبنان كانت سابقاً اغزر منها اليوم · فالتاريخ يخبر عن عين العرعر قرب بعبدات انها في عهد الرومان كانت تفي بحاجات مباني دير القلعة وهيكلهِ ولذلك قد ابتنوا لها قناةً ترى آثارها الى زماننا مع انها في الوقت الحاضر نزرة المياه لا تحتاج الى قناة · امَّا في القرون الوسطى فلم تزل كثيرة المياه حتى ان الدويهيَّ يدعوها نهرًا في تاريخ الطائفة المارونيَّة (ص ٩٨) · وزعم صالح بن يحيي في تاريخ بيروت (ص ١٢) انَّها كانت تجري الى بيروت في قناةٍ · وهو امر لا يمكن اثباتهُ لكنهُ يبيّن غزارة هذه العين التي لا تكاد اليوم تحصى في عداد الينابيع اللبنانيَّة

وان سأَلتَ الآن عن درجة حرارة العيون في لبنان اجبناك انَّ العلماء لم يبحثوا في ذلك الَّا قليلًا · وما يقال اجمالًا انَّ حرارة المياه الجارية فوق علو الف متر هي دون حرارة الهواء المحدق بها (١ · والمياه على قدر طول مجراها تزيد درجة حرارتها الاصليَّة عند انبجاسها لأَنَّها في مسيرها في الاسراب الباطنة الدافئة تأخذ من حرارتها · ولذلك ترى بعض العيون الغزيرة كنبع انطلياس ونبع نهر بيروت قليلة البرودة · فهذه الينابيع وان كانت تتركَّب من تحلُّب ثلوج لبنان تنقص برودتها لطول جَريها في بطن الارض تحت سلسلة الجبل الى ان تنفذ الى الهواء فوق سطح البحر بقليل فتنصبُّ فيهِ · وهذا معدَّل درجات الحرارة لبعض عيون لبنان بالنسبة الى المقياس المئويّ: نبع جزّين ١٣° · وكذلك نهر الكلب ١٣° · نبع الباروك ١٠° · نبع افقا ٨° · نبع اللبن ٤,٥° · نبع العسل ٤°



وفي لبنان عيون كثيرة دَوْرَيَّة كما مرَّ في وصفنا لافقا وبحيرة اليمُّونة (راجع ج ١ ص ٤٦ و٤٩) · ومثلها نبع عرمتا في جبل الريحان ينقطع مرارًا في السنة لاسيَّما في الربيع فترى مياههُ تزيد وتنقص كل نصف الساعة وربَّما انقطع تماماً ثم عاد الى جريهِ وسبب انقطاع

١) راجع كتاب رفيق المسافر Kaltbrunner: *Manuel du voyageur*, p. 388

المياه على هذه الصورة: انَّ المياه بعد نضوبها واجتيازها في طبقات الجبل تبلغ الى حوض داخلي ينفذ الى الخارج بمجرى على شكل الممص (انظر الصورة ص ١٢٣) فاذا توفرت امتلأ الحوض حتى يساوي سطحُ مائهِ الخطَّ (ا) ثم يزيد ارتفاعهُ في المجرى المقَّف على حسب قاعدة مساواة المائعات في الاوعية المتصلة الى ان يبلغ اعلى نقطة من الممص في (ب) فتجري الى (ج) وهو النبع وتسيل حتى تنقص المياه فيهبط سطحها الى فم الممص الداخلي وينقطع الماء بغتةً ويدوم انقطاعهُ طول المدَّة اللازمة لارتفاع سطح الماء في الحوض الى (ا) فتعود الى الجري وهلمَّ جرًّا

ومن الينابيع ما يفور عند تفجُّرهِ كالنوفرة فيبلغ علوًّا مختلفًا في الهواء ونظن انَّ لبنان لا يخلو من مثل هذه العيون وان لم يحضرنا الآن مثلٌ على ذلك. وفي نبع انطلياس تخرج المياه مزبدةً بينها شبه فوَّارات تعلو نحو قدم فوق جملة المياه. وهذا يُرى ايضًا في عيون نهر العاصي في لحف جبل هرمل

امَّا العيون الحارَّة والمعدنيَّة فانَّ العلماء حتى اليوم لم يفردوا للبنان بحثًا فيها. وجملة ما يُقال انَّ تركيبَهُ الجيولوجيَّ يدلُّ على انَّها قليلة اللهمَّ الَّا بعض العيون الداخل فيها كميَّات مختلفة من الحديد يمكن تمييزها بتلوين مجاريها لان المياه الحديديَّة تُسوِّد مسيلَها عند سيلانها بدقائق الحديد الداخل في تركيبها. امَّا الينابيع الكلسيَّة فكثيرة يرسب كلسها حولها او في مسيلها فيتحجَّر ولا يزال يزيد حجماً حتى انهُ في بعض الامكنة يسدُّ المجرى تماماً

وهو السبب عينهُ الذي كوَّن في بعض الكهوف والمغاور تلك الرسوبات الحجريَّة التي تُرى على شبه العمد. فانَّ المياه بتحلُّبها من سقف المغارة تترك بعض دقائقها الكلسيَّة في الصخر فاذا توالت هذه القطرات زمناً مديداً زاد التحجُّر على شبه اساطين (stalactites) ثم انَّ قطرات المياه بسقوطها على الحضيض تترك قسماً آخر من كلسها الباقي فيتحجَّر الكلس ويرتفع على شبه الشموع (stalagmites) وربَّما بلغ الاسطوان المتحدّر من علُ الشموعَ المرتفعة من اسفل فصار كلاهما كعمَد متواصلة (١. وفي مغارة نهر الكلب من هذه المتحجرات كثير تُرى في الغور الذي يدخلهُ عادةً الزوَّار

١) راجع اليزاي روكلو Elisée Reclus : *Les Continents*, p. 341

الّا انّها ابهى واجمل في قلب الجبل . وقد اخبر المهندسون الانكليز الذين نفذوا الى باطن مغارة جعيتا في ايلول من سنة ١٨٧٣ ثم سنة ١٨٩٦ أنهم عبروا مجازًا حرجاً طولهُ عشرون مترًا قُضي عليهم لضيق الممرّ ان ينبطحوا على بطونهم ثم اجتازوا في احواضٍ ومجارٍ متوالية حتى بلغوا شبه غرفةٍ واسعة وجدوا سقفها مزيَّناً بهذه الاساطين المتحجّرة البديعة المنظر امّا الحضيض فكان مرصّعاً باشكال العمد الغريبة الصورة

٣

مجاري المياه في الاسراب

تتمّةً لكلامنا السابق في عيون لبنان نذكر هنا شيئاً عن جداول المياه في اسراب لبنان لِما بين البحثين من العلاقة اذ انّ العيون لا تنبجس عادةً الّا بعد قطعها مسافةً في بطن الارض

سبق لنا القول عن وفرة مياه عيون لبنان . فانّ بعضها اذا برزت من مكانها جرت كانهار قادرة على حمل القوارب . ويكون تفجّرها غالباً في امكنة قاحلة واودية كثيرة الصخور لا ترى حولها سوى الجنادل العالية والحجارة الصلدة فيؤثر منظر مياهها الرائقة كالزلال في قلب الناظر اذا قابل بين صفائها ووحشة المكان فتراها تنفجر عيونًا كانها اسير حُلّت قيودهُ فنشط بحركاتهِ وبرز من محبسهِ الى النور مسرعاً الى الشمس ليتجلبب بضيائها . واذا سارت من منبعها اخصبت ضفّتيها واحيت ما تمسّهُ من التربة فينبت النبات وينوّر الزهر وتمتدّ الاشجار باغصانها النضرة

فهذا رأس النبع في بيروت ومياههُ الغزيرة الّا انّ هذه المياه كما لا يخفى ليست بنات هذه الصخور الجامدة فلا بُدَّ اذًا من البحث عن اصلها في اغوار الجبل الباطنة حيث تنفذ المياه المتحلّبة من الاعالي فتجتاز في الطبقات الكلسيّة كما بيّنّا ثم تتجمّع في الاحواض جاريةً . ومن الانهار ما يمدُّ مسيلهُ في قلب الجبال مسافاتٍ بعيدة تبلغ نيفاً و ٢٥ كيلومترًا منها مثلًا نهر سورغ (Sorgues) في فرنسة الذي ينفذ من حوض ڤوكلوز . وهكذا ايضاً جبل لبنان فانّ مياههُ تسيل في المجاري الداخليّة قبل بروزها الى النور كما ترى في نهري افقا والكلب المتفجّرَين من كهفهما

وما قلناهُ عن طول مجرى نهر الكلب يجوز تأويلهُ ايضاً عن مغارة افقا التي منها خاصَّةً يسيل نهر ابراهيم فانَّ مدخلها في لحف صخور يبلغ ارتفاعها ٦٠٠ او ٧٠٠ متر لها منظر مهيب قلَّ وجود مثلهِ في العالم على قول رينان والدكتور لورته . وللمغارة شُعَب عديدة ودهاليز فرعيَّة يصعب عبورها لسعة أحواضها وكثرة مياهها . ولا يبعد يكون اتّصال بين هذه المغارة وبحيرة اليمُّونة وليس بمستحيل وجود سرب طبيعي كهذا طولهُ اثنا عشر كيلومترًا

ويلحق بقولنا عن المياه الجارية في بطن الجبل مظهر آخر وهو غؤور بعض المياه في لبنان دون ان يبقى لها اثر والمرجَّح ان هذه المياه تتصل بالبحر فتنفذ فيهِ جاريةً بمجارٍ باطنة ومنها ما هو على قدر انهار غزيرة . وهذا امرٌ طالما لحظهُ الجيولوجيّون في السواحل البحريَّة لاسيما التي تتركَّب من صخور كلسيَّة

ومن تتبَّع ساحلنا الفينيقيَّ وجد في بعض مواقعهِ عيوناً تنبع على سواحل سطح البحر . وبقرب بيروت منها عين غريبة موقعها تحت كلية الاميركان لا يكتفي البعض من ان يشربوا من مائها بل يكرّمونها ويوقدون فيها الشمع تديّناً وينسبون اليها القوَّات العجيبة وهي تُدعى عين المَرَيسة . ومنها عيون أُخرى فوق الجون الصغير المعروف بالمدوَّر حيث تنبع المياه ولا تزال تحفر الركائز التي اقامها المهندسون لسند السكَّة الحديديَّة المتَّصلة بالمرفأ

وبعض هذه العيون تُرى آثارها في وسط البحر كعين ارواد الشهيرة التي تُرى قريباً من جزيرة ارواد . واهل تلك البلدة اذا صعب عليهم الوصول الى البرّ استقوا منها لشربهم . ولا ريب ان مياهها جارية اليها من جبل النصيريَّة . ولو بحثنا لوجدنا غيرها في جوارنا اكثر منها عددًا لانَّ مياه لبنان اغزر من مياه جبل النصيريَّة . ولدينا مثال قريب منَّا عند محطَّة المعاملتين نريد العين المدعوَّة نبع مار يعقوب تُرى في البحر على بعد ٢٠٠ او ٣٠٠ متر من الساحل . واذا كان البحر هادياً لاحت فائرة في وسط الغمر وتبقى مياهها مدَّةً دون ان تمتزج بمياه البحر . ولو بحث المهندسون على وجهة هذه المياه لامكنهم ان يفتحوا لها منفذًا في البرّ فيُغنوا بها الساحل ويسقوا بها المزروعات حيث تقلّ المياه

انَّ قولنا السابق عن عيون لبنان ليس بمستوفٍ الَّا انَّهُ ينبّه القرَّاء ويستدعي

نظرهم الى البحث في هذا الامر الخطير فيجدون فيهِ كفهرس لمباحث عديدة جديرة بهمَّتهم . وليست هذه الابحاث نظريَّة فقط بل عمليَّـــة ايضاً كما رأيت في قولنا عن الينابيع البحريَّة . ولو تفرَّغ اصحاب المروءة الى هذا الامر لوجدوا وسائل متعـدّدة تمكّنهم من مقاومـــة عدوّ بلادنا العظيم اعني جدب الارض والقحولة . فانَّ حيـاة سوريَّة متوقّفـــة على كثرة مياهها وحُسن تقسيمها . وهذا امر غاية في الخطر لترقّي الاقطار في اسباب العمران والاقتصاد والثروة . ولو وجد الاهلون مياهاً غزيرة لزادت همَّتهم ونالوا من الغلال ضعف ما يحصلون عليهِ اليوم

لكنَّنا نتأسف على قلَّة العلماء الذين يتفرّغون لدرس الميـــاه اللبنانيَّة . ولا ترى في اوربَّة بلدًا الَّا وفيهِ كثير من الجيولوجيين الذين يخصّون المياه بنظرهم . وهـذا عذرنا لديهم ان وجدوا كلامنا قصيرًا في هذه المادَّة . وانَّما املنا ان مقالتنا تستلفت انظار بعض الخواصّ فيعيرون بالًا هذا الامر الخطير بدلًا من سعيهم وراء امور اخرى لا طائل تحتها

١١

رسم المجاري النهرية في لبنان

١

افادات عموميَّـــة

باي اسمٍ ندعو مجاري المياه في لبنان أَندعوهـــا انهارًا او جداول او سيولًا فقط . ذلك ليس بامرٍ سهل لولا انَّ العادة قد غلبت على السن القوم فيدعون بالنهر مسيل المياه عموماً فيقولون نهر بيروت بل يقولون نهر انطلياس مع انَّ مجراه لا يكاد يبلغ خمسة كيلومترات وسبب ذلك انَّ العرب لم يعرفوا في جزيرتهم الَّا المياه الجارية في بعض فصول السنة وخصُّوا اسم النهر بتلك الاودية والمياه الجارية جرياً متواصلًا بلا انقطاع سواء تبلغ البحر او تنصبُّ في نهر آخر (١

فما يبقى لنا سوى ان نجاري العادة المألوفة التي لا تخلو من سند كما اشار الى ذلك

١) وقد افرز كتبة الصليبيين بين هذين الصنفين فان غليوس الصوري يدعو باسم « rivus » كوادي المعاملتين وسمَّى الانهار كنهر الكلب « fluvius »

اليزاي روكلو في كتابهِ عن الارض حيث قال (ص ٣٥١) : انَّ كميَّة الميــاه التي تجري في مسيل دون آخر لأَمرٍ عرضي يختلف في قارة دون أُخرى وفي بلد دون بلد على مقتضى خطر مجمل المجاري المائيَّة فلو اعتبرتَ مثلًا بعض انهار اوربَّة وعارضتها بانهار اميركة كالامازون وما ينصبُّ فيه من الاودية لمَا استحقَّت بان تُدعى جداول . ثم انَّ كميَّة المياه ليست بثابتة بل تختلف على مدار السنة . وبعض الانهار التي كانت في سالف الازمنة على سعة نهر المسيسيبي قد صارت بعد التقلُّبات الطارئة على سيَّارتنا « انهارًا بلا ماء » لانَّ للانهار كما للانسان حياةً فتنشأ وترتخ ثم تنقص وتتلاشى . اه

ولا ريب في انَّ الانهار اللبنانيَّة كانت في سالف الاعصار وعلى الاقلّ في الاطوار السابقة للتاريخ اعظم منها اليوم واكثر ماء . وكفى دليلًا على قولنا ان ننظر احواض هذه الانهر الفسيحة وسعة مسايلها القديمة . فانها تنبئ صريحًا باقتصار مجاري مياهها . وربَّما وُجدت في اعالي الاودية مغاور يعلو بعضها البعض كانت المياه تتبجَّس منها فمن فحص هذه الاغوار وسعتها وآثارها الباقية تحقَّق انَّ كميَّة المياه كانت اوفر منها اليوم

وما يُقال عن نقصان مياه الانهار اللبنانيَّة في الزمن السابق التاريخ يُرجّح ايضاً اثباتهُ على رأينا للقرون التاريخيَّة . والشاهــد على صحَّة قولنا ما تراهُ من الحواجز وسدود الانهار التي تكوَّنت عند مصابّها في العهد التاريخيّ وكذلك السهول المجاورة لهذه المصابّ فانَّها تاريخيَّة العهد . وكانت هذه الانهر قديمًا بعد خروجها من الوديان التي منها نبعت تبلغ البحر توًّا . وكان لا بدَّ لها لبلوغ البحر من كميَّة عظيمة من المياه ليمكنها ان تظفر بما تلقاهُ في وجهها من العوائق كمقاومــة الامواج البحريَّة ومهبّ الرياح ورُكام الرمل الذي تنقلهُ السوافي

ولدينا ادلَّة اوضح على كثرة مياه بعض المجاري المائيَّة . انَّ قناة الرومانيين عند نبع نهر بيروت تــدلُّ صريحًا على انَّ اصل هذا النبع كان ثمَّة في الاعصار الاولى لتاريخنا . وكذلك قد قاس العلماء كميَّة المياه التي كانت تجري منها فقدَّروهــا بمتر مكعَّب في الثانية وذلك دون ان يصيب المزدرعات اذًى من قلَّة السقي . امَّا اليوم فلو استقى البيروتيون كميَّة كهذه من ذاك النبع لفقدت السهول المجاورة ريَّها وجفَّت فلا بُدَّ اذن من القول بان مياه نهر ماغوراس وهو لقب نهر بيروت قديمًا كانت اغزر منها اليوم

هذا ثم انّا اوردنا سابقاً (راجع ص ٩٨) قول اسطرابون بخصوص لبنان والجبل الشرقي وبيّنّا انّ هـذا الجغرافي الشهير وَهَم في تعيينهِ وِجهة هذين الجبلين اذ زعم انهما يسيران من الغرب الى الشرق بدلًا من الشمال الى الجنوب وبينهما سهول البقاع التي أوصلها بالبحر وكان يحسب ان الاردن ونهر الكلب يجريان فيها . وأدّى بهِ وهمهُ هذا الى ان ظنّ بإمكان خوض نهر الكلب والسير عليهِ بالمراكب . ولعلّهُ يوجد حجّة لندافع بها عن قول اسطرابون وهي انّ مياه نهر الكلب كانت في سالف الاعصار اوفر منها في زماننا . وهذا ممّا يلوح من الطرق التي تُرى في مضيق نهر الكلب راكبة بعضها فوق البعض واقدمها طريق المصريين والاشوريين تعلو فوق الطريق الحاليّة نحو ثلاثين مترًا . ثم جاءَ الرومان ففتحوا طريقًا اخرى تحت الاولى ببضعة امتار كان السابلة يجرون فيها الى زمن تزيير العربات وهي ايضًا فوق سطح البحر بنحو عشرين مترًا كما ترى في صورتنا . فليت شعري كيف يقال انّ القدماء اختاروا لهم طريقًا في هذا العلوّ لينقلوا اليها عُدَدهم الحربيّة وامتعتهم بعد العناء لولا ان يقال انّ مياه النهر كانت اغزر منها اليوم . وعليهِ فان كنّا لا نوافق اسطرابون في قولهِ عن خوض نهر الكلب (١ فلا بأس من القول بانّ طبقة مياه هذا النهر كانت اعلى منها في عهدنا وكميّتها اوفر . وزد على ذلك انّ سطح البحر قد انخفض بتمادي الاجيال كما سترى

وخلاصة الكلام انّنا لا نخالف الجمهور في تسمية مجاري المياه اللبنانيّة بالانهار وان شاءَ القرّاء امكنّا ان نقسمها قسمين الانهار الساحليّة والانهار البرّية . فالساحليّة ما كانت اوديتهـا محصورةً قليلة الاتساع واكثر انهار لبنان من هـذا الصنف الّا النهر الليطاني والنهر الكبير فيدخلان في حيز الانهار البرّية وهما ينبعان في اواسط البلاد ما وراء سلسلة لبنان العليا . ومن عاين خارطة لبنان تحقّق لاوّل وهلةٍ ان هذا الجبل لا يحتمل لسير مياههِ مجاري كثيرة الاتساع طويلة المسافة . ولو نظر الناظر من علٍ لما قاس بين ضلع لبنان المركزيّ وساحل البحر اكثر من ثلاثين كيلومترًا وكذلك في خلف الجبل لا ترى سهولًا فسيحة رحبة الارجاء يمكن الانهار ان تنساب فيها وتأخذ مداها في التعريج والتوريب كما انّ الاودية اللبنانيّة وكلّها على خطّ متساوٍ قائمة على

١) راجع تاريخ الفينيقيين (ص ٥٠) حيث فنّد پيتشمان رأي اسطرابون

قطب الجبل لا تتحمَّل اتساعاً كبيراً . وفي الواقع انَّ اكثر انهار لبنان سيول لا يتجاوز طولها بعض الاميال تندفع من اعالي الجبال دفعة واحدة الى البحر . وليس بينهما نهر واحد يمكن القوارب فضلاً عن المراكب الجري عليهِ . وذلك لكثرة انحدار مسيلها او لما يتوسَّطها من الصخور وهذا ما منع الملاَّحين ان يخوضوا نهري الكبير والليطاني وكلاهما طويل المسير كثير الالتواء كانَّ الطبيعة اعدَّتهما ليوصلا بين جهات قاصية (١

*

رُبَّما اعتاص على الجغرافيين في وصف مجاري مياه البلاد ان يعيّنوا لكل حوض النهر الاصلي الذي فيهِ تنصبُّ بقيَّة المجاري المائيَّة كانهار ثانويَّة . وليس في وصف انهار لبنان مشكل كهذا لِماَ عرفنا من تركيب هذا الجبل ووجهته . والانهار اللبنانيَّة تشبه اجهزة عصبيَّة قليلة الاشتباك تجمع كما في قناة مركزيَّة الرطوبة التي تأتيها بها في فصول الشتاء الجداول الصغيرة الواقعة على جانبيها . امَّا النهر الكبير الذي يسيل في وادٍ متسع لا في مضيق كغيرهِ من الانهار اللبنانيَّة فلهُ سواعد تنصبُّ فيهِ اكبرها وادي خالد يكاد يساوي النهر الكبير بكثرة مياههِ حتى يبقى الناظر في ريب ايّ منهما هو الشِعب الاعظم. وعلى كل حال لا يُنكر ان نبع وادي خالد اقصى سواعد النهر الكبير جنوباً وابعدها من مصبّ هذا النهر في البحر . وكذلك نهر الليطاني فلانَّهُ يسيل في وادي البقاع المتَّسع تجد سواعدهُ الجارية اليهِ فسيحةً لمجراها وهي كلُّها بالنسبة اليهِ كمجارٍ ثانويَّة اذ تنضمُّ اليهِ في المسيل المركزيّ . غير انَّ بعض كتبة العرب قد جعلوا عين جار كنبع نهر الليطاني . وما لا يُنكَر ان مياه نهر الزاعر الذي يجري من هذه العين اوفر من مياه الليطاني التي ينصبُّ فيها . ولكن قد وهم هؤلاء الكتبة بجعلهم عين جار كاصل الليطاني لوفرة مياهها بدلاً من النبع الأقصى . فانَّ الانهار لا تُحدَّد بما يأتيها من السواعد بل بينابيعها الاصليَّة القاصية . ولولا ذلك لعُدَّ نهر اليرموك كاصل نهر الاردن لغزارة مياههِ وهو يصبُّ فيهِ . وهذا مذهب لا يسلّم بهِ احد

واذا اعتبرنا هيئة مجاري الانهار في مسيرها وجدنا ايضاً ان هذا منوط بتركيب

---

١) راجع ZDPV, XXVII, 69

الجبل فانَّ المياه تجري حسب وجهة الاودية وتركيب الصخور . فلمّا كانت هذه الاودية متساوية ومركّبة من صخور كلسيَّة لا تقوى على سورة المياه سارت الانهار فيها على خط مستقيم . واذا وجدتَّ النهر يعرّج في سيرهِ فذلك دليل على اختلاف طبقات المكان الجيولوجيَّة كما ترى في اكواع انهار لبنان الجنوبيَّة كالدامور والاوَّلي والزهراني فانَّها بعد خروجها من بين الصخور الصلبة (grès cénomanien) تبلغ الجهات المركّبة من الصخور الكلسيَّة السهلة الانحلال فتعدل عن الجنوب مائلةً الى البحر . وهذا يظهر خصوصاً في نهر الاوَّلي كما سترى

وهنا لا بدَّ لنا من الفات الانظار الى النتائج الوخيمة التي ادَّى اليها تجريد لبنان من غاباته بحيث صار هذا الجبل اهلاً بالبوادي القاحلة المجدبة وهو حريٌّ بان يكون في سوريَّة بمنزلة جبال الالپ في سويسرة . وذلك انَّ مياه الامطار والثلوج بدلًا من ان تغور في التربة وتنفذ في جذور الشجر صارت تنحدر مسرعةً الى اسافل البلاد وهي تجرف في سيرها ما امكنها من التربة والحجارة والصخور وربَّما هبطت الى الاودية قطع كبيرة من الروابي والجبال بقوَّة السيول والاعصارات . ثمَّ توالت على الجبل آفةٌ أُخرى وهي آفة المعزى والمواشي التي تقطع النبات او تقلع جذورهُ ففقد الجبل كل تربتهِ الزراعيَّة وانتصبت صخورهُ المتجرّدة وانفتحت فيهِ الوهاد العميقة المحجرة التي صارت مجازًا لسيول جاحفة لم تُرَ سابقًا . واضحى الماء آفةً للخراب بعد ان كان نعمةً يخصب التربة ويغذي جذور الاشجار بالأملاح النافعة التي يحلّلها . وهكذا تُعلَّل تلك الاعاصير الهائلة التي تصيب في كل شتاء بعض اقسام الجبل فتفسد المزدرعات وتهدم البيوت والطواحين وتخرب في يوم ما يُحصَل عليهِ بعد سنين من التعب . وذلك لانَّ اصحاب الارزاق لم يحافظوا في جهلهم على الغابات وقطعوا اشجارها الثمينة بغيةً في الربح فعاد عليهم طمعهم وبالًا

فلملافاة هذه البوائق ليس من وسيلة انجع من نصب الاشجار فانهُ قد ثبت بالتجربة ان مياه الامطار الساقطة على الغابات لا يسيل منها الّا ستة اعشارها فينفذ في الارض ويسيل منها سيلًا منظّماً . وكذلك من الوسائط المستعملة لملافاة اضرار الاعاصير ومياه الفيضان الاحواض والقنوات لسقي الاراضي وتحريك الرحي

والآلات . فيصير بين الطبيعة والاعمال البشريّة كتبادل في الخِدَم . وانّما كل ذلك يذهب سدًى بخراب الغابات والاشجار

وكذلك يجب ان ننسب لتجريد لبنان من شجرهِ اتّساعَ مسيل بعض الانهار لاسيّما في الجهات القريبة من السهول كما ترى في نهر بيروت ونهر الجوز . فانّ المياه عند خروجها من مضيق واديها اذا قوبلت باتّساع مسيل النهر لا تكاد تبلغ القسم العشرين منهُ فلا ترى منها الّا جدولًا صغيرًا يجري بين الصخور المحطَّمة وركام الحصى والرمل . وإنْ ذلك الّا ما جرفهُ النهر من اعالي الجبل في ايّام السيول الشتويّة . ولو كان الجبل مغروساً بالغابات لَمَا سحا بهذهِ التربة ولا زحف امام هذه الصخور بل لبقي في حدودهِ

وفي الانهار صخور قليلة الارتفاع تعترض المياه فتنحدر هذه منها مزبدةً فتلك الجنادل . والظاهر انَّ هذه الصخور شلّالات قديمة عملت فيها المياه حتى انتقصت بالاحتكاك . وفي انهار لبنان منها كثير لتحدُّر الاودية وميلها . امّا الشلّالات العالية فقايلة اشهرها شلّالة جزّين علوُّها من سبعين الى ثمانين مترًا . وتقلُّ مياهها في الصيف حتى لا يبقى نسبة بين ارتفاعها وقلّة مائها . وفي نبع اللبن شلّالة أُخرى ومن خواصّها الغريبة انَّ المياه باحتكاك سطحها الذي تهبط منهُ قد تقهقرت نوعًا الى نبعها (١) . وعلى جانبي المياه جدران خرقتهما المياه فيمكن بتقدير ارتفاعهما قياس عمل المياه وتقهقرها مدَّة كرور الاعصار . وهذا شبه ما جرى لشلّالات نياغارا الشهيرة في اميركة

٢

المصابّ والسدود النهريّة

وانَّ الانهار كما لا يخفى بقدر اقترابها من مصبّها تنقص مياهها إمّا بالتبخُّر وامّا بغيضها في قاب الارض فتبلغ البحر وكميّة مياهها عندهُ اقلّ منها في مسيرها . وهذا الغالب على انهار لبنان لاسيّما نهر بيروت ونهر الجوز والزهراني . ومما يُنقص مياهَ نهر بيروت ما يؤخذ منها لسقي المزروعات في السهل . اما نهر الجوز فانهُ في الصيف ينقطع جريهُ الى البحر

(١) راجع صورتها في كتاب ابرس وغوته (Ebers et Guthe : *Palaestina*, II, 20)

والانهار اللبنانيّة كلّها اذا صبّت في البحر لا تتّسع ضفافها عند مصبّها بحيث يتركّب منها خلجان او جُوَن بل لا ترى لها اخوارًا صغيرة مستديرة . والسبب لذلك اوّلًا قلّة مياهها ثم خصوصاً خلوّ البحر المتوسّط من المدّ والجزر . والجوَن الواسعة تتكوّن بعمل الانهار والبحار معاً وذلك في البحار المفتوحة والسواحل المتعرّضة لقوّة المدّ والانواء. فهي نادرة على سواحل سوريّة لا تثور الّا عند مهبّ الريح الشماليّة . ومعروف انّ كلّ مجاري مياه لبنان تصبّ في البحر غرباً فلا تجد الامواج البحريّة قوّة كافية لتوسيع مصبها وحفر قاعها

وليس عمل امواج البحر كعمل المجاري والمدّ في توسيع مصبّ الانهار. فان هذه الامواج تأتي من غمر البحر منفرجةً وتصدم الساحل على شكل زاوية حادّة فتقتلع منهُ حطامهُ ثم تنقلهُ الى مصبّ الانهار مع ما تأتي بهِ الامواج من الرمل بسيرها المتوازي للساحل. فالمجرى النهري يميل بازاء هذه القوّة العجيبة وينعطف شيئاً فشيئاً ثم يتراكم في عرض مسيلهِ حاجز من الرمل موازٍ للمجرى البحريّ . وبعد مدّة تتكوّن عند الساحل شبه جزيرة ترى في احد جوانبها الساحل البحريّ وفي الجانب الآخر ضفّة النهر يفصلان الماء المالح عن الماء الحلو على مسافة عدّة اميال وهي تارةً تمتدّ وتارةً تتشعّب على حسب اختلاف الارياح والمجاري ومدّ البحر

وهذا اصل الحواجز المختلفة العظم من الحصى والرمل التي تُرى عند مصبّ الانهار اللبنانيّة . والنيل عند مصبّهِ في البحر ينقل اليهِ الوف الوف من طنّات الرمل والطين فاذا صار فصل الشتاء نقلت الريح الغربيّة هذا المحمول الى السواحل فيتراكم عندها وتزيد بها فرجتها . امّا الباقي فينتقل الى جهات الشمال وتستبدل ما رسب منها في طريقها بما تقتلعهُ الامواج من السواحل ثم تثور الرياح الغربيّة التي تهبُّ على سواحلنا نحو مئتي يوم في كل سنة فتنقل هذه الموادّ الى مصابّ الانهار وتدحرها فيها ولولا معاكسة قوّة النهر المنحدر من مشارف الجبل لسدّتها تماماً . على انّ هذه القوّة العاكسة هي دون قوّة البحر الذي لا يزال يقيم سورهُ الرمليّ في وجه النهر ويقوّيهِ . وقد لحظ القدماء هذه الظاهر فحسبوها نتيجة القتال الذي انتشب بين اله النهر واله

١) راجع ديوان الشاعر نونس (Dionysiaques, l., XLI-XLIII)

البحر المدعو پوسيدون اذ تراجما بالحجارة . ويذهبون الى ان الحصى المتكوّم عند مصبّ النهر هو كشاهد على هذا القتال المزعوم . وكانوا يجعلون خصوصاً موقع هذه الحرب عند مصبّ نهر الدامور حيث يُرى سدٌّ غريب الشكل من صغير الحجارة . وربّما ساعد البحرَ في عمله النهرُ نفسهُ بما يجرفهُ من الجبل من الطين وغيره . نعم انَّ هذه الحواجز غالبًا لينة رخوة قليلة الثبات تغيّر هيئاتها السيول الشتويَّة وتقسمها الى اقسام متعدّدة الّا انَّ البحر الذي لا يزال سطحهُ ثابت العلوّ يقوّي هذه السدود ويرصُّها حتى يحصل من اجتماعها جزائر مثلّثة الزوايا كما ترى في الليطاني

واكثر ما يظهر عمل البحر على مصبّ الانهار عند نهر ابراهيم . فانك تجد بين ساحل البحر والجسر القديم مسافة ٥٠٠ متر وفي هذه الفسحة آكام رمليَّة عليها بعض نباتات من القصب وشجيرات نحيفة ضاوية تدلُّ على انَ الفسحة تزيد متانةً وثباتاً . ومن اعتبر تركيبها وقف على عمل البحر كما انهُ يتبيَّن فعل النهر في معاكسته . وعندنا انهُ لمن المرجَّح كون البحر كان سابقاً يغمر الصخور التي فوقها بُني الجسر العربي القديم . وبقيَّة السهل التي بين الجسر المذكور والبحر تتركَّب من جرف مجاري النهر والبحر المتعاكسة ولا ريب عندنا انَّ مياه النهر كانت بعد خروجها من مضيق الوادي تنصبّ في البحر على خط مستقيم على مقتضى ميلها . اذ ليس ثمَّة حواجز صخريَّة او غير ذلك ممَّا يعدل بها عن مسيرها والفسحة كلّها مركَّبة من رمل وطين يسهل قطعهما . الّا انَّ الرياح الغربيَّة حملت هناك كميَّة وافرة من الرمل أقامتها كربوة وعدلت بمياه النهر نحو الجنوب فزاد مجرى نهر ابراهيم بتوالي الاعصار نحو الف متر . ولعلَّهُ كان اطال مسيره جنوباً لولا ما يقوم في وجههِ من الصخور المنتصبة على البحر التي تضطرهُ ان يصبّ في الجون الذي هناك

امّا نهر الدامور فانَّ جرف الرمال البحريَّة والطين النهري قد تكوَّم عند سدّهِ الجنوبي وارتفع هذا السدّ وتمكَّن حتى مال بالنهر الى الشمال

ووجود هذه الحواجز يعمّ كل الانهار اللبنانيَّة حتى انَّ نهر الكلب نفسهُ لا يخلو منها رغماً عن موقعهِ بين الصخور . وهذا النهر يصبُّ توًّا في البحر عند رأس شمالي . امَّا الضفَّة الاخرى فلا تتَّسع اكثر من مئة متر لمجرى المياه . فكان ينبغي للنهر ان يبلغ الساحل بكلّ قوَّته بعد خروجهِ من مسيلهِ الحرج فلا يميل يميناً او شمالاً ومع ذلك ترى



آثار القناة الرومانيّة عند نهر ابراهيم

عند مصبّهِ سدًّا من الرمل متحدباً من جهة البحر قائماً تحت الصخور الشماليَّة متركباً من رسوب البحر وجرف النهر

٣

الانهار العاملة

انَّ مـا سبق وصفهُ عن نهر ابراهيم والسهل المتكوّن عند مصبّهِ يقودنا الى الكلام عن « الانهار العاملة » كما سمّاهـا المؤرّخ هيرودوت متلطّفاً . ولا مشاحَّة فان للمياه الجارية عملاً متضاعفاً فانَّها اذا مـا اخربت من جانب عمَّرت من جانب آخر وما سحتهُ من احد الامكنة نقلتهُ الى محلّ غيرهِ حيث يرسب ويتراكم بقدر مـا حفر وجرف في مسيرهِ . وانَّما جَرْف الانهار ودمارها اظهرُ للعيان واوقع في القلوب لانَّ قسماً كبيرًا من الموادّ الراسبة يخفى عن النظر في عمق البحار

والانهار اللبنانيَّة من الانهار العاملة فانها استحقَّت هذا الاسم بما واصلتهُ من العمل منذ قرون متعدّدة . كان البحر في الاجيال الغابرة يبلغ لحف الجبال فينطحها بامواجهِ المتلاطمة دون ان يتوسَّط بينهما شيء من السهول بل لم يفصل بينهما حاجز من الرمل . فان تغيَّرت هذه الحال فانما ذلك من فعل الانهار فهي هي التي اقتلعت من اعطاف الجبل ومنحدر الاودية تربتها وصخورها فدحرتها الى الخلجان والاخوار البحريَّة التي كانت تُرى سابقاً عند لحف الرؤوس الجبليَّة الداخلة في البحر فلم تزل تنقلها اليها حتى امتلأَ قاعُها . وكانت الرياح الغربيَّة تهبُّ في تلك الاثناء من جهة البحر فتهيج امواجهُ فكانت الامواج تندفع الى السواحل وهي حاملة موادّ ترابيَّة وطيناً من النيل المصريّ ورملاً فتلقي احمالها في مدخل هذه الخلجان فاجتمع عمل الانهار والبحر معاً وتكوَّنت بذلك بعد مئات من الاجيال تلك السدود المحدَّبة والآكام القليلة الارتفاع التي قامت بعدئذٍ في وجه البحر وردَّت صدماتهِ كما ترى في صورة نهر ابراهيم (انظر الصورة) الذي سبق عنهُ الكلام . ومن درس سهلهُ الذي لا يزال على مرأى منّا يتَّسع يوماً بعد يوم ادرك بالنظر مـا جرى في سالف الزمان اذ كانت القوى الطبيعيَّة مع العوامل الجوّيَّة اشدّ فعلاً منها اليوم . امَّا الانهار فجعلت هذه

السدود كمجنّ تعمل من ورائهِ عملًا متواصلًا ساحبةً من اعالي الجبال ما امكنها من الصخور والطين والحصى والتربة الزراعيَّة مغنيةً بها السهول . فليت شعري أليس هذا عملًا متوازياً يقوم مقام الخراب والعمران

فعلى هذا المنوال تكوَّنت شيئاً فشيئاً تلك المثلَّثات الساحليَّة التي تُرى عند مصبّ انهارنا والحقول الخصبة التي تمتدّ على ضفاف الانهار في جوار البحر . وهذا تاريخ السهول والحدائق التي تزين الساحل عند جونيه وصيداء والدامور . والتي في صحنها قامت قديماً المدن الفينيقيَّة العامرة مع ما يُحدق بها من البساتين . وعلى الخصوص ساحل بيروت فانَّهُ ثمرة الانهار والسيول التي تجتاز في اوديتهِ كوادي الشويفات ووادي شحرور ونهر الموت ولاسيَّما نهر بيروت فانَّها كلّها اجتمعت فأتت بموادّها ووجدت في ضعف عملها ما يساعدها على اتمامهِ . امَّا سهل طرابلس فانهُ لسعتهِ ورحب جوانبهِ كان يقتضي عَمَلةً انشط وقدر تراطأوا على الشغل واحسنوا العمل نخصّ بالذكر وادي بطرَّان ونهر ابي علي والنهر البارد ونهر عكَّار والنهر الكبير وهو اعظمها . وكذلك الصخور حيث اليوم اسكلة طرابلس المعروفة بالمينا وما حولها من الاراضي فإنْ هي الَّا سهل تركَّب من مجروفات نهر قاديشا وصار لاحقاً بالبرّ وانَّما كان في سالف الدهر جزيرةً منفصلة عن سلسلة الجزر البحريَّة التي تسدّ اليوم مرفأ البلدة جنوباً (١

وباجتماع هذه العوامل المائيَّة ومواصلة عملها على مدى الاجيال نشأت هذه الواحة العجيبة المجاورة لطرابلس . ومن اعتبر تركيبها من الصلصال والموادّ الكلسيَّة المنحدرة من الجبل ودقَّق النظر في تربتها السوداء اللازجة وما تغلُّهُ تلك الانحاء من الحبوب مع مزدرعاتها الخصبة من الزيتون والنخل والتوت وقصب السكَّر ادرك عظم شأن هذه المدينة وحسن موقعها الاقتصادي كما انهُ لا يتعجَّب ممَّا كتبهُ في شأنها الكتبة الفرنج في القرون المتوسّطة اذا اعتدُّوها كجنَّات عدن

---

١) راجع وصف لبنان لدينر Diener : *Libanon*, p. 110 ثم مقالة الاستاذ هول Ed. Hull في المجلَّة الفلسطينيَّة الانكليزيَّة (PEF, 1885, p. 175) راجع ايضاً Memoir of the physical Geology of Palestine, p. 75 وكتاب ه. بروتس : H. Prutz : *Aus Phœnizien*, IX

وهي العوامل عينها التي شدّدت ساعدها واحسنت العمل في جوار بيروت . فانَّ هذه المدينة كانت كطرابلس وصور وصيداء جزيرة صخريَّة تعوم فوق المياه وكان البحر العجَّاج يبسط ملكهُ فوق البرّ الذي ترى فيهِ اليوم غابة الصنوبر . فلمَّا تحدَّرت السيول اللبنانيَّة وملأَت هذا الغور بما سحتهُ من لبنان وساقت مجاري البحر قسماً من تربة مصر الى سواحلنا امتلأَ البوغاص الذي كان جنوبي غربي المدينة واتَّصلت الجزيرة بالبرّ . ولنا شاهد حسيّ على فعل البحر اعني التَّلعات الرمليَّة التي جاءتنا من القارة الافريقيَّة فنقلت على قول الشاعر لامرتين « الى لفح لبنان قطعةً من صحراء مصر »

وهذه الظواهر الطبيعيَّة انَّما هي نواميس مقرَّرة استلفت اليها الانظار اربابُ وصف البلدان منذ زمن مديد . وليس ما حدث في سواحلنا الفينيقيَّة سوى مثال مصغَّر لمَا حدث في الاصقاع المصريَّة . فانَّ مصر السُّفلى الى المثلَّث العظيم المعروف بالدَّلتا لم يكن في عالم الوجود في غابر الايَّام اذ كان بحرنا المتوسّط يمدّ مياههُ وسيطرتهُ على اسافل تلك البلاد الى سفح جبل المقطَّم حيث شيّدت بعدئذٍ القاهرة

ولنا في تركيب شطّ العرب مثال آخر أقرب عهداً في ازمنتنا التاريخيَّة . فان العلماء بالآثار الاشوريَّة يتَّفقون على انَّ اجتماع النهرين دجلة والفرات عند شطّ العرب انما هو حدَثٌ جرى على الأَقلّ بعد الطور الاوَّل من تاريخ بابل وانَّ النهرين كانا يصبَّان في بحر العجم كلٌّ بمفردهِ لكن مياههما لم تزل تنقل الرواسب التي تراكمت فمالت بسيرها الى أن التقيا في المسير وجريا في مسيل واحد قبل ان ينصبَّا في البحر(١) . وحتى اليوم اذا نظرت الى الطين المنقول بمياههما تحقَّقتَ انَّ ساحلهما يزداد كيلومترين اتساعاً بعد ثلاثة ارباع القرن . وقد ذكر الجغرافي ركلو (الارض ج ١ ص ٤٧٧) خلجاناً من الماء المالح صارت سهولاً بعد مدَّة لا تتجاوز حياة الانسان وكذلك مسايل كان ينبت فيهِ الطحلب اضحت غابات فنواء

أجل انَّ سيول لبنان لا تشبه الآن البعد انهار افريقية وما بين النهرين لكنَّ عملها ايضاً على قدر قوَّتها فتؤلّف سهولاً قليلة الاتساع بالنسبة الى وادي النيل وسهول

(١) وهو امر تنبَّه لهُ قديماً بلينوس الطبيعيّ (ك ٦ ف ٣١)

بلاد العراق (١ بيد انَّ العوامل واحدة والعمل واحد مع اختلاف سعته وعظمه بحيث يمكننا تكرار ما سبق قولهُ بان لبنان افاد سوريَّة كما افاد النيل ارض مصر

ولذلك ترى كتبة الاسفار المقدَّسة اذا ذكروا لبنان انطلق لسانهم على مدحهِ . قال ريتر (٢ : انَّ بلاد فلسطين كلها تشخص بالنظر الى مشارف لبنان وحرمون المكلَّلة بالثلوج الغرَّاء لانَّ منهما تأتيها البركة والخصب واذا سمعت الفلَّاح كما الراعي والقوَّال كما النبيّ والمعلم كما الشاعر رأيتهم جميعاً يستعيرون من هذه الجبال المباركة ابدع ما لديهم من التشابيه واجمل ما عندهم من الرموز »

*

وقبل ختامنا هذا الفصل في انهار لبنان لا بُدَّ ان نبيّن بوجيز الكلام ما لبعضها من الخواصّ بصفة حدود المعاملات والايالات . فانَّ منها وهو النادر ما يكون كثير المياه طويل المجرى كالنهر الكبير الذي يحدُّ فينيقية ويفصلها عن سوريَّة بمعناها الحصري اعني بين سوريَّة بطالسة مصر وسوريَّة السلوقيين (٣ . ومثلهُ الليطاني الذي يحدُّ شمالاً بلاد فلسطين ويفصل بين نواحي صور وصيداء

ولكن أغلب الانهار اللبنانيَّة ألتي تحدُّ المعاملات انَّما هي مجارٍ قليلة المياه وتجري في اودية عميقة تنتهي عند البحر بمضيق او رأس يقوم مقام القلعة . واحسن مثال على ذلك نهر الكلب فانهُ لم يكن حريًّا بان يُجعل من الحدود لقصر مجراه وقلَّة عرضهِ الَّا انَّ مصبَّهُ عند رأسٍ تُدافع عنهُ بسهولة شرذمةٌ من الجند فتردّد جيشاً عرمرماً جعل لهُ خطرًا عظيماً في كل الازمنة . وقد كان هذا النهر على عهد الفينيقيين حدًّا لاملاك بيروت في الشمال كما كان الدامور جنوباً يفصلها عن املاك صيداء (٤ . واليوم

١) راجع ايضاً ما كتبهُ العلَّامة كلرمون غانو عن تقدُّم نهر الاردن الى الجنوب واتساع مصبهِ في بحيرة لوط (RAO, V, 277-280

٢) Erdkunde, XV, 16

٣) اطلب بتشمان وهولشر . Pietschmann, *l. c.* 40 ; Hoelscher : *Palaestina in der persischen und hellen Zeit*, p.8

٤) وكذا كان على عهد الصليبيين يفصل الدامور ولاية بيروت عن ولاية صيداء (راجع كتاب راي في المستعمرات الفرنجيَّة Rey : *Colonies franques*, 509)

ايضاً نهر الكلب من حدود لبنان يفصل قائمقامية المتن عن كسروان . وقد كان على عهد رعمسيس الثاني فاصلاً بين املاك المصريين في الشام واملاك الحثّيين . والنَّصب الذي اقامهُ هذا الملك عند نهر الكلب انَّما هو ذكرٌ ودليل معاً على حدود دولتهِ (١

ويوجد مجرًى آخر اصغر من الانهار السابقة مسيلاً واقلّ شأناً نريد بهِ جدول المعاملتين الذي اتَّخذهُ القدماء ايضاً كاحد حدود البلاد . وفي عهد الفرنج كان الفاصل بين ايالة اورشليم وايالة طرابلس (٢ والسبب ان ضفَّتهُ الشماليَّة عند رأس حرج ضيّق المجاز لم يمكن السير فيهِ الَّا بنقر الصخور لجواز الطريق الساحليَّة . وهناك اليوم برجٌ قديم دلالةً على ما كان لهُ من الاهمّيَّة العسكريَّة . وشمالي هذا الجدول تبتدئ بلاد طرابلس امَّا جنوبهُ فيلحق ببيروت او بصيداء على حسب تقلُّبات الدهر اذ ينتقل مركز الولاية الى بيروت او الى صيداء . ومن هذا اشتقَّ اسم المعاملتين الذي هو قديم في التاريخ كما يشهد على ذلك الكتبة العرب والرحَّالون (٣

ولنا هنا ملاحظة أُخرى وهو انك لا ترى على ضفَّة الانهار اللبنانيَّة لا مدينة ولا قرية مهمَّة (ZDPV, XXVII, 114) مثال ذلك حواضر فينيقية كصور وصيداء وبيروت وجبيل والبترون فكان حقيقاً بها ألَّا تبعد عن هذه الانهار . ولعلّ السبب في ذلك ان في جوار هذه الانهار وعند مصبّها تكثر الامراض الوبيئة والحمّيات ويفسد الهواء . ثم انَّ الفينيقيين كانوا تجاراً لا يُعنَون بالفلاحة والزراعة ومن ثم لم يختاروا لمدنهم السهول ومجاورة الانهار بل كانوا يفضّلون الرؤوس الداخلة في البحر والخلجان التي تصلح لمرافئ سفنهم حيث يسهل عليهم في حصونهم البحريَّة ردّ هجمات العدوّ وركوب البحر وتأمن سفنهم من الرياح وتراكم الرمل ويسهل وسقها بالبضائع . وكلُّ ذلك اوفى بالمرام عند الرؤوس الصخريَّة . وما يدلُّ على انهم احسنوا اختيار مواقع هذه المدن انها لا تزال في مراكزها القديمة مع ما طرأ عليها من التقلُّبات العديدة وصروف الدهر . بل ترى بعضها تتقدَّم كل يوم في معارج الفلاح

١) W. M. Müller, *Asien u. Europa*, 222 ; Schrader - Winckler, *Keilinschriften*, 184

٢) راجع المجلة الاسيويَّة (١٩٠٣ ج ١ ص ٢٩٧)

٣) راجع اخبار الاعيان (ص ١٨)

١٢

مياه لبنان البحريَّة

كان يجمل بنا بعد ذكرنا ينابيع لبنـان وانهارهِ ان نفرد بحثاً لبحيراته . الآنَ البحيرات في لبنان غاية في الندرة . وقد سبق لنا وصف مـا يُرى منها اعني بركة اليمّونة وبركةً ثانية اصغر منها وهي بركة الزينيَّة (١ وقد اطلعنا منذ زمن قريب على بركة ثالثة قريبة من الزينيَّة لم نجد لها ذكرًا في الخرائط اللبنانيَّة تدعى رام الزينيَّـة ولعلّها فاتت الجغرافيين لقربها منها او لتشابه اسميهما

وان اردت ان تزورها فسِرْ من بركة الزينيَّة متوغّلًا في الجبل نحو الجنوب فبعد ثُلثي الساعة تبلغ الى وادٍ حرج لا منفذ لهُ الّا من شمالهِ تحيط بهِ الجبال العالية فهناك رام الزينيَّة وهي على شكل دائرة اهليلجيَّة طولها ١٢٠٠ متر في عرض ٤٠٠ م ومياهها كَدِرة متوحّلة تتكوَّن من ذوبان الثلوج المتوّجة للجبال التي تكتنفها فلا تسيل منها لعدم وجود منحدر تجري منهُ لانَّ الجهة الشماليَّة المفتوحة تعلو قليلًا عن سطح الميـاه فتمنعها من السيلان . امَّا قعر البحيرة فيتركّب من حجارة كلسيَّة نخرة كطبقات لبنان العليا ولذلك لا يمسك المياه . فاذا وافى شهر تموز نضبت البحيرة ونشفت تماماً . وليس سمكٌ في هذه المياه وانما تُرى فيها الضفادع الناقّة وبعض الحيَّات المائيَّة

☆

وتتمّة لدروسنا السابقة في مياه لبنان بقي علينا ان نبحث في مياههِ البحريَّة التي تمتدُّ الى لحف هذا الجبل ونقسم كلامنا الى بابين مدار الاوّل على المياه الساحليَّة وما يغلب عليها من الظواهر الطبيعيَّة امَّا الثاني فنخصُّهُ بالساحل عينهِ وهيئاتهِ

اعلم انَّ للبحار في كُرَتنـا الارضيَّة شأناً عظيماً لا يكاد يفي بهِ الوصف وان

١) راجع الجزء الاوّل ص ٤٦

قصرنا النظر على مياه البحر وحدها وجدنا ما لها من الدور المهم في حياة سيارتنا فان الاوقيانوس كحوضها العظيم وينبوعها الاول تتصاعد منهُ الابخرة فترطب البرور وتسقيها بمياه تنعشها وتحييها وتجعل سكناها محتملًا بل لذيذًا ناعمًا

كذلك سبق لنا وصف العوامل الجوية من انواء ورياح وامطار التي تصدم اطوادنا وقمم جبالنا فتحتكُّ بها وتقطع صخورها وتجرف تربتها الى السهول والى مصبّ الانهار واعماق البحار . فكلُّ ذلك من اعمال البحر ومن نتائج تحوّلات مياههِ بالحرارة . فان السحب اذا تصاعدت من الاوقيانوس انعقدت في اعالي الجوّ وتساقطت على هيئة ثلوج تجمد فوق مشارف الجبل وفي اوديتهِ وتعمل في صخورهِ فتحلّها ثمّ تندفع تلك المثالج والصخور الى اسافل البلاد فتتحوّل الى تربة زراعيّة . ومن هذه المياه ما ينفذ في قلب الجبل فينخرهُ وتتكوّن بذلك المغاور او تجري المياه فائرةً بعد ان اجتذبت بسيرها المواد المعدنيّة التي كانت مكنونة فتنبجس عيونًا معدنيّة ذات خواصّ عجيبة . وما قولنا الان بالانهار التي تتدفّق في كلّ انحاء العالم وتنقل في جسم الارض الخصب والثروة كانها الشرايين في جسم الانسان تحيي كلّ اعضائهِ . أليست هذه من افضال البحار الراجعة الى اصلها بعد دوران عجيب وسقي الارض العطشى

نعم انّ ما يرى على الارض من ظواهر الحياة في المواليد النباتيّة والحيوانيّة بل في حياة البشر كلُّ ذلك مصدرهُ البحار وحركتها المتواصلة . وكذلك لا يشكُّ احد في ما لنتوء الجبال وارتفاعها من التأثير في احوال الجوّ الّا انّ هذا الاختلاف الطارئ عليها بقوّة سُنَن العناية الالهيّة انّما تُجريهِ بجانب عظيم حركاتُ البحر ومظاهرهُ . فان كان الشتاء على وجه الارض ألطف وحرارة الصيف اخفّ وحالات الجوّ من طرف الى آخر تجري بتدريج لئلّا يهلك الاحياء بتنقّلها على فورها ذلك الّا لانّ المياه البحريّة تخزن الحرارة فتنشرها في الشتاء كما انها تلطّف شدّة القيظ في فصل الصيف . وكذلك في الاوقيانوس مجارٍ تنقل المياه القطبيّة الى خطّ الاستواء ومياه خط الاستواء الى القطبين فتعتدل بذلك احوال الجوّ ولا ينتقل الهواء من حالة الى اخرى الّا تدريجًا . ومثلهُ الهواء فانهُ لولا البحار لكان ناشفًا لا يمكن استنشاقهُ وانّما ترطّبهُ المياه البحريّة التي تنشر رطوبتها حتى اقاصي الارض مع الرياح . فالاوقيانوس اذن يدمج الأهوية

ويجعل توازناً بين انحاء الارض المختلفة ويبعث الحياة على الارض ويحفظها بعد ان عُنيَ بتركيبها اذ يهتمّ بريّها بواسطة ابخرته وعيونهِ وانهارهِ

١

المظاهر البحريّة العموميّة

تحت هذا العنوان نجمع كلّ المظاهر التي تلوح في البحر المجاور لسواحلنا اللبنانية فندوّن ما يختصّ بهِ وان كانت هذه الملحوظات قليلة ليست ذات بال . والسبب انّ بحرنا المتوسّط احد الابحر الداخليّة المقفلة لا يتّصل بالاوقيانوس الّا ببوغاص حرج طولهُ بضعة اميال نريد بوغاص جبل طارق . ومن المعلوم انّ البحار الداخليّة لا تشارك الاوقيانوس الكبير باختلاف مظاهرهِ ووفرة حركاتهِ بل ترى كلّ شيء فيها على نظام واحد وسذاجة عظيمة . وكذلك ليس مجال للكلام عمّا يحدث في البحار القطبيّة من قِطَع الجليد الطافية على وجه الماء لبُعد بحرنا عن القطب كما انهُ ليس من اثر لمجاري المياه الحارّة (Gulf-stream) . امّا المدّ والجزر فلا يكاد يُشعر بها

وزد على ذلك انّ العلماء الذين درسوا خواصّ مياه بحرنا المتوسّط انّما اكتفوا بجهاتهِ الغربيّة المجاورة لايطالية وفرنسة امّا الجهات الشرقيّة منهُ اي الانحاء القريبة منّا فان ابحاثهم عنها جرت بتسرُّع فهي لذلك قليلة التدقيق . وهذا هو السبب الذي يصدّنا عن تدوين النتائج المقرَّرة والاعلامات الراهنة بهذا الخصوص . فانّ الاعداد التي وجدناها من هذا القبيل غير مضبوطة اكثرها مبنيّ على التخمين وربّما كانت غير موجودة

*

اعلم انّ اوّل ما يخطر على ذهن العامّة اذا نظروا الى البحر انهُ كهاوية ليس لها قعر ولا حدّ يحصرها . ثمّ يعقب التفكُّر فيؤدّي بصاحبهِ الى أن يجعل لهذا القعر قياساً على التقريب لكنّ الاسباب المذكورة آنفاً تحول دون هذا التحقيق ولاسيّما في جهات البحر الذي تهمّنا معرفتهُ المجاور لسواحلنا . وانما يجوز القول بالاجمال انّ اقصى اعماق هذا البحر المتوسّط او بالحري هذه البحيرة الداخليّة ليست هي الانحاء القريبة منّا ، والذين سبروا الغور في النواحي المصريّة وجدوا فيهِ اعماقاً تنيف عن الفيْ متر

والاقيسة النادرة التي اجراها العلماء في سواحل بلاد الشام بعيدة عن مثل هذا القعر العميق

ثمّ انّ الاعماق القاصية تكون عادةً عند النقط البحريّة المجاورة للصخور العموديّة التي تنغمس توًّا في البحر لاسيَّما عند الرؤوس الساحليَّة والمشارف الصخريّة التي تطلُّ على ثبج المياه فانّ الرياح الزعازع والانواء تثير الامواج وتعمل بلا انقطاع في اركان الصخور واصولها . امَّا اذا كانت السواحل تتركَّب من الرمال فترى قعر البحر لا يتحدَّر الَّا تدريجاً حتى انّ عمق المياه لا يزيد عن عشرين او خمسة وعشرين مترًا على مسافة تختلف بين كيلومترين الى ثلاثة كيلومترات . وليس السبب خلوّ هذه الاماكن من الرياح والانواء التي تحفر اعماقها . انما يمتلئ الحفر بما تأتيه المجاري والرياح من الرمل امّا من السواحل عند مهبّ الريح وامَّا بجروف الانهار من اعالي الجبل

والذين فحصوا عن اعماق الخَوْر المنسوب للخضر بقرب بيروت وجدوا انّ معدَّل قعر البحر في الكيلومتر الاوَّل بين ثمانية ابواع الى عشرين باعاً انكليزيًّا (١ . والباع الانكليزي متر و٨٢ سنتيمترًا اعني من ١٦ مترًا الى ٣٦ م . امَّا غور جونية فأعمق فانّ قاع البحر على مسافة خمسمائة متر من الساحل يبلغ عشرة ابواع اي نحو ١٨ مترًا كما ورد في خارطة الكومندان الانكليزي مَونسل التي سبق تعريفها في مقالتنا عن خرائط لبنان وبازاء هذا الخليج عينهِ على مسافة نحو ثلاث ساعات من الشاطئ قد وُجد أقصى غور سُبر بالمقياس في الساحل الفينيقيّ وهو يبلغ ١٠٨٤ مترًا . واذا تقرَّبت من الساحل بازاء برج محاش جنوبيّ جبيل كانت نتيجة السبر ٤٣٠ باعاً انكليزيًّا . وكذلك الجهة التي هي بازاء مصبّ نهر الكلب فانها بعيدة القعر . ونذكر انَّا قبل بضع سنوات اذ كنَّا نتجوَّل على الطرَّاد الافرنسي شَتزي لم يمكنهُ ان يرسو هناك لقصر سلاسلهِ التي لم تبلغ القعر . وفي الواقع ترى الخرائط البحريَّة تجعل عمق هذا المكان ٢٧٠ باعًا انكليزيًّا . وبخلاف ذلك مينا طرابلس وخورها المتَّسع فانَّ عمقها قليل يتراوح بين ستَّة وثمانية ابواع ما لم تسِرْ الى بُعد كيلومترين او ثلاثة

١) راجع خارطة لبنان البحريّة والارقام فيها بالابواع الانكليزية وهي تدلّ على اعماق البحر

كيلومترات من الساحل وهذا ما يضطرّ السُّفن البخاريَّة بان تبعد عن الشاطئ واذا ما اراد اهل الامر ان يحتفروا مرسًى لهذه المدينة فلا بدَّ لهذا المشروع من نفقات طائلة لقلَّة هذا العمق كما سبق

امَّا مدخل مينا بيروت فقاعُ مياههِ ١٥ مترًا . وهذا العمق لا يُرى وراء السدّ الكبير الَّا على نحو مئة متر منهُ وان سرتَ شمالًا الى مسافة كيلومـــتر وجدت غور البحر بالغًا ٢٩٠ باعًا بينما العمق في جون الخضر على الخطّ نفسهِ وعلى مثل بعدهِ من الساحل لا يزيد على ٢٥ باعاً الى ٣٣ . وفي ذلك تأييد لقولنا عن الاعمـــاق المختلفة التي تُرى عند الصخور الساحليَّة وعند السواحل الرمليَّة

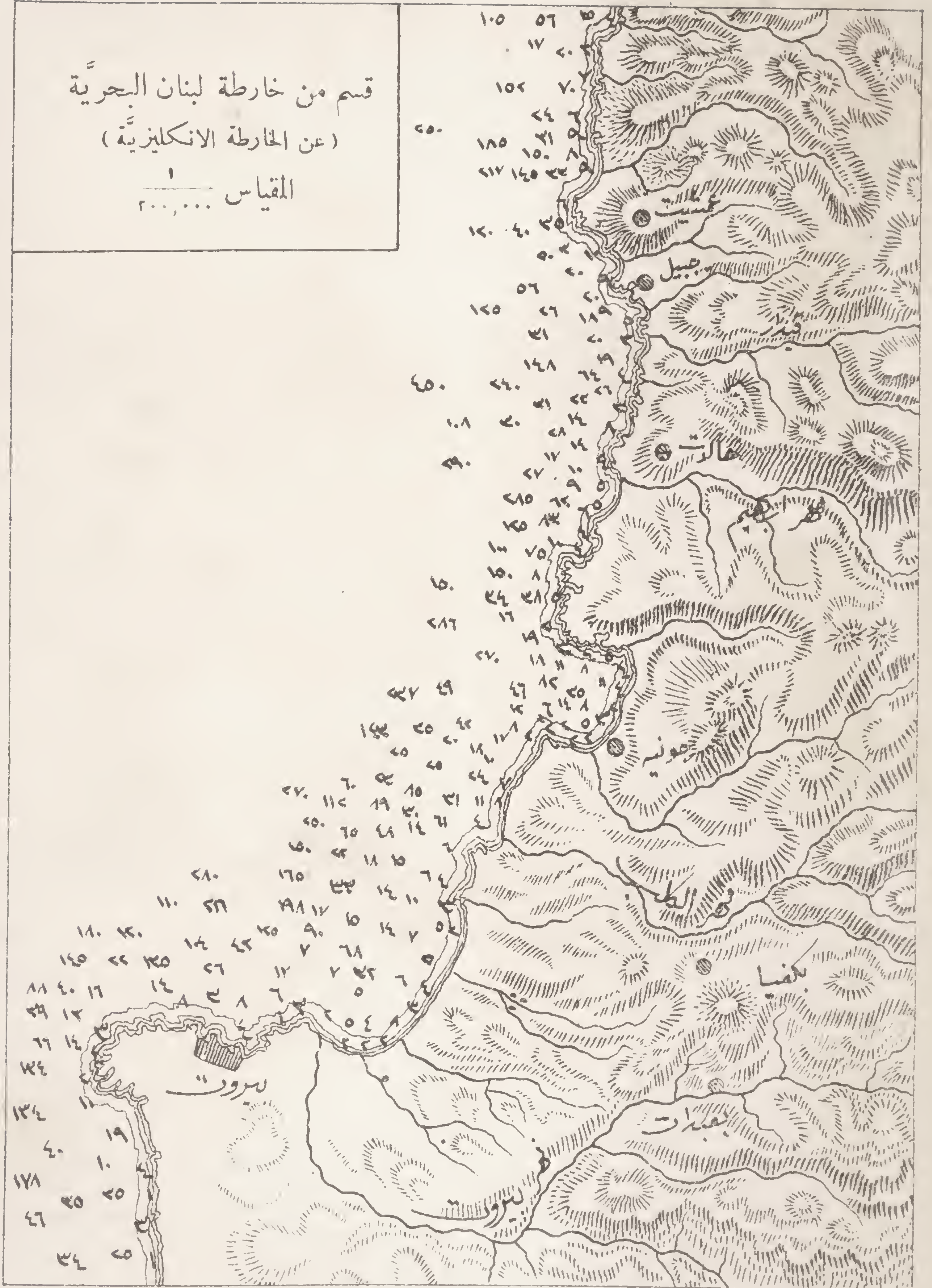
*

واعلم ان تبخُّر الميـــاه في كلّ البحر المتوسّط سريع جدًّا . وهو على سواحل فرنسة وساحل جنوة لا يقلّ عن سنتيمتر كل يوم في فصل الصيف ومجمل ما يتبخَّر منهُ في اشهر الصيف الثلاثة ٦٠ سنتيمترًا . امَّا سواحل الشام فلا مراء بانَّ تبخُّر مياهها اعظم لارتفاع ميزان حرارتها . وقسم من هذا الماء الذي يفقـــدهُ بحرنا يُعاد اليهِ بالامطار النادرة التي يُجاد بها وبالانهار التي تجري اليهِ وهي بالمنسبة الى ما يخسرهُ ثلث كميَّتهِ . ولولا اتصال بحرنا ببوغاص جبل طارق ومنهُ بالاوقيانوس لقلَّت مياهـهُ الحلوة وزادت ملوحتهُ واضحى كبحر لوط في طعمهِ الَّا انَّ الاوقيانوس يمدُّهُ بمياهـــهِ وهي اقلّ منهُ ملحاً ويعوّض لهُ خسائرهُ فيتوازن البحران

واعلم انَّ مياه الاوقيانوس تأتي بحرنا بمجرًى عظيم يمتدّ على وجه البحر المتوسّط الى مسافات بعيدة. وكذلك يحدث على طول السواحل مجارٍ اخرى منها المجرى الذي ينقل الى سوريَّة رمل مصر وطين نيلها (١. وحتَّى الآن لم يُحسن العلماء معرفة خواصّ هذا المجرى ووِجهتهُ وقوَّتهُ كما انَّهم يجهلون امورًا كثيرة منوطة بالمجاري البحريَّة وعلاقات الاوقيانوس ببحرنا المتوسّط . وممَّا افادنا بعضهم بخصوص المجرى الموازي لساحلنا انَّ قوتهُ تبلغ في كل ٢٤ ساعةً عشرين كيلومترًا سيرُهُ من الجنوب الى الشمال . وهي افادة نرويها

---

١) راجع دينر (Libanon, 87, 99)



قسم من خارطة لبنان البحرية
(عن الخارطة الانكليزية)
المقياس ١/٢٠٠,٠٠٠
عمشيت
جبيل
حالات
جونية
بكفيا
بعبدات
بيروت

على علّاتها اذ لم يمكنّا تصحيحها . والمجاري البحريَّة في البحر المتوسّط من الظواهر التي ليست ذات شأن عظيم كما هو الواقع في البحار الواسعة وذلك لخلوّهِ من المدّ والجزر ومن الانهار الزاخرة والأخوار العميقة المتّصلة بالبواغيص الضيّقة (١

ومن يفحص مياه بحرنا لم يجد فقط ثقلها النوعي اعظم من المياه العذبة بل تحقّق ايضاً انَّ ثقلها وهو (١,٠٢٩) فوق ثقل الاوقيانوس (١,٠٢٨) بلمتر. والظاهر انَّ سبب ذلك حرارة الشمس التي تمتصُّ من مياه بحرنا اكثر مما تأتي بهِ الانهار. فما بقي من الماء يزيد ثقلًا لوفرة املاحهِ التي لا تتبخَّر . والامر في جهاتنا السوريَّة اوضح لانَّ انهارنا لا تُغني البحر بموادّها لندرة مياهها . وعليهِ فانّنا نظنّ انّ ملوحة بحر الشام تتجاوز ٣٨ ملّمترًا وهو معدَّل بقيَّة البحر المتوسّط . وتعليلهُ قلَّة المياه النهريَّة العذبة كما سبق ثمَّ ابتعاد جهاتنا عن بوغاص جبل طارق حيث يأتي من الاوقيانوس مجرًى من المياه اقلّ ملوحةً . ولعلَّ قوَّة هذا المجرى لا يظهر اثرها في جهاتنا السوريَّة . ولنا على ذلك بعض التعويض بالكميَّات الوافرة من الماء العذب التي يصبُّها النيل في بحرنا فتأتينا بمجرًى ساحليّ مع ما يأتي من الرمل

قلنا انَّ المدّ والجزر قليلان لا يكاد يُحسُّ بهما الناظر . وسعتهما في سواحل الشام تختلف بين ثمانية وعشرة سنتيمترات . وخفَّة المدّ والجزر نتيجة اشرنا اليها في مقالتنا عن مجاري الانهار في لبنان وهي انسداد هذه الانهار بما يتراكم في مصبها من الرمال فيضطرّ الاهلون بان ينقلوا مراسي مدنهم الى مسافة ابعد على الساحل كما ترى في مرسيلية بالنسبة الى نهر الرون وفي الاسكندريَّة بالنسبة الى النيل . وهذا ممّا حدا بالفينيقيين ان يبنوا مدنهم على مسافة من الانهار

☆

قد قيل انَّ الحياة تظهر خصوصاً بالحركة . وليس في الطبيعة كائنٌ احيا من البحر . وحياتهُ هذه تلوح بعملٍ غير منقطع لاسيَّما بتأثيرهِ في البرور التي لا يزال يغيّر هيئاتها وذلك على نظر منّا . ويذكر القارئ ما قلناهُ سابقاً عن اعمال الانهار التي نسبنا

---

١) راجع ما كتبهُ في المجاري الساحليَّة كلتبرونر (Kaltbrunner : *Manuel du Voyageur*, 438 - 439)

لها خراباً وعمراناً وهذا يصحُّ ايضاً في البحار . ثمَّ تشهد بعض النصوص التاريخيَّة التي ألمعنا اليها على وجود جُزُر صغيرة بازاء بيروت او على مقربة منها . والدليل على ذلك ما ورد في القرن الخامس للمسيح في قصائد الشاعر نونّس المعروفة بالديونيزياك (Dionysiaques) فانَّهُ وصف بيروت وصفاً يدلُّ على نظر العيان وينعتها بالمدينة الجميلة الجزائر (Εὔνησος) . وكذلك جاء في تواريخ الفرنج انَّ ديرًا أُقيم في احدى جزائر بيروت (ZDPV, X, 310) فوجود بناء كهذا لا يكون الَّا اذا اتَّسعت الجزيرة بعض الاتساع . ثمَّ انَّ خرائط مرسومة في ذلك العهد تشهد ايضاً على وجود جزائر مجاورة لبيروت (ZDPV, XXI, 116) . فكلُّ هذه الادلَّة تبيّن صحَّة الامر بلا محال . فترى كيف توارت هذه الجزائر ؟ أبانخسافٍ في الارض او زلزلة ؟ هذا ليس بمحال . ولعلَّها خربت فيما خرب في الزلزال الذي ذكرهُ المقريزي في تاريخ المماليك (Ed. Quatremère, I, 1^re^ partie, 145) حيث قال « انَّ سبع جزائر من بلاد الفرنج في الساحل خُسفت وتوارت في غمر البحار » . وقد بقي من هذه الجزائر صخور تعلو سطح البحر اعظمها شأناً جزائر الحمام في رأس بيروت وآثار المياه فيها ظاهرة وهناك معبر خرقتهُ الامواج في وسط صخورها وهي لا تزال تعمل فيهِ ريثما يتمّ بها عمل المياه فتتوارى بقايا هذه الجزيرة في قاع البحر

وما يقال في تدمير المياه أظهر للعيان في الرؤوس الصخريَّة فانَّ اسافلها عرضةٌ للمجاري المائيَّة التي لا تزال تنخرها . وانما عمل البحر فيها يختلف في السرعة على حسب وجهة الامواج وتركيب الصخور وصلابتها . وبذلك يُعلّل نتوّ الصخور الساحليَّة وهيئتها المتقوّسة كما ترى في رأس بيروت . وكذلك الاغوار والكهوف والحنايا المستديرة التي تُحكم صنعها مياهُ البحر فيُقضى بحسنها العجب

٢

أكثبة الرمل

وممَّا ينوط بدرس المياه الساحليَّة في لبنان أكثبة الرمل التي تتراكم على الشواطئ بفعل البحر . وتُرى هذه الكثبان على سِيف بحرنا المتوسّط وهي قليلة الارتفاع لضيق دائرتهِ وقلَّة ما يجري فيهِ من المدّ والجزر فلا تستطيع الرمال ان تجد مداها

من الحركة والانتشار . امّا تكوّنها فيحدث عادةً في الشواطئ الرمليّة القليلة الانحناء فتنسف الرياح دقائقها وتنقلها من مكان الى آخر حتى اذا وجدت في طريقها حاجزاً من صخر او نبات تجمّعت حولهُ ولا تزال تنمو شيئاً فشيئاً الى ان تصير على شبه ربوةٍ . ثمّ تهبّ الرياح وتلعب السوافي في اعالي هذا الكثيب التي لا تمسّها امواج البحر فتذري رمالها اليابسة وتنقلها الى ما وراء هذا التلّ فيتكوّن منها تلٌّ آخر وهلمّ جرّاً . امّا الامواج فتناطح سفح الكثيب الاوّل وتنقل اليهِ رمالاً جديدة تعلو وتتكوّم فتعمل الرياح فيها كما فعلت سابقاً . وهكذا لا تزال هذه الهضاب الرمليّة في حركة دائمة تتقدّم الى الامام دون انقطاع . ويكون امتدادها بأن تجري الى حيث تجد نتوءاً من الارض او عائقاً فتتجمّع حولهُ رُبى جديدة مستندة الى اعطاف الاكثبة السابقة . وهي لا تلبث بعد حين ان تولّد آكاماً اخرى فتنتصب على شبه سلسلة من التلال المتحرّكة يفصل بينها ألهاب واودية ضيّقة مستطيلة (١

على انّ الآكام الرمليّة التي تُرى في سواحل بحرنا المُقفل الخالي من الجَزر والمدّ ليست كأكثبة البحار الواسعة . كما انهُ لا اثر لهذه التلال في السواحل الوطيئة المتركبة من المواد الصاصاليّة او الصلبة التي لا تحرّكها الرياح والامواج بسهولة كفعلها بالرمل وانّما تتكوّن فيها سدود من الحصى التي تقلّبها الامواج على بعضها الى ان تُصقَل بالاحتكاك وربّما تكوّمت اكواماً دون التلال الرمليّة علوّاً واتساعاً

وان سرحنا البصر في سواحل بلادنا وجدنا مصداقاً على قولنا اذ لا يوجد من هذه النشوز الرمليّة الّا في بعض نقطٍ معلومة تمرح فيها الامواج والرياح معاً كمثل اشباه جزائر صور وبيروت وطرابلس . وكثبان الرمل لا تتكوّن في كل هذه الجهات من جهة الشمال بل من الغرب حيث الشواطئ السفلى الرمليّة فتنسفها الرياح الغربيّة المتواصلة فتتراكم بفعلها . وهذا ممّا يلوح خصوصاً في نواحي بيروت فترى ثمّت توارُد الرمل الذي يزحف بخيلهِ ورجلهِ ويغطي سهولاً مخصبة تغوص في وسطها بيوت واشجار لم ينظر الناظر غير اعاليها . وكذلك طرق العجلات فان الرمال تعلوها بحيث لا تعود تصلح للسير

---

١) راجع ما كتبهُ روكلو في كيفيّة تكوُّن هذه الاكثبة في كتابهِ « الارض » (ج ٢ ص ٢٤٦)

على انَّ لهذا الداء دواء اذ يُمكن ان يُجعل حدٌّ لعمل الرمال بالزراعة ونصب الاشجار التي وحدها تقوم بازاء هذا العدوّ الزاحف فتقوى على ذرَّاتهِ ودقائقهِ. ومن العجيب العُجاب انَّ في هذه الرمال مع يبوستها قوَّةً مخصبة ومائيَّــةً كافية لغذاء بعض النباتات التي لا تؤذيها الرياح البحريَّة المشبَعة ملحاً بل تمتدُّ جذورها الى اعماق بالغة لتمتصّ الرطوبة التي تحتاج اليها لحياتها. فمن ذلك بعض النباتات الزاحفــة الطويلة الاغصان على شبه الحبال كاللوب فتراها تمتدُّ على وجه الارض كشبكة تزينها بزهورها واوراقها. ومن النباتات الرملية اشجار الميموزا والصُّبَّير وبعض الشجيرات المشوكة وكلُّها يردُّ غارات الرمل ويمنعهُ عن ان يتعدّى طورَهُ

لكنَّ هذه الوسائط ربَّما قصرت عن ادراك الغاية او بطلت منافعها كما يجري لكثير من النبات الغضّ الذي يأكلهُ الماعز. فلا بُدَّ من اتخاذ احتياطات اعظم بنصب اشجار تقوى على السوافي وتسدُّ الطريق في وجه الرمــال. وهذا ما قامت بهِ الدولة الفرنسويَّة في احدى مقاطعاتها التي كثرت فيها الرمال وهي مقاطعة غسكونية المجاورة للاوقيانوس فانَّ الرياح مع الامواج البحريَّة كانت تسفي عليها كميَّة من الرمال كادت تسجّيها كالكفن بعد ان غمرت قسماً من قراها. فارادت الحكومة تلافي هذا الامر فباشرت بنصب غابات الشجر منذ نصف قرن وهي لا تزال جارية في العمل وحتى تنجزهُ عمَّا قليل فصارت كثبان الرمل في بلاد غسكونية مورداً للثروة بعد ان كانت آفة متلفةً. فان غابات تلك العاملة الواقعة جنوبيّ غربيّ فرنسة تُعتبَر اليوم كغنًى لها لِمــا يُستثمَر منها من الخشب وما يُستخلص من الموائع الراتينجيَّــة وهي تساوي في السنة مئات الوف من الفرنكات. امَّا الغابات نفسها فيثمّنها العارفون بخمسة وعشرين الى ثلاثين مليوناً. ومن الفوائد التي احرزتها تلك الجهــات بفضل الغابات اعشابٌ وافرة ينبتها الرمل الرطب وهي تصلح للمواشي. وكذلك قد تلاشت المستنقعات التي كانت في تلك الانحاء لانَّ جذور الشجر امتصَّتهــا شيئاً فشيئاً الى ان يبست وصار الهواء بفنائها نقياً طيّباً واضحت الغابات على هذا النمط زينةً وشفاء معاً

وهنا فليسمح لنا ارباب الامر ان نستلفت انظارهم الى رمال بيروت التي يمكنها ان تُخصب مدينتنا وتزينها اذا ما اعملوا فيها ايدي الزراعة. واوَّل ما ينبغي فعلهُ ان لا يُرخَّص للبدوان وللرعيان ان يرعوا فيها مواشيهم. فانَّ رمال بيروت في الربيع تأتي

بشيء من الكلاءِ وببعض الانبتة التي يمكنها ان تنمو وتزكو لولا يتجوَّل فيها هؤلاء الرعاة بقطعانهم فيحوّلونها الى رمال جرداء تتلاعب بها الرياح وتنشرها على الانحاء المدينــة في بعض فصول السنة بدلًا من ان تكون بقعةً خضراء غضراء تروق العين بنضارتها وتخصبها بثروتها

وانفع من ذلك ان تُغرس انصاب الصنوبر فانَّ هذا الشجر كما حقَّقتهُ الاختبارات المتوالية شرقاً وغرباً انجع دواء لهذا الداء واقوى عامل على ردّ غارات الرمال . ومن ثمَّ لا يؤَاخذنَّ الانسان غير نفسهِ ان تغاضى في استعمال هذه الواسطة القريبة المنال التي من شأنها ان تُصلح تماماً وهو السبب الاوحد في ما يجري من الخلل في توازن قوى الطبيعة المتَّسقة وفقاً لنظام العناية الصمدانيَّة

ويؤَيد قولنا ما كتبهُ في هــذا الصدد كلُّ الذين بحثوا عن تكوُّن الأَكثبة الرمليَّة فانَّهم يتَّفقون في القول بان هذه التلال حديثــة النشأة وانَّ في مكانها كانت سابقاً تمتدُّ الاحراج والغابات فلمَّا قُطعت اشجارها استولت عليها الرمال . وهذا قول عمومي يصحُّ في السواحل الاوربيَّة كما في شواطئ بحرنا . ومن تصفَّــح التواريخ اليونانيَّة او اللاتينيَّة لا يجد ذكرًا لهــذه الروابي الرمليَّة الى عهد القرون الوسطى بل تراهم على عكس ذلك يشيرون الى الغابات القائمة مكانها او في عمارتها

انَّ في نصف الطريق الجارية بين صيداء وبيروت في المحلّ المعروف بنبي يونس بنايةً قديمة تراكمت عليها الرمال فلم يُرَ منها الَّا قبَّتها البيضاء . وهي بناية اسلاميَّة بلا شكّ تدلُّ هيئتها على اصلها وزمنها . فتكون الرمال تواردت عليها حتَّى كادت تغمرها بظرف بضع مئات من السنين . وكذلك اذا سرتَ شمالًا الى نهر الغــدير على مسافة نصف ساعة جنوبيّ خلدة بلغت موضعاً يُدعى القصر كان بقربهِ محلَّة تغطّيها الرمال في عهدنا . والمرجَّح انَّ ذلك حدث بعد الاسلام فيكون عمل الرمل فيها حديثاً . وفي نُقط اخرى من الساحل عند رمال بيروت آثار تدلّ على عمران سابق وحداثة عهد الرمال

وقد زعم بعض الكتبة ان اصل بيروت من غابة صنوبرهــا وان معنى اسمها الصنوبر . وهو قول ضعيف والرأي الأَسدّ انَّ اشتقاق اسمها من البئر ومعناها مدينة الآبار . لكنَّ في هذا الزعم نفسهِ دليلًا على قدم غابات صنوبر بيروت وقد افردنا لذلك مقالة مستقلَّة (راجع المشرق ١ [١٨٩٨] : ٩٣٩-٩٤١) حيث اوردنا عدَّة شواهد على قولنا

فلتُراجَع فانهـــا تثبت انَّ قسماً من شبه جزيرة بيروت كان مزداناً بغابة من الصنوبر وبقيت هذه الحال الى القرن الثالث عشر كما يشهد على ذلك الشريف الادريسيّ اذ قال ان « غابة صنوبر بيروت اثنا عشر ميلاً في التكسير تتصـل الى تحت لبنان » وهذه المسافة الواسعة لا تدع مكاناً للرمال كي تُرى اليوم ما لم يُقَل انَّ هذه الغابة كانت تشغل السهول التي فيها اليوم مزارع الزيتون وهي المعروفة بصحراء الشويفات. وهو قول بعيد لانَّ هذه المزارع كما يظهر قديمة ايضاً ورد ذكرها فيما لدينـــا من سجلّات وتواريخ القرون المتوسّطة. ويكفي لردّ هذا المزعم ان القناة الرومانية المعروفة اليوم بقناطر زبيدة لم تُتَّخذ غالباً الّا لسقي هذه المزارع الواقعة في ارباض البلدة. وبقيت غابة بيروت زاهرةً غبياء بعد الادريسيّ فان صاحب تاريخ بيروت (ص ٥٢) ليس فقط يذكر مـــا كانت عليه سهول بيروت من الخصب والرَّيع بل يروي انَّ اصحاب الامر ابتنوا من صنوبر المدينة عمارةً لمحاربة اسطول صاحب قبرس وقد وصفها بما حرفهُ: « قيل انهُ لم يُعهَد قطّ عمارة مثلها عظماً وسرعةً وكثرة صنَّاع وقوَّة عزم ». ومع هذا الوصف البالغ للعمارة لم تنفد الغابة لانَّ المسافرين الذين زاروا بلاد الشام في القرنين الخامس عشر والسادس عشر يذكرونها بيد انهم لم يجدوها في اتساعهـــا السابق. وعندنا انَّ الرمال اخذت مـــذ ذاك الحين اعني بعد تجهيز عمارة بيروت في اواخر القرن الرابع عشر ان تتعدّى طورها. لانَّ مـــا قُطع من الصنوبر لم يُعوَّض عنهُ بغرس اشجار غيرها وربَّما قطعوا منها غيرها بعـــد ذلك كما فعل محمَّد الجزَّار (١. ومن ثمَّ لم تجد الرمالُ ما يتعرَّض لها في سيرها فتراكمت الى ان وصلت الى حدّهـــا المعروف في زماننا وهو امرٌ يؤسَف لهُ ونتمنَّى ان اصحاب المروَّة يتلافون الامر وقد بيَّنَّا لهم ما وراء هـــذا الاصلاح من الفوائد والارباح الطائلة مع ما ينجم منهُ من الزينة للبلد والتنظيف للهواء

٣

ارتفاع الساحل البحري

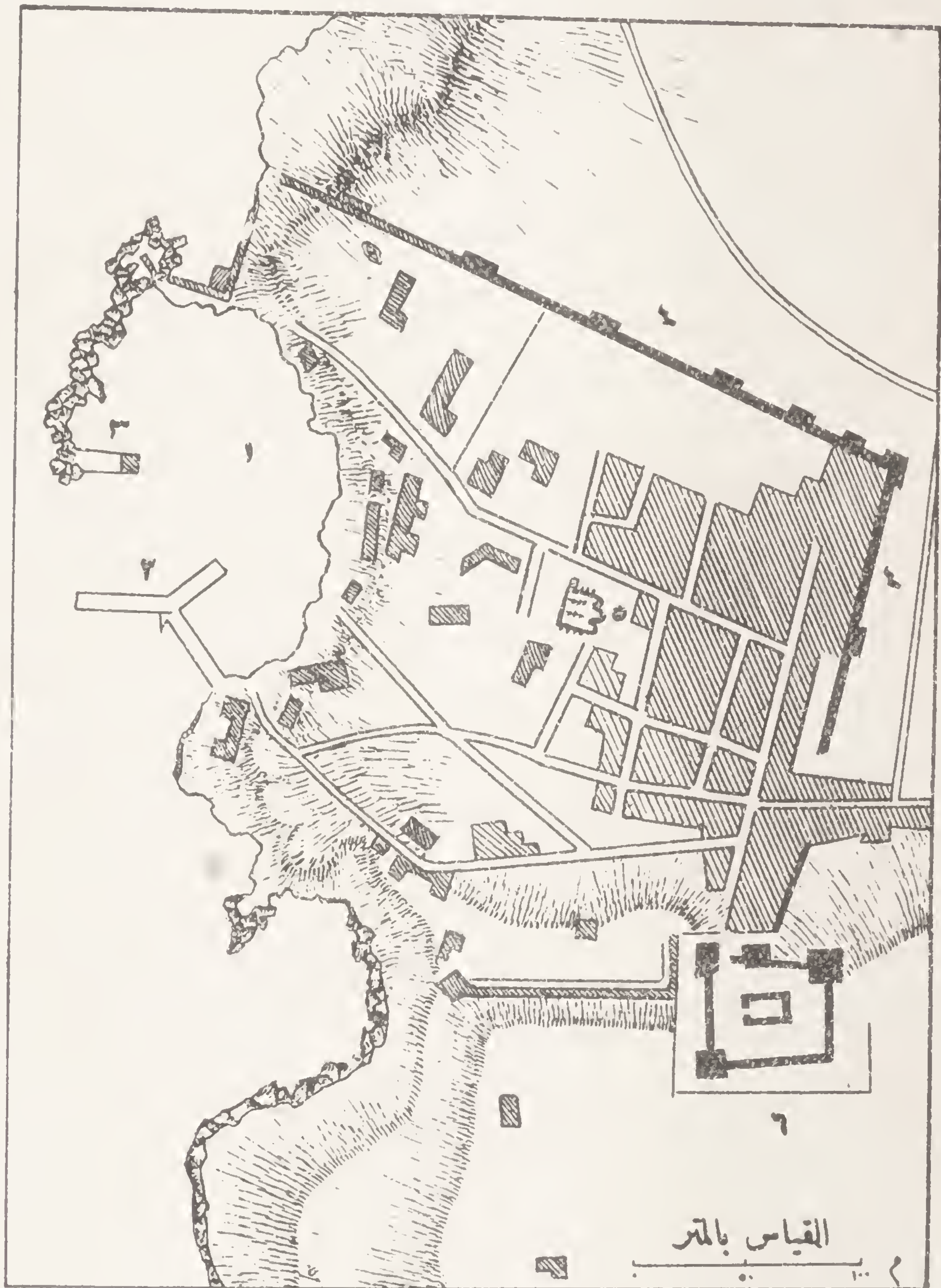
انَّ ساحل فينيقية منذ ابتداء طور العالم الرابع لم يزل يرتفع شيئاً فشيئاً الى الازمنة

---

١) راجع ريتر (Ritter, XVII, 431)

المعروفة بالتاريخيَّة. وهذه نتيجة ابحاث جيولوجيَّة مقرَّرة اثبتها حضرة الاب زُموفن في كتابهِ رسم لبنان الجيولوجي (١ نلخّص هنا ادلَّتهُ مع اضافة معلوماتنا الشخصيَّة

قد اتسعنا في مقالتنا عن مجاري لبنان النهريَّة في وصف السدود التي تُرى في مصبّ كلّ انهار لبنان واثبتنا اصلها بفعل مياه البحر والانهار معاً. وهنا لا نرى بدًّا



رسم جبيل نقلًا عن المسيو راي

١ المرفأ ٢ بناية المرسى ٣ بقايا برج ٤ سور البلد ٥ كنيسة مار يوحنَّا ٦ القلعة

من زيادة عامل ثالث لظهور هذه الحواجز ألا وهو انحدار المياه البحريَّة عند ارتفاع

١) راجع Zumoffen : *Esquisse géologique du Liban*, 52-57

الساحل الذي بتوالي الاعصار نتأ تدريجاً وتصاعد . ومن الشواهد على ذلك انك ترى على طول الساحل سلسلة من الصخور تطفو الآن فوق المياه البحريّة طفوًّا يختلف تحديد ارتفاعهِ وهذه الصخور في اعلاها مسطَّحة دلالةً على فعل الامواج فيها اذ كانت غائصةً في المياه . وفي امكنة اخرى ترى كميَّات من الحصى المصقول باحتكاك المياه على بُعد من الامواج او على نشوزٍ لا تبلغها حتى في الانواء الشديدة . فموقعها دليل على ارتفاع السواحل مع ما يصحبهُ من تقهقر المياه

وزد على هذه البيِّنات العموميَّة دلائل اخرى تُستفاد من فحص بعض السواحل اللبنانيَّة . فمن ذلك انَّ الصخور التي بُنيت عليها صيداء في سالف الاعصار قد ارتفعت كما يلوح ذلك من قلَّة المياه في مرسى تلك المدينة . وكذلك امام المدينة عينها جزائر وصخور يُرى مثلها امام صور وطرابلس وكلُّها حديثة العهد متركّبة من الرمل المتلاصق المتصلّب والمعجون بالاصداف البحريَّة وهي كانت سابقاً في قعر المياه فلمَّا تحدَّرت المياه ظهرت هذه الصخور متصاعدةً فوق سطح البحر

ولنا شاهد آخر على قولنا في المراسي الفينيقيَّة فانَّ ما يُرى فيها اليوم من الصخور ثمَّ من تراكم الرمال انَّما سببهُ الاول ارتفاع الساحل . وان اعترض احد علينا بقولهِ ان السفن الفينيقيَّة القديمة لم تكن لتحتاج الى غور عميق من المياه اذ يفيدنا التاريخ بانها كانت اشبه بقوارب كبيرة مسطَّحة كذهبيَّات مصر التي يمكنها ان تصعد النيل الى حدود الاقصر . اجبنا بأن الامر معلوم ولكن هيهات ان تصدق اليوم اوصاف المؤرخين للمراسي الفينيقيَّة القديمة وهم يبالغون في ذكر رحبها وأمنها للسفن امَّا اليوم فلا تكاد هذه المراسي تشمل اكثر من احدى سفننا التجاريَّة كما انها لا تقي المراكب من الرياح وانواء البحر . وانما تلتجئ اليها فقط بعض السفن الشراعيَّة الخفيفة . فلولا ارتفاع الساحل لمَا أمكن تعليل هذا الامر . وان قيل انَّ هذه المراسي مُلئت بالصخور والاطلال على عهد الامير فخر الدين المعني . قلنا ان هذا الواقع قد تناقلهُ قومٌ من الكتبَة المحدثين ولم يسندوهُ الى مؤرخ ثقة . فلو صحَّ لَما سكت عنهُ كتبَة زمانهِ او احد القناصل والتجّار الاجانب الذين كانوا يتاجرون في بلادنا على عهدهِ . والارجح عندنا ما قلنا وهو سبب طبيعي ثبت اليوم بالبحث الصحيح ومن ثمَّ لا نرى سنداً لما ترويهِ العامَّة عن فخر الدين انهُ غمر مرسى صيداء بالاطلال والصخور

هـذا وقد اشرنا غير مرّة الى قول الجيولوجيين بان بيروت كانت في الاعصار الغابرة جزيرةً تحيط بها المياه بحيث كانت هذه المياه توصل خليج الخضر بوادي شحرور . امّا اليوم فبين هذين الطرفين سهول مخصبة ليس لوجودها تعليل آخر الّا ارتفاع تلك الامكنة . وكذلك قد وُجدت في امكنـة شتّى صُبَرٌ من الحصى البحري المصقول والصدف منها على طريق الشام عند المطعم المعروف بلوكنـدة المطران ومثلها على منعطف الاشرفيّـة عند مار ديتري وهذه الامكنة تتراوح بين عشرة امتار الى ٤٠ مترًا فوق سطح البحر فلا شكّ ان وجود هذه الآثار البحرية دليل على انّ الميـاه كانت تغمر تلك المحلّات ثم تحدَّرت بارتفاع تلك المواقع

وممّا سبق لنا قولهُ في مقالتنا عن مجاري لبنان النهريّة ان سطح المياه عند مصبّ نهر الكلب كان سابقاً اعلى منهُ اليوم وأيّدنا رأينـا بآثار السكك المصريّة والاشوريّة والرومانيّة وكلُّها تُرى في نقط تعلو الطريق الحاليّة . ولا نظنّ انّ الامم القديمة فتحت هذه الطرق في تلك المشارف الصعبة لولا انها كانت مضطرّةً الى ذلك بما وجدتهُ من العوائق الطبيعيّةُ في سيرها ولاسيّما ارتفاع المياه البحريّة والنهريّة معاً . وهكذا يجوز شرح نصّ اسطرابون حيث قال ان نهر الكلب يمكن خوضهُ بالسُّفن وقد مرَّ . وزد على ذلك انّ في الطريق الرومانيّـة التي هنالك بقايا اصداف بحرية وحصى مدلوكة ملتحمة ببعضها . وهو دليل على بلوغ البحر الى تلك النشوز في الازمنة السابقـة التاريخ . وعليهِ فتتّفق الادلّة على الطَّورين معاً . امّا كون الطريقـة المصريّة فوق الطريق الرومانيّة والطريق الرومانيّة اعلى من الحاليّة ففي ذلك دليل ظاهر على ان تحدُّر المياه وارتفاع الساحل كان تدريجيًّا بكرور الدهور

وكذلك ترى بين نهر ابراهيم وجبيل وبين جبيل والبترون جُثًى من الاصداف البحريّة على علوّ عشرة امتار من سطح البحر حاليًّا . وذلك ممّا يُثبت ايضاً قولنا عن ارتفاع الساحل

ثم انّنا في مطاوي كلامنا عن أنفة (راجع الجزء الاول ص ١٤٦) ذكرنا لها خندقين عظيمين نُقِرا في رأسها الذي بقربهِ موقع البلدة . واليوم اذا اعتبرت قعر هذين الخندقين اللذين يفصلان رأس انفة عن البرّ وجدتهُ يابساً لا يتّصل اليهِ البحر . وعندنا انّ الامر كان على خلاف ذلك في عهد الفينيقيين وهم الذين قاموا بهـذا العمل

العظيم ونحتوا الخندقين ليملأهما ماء البحر ويردّوا بهما غارات العدوّ من الجهة الشرقيّة عن المدينة التي كانت حصناً حصيناً . فان يبوستها اليوم تدلُّ على انّ الساحل ارتفع فلم تعد المياه البحريّة تتصل بهذين الخندقين

وكلُّ هذه الادلّة والآثار التي ذكرناها قد جمعناها من امكنة شتّى على الساحل الفينيقيّ مباشرةً من مصبّ نهر القاسميّة الى نهر ابي علي . وهي تبرهن على انّ الساحل الفينيقيّ ليس فقط في الازمنة السابقة للتاريخ لكن بعدها ايضاً لم يزل على تصاعد متوالٍ والبحر على تقهقر وتحدُّر . وفي كل ذلك تتحقّق السُّنّة التي وضعها الخالق عزّ وجلّ فانّ البحر لمّا كان يطغي ويبغي فيدمّر بمياهه الساحل صار لذلك فعل انعكاس من جهة الساحل بأن ارتفع واعتلى فظهرت الحكمة الصمدانيّة التي جعلت للطبيعة سنّةَ توازُن القوى لا تتعدّاها . وفي درس الجغرافية ما يكشف لنا القناع عن هذه الحقائق والسُّنن التي فيها نظام الخليقة كلها

١٣

السواحل اللبنانيّة

ألمعنا في خلال درسنا لرسم الجبال اللبنانيّة الى السواحل الفينيقيّة فقلنا انّ من خواصها وحدةَ سياقِها وجريها على خطّ موازٍ لجبل لبنان اللهمّ الّا رؤُوس قليلة كرأس بيروت ورأس الشقعة التي تشذّ نوعاً عن هذه الخطّة العموميّة . وهذا فصلٌ نفردهُ لدرس تلك السواحل مباشرةً بالشمال

*

فان اطلقنا رائد الطرف الى هـذا القسم الشمالي وهو الواقع بين مصبّ النهر الكبير ورأس الشقعة وجدناهُ بالمقابلة انّهُ يخالف بقيّة الساحل في خطّهِ المتساوي . وما ذلك الّا لسبب اختلافٍ يطرأ على وجهة الجبل كما سبقت اليهِ الاشارة في بحثنا عن رسم لبنان فترى الساحل يستدير على صورة هلال من حدّ مصبّ النهر الكبير الى الصخور المتواصلة التي تطفو فوق سطح البحر عند ميناء طرابلس وهو الجون المعروف بجون عكّار . ولا غروَ انّ هذا الجون كان اضحى خليجاً كبيراً بعيد الغور بين جبل

النصيريّة ولبنان لولا انّ مياه النهر الكبير مع نهر عكار والنهر البارد حالت دون ذلك بما جرفتهُ من التربة التي ملأَت تلك البطحاء. فلمّا لم تجد هذه العوامل القويّة كفوءا يتصدّى لها كبعض المجاري البحريّة او مدّ البحر وجَزْرِهِ فعلت فعلها وكوّمت جُروفها في تلك الوهاد التي كانت جديرة بان تكون خليجاً ذات شأن اثير وفوائد اقتصاديّة جمّة . اذ انّ البحر كان يستطيع ان يمتدّ الى داخل سوريّة ويصير لها بمثابة قناة بحريّة او كخليج قورنتس يُقرّب البلاد الداخليّة لاسيّما وادي العاصي المخصب الى المعاملات التجاريّة . وما أدرانا انّ هذا الخليج لو وُجد لم يؤثّر في تجارة بلاد آسية الغربيّة (١ فيحوِّل الى طرابلس كل الحركة التجاريّة وينزع عن صيداء وصور سيطرتهما البحريّة

وجنوبيّ هذا الجون بين ميناء طرابلس وسفح الجبل سهولٌ خصبة تكوّنت بما جرفتهُ اليها من التربة نهر قاديشا على طول ممرّ الاجيال جارياً بذلك مجرى الانهار الثلاثة السابق ذكرها . وبفعلهِ اتصلت بالبرّ الصخور التي بُنيت فوقها ميناء طرابلس وتحوّلت البقعة الى شبه جزيرة على شكل مربّع غير متساوي الزوايا . والرمال قد سطت على الجانب الغربيّ من هذا المربّع كفعلها في غربيّ بيروت والسبب واحد غير انّ رمال بيروت اوسع منها مجالاً واوفر كميّةً

وان سرتَ جنوبي هذه شبه الجزيرة رأيتَ الساحل يقترب من الجبل مستديرًا على شكل جون آخر يحدّهُ جنوباً رأس الناطور. والدائرة الساحليّة كلُّها جبال متواصلة لا يفصلها عن البحر سوى قطعة ضيّقة من الرمال التي قذفتها الامواج . ثم يأتي ما وراء رأس الناطور خور صغير يليهِ رأس أنفة وهو دون رأس الناطور كبرًا لكنّهُ اغرب منهُ صورةً . وهو عبارة عن قطعة ارض مستطيلة طولها ٤٠٠ متر في عرض عشرة امتار فقط يفصلها عن البرّ خندق نقرهُ في الصخر الاصمّ على ما يظهر قدماء الفينيقيّين . وذلك انّ الفينيقيين كما لا يخفى كانوا من ارباب البحر فوجدوا في هذا الرأس ما يرغبون فيهِ لنقابتهم البحريّة اعني مرفأين تلتجئ اليهما جنوباً وشمالاً سفنهم فتأمن من الانواء مع قربهما من الجون الشمالي ومن الخليج الجنوبي الذي بدؤهُ عند رأس أنفة منتهياً الى رأس الشقعة

١) راجع كتاب دينر (Diener) ص ٨٨

وفي وسط هذا الخليج الجنوبي المستدير على شكل نصف دائرة غير منتظمة سهول تكوَّنت من جرف الانهار لا يقلّ عرضها عن كيلومترين الّا انّ المياه المنحدرة من الاودية المجاورة قد استنقعت في قسم منها لما تجدهُ في مصبّها من الرمال المتراكمة الحاجزة بينها وبين البحر . وانَّما ترقي الفلاحة في تلك الانحاء قد زاحم منذ امد قريب تلك المستنقعات فحصرها ولعلَّهُ يبيدها ويلاشيها لانَّ الزراعة تجد في تلك التربة المتركّبة من الموادّ الصلصاليَّة والكلسيَّة ما يصلح لنموّها ووفرة مآتيها . وعلى ظنّنا انَّ ناحية شكَّا سوف تُضحي من اخصب جهات لبنان وقد فُتحت لها حديثاً طريق مسلوكة تصلها بناحية البترون والقائمقاميَّات الجنوبيَّة ريثما تبلغها السكك الحديديَّة

ويحدُّ هذا السهل في جنوبهِ ذاك الرأس المستطيل المرتفع على شبه جدار هائل نريد رأس الشقعة الذي يشرف على البحر بعلوّ ٢٠٠ متر ونيّف . ومن نظر الى هذا الجبل الشاهق من جهتهِ الشماليَّة اخذهُ الانذهال من غرابة صورتهِ فيحسبهُ كدارعة عظيمة راسية في المرفإ مجهَّزة في مقدّمها بجهاز ضخم كانها على وشك الخروج لتمخر عباب البحر . وعند جنوبي غربي هذه الدارعة الغريبة من جهة نهر الجوز سهل حنّوش يفصلها عن البحر بمسافة لا يتجاوز عرضها نصف كيلومتر وتربة هذا السهل جيدة لولا انَّ قلّة الماء لا تسمح بتوفير مزروعاتها كسهل شكَّا . امَّا من جهة الجنوب فانَّ رأس الشقعة يشرف على وادي نهر الجوز ولا يفصلهُ عن هضاب لبنان الشرقيَّة الَّا اخاديد عميقة خُدَّت في تربة متركّبة من الحوَّارى وقِطَع الصوَّان شأن الجبال التي تتوسَّط بين ناحية الكورة والبحر . وبين تلك الاخاديد مسلك يُعدّ من اصعب مسالك لبنان واشدّها خطراً لانهُ كثير التراب تغوص الرجل في ارضهِ الوعثة صيفاً وتزلج في طينهِ اللزج شتاء

فترى ممَّا تقدَّم انَّ رأس الشقعة كمكعَّب مرتفع معتزل من كل جهاتهِ قريب من الشكل المربَّع المستطيل طولهُ مسير ساعة وعرضهُ نصف ساعة ومعدَّل علوّهِ ٢٥٠ متراً تُرى في قمَّتهِ قرية حامات البالغة ٣٠٠ م . ومساحتهُ في اعلاه مستوية ذات آكام قليلة الارتفاع وهو ينحني انحناء خفيفاً من الشرق الى الغرب مع بعض الاودية غير العميقة من تلك الجهة يُعرف اكبرها بوادي العرب . ومياه الشتاء تجري في فصل الامطار منحدرةً من تلك الاودية الى البحر . وليس ثمَّة ينابيع ماء والتربة قليلة

الخصب كثيرة الحجارة اللّهمَّ الَّا بعض البطائح قريباً من دير النوريَّة حيث الثرى قد خصب بما تساقط فيهِ من اوراق الشجر و بقايا النبات

وليس رأس الشقعة متفردًا بما نُخصَّ بهِ من الهيئة الغريبة فقط بل بهِ تنوط مسألة أخرى تاريخيَّة يقتضي حلُّ مشكلها نريد تعيين الطريق الرومانيَّة التي كانت تمرُّ هناك وتتَّصل بطرابلس . وهي طريق لاشكَّ في وجودها وقد وجدنا منها آثارًا باقيــة فوق حنُّوش على رأس الشقعة . فتُرى من اي جهة كانت هذه الطريق تنحدر الى سهل شكَّا ؟ وممَّا لا يُنكر ان منعطف هذا الرأس من جهتيهِ الشماليَّة والجنوبيَّة لا يحتمل طرقاً مساوكة لوعورتهما . امَّا عقبة المُسَيلحة فانها كما سبق غير مطروقة شتاء وصعبة المسلك في بقيَّة فصول السنة . فهل يا تُرى قد درست آثار الطريق القديمــة بطوارئ الحدثان لاسيما بفعل الزازلة التي حدثت على عهد يوستنيانوس فذلك . رأي نرتئيهِ ولا نعلم ما فيهِ من الصحَّة . وانَّما عرضناهُ لنظر العلماء دون بتّ الحكم فيهِ

امَّا اسم رأس الشقعة عند الاقدمين فهو كما ألمعنا اليهِ سابقاً « ثيوبروسوبون » ومعناهُ باليونانيَّة وجه الله . ودُعي ايضاً « ليثوبروسوبون » اي « وجه الحجر » وفي هذين الاسمين على المرجَّح اشارة الى اسم الاله الفينيقيّ القديم . وفي جنوبيهِ الغربيّ قرية صغيرة تُدعى حتى الان وجه الحجر وناهيك بهِ اشارة الى اسمهــا السابق . والحجارة كما لا يُخفى كانت من معبودات الاقدمين . ولنا في صُور مثال على ذلك لانَّ معنى الصور الصخرة كما هو معلوم وصور ايضاً من آلهــة السوريين (١ وما هو اصرح من ذلك انَّ عرب الجاهليَّة كانوا يعبدون الهاً باسم الحجر . فيكون مدلول ثيوبروسوبون وليثوبروسوبون ووجه الحجر اعني الاله الحجري . وقد كنَّا في ما مرَّ ارتأينا انَّ هذا الرأس هوما دعاهُ الاشوريّون « بعل الرأس » امَّا فنكلر فقــد زعم انَّ بعل الرأس هو مضيق نهر الكلب ولا نعلم على ايّ سند يؤيد زعمهُ . وابعد من ذلك زعم حضرة الاب لاكرنج في كتابهِ عن الديانات الساميَّــة انَّ بعل الرأس هو رأس الدامور . والوطنيُّون يدعونهُ رأس الشقعة وكان تجَّارة الفرنج يعرفونهُ باسم « رأس وجه » فصحَّفوه ودعوه كابوج (Capouge) وكابوني (Capponie) وكاپ پنج

١) راجع كتاب فنكلر في الكتابات الاشوريَّة ص ٢٥٨ و ٤٧٧

(Cap ponge) وكاپ روج (Cap rouge) كما اشرنا الى ذلك سابقاً . وزعم رينان انهُ دُعي باسم كاب مادون (Cap-Madonne) . فيكون في هذا الاسم اشارة الى دير سيّدة النوريّة . وكان الملّاحون يهابون هذا الجبل ويتخوّفون الرياح التي تهبُّ في جوارهِ ولذلك ترى في دير النوريّة نذورًا للملّاحين نذروا بها عند الانواء وقاموا بوفائها . وقد اختبرنا نحن ايضاً غير مرّة في اسفارنا قوّة الرياح في هذه الجهات بحيث كانت مراكبنا البخاريّة نفسها تشعر بفعلها فاذا ما اقتربت منها تحركت بحركة غير مألوفة

*

ووجهة الساحل من مصبّ نهر الجوز وناحية البترون تعود الى خطّ الجنوب الغربي تابعةً في سيرها وجهة قطب الجبل الاصليّ بكلّ دقّة كما يتحصّل من مجرّد النظر الى خارطة جبل لبنان . امّا تركيب الساحل فيتراوح بين الصخور والقِطَع الرمليّة المختلفة السعة

واذا جاوز الساحل مدينة جبيل استدار على صورة خليج واسع قريب القعر مركزهُ عند نهر ابراهيم ونهاية استدارتهِ عند رأس المعاملتين(١ وهذه استدارة الساحل توازي استدارة قطب الجبل الاصلي وتقعيره عند جبل المنيطرة وذلك بمقتضى قاعدة راهنة اثبتناها سابقاً في رسم جبل لبنان . وكذلك خور جونية فانَّ استدارتهُ توازي ما حصل لقطب الجبل من الانزواء بين المنيطرة وصنين شرقاً . وصنّين يبرز هناك على صورة مثلّث لهُ على الساحل زاويتان وهما رأس صربا ورأس نهر الكلب . وهو يؤثّر في وجهة الساحل الذي يعدل عن الجنوب مائلًا الى الجنوب الغربيّ

ورأس نهر الكلب احرى بهِ ان يُعدّ كدعامة للبنان وهو يحدّد النهر جنوباً ويدخل في البحر. وان اعتبرتهُ في جهتهِ الغربيّة من جهة البحر وفي جهتهِ الشماليّة من صوب النهر وجدتهُ منتصباً كجدار قُطع عموديًّا والامواج تلاطم اسفلهُ. وصخوره تلامس البحر وهي كثيرة النخاريب متقطعة منخورة مقعرة وذلك بلا شكّ من عمل

---

١) وهناك ما دعاه الشريف الادريسي بعطفة السلام والصواب عطفة سلّان

البحر فيها في الازمنة الغابرة اذ كانت مياه البحر المتوسط تغمرها لعلوّ سطحهِ فوقها· ولمَّا هبطت المياه وصارت الصخور بارزةً عملت فيها العوامـل الجويّة مواصلةً لعمل المياه · ثمَّ كان لا بدَّ من نحت هذه الصخور لتسير فيها طرق الساحل فنُقرت طرق متعدّدة · منها طريق العجلات التي تجري قريباً من البحر وهي تدور حول رأس النهر وفويقها السكّة اللبنانيَّـة الحديديَّة تجري على خطٍ موازٍ لطريق العجلات · واذا رقيتَ الى نحو ٣٠ متراً فوق سطح البحر وجدت الطريق الرومانيَة منقورةً في الصخر على عهد مرقس اورياليوس تشهد عليها كتابة جميلة تُرى حتَّى يومنا عند الجسر الحديث

وهذه الطريق يوصل اليهـا بدرج منحوت في الصخر وهي تستدير مع عطفات الجبل · وفي ذروة هذه الصخور اقدمُ الطرقات الساحليَّة وهي التي سلكها الاشوريّون والمصريّون بجنودهم تدلُّ عليها أنصاب عديدة فيها كتابات مسماريَّة وهيروغليفيَّة · وقد مرَّ ذكرها

ثمَّ تجد في لبنان وادياً متَّسعاً بـين جبلي صنّين والكنيسة يوازيهِ خليج مار جرجس او خور الخضر · وبُعَيد هذا الوادي حدبةٌ مستديرة شرقاً يجاريهـا اكبر الرؤوس الفينيقيَّة وارحبها اعني رأس بيروت · وقياس جهة هذا الرأس الشماليَّة مباشرةً بالصخور القائم فوقها المسالخ الى الربوة التي تعلوها المنارة لا يقلّ عن ستة كيلومترات وثلثا هذه المسافة تشغلها البنايات البيروتيَّة · فيكون مقام هـذا الرأس مما يجدي خصوصاً بيروتنا حسناً ويجعل وضعها من ابدع مواقع المدن الساحليَّة · وطبقات هذا الرأس السفلى تتركَّب من صنف من الطباشير كثير التفتُّت يجمع اقسامَها ملاطٌ من الظرّان · وامواج البحر قد نفذت الى هذه الصخور واتكلت اوساطها وتركت سقوفها بلا دعائم تسندها · ولذلك رُبَّما تداعت هذه الصخور وهبطت وانخسفت بفعل تلك العوامل انخسافاً لا يكاد يصدّق بهِ من لم يعاينهُ · وممَّا يشهد على ذلك صخور ترى في وسط البحر وليست هي الَّا بقايا جزائر فصلتها هذه العوامل الشديدة عن الساحل · ولنا شاهد حسيّ على قولنـا في جزيرة الحمام جنوبي رأس بيروت · وهناك ايضاً كهفان شهيران تكوَّنا على هذا النمط عينهِ · ولا شكَّ انَّ سقفها يسقط عمَّا قليل كما جرى للكهوف المجاورة التي تُرى اليوم على شكل نصف دوائر او على صورة جسور طبيعيَّة الى غير ذلك من الهيئات الغريبة التي سبق لنا الكلام فيها

وفي جنوبيّ غربيّ هذا الرأس تمتدُّ رمال بيروت التي يبلغ معظم طولها سبعة كيلومترات في عرض كيلومتر ونصف . وقد بيّنّا في ما مرَّ تركيبها واصلها البحري وهي ترحف على بيروت من الجهة التي تنتهي عندها الصخور ولعلّها تغمر بغاراتها حدائق المدينة لولا انَّ غابة الصنوبر تردّ قسماً منها

وجنوبيّ شبه جزيرة بيروت يعود الخطّ الساحلي الى استقامته المملّة لا يخالفها سوى بعض ركام الصخور تنتصب من مسافة الى اخرى اخصُّها رأس الدامور عند نهر الدامور ثم رأس جدرة في وسط الطريق بين نهري الدامور والاوّلي ثم رأس الرميلة بقربة من الاوّلي ولهذه الرؤوس الثلاثة ثلاثة جُوَن تجاورها وفي اثرها اخيرًا رأس صرفند بين صيداء والليطاني على نحو نصف الطريق بينهما وبعد هذا الرأس لا يخالف الساحلُ الخطَّ المستوي الى نهر القاسميّة

☆

قد لحظ قرّاؤنا في ما سبق لنا من وصف الساحل الفينيقيّ انّنا لم نأتِ بذكر الجزُر وعدمُ وجودها ممَّا يزيد في وحدة اتّساق هذا الساحل . على انهُ في مرفأ طرابلس من جهتها الجنوبيَّة الغربيَّة عدَّة جُزُر تدعى اكبرها النخلة وهي تبلغ نحو مئتي متر بنيّف وقد فكّرت الحكومة السنيَّة غير مرَّة بنقل الحجْر الصحي والبضائع الموبوءة اليها

ومع قلّة الجزائر في سواحلنا قد توفَّرت الصخور البحريَّة وهي كانت سابقاً متّصلة بالساحل لاسيَّا بالرؤوس البحريَّة . وكثير منها لا تطفو فوق المياه وفي مصادمتها خطر متواصل للسفن التي تلامس نواحينا وخصوصاً اذا جرت قريباً من الرؤوس المذكورة

وممَّا سبق يلوح جهارًا بانَّ السواحل الفينيقيَّة لم تعدَّها الطبيعة لمتاجرة البلاد ولسكنى قوم من البحَّارين اذ لا تكاد تجد عندها مرفأً صالحًا كما انهُ ليس فيها نهر داخليّ يمكن خوضهُ . هذا فضلًا الى استقامة خطّها الساحلي الذي تكثر فيهِ الرؤوس والصخور دون خلجان او اخوار تأوي اليها المراكب ودون جزيرة تستلفت اليها انظار المبحرين

ومع كل ذلك ترى التاريخ يشهد لعظم تجارة الفينيقيين واتساع نفوذهم ووفرة مقايضاتهم . أفليست مناقضة بين هذين الامرين ؟ لا لعمري لانَّ لفينيقية موقعًا خُصَّت

بهِ دون غيرها وذلك لتوسّطها بين جهات الممالك الشاهانيَّة ووقوعها في طرف آسيَّة غرباً فتجمع بين الشرق والغرب. وان قيل انَّ جبل لبنان حاجز شاهق يحول دونها اجبنا انَّ لهذا الجبل في شماليّه وادياً عميقاً وهو وادي النهر الكبير يمكن القوافل ان تسير في بطائحهِ فلم يَسُدَّ الفينيقيون عن طرقهِ مع ما طُبعوا عليهِ من التفنن في ترويج الصنائع التجارية . فان اهل فينيقية ادركوا ما خصَّ الله بهِ من حسن الموقع مواطنهم فكدُّوا وجدّوا لتحسين شؤونها والتعويض عمَّا ينقصها . ولذلك جروا في مسالكها الطبيعيَّة وفتحوا لها مرافئ صناعيَّة كافية لسفن تلك الاعصار وهي زوارق مسطحة قليلة العمق كان يكفيها ما لا يكفي في زماننا للسفن المتوسطة الكبر

ومن فحص المدن الفينيقيَّة وتبحَّر في وضعها السابق استدلَّ على انَّ اصحابها كانوا من مهَرة البحَّارين كما نعرف قوَّة اجنحة الطائر بعلوّ طيرانهِ وسرعة جريهِ . وما لا ريب فيه انَّ البحر كان موطن الفينيقيّ وكان لا يرى في البرّ الَّا مقاماً موقَّتاً يبني فيه كالطائر عشَّهُ لتأوي اليهِ حيناً فراخهُ ثمَّ يعود ذاك البحَّار فيخوض مجاري البحر بارتياح كما تجد السمكة راحتها في غمر المياه

وهذا ما حمل الفينيقيين على ان يستخيروا لسكناهم الالسنة والرؤوس الداخلة في البحر وان قلَّ ماؤها الشروب او بعدت عن مصبّ الانهار اللهمَّ الَّا بعض مستعمراتهم كبيروت التي توفَّرت المياه في آبارها فاشتقَّت منها اسمها . واستوطنوا بعض جُزُر كصور وصيداء اللتين كانتا سابقاً في جزيرتين . امَّا الغالب على المدن الفينيقيَّة فبناؤها على الرؤوس البحريَّة وذلك لسببين يهمان البحَّارة عادةً الاوّل انَّ السُفن تكون وراء هذه الرؤوس في مأمن من تراكم الرمال الذي يحصل قريباً من مصبّ الانهار والثاني انَّ المياه تكون ثمَّة ابعد غوراً من امكنة سواها . والدليل على حسن اختيارهم لهذه المواقع انَّ مقام المدن الساحلية لم يتغيَّر منذ نحو اربعة آلاف سنة ولم تنشئ الشعوب التي خلفت الفينيقيين مدناً غير ما سبقهم اليها الفينيقيُّون وان كان بعض المدن القديمة قد انحطَّ شأنها انحطاطاً كبيراً

☆

هذا وقد بقي علينا البحث عن امر آخر لهُ علاقة مع وصفنا السابق لسواحل

لبنان . نريد الكلام عن المرافئ التي تفتح للمدن الساحليــة مسالك تجاريَّة مع باطن البلاد وتقرّب الوسائل لمواصلة الاطراف القاصية والجمع بين الاهلين

وان اعتبرنا اوّل مدينة من فينيقية الشماليَّة اعني طرابلس الشام وجدناها خاليةً من المرفإ مع انّ الطبيعة قــد خصَّت طرابلس بما يجعلها من امَّهات المدن . فان موقعها قريباً من وادي نهر الكبير ومركزها المتوسط بالنسبة الى جهات سوريَّة لا سيما قربها من وادي العاصي واتّصالها بالبقاع وانحاء دمشق لما يمتدّ بينهما من السهول الجامعة بين اقاصيهما فان بُني لها مرفأٌ واتَّصلت بهــا اسلاك السكك الحديديَّة اضحت احدى حواضر بلاد الشام بل جاز ان تكون مرفأً لحلب وهي احرى بذلك من بيروت

والحائل الكبير دون ابتناء ذلك المرفإ في طرابلس لا لكون الامر مستحيلًا بل لما يقتضيه من النفقات الباهظة . ومما لا ينكر ان الصخور الطافية على وجه البحر من جهة الغرب يسهل استخدامها لصيانة هذا المرفإ من الريح الغربية التي يكثر هبوبها في سواحلنا . وكذلك يمكن ان يُسند الى هذه الصخور شمالًا حاجز يقوم في وجــه الامواج الشماليَّة . لولا انّ ابتناءه يقتضي مبالغ عظيمة لبُعد قعر البحر من جهة الشمال وهو يبلغ ضعف عمق بيروت اعني ثلاثين مترًا ثم انّ شاطئ البحر على طول كيلومتر بنيِّف قليل الماء فيستلزم لاصطناع مرفإ اعمــالًا ترابيَّة مهمَّة . وقد فكَّرت الحكومة السنيَّة غير مرَّة باصلاح مرفإ طرابلس . فمن ذلك ان صاحب الدولة فهمي حسن باشا وزير الخارجية وضع للحكومة السنيَّة تقريرًا بيَّن فيهِ ضرورة ابتناء مرفإ طرابلس وقدَّر النفقات لهــذا المشروع بنحو ١,٥٠٠,٠٠٠ فرنك . وعادت احدى الشركات الوطنيَّة الى النظر في هذا الامر سنة ١٨٨٩ وبحثت عنهُ وعن السكة الحديدية بين طرابلس وحمص لما بين المشروعين من العلاقة اللازمة فكانت نتيجة البحث انهُ يلزم لذلك ١٤ مليوناً من الفرنكات ولعلّ ضعف هذا المبلغ لا يفي بالمرغوب

وان نظرنا الى البترون وجدنا انّ وَضعها الجغرافيّ لا يناسب فتح مرفإٍ فيها لوقوعها قريباً من رأس الشقعة وفي سفح مشارف لبنان الشاهقة . وزد على ذلك انَّ شطّها كثير الصخور . وان صحّ قول المؤرخ مالالا ان الزلزلة التي حدثت على عهد يستنيان أَجدت البترون مرفأً فذلك قول لا يمكن بيان صحَّتهِ اذ لا نجــد اليوم لهُ اثرًا بل تستحيل الدلالة على مكانه

ولجبيل مرفأٌ صغير طولهُ مئتا متر في عرض مئة متر (١ وليس من حاجة الى توسيع نطاقهِ لقلّة الحركة التجاريَّة فيهِ ولعدم اتصالهِ بالاراضي الداخليَّة

امَّا جونية فقد مرَّ الكلام عنها سابقاً فلا نعود اليهِ . وكذلك نضرب الصفح عن بيروت ولها المرفأُ المعروف الحديث النشأة الكافي لتجارتها الحاليَّة . فلم يبقَ لنا لتمام هذا الفصل سوى البحث عن مرفإٍ لصيداء

يلوح انَّ مدينة صيداء القديمة كانت جزيرةً كما كانت صور رصيفتها وكان لها مرفأان احدهما في جنوبها والآخر في شمالها . وكان الاول يُدعى بالمرفأ المصري وقد تراكمت فيهِ الرمال التي سفتها الرياح الجنوبيَّة الغربيَّة من جرف النيل فانسدَّ بحيث لا يمكن استعمالهُ . امَّا المرفأُ الشمالي فاحسن وضعاً تصونهُ صيانة كافية الصخور التي تمتدّ حولهُ . الا انهُ صغير طولهُ ٦٠٠ متر وعرضهُ مئتان ولا تدخلهُ الَّا المراكب الشراعية ولما عاد الى صيداء قسم من حياتها التجاريَّة في القرن السادس عشر كانت السفن ترسو شماليَّ هذا المرفإِ في نوع من الميناء مفتوح من الطرفين ووراء جزيرة صغيرة من الصخور التي فوقها كان بُني قصر قديم . وكانت السفن في مأمن من الريح الصرصر التي تهبُّ من الجنوب الغربي الَّا انَّها كانت معرَّضة للرياح الشماليَّة وليست هي دونها خطراً . والرسوّ في هذا المكان صعبٌ جدًّا لانَّ قعر البحر هناك صخريّ لا تنشب فيهِ المراسي فضلًا عن انَّ القلوس كانت تفنى بالاحتكاك . الَّا انَّ هذا المرفأ كانت تحميهِ قلعةٌ مبنيَّة على صخر بحريّ بازاء البلدة وهي متصلة بالبرّ بجسر متعدّد القناطر (٢ . امَّا اليوم فليس هذا المرفأُ بكافٍ للسفن البخاريَّة لقلّة عمقهِ ولذلك ترسو بعيداً من الشاطئ

وبقي هذا المرفأُ مع خللهِ الى غاية القرن الثامن عشر مورداً تتقاطر اليهِ السفن التجاريَّة . وكانت تجارة دمشق تنصرف اليهِ . ثم بطل بفعل الزمان وعندنا ان هذا المرفأ قد سدَّتهُ العوامل الطبيعيَّة . وان قيل انَّ لصيداء مرفأً داخليًّا يمكن اصلاحهُ

١) راجع رسمهُ ص ١٥١

٢) راجع كتاب المسيو ماسون (Masson) عن التجارة الفرنسية في البلاد الشرقية ص ٢٨٢

اجبنا انَّ الامر ليس بسهل مهما قالهُ المسيو لورته في كتابهِ عن سورية (ص ٩٨) .
امَّا المرفأ الشمالي السابق وصفهُ والمصون بقلعة البحر والجسر ذي القناطر فان اراد احد
اصلاحهُ عجز عن ذلك ان لم يضع حجريَّة موازية للشاطئ يبلغ عرضها ٦٠٠ متر ليكون



صورة مرفإ صيداء

١ المرفأ الشمالي ٢ قلعة البحر ٣ بقايا الرصيف القديم ٤ المرفأ الجنوبي ٥ جزر صخريَّة

ثمّة عمق المياه ستّة امتار ثمّ يقتضي ابتناء سدّ يستند الى القلعة ومع كل ذلك يكون هذا المرفأ عرضةً للريح الشماليّة . وعليه فانّنا نرى مع الانكليزي لوڤت كامرون (Lovett Cameron) ان هذا المرفأ لا يكون موافقاً للتجارة ما لم تُنفق عليه النفقات الطائلة (١ . اما البلاد الداخليّة المتّصلة بصيداء فقليلة الخصب . ولا أمل في جعل هذا المرفإ فرضة لدمشق اذ انّ بين صيداء ودمشق حواجز من الجبال كما بين دمشق وبيروت . وعندنا انّ هذه النفقات لو صُرفت على طرابلس لكان الربح اوسع والنفع اعمّ والله اعلم

١٤

لمحة اقتصاديّة

في مجاري المياه اللبنانيّة

قد ذكرنا غير مرّة في ما سبق من كتابنا انّ لمجاري المياه في لبنان عوائد جمّة ودوراً مهمّاً في اقتصاد الاهلين . الّا انّ كلامنا هذا كان منبثّاً في مطاوي ابحاثنا السابقة ولعلّهُ لم يستلفت اليهِ انظار القرّاء فرأينا العود الى هذا الموضوع احمد لعظم شأنهِ ولذلك افردنا لهُ فصلًا مفرداً نبيّن فيهِ ما تحويهِ هذه المياه من الكنوز الدفينة التي جعلتها العناية الالهيّة في ايدي الوطنيين ومن ثم نبحث اوّلًا عن المبادئ العمومية التي يستند اليها هذا البحث ثم نتتبّع مجاري المياه فرداً فرداً لنرى ما يستفاد من كلّ منها وذلك خصوصاً على ثلاثة وجوه : إمّا بالريّ لتُسقى المزدرعات التي تيبس دون الماء . وإمّا بتحريك ادوات المعامل بدلًا من الفحم واصناف الوقود . وإمّا بنقل الماء الشروب الى المدن الكبرى المحتاجة الى مناهل يستقي منها السكّان

---

١) راجع الترجمة الفرنسية لكتابه Future route des Indes , p. 246

١
المبادئ العموميَّة

قد اتاح الله لبلاد سوريَّة قوًى طبيعيَّة عجيبة لو استفاد منها الاهلون لوجدوا فيها موارد ربحٍ لا تفنى لولا انَّ هذه القوى تذهب سدًى وتتلاشى دون فائدة بحيث يصحّ القول انهُ ليست الطبيعة تقصِّر عن خدمة الانسان وانَّما الانسان هو المقصّر في استخدام قوى الطبيعة مع قرب منالها . والحقّ يقال ان مجاري المياه اللبنانيَّة كافية لان تحوّل بلادنا الى بُقع زاهية بسعي شركات زراعيَّة او تغنيها بالمعامل الصناعيَّة فيقتات من ارباحها الوفٌ من السكان الَّا انَّها تنحدر في الغالب الى البحر بلا فائدة او تستنقع في البطاح الموبئة لا يُستثنى من هذا الحكم الَّا نهر او نهران يستنزف اللبنانيون مياههما لريّ المزدرعات . اما نتيجة هذا التهامل فبئست النتيجة اذ ترى الارض في فصل الشتاء مغمورة بالمياه المفرطة المضرَّة بالزراعة وبالصحَّة العموميَّة معاً وفي الصيف تنقص المياه وتنضب الى ان تيبس البقول ويتلف اهل بعض المعاملات عطشاً مع قطعانهم

وفائدة المياه ظاهرة في الزراعة لا يجهل ضرورتها احد . بيد ان قليلين يدركون علَّة ذلك وباي طريقة تعمل المياه في النبات

ان عمل المياه في الفلاحة يكون خاصةً على وجهين مختلفين : الاوّل ببرودتهِ والثاني بتركيبهِ الكيمويّ . وذلك انَّ الماء اذا نفذ في الارض لطّف حرارتها وابطأ نموّ النبات ولولا السقي لزكا قبل اوانهِ ويبس دون ان ينال من الغذاء ما هو ضروري لنموّهِ القانونيّ . ويصيبهُ ما يصيب الولد اذا نشأ وكبر قبل السنّ الطبيعيّ فربَّما اداهُ نموُّهُ الى ان يميتهُ . فكذلك النبات لا يأتي بثمرهِ او يكون ثمرهُ قليلًا تافهاً . وقد ادرك العامَّة هذه الحقيقة في بعض امثالهم الشائعة فقالوا عن البذور النامية بسرعة وافراط « طويل بلا غلَّة » لعلمهم بانَّ الزكاء الظاهر ليس بدليلٍ على كثرة الاثمار

امَّا كون الماء يفيد النبات بتركيبهِ الكيمويّ وجوهرهِ فذلك لانهُ يساعد النبات على تحليل المواد المغذية وتركيبهِ منها اجزاءَهُ الكربونية وعلى امتصاص الاملاح المعدنية من الارض بما يجذبهِ للنبات من الرطوبة . ولعلَّ فعلهُ اشدّ واقوى بما يجرفهُ في

سيره من التربة ويسحبهُ من بقايا النبات والاجرام المختلفة. وهذه الموادّ المجروفة تحتوي عناصر مخصبة اذا ما رسبت واختلطت بالتربة الزراعية اصلحتها وصارت لها بمنزلة السماد وربَّما بلغت كميَّة هذه التربة التي تجرفها الانهار الوف الوف من الطنَّات. قال البزاي روكلو في جغرافيتهِ (ج ٢ ص ٦٧٨): ان نهر دورَنس احد انهار فرنسة الجنوبيَّة يجرّ في السنة نحو ١٨,٠٠٠,٠٠٠ طن من التربة المجروفة وذلك ما يساوي مكعَّباً جهاته ٢٢٠ متراً رسبت على سطحٍ متساوٍ في طبقة سمكها سنتيمتر واحد لكان متَّسع الارض التي يخصبها في السنة مئة الف هكتار». وهذه التربة المجروفة معدَّة احسن إعداد لنموّ النبات تستخلص جذورهُ منها كميَّةً من الازوت المغذي اكثر من كميَّة ١٠٠,٠٠٠ طن من سماد الغوانو المعروف بخصبهِ. فلا غروَ اذا كرَّرنا مع الطبيعي الشهير طوريشلّي: «انَّ الطين الذي تجرفهُ المياه اثمن من رمل الذهب». ولعلّ ذلك ما دعا قدماء السوريّين بان يسمُّوا «نهر الذهب» (Χρυσορρόας) بعض الانهار التي تجري في بلادهم كنهر بردَى في دمشق ونهر جَرش ما وراء الاردن والنهر الذي كان يجري بجوار مدينة لوقاس (وهي مدينة لم يُحدَّد موقعها حتى اليوم) فليت شعري من يمكنهُ ان يثمّن ما اتت بهِ كل هذه المياه من الكنوز الزراعيَّة منذ مئين من السنين. أفليست هي حقيقةً اثمن من معادن الذهب التي تفنى كنوزها بعد مدة قليلة؟

ولنا في النيل مثال قريب عن منافع هذه الجروف التي تسحبها الانهار فانَّ هذا النهر العظيم في فصل الفيضان يدحو كل يوم ما ينيف عن الف الف كيلو من الموادّ النطرونيَّة ويصبُّها في البحر وهو مع ذلك يُخصب في طريقهِ مسافاتٍ قدرها ملايين من الفدادين. ومع انَّنا لا نعلم بالضبط بطريق التحليل الكيمويّ ما تحتويهِ المياه السوريَّة من الثروة المعدنيَّة الَّا انهُ لأمر مقرَّر انَّها غنيَّة بها وكفاك دليلًا ما يُستفاد بالمقابلة. فانَّ الاختبارات الجيولوجيَّة في اوربَّة بيَّنت ان معدَّل ما يدخل من نيترات البوطاس في متر مكعَّب من مياه العيون والانهار الجارية في الجبال المركَّبة من الطباشير يبلغ ١٣ غراماً امَّا النسبة فتختلف بين ستة غرامات الى ستين غراماً ومعلوم انَّ عنصر الطباشير هو الغالب على جبالنا فلا بدَّ ان تكون نسبة نيترات البوطاس في مياهنا اقرب الى ستين غراماً لارتفاع درجة الحرارة عندنا. فترى من ذلك ما تكسبهُ السهول المركَّبة عادةً من الصلصال اذا اختلطت فيها هذه المواد الطباشيرية لانَّ الصلصال

انّما تخصبهُ العناصر الكلسيَّة التي تحلّها المياه . ومن ثمَّ ينبغي على الاهلين ألّا يفقدوا شيئاً من هذه الكنوز ولا يدَعوها تستنقع في البطائح او تنصبُّ في البحر دون فائدة

هذا وانّنا نعلم انَّ كل المياه لا تصلح لتدسيم التربة لانَّ ذالك منوط بتركيبها الّا انّها كلّها تلطّف الحرارة بطراوتها وتفيدها نداوةً وتزيدها خفَّةً وتسهّل فلاحتها للناس والبهائم ثم تحلّل العناصر المخصبة فتنفذها في بطن الارض وتقسّمها اقساماً متساويةً وتزيد مرافقها وغلّاتها على قدر ارتفاع درجة الحرارة حتى انَّ التربة يمكنها ان تأتي في السنة الواحدة بغلّتين متواليتين بدلًا من غلّة واحدة غير مستوفاة في الاراضي اليابسة وذلك رغماً عمّا يطرأ على الهواء من التقلّبات الجوّيّة . فهذا لعمري نفع جليل لا يوازيهِ آخر فكم رأينا من الزروع المفقودة امّا لقلّة الامطار او لتأخر وقوعها بعد ان امتصّت حرارة الصيف نداوة الثرى . وخلاصة القول ان السقي المنظّم هو الذي يُزكي المزدرعات ويبرّد لظى القيظ بطراوة مناسبة لكلّ قطر ويُغني التربة بالسماد مجّانًا ويخالط العناصر فيخصبها بلا نفقات ويكثر غلّاتها بلا تعب ويأتي اخيرًا بالثروة والراحة (١

ولهذه الانهار في غير بلادنا نفعٌ آخر لم نحصل نحن عليهِ وهو خوض هذه الانهار وركوبها بحيث تصير كطريقة للمواصلات التجاريّة . وقد حُرمنا ذلك لاسباب منها قلّة مياه هذه الانهار او بالاحرى هذه الجداول واختلاف كمّيتها في فصول السنة . اجل ان بعض هذه المجاري كالنهر الكبير والليطاني كثيرة المياه في ينابيعها ورؤوس عيونها الّا انها تجري في المضايق وبين الجنادل والصخور التي تعيق مسيرها فلا يمكن ان تحوّل الى مجارٍ مستقيمة السير متساوية العمق مستوفية لشروط الملاحة وقد شبّهها الاقدمون بضواري السباع الشرسة الطباع من اسد وذئب (٢ لشدّة جريها واندفاع مياهها

فبعد هذه المقدّمة هلمّ نبحث عن كل نهر بانفراده لنستدلّ بوضعهِ عن الفوائد التي يمكن نوالها من مياهـهِ من حيث الوجوه الثلثة التي سبق ذكرها اعني الريّ وتحريك المعامل وتزويد المدن بالمياه

---

١) راجع كتاب الاديب وديع مدوَّر المعنون سوريّة الزراعيّة (La Syrie agricole, P. 74, 84-85)

٢) دعا الاقدمون نهر الكلب باسم نهر الذئب (Λύκος) والليطاني نهر الاسد (Λέοντος ποτάμος) راجع كلامنا السابق (ص ٢١)

٢

كيفية الانتفاع من الانهار اللبنانية

فلنباشرنّ بالانهار الجنوبية واوَّلها (الليطاني) وبما انّ هذا النهر يجري بادئ بدء في السهل فلنبحثنّ عن جريهِ في البقاع وخصوصاً عن ضفَّتهِ الغربيَّة لانّ الضفَّة الشرقيَّة لاحقة بالجبل الشرقيّ ثمّ نتَّبعهُ الى مصبّهِ في البحر

ليس نهر الليطاني قبل بلوغهِ المعلّقة الَّا مسيلاً قليل المياه بطيء السير لا يفيد الزراعة افادةً تُذكر فيستنقع في السهل وانما يُضحي مجراه حثيثاً ما وراء معلَّقة زحلة حيث ينصبُّ فيهِ البردوني. والبردوني نهر غزير لا تنقطع مياههُ صيفاً وشتاء تمدّه الثلوج الغرَّاء المتجمّعة في قمم صنّين وهو كافٍ ليس فقط لان يحرّك الطواحين التي تُرى اليوم



منظر الليطاني قريباً من قرية برغش

في طريقهِ ولكن يمكنهُ اذا بُنيت لهُ قناة حسنة ان يزوّد بالماء الشَّروب كل مدينة زحلة ومعلّقتها اعني ٢٥,٠٠٠ نفس . وهو على خلاف ذلك لا يُستعمل الّا كمجرى لاوساخ المدينة فترى مياههُ الزلاليَّة عند معينها تنصبُّ متعكِّرة سوداء في الليطاني . فيا ليت شعري أهكذا تُفقد كنوز هذا النهر الذي لا يقلّ طول مسيره عن ٢٤ كيلومترًا ؟

واذا سرتَ ونهر الليطاني جنوباً وجدتهُ يزداد ويقوى بما يجري اليهِ على ضفّتيهِ من السواعد كشتورا ونهر عين جار ومياه قبّ الياس وعين قلعة المضيق الى غير ذلك من الجداول الصافية المتحدّرة من لبنان ومن الجبل الشرقي الغنيَّة بالمواد الكلسيَّة . وهذه المياه لو اتُّخذت لسقي سهل البقاع لنفعت تربتهُ الصلصاليَّة واصلحتهُ لولا انَّ هذا النهر يبلغ حينئذٍ في طرف السهل الجنوبيّ الغربيّ مضيقاً بعيد الغور مرتفع الضفّتين بحيث لا يمكن الاستفادة منهُ لا للزراعة ولا للصناعة . وبعد اجتيازه في هذا الغور العميق يندفع بقوَّة عظيمة وهو عند مخرجهِ يُدعى بالقاسميَّة ثم لا يزال جارياً حتى ينفذ في البحر . ولو سعى بعض اهل الهمَّة لأمكنهم ان يستفيدوا من مجراه فيسقوا الضواحي القاحلة التي بين صور ومصبّ هذا النهر فيكسبوا المزراعة مساحةً تبلغ ستَّة كيلومترات طولًا في عرض كيلومتر بنيف ويحوّلوها الى بقعة كثيرة المرافق طيبة الاثمار كبقعة صيداء المشهورة بخصبها وهي اوسع منها خمسة او ستَّة اضعاف . وما خلا السقي يجوز ايضاً استعمال هذه المياه للمعامل الصناعيَّة بان تُحصر وتُجعل على شبه شلّالات متحدّرة

*

(الزهراني) هو من اطول الانهار اللبنانيَّة مسيلًا ومياههُ قليلة لاسيَّما في فصل الصيف . واذا بلغ الجهات السفلى ادار نحو ثلاثين طاحوناً وسقى بعض الحقول . لكنّ كثيرًا من مياههِ لا تأتي بفائدة فلو استُعملت لسقي السهل المنبسط عند مصبّهِ لأضحت حدائق صيداء ثلاثة اضعاف ما هي اليوم وزادت ارض الفلاحة نحو الف هكتار بدلًا من الارض البوار التي تُرى هنالك قاحلة يابسة لا يزكو فيها زرع اللّهمَّ الّا بقعاً قليلة السعة تأتي بغلّات ضاوية

واعلم انّ مسيل الزهراني عند اقترابهِ من البحر هو دون سهل صيداء فاذا عوّل

الاهلون على استخدام مياههِ ينبغي لهم ان يبتنوا لها قناةً في علوّ الوادي فيقسّمونها على مقتضى حاجات ارباب الفلاحة . وحريٌّ بهذه المياه وان كانت اقل من مياه الاوَّلي أَلَّا تُترك سدًى ولا تُهمل فتتجمَّع في مستنقعات وبيئة . وكان الرومان قد ادركوا نفعها فوضعوا للزهرانيّ قناةً عند عينهِ تراها منقورةً في الصخر وهي تتَّصل بقناة أُخرى مبنيَّة بالحجارة الممَلَّطة تتبع الوادي وتدور حول الجبل متواصلةً بصيداء . ومن المرجَّح انَّ اهل صيداء قديماً كانوا يشربون من مياه هذا النهر فيفضلونها على مياه الاولي ولذلك لم يأنفوا من كثرة النفقات لجلبها من معينها (١

(الاولي) من الانهار التي يقدّر نفعها الاهلون. كيف لا وهو غزير المياه يستلفت اليهِ الانظار بوفرة مادَّتهِ . وقد عرف الشيخ بشير جنبلاط في اوائل القرن التاسع عشر ما لهذا النهر من الجدوى فاتخذ لهُ قناةً جعلها عند نبعهِ الباروك فجلب الماء الى المختارة وقسمها من ثم بين القرى المجاورة فاحالها الى جنَّات غنَّاء تشبه غور دمشق الشهير بخصبها. وفي وادي بسري قناة اخرى قديمة تجمع المياه لمنفعة اهل صيداء فيستخدمونها لسقي البساتين وشرب السكَّان. ثمَّ تنفذ في قناة تحت الارض وتسيل الى البلد حيث يستفيد منها الصيداويّون لخدمة نحو ٨٠ بناية عمومية من مساجد وكنائس وحمَّامات وتُقسم الى ٩٢ مأسورة فتسقي كل احياء البلدة . واذا اضفتَ الى ذلك عدَّة طواحين تديرها المياه عرفتَ غاية ما ينالهُ الاهلون من الاوَّلي . الَّا انَّ هذه المنافع بالنسبة الى غزارة النهر قليلة اذ لا يستفيدون الَّا من ثلث مياههِ فيضيع منهُ ثلثان في البحر . ولو شاءَ الصيداويّون لأَمكنهم ان يربحوا من هذا النهر فوائد جمَّة بنفقات قليلة فيتَّخذوا المياه المفقودة لمعامل شتّى ولتوسيع نطاق بساتينهم التي هي مورد ثروتهم

(الدامور) يصحُّ فيهِ قولنا عن الاوَّلي. فانَّ هذا النهر كثير المياه غير انَّ معظم مياههِ تنصبُّ في البحر بلا نفع . وان امعنت النظر في الخدم التي يؤديها وجدتها قليلة بالنسبة الى وفرة مادّته فانهُ في سيرهِ الاعلى وعلى مقربة من مصبّهِ يدير عددًا من الطواحين. امَّا بين هذين الطرفين اي من جسر القاضي الى السهل فانهُ يسير في وادٍ

١) راجع مقالة لروبنصون في المجلة الاسيوية الالمانية (ZDMG VI, 39

عميق ضيّق لا يمكن تجهيز الطواحين عنده . وقد كان الامير بشير عمر الشهابي ابتنى قناةً من نهر الصفا احد سواعد الدامور وجرّ ماءهُ الى بيت الدين فانتفع بهِ اهلها واهل دير القمر . وهذه القناة لا تزال حتى اليوم تواصل خِدَماتها لسكّان تلك الناحية . ثم ان مياه الدامور تسقي ايضاً مزارع التوت في جهات المعلّقة وتجعل أرباضها كرياضٍ فيحاء وحدائق غنّاء يندر مثلها في بلاد الشام . على انّ كل ذلك قليل بالنسبة الى ما يُمكن تحصيلهُ من هذا النهر فلو وُسّعت قنواتهُ لاستطاع اصحاب المعامل (الكراخين) ان يولّدوا من تحدُّر ميـاهِهِ قوّةً كهربائية كافية لتدوير دواليبهم وان يسقوا السهول الرحبة التي بين المعلّقة وخَلدة . وقد زادت اليوم منافع المياه منذ نجزت طريق العجلات بين بيروت وصيداء فاخذ عدد السكّان ينمو وهم يحاولون الارتزاق بالزراعة الّا انّ مساعيهم سوف تحبط اذا لم تتوفّر كميّة المياه التي يحتاجون اليها

(نهر بيروت) يأتي بالمنافع المنتظرة منهُ فانهُ يحرّك الطواحين العديدة ويسقي السهل كلّهُ ولذلك ترى مسيلهُ يابساً في وقت الصيف من الجسر الذي بنـاه المرحوم رستم باشا . واذا بلغ الى البحر منهُ شيء فذلك من فضلات القنيّ بعد سقي المزروعات وهذه القنوات غير محكمة تسيل منها المياه وتنبسط في سهل بيروت وانطلياس ولا تلبث ان تتحوّل الى مستنقعات تنبعث منها الجراثيم الوبيئة المسبّبة للحمّيات الملاريّة . ولو بُنيت هذه القنيّ بحيلةٍ كافية لتحدّرت الى البحر . هذا ولا يُنكر انّ المزارع في هذه السنين الاخيرة قد اتّسعت فتحسّنت بذلك احوال الجوّ وقلّت الحمّيات نوعاً . وأملنا أنّ الزارعين يفرغون المجهود ويضاعفون العناية في اصلاح مـا بقي من الخلل لتزيد بذلك ارباحهم ويتلاشى كل خطر على الصحة العموميّة

وفي القسم الاوّل من كتابنا « تسريح الابصار » (ص ٢٨ — ٢٩) وصفنا القناة التي عُني ببنائها القدماء لسقي سهل بيروت وجلب المياه العذبة للبلدة . ومن اعتبر مشروعهم هذا اخذه العجب من حسن نظرهم واصابة رأيهم وكفـاهم فضلًا انّ مياههم كانت تجري الى بيروت بقناة مغطّاة بصفائح الحجارة فتأتيهـا صافيةً باردة يتهنأ بشربها السكان دون خطر من الجراثيم المُعدية

(نهر انطلياس) استفاد منهُ مدّةً احد افاضل الوطنيـين لانشاء معمل ورق اضطرّتهُ الظروف الى تركهِ ومياههُ تدير بعض الطواحين الّا انّ تسعة اعشارهـا لا

تجدي نفعاً فتذهب سدًى وتنصبُّ في البحر بعد قطعها مسافةً قليلة

*

(نهر الكلب) ان مياه هذا النهر تؤدي خدماً عديدة كسقي المزدرعات وتدوير الطواحين . الّا انَّ فائدتها العظمى ريّ بيروت وترويد اهلها بالمياه الطيبة بفضل شركة المياه المعروفة التي ذكرناها غير مرَّة في مطاوي ابحاثنا السابقة . ومياه نهر الكلب تُخزَن ليس بعيدًا من منبعها فتجري في قناة مكشوفة فتتبع تعريج الوادي وتوريبهُ حتى تقرب الى نحو عشر دقائق من مصبّ النهر في البحر فتنفذ في القلّة التي يعلوها دير مار يوسف البرج وتجري المياه في سرب يؤدي بها الى الضبيَّة . وقد جعلت من مسافة اخرى كُوًى نُقرت في عطف الجبل لرحض القناة اذا دعت اليهِ الحاجة ومن الضبيَّة ترى القناة مكشوفة حتى تبلغ اخيرًا معمل الشركة حيث ادواتها الدافعة ومصافيها قريباً من محطَّة الضبيَّة وفي المعمل رقَّاس مائي يدفع الماء في القساطل التي تجلبهُ الى بيروت . واذا قلَّت المياه في فصل الصيف اتخذوا آلة بخاريَّة جهَّزوها منذ بضع سنوات لوقت الحاجة . ولهذه المياه احواض عديدة في تلّ مار متري تتجمَّع قبل ان تُقسم على احياء المدينة . وامتياز هذه الشركة كانت الدولة العليَّة منحتهُ للمهندس الفرنسوي المسيو تـﭭنين الذي نال ايضاً من تعطُّفاتها امتياز ابنية المرفأ سنة ١٨٨٢ ثمَّ تشكَّلت شركة المياه كما هي اليوم سنة ١٨٧٦ وأُنجزت بعد مدَّة الاعمال التي بوشر بها قبل ذلك العهد بسنة وعُرفت مذ ذاك بشركة مياه بيروت Beyrouth Water-works Company limited ولمَّا انتهى حديثاً زمن الامتياز الممنوح لهذه الشركة جدَّدتهُ على شروط اشترطتها عليها الحكومة السنيَّة منها ان تخفض اجورها وان تمنح مجاناً كل يوم ٢٥٠ مترًا مكعَّباً من الماء وان تنقص قسط البلدية الى ١٥٠٠٠ فرنك واذا استهلكت ديونها مع دفع الفائدة يكون ثلث الارباح لبلديَّة بيروت

هذا وان الاطّلاع على احوال هذه الشركة لأَمرٌ صعب جدًّا فلا يمكننا ان نعلم عن مدخولاتها ومصاريفها الَّا شيئاً قليلًا استفدناه من تقرير بعض الانكليز . من ذلك انَّ الشركة كانت ربحت في سنة ١٨٨٤ ١٤٣٢٨٧ فرنكاً وان عدد المشتركين كان ١٥٦٣ وليس لدينا تفاصيل لما قبل هذه السنة . ودونك جدولًا اخذناه ايضاً من مصادر انكليزيَّة يبيّن اجماليًا حالة اعمال الشركة من السنة ١٨٩٠ الى ١٨٩٦

السنة	المدخول	المصروف	الربح الخالص	الاشتراكات	اشتراكات السقي
١٨٩٠	٣٠٢,٦٩٥ ف	٠٧٨,٦٧٤ ف	٢٢٤,٠١٧ ف	١٩٨٢	١٣٧
١٨٩١	〃 ٣١٢,٤١١	〃 ٠٨١,٧٥١	〃 ٢٣٠,٦٩٠	٢١٣٠	١٢٥
١٨٩٢	〃 ٣١٤,٨٦١	〃 ٠٨٧,٨٠٤	〃 ٢٢٧,٠٥٧	٢١٤٦	١٤٣
١٨٩٣	〃 ٣٢٢,١٦١	〃 ٠٩٦,٥٣٤	〃 ٢٢٥,٦٢٦	٢٣٢٣	١٤٢
١٨٩٤	〃 ٣٤٣,٠٦٣	〃 ٠٩٦,٢٩٣	〃 ٢٤٢,٨٦٩	٢٤٨٠	١٥٠
١٨٩٥	〃 ٣٥٢,٣٤٧	〃 ١٢١,٥٦٤	〃 ٢٣٠,٨٨٢	٢٨١١	١٣٧
١٨٩٦	〃 ٣٥٠,٢٨٠	〃 ١٢٠,٩٦٠	〃 ٢٢٩,٣٢٠	٢٨٩٦	١٥١

وللشركة رأس مال قدره ١٤٤٠٠٠ ليرة انكليزيَّة ويظهر من ترقّي اعمالها وزيادة عدد مشتركيها واسراعها في تجديد الامتياز الممنوح لها ان امورها على قدم من النجاح هذا فضلًا عن ارتفاع اسعار الاقساط · على ان الشركة قد تحمَّلت نفقات في جلب المياه خصوصاً لاجرة العمَلَة التي حُسبت في اليوم كما تُحسب للعامل في لندن (٦ شلينات) ولثقب السرب في تلّ دير مار يوسف البرج الذي بلغ الاربعين في المئة من مجموع النفقات · وزد على ذلك ما صرفتهُ في عدَّة دعاوي

والشركة تستطيع ان تسلّم في بيروت مترًا مكعَّباً من الماء في الثانية والاشتراكات تتزايد يوماً فيوماً الَّا انَّ كثيرًا منها لا تتجاوز ربع المتر المكعَّب فليس من ورائها ربح يُذكر · وفي بيروت الان ثلاثة احواض قريباً من تلّ مار متري اقدمها الحوض الاسفل محتواه ٢٨٠٠ متر مكعَّب وقد بُني حوض آخر قريباً منهُ مضمونهُ ٣٠٠٠ متر مكعَّب والحوض الثالث هو الاعلى مشمولهُ ٢١٠٠ متر والشركة تفكِّر في ابتناء حوض رابع فيكون للشركة عند قطع المياه ما يكفي لتموين البلد مدَّة ٤٨ ساعة · واعلم انَّ الآلة البخارية التي جُهزت في الضبيَّة وكثرت نفقاتها يبلغ معدَّل شغلها في السنة نحو ٢٠ يوماً فقط عند نقص المياه

وفي الضبيَّة ثلاثة ارباع الماء الذي يحرّك الرفَّاس تنصبّ في البحر · امَّا الماء المستعمل لريّ السهول المجاورة فرنجه لا يُعبأ بهِ لانَّ الزراعة هناك ليست بخصبة وذلك انَّ الريح البحريَّة لا توافق زراعة التوت والليمون فلا يبقى الَّاقصب السكَّر والبقول · واعلم ان المياه في الضبيَّة تسقط من علوّ ١٨ مترًا فقوَّتها كافية لتحريك الآلات اللازمة لتنوير بيروت بالكهرباء ·

ومجمل القول انَّ مياه نهر الكلب تنفع خصوصاً اهل بيروت وهي ايضاً تُدير طواحين عديدة وتسقي بقنيّها البساتين الواقعة شمالي النهر . ومع ذلك ينصبُّ منها في البحر نحو نصفها فتذهب فائدتهُ

*

(نهر ابراهيم) هو نهر غزير المياه ومع ذلك ما كنّا نراه يفيد شيئاً الّا انَّهُ يدير بعض الطواحين ويسقي بعض الحقول . ومن ثمَّ اتجهت الافكار الى عقد شركة لاستخدام هذه القوَّة الضائعة . وقصدها ان تسقي البُقع الواقعة شمالي النهر وجنوبهُ وان تجلب الماء المشروب لجبيل وعمشيت وما يليهما والمأمول انهـا تنجز العمل قريباً . وكان في حسبانها اتخاذ القناة القديمة التي كان الرومان يجلبون بها مياه النهر الى جُبيل . الَّا انَّ هذه القناة التي تُعدّ من اعمال الهندسة الخطيرة كقناة بيروت قد استولت عليهـا يدُ الخراب بحيث يصعبُ الانتفاع منها

ويؤخذ من بحثٍ سابق للمشروع المارّ ذكرهُ انَّ ميـاه النهر في معظم فصل القيظ لا تقلّ عن ٢٤٠٠٠٠ متر مكعَّب في اليوم اعني مترين واربعة سنتيمترات في الثانية . وممَّا تقصده الشركة فتح قناة كافية لجلب ٢١٥٠٠٠ متر مكعَّب كل يوم لتسقي بها ما بيانهُ :

		المجموع
١ً	٦٠٠ هكتار من التوت يقتضي لكل هكتار في اليوم ٤٨ مترًا مكعَّبًا من الماء	٠٢٨,٨٠٠
٢ً	١٥٠ هكتارًا اخرى اسقي حقول من التوت ومزدرعات يلزمها في اليوم لكل هكتار ٩٠ مترًا مكعَّبًا	٠١٣,٥٠٠
٣ً	١٠٠ هـ. لسقي مزروعات البقول والخضرة تحتاج في كل يوم لكل هكتار ١٣٢ مترًا مكعَّبًا	٠١٤,٥٢٠
٤ً	٤٠ هـ. من مزروعات قصب السكَّر ينبغي لها لكل هكتار ١٨٠ م مكعَّبًا	٠٠٧,٢٠٠
٥ً	تموين جبيل وعمشيت بالماء وقطعيَّات أُخر	٠٠٥,٩٨٠
٦ً	استخدام كميَّة من الماء لتوليد القوَّة المحرّكة عند مصبّ النهر	١٤٥,٠٠٠
		٢١٥,٠٠٠

وصاحب البحث الذي اخذنا عنهُ هذا الحساب يرى انَّ مدخول السقي في السنة يبلغ نحو ٢٠٠,٠٠٠ فرنك . ومأمولهُ ان يكون مهبط المياه عند مصبّ النهر من علوّ ستين مترًا فتنشأ قوَّة كافية لدفع ١٤٥,٠٠٠ متر مكعَّب من الماء كل يوم وهي قوَّة

توازي الف حصان بخاريّ . وزد على ذلك شلّالًا آخر غير متواصل يُستعمل في اوان السقي تكون قوّة انحداره ٢٥٠ حصانًا بخاريًا . فاذا بيع محصول كل حصان بخاري متداوم بمبلغ ١٥٠ فرنكًا ومحصول الحصان البخاري غير المتواصل بثمن ٧٥ فرنكًا اناف الربح على ١٥٠,٠٠٠ ف. ومن ثمّ يزيد مدخول هذا المشروع اجماليًّا على ٤٥٠,٠٠٠ ف وذلك فضلًا عن مدخول الماء المجلوب لجبيل وعمشيت وهو مبلغ زهيد لا يُعبأ بهِ

اما نفقات هذا العمل فيثمّنها المثمّنون نحوًا من ١,٧٠٠,٠٠٠ فرنكٍ ولعلّها تبلغ ٢,٠٠٠,٠٠٠ اذا حُسبت المصاريف الطارئة . اما النفقات السنويّة لاستثمار هذا العمل فتكون بالتقريب ٥٠,٠٠٠ ف في السنة . فلو افترض انّ الربح لا يتجاوز نصف المؤمّل اعني ٢٠٠,٠٠٠ فقط بدلًا من ٤٥٠,٠٠٠ فيكون الربح الخالص عشرة في المئة (١

لكنّ هذا التقرير نظريّ . افتراه ينطبق مع الواقع ؟ لا نظنّ وذلك لاسباب اوّلها ما سبق الاشارة اليهِ انّ جلب المياه الى جبيل وعمشيت ليس من ورائهِ ربحٌ يُذكر لقلّة سكّان تلك النواحي . فيبقى سقي المزروعات المصاقبة لمصبّ النهر . فانّ صاحب التقرير المذكور آنفًا يحسب نحو الف هكتار من التربة الجيدة المقصود سقيها فلعمري هذه مساحة كبيرة لا نعلم اين رآها . فاذا ابتعدت قليلًا عن ضفّتي النهر وجدت الاراضي لا تصلح للزراعة وهي محجرة متقطّعة بالاودية وليس ثمّة بقعة منبسطة ولا سهل ذو تربة زراعيّة وانّما تُلفي فقط قطعًا منها متفرّقة قليلة السعة . فاذا أُنشئت قناة في تلك الجهات ذات الحزون والبطون بلغت النفقات مبالغ جسيمة . وعلاوة على ذلك انّ كثيرًا من ارباب الفلاحة يأبون الاشتراك ويستثقلون مصروفهُ . وعندنا انّ الاولى ان تُتّخذ القنيّ البسيطة القليلة النفقات فتُجلب المياه الى البُقع اليابسة الواقعة جنوبيّ النهر . وقد بلغنا ان الشركة الجديدة المعقودة بهمّة حنّا افندي البويري وامين افندي عبد النور مهندس لبنان جرت على هذه الطريقة فانشأت قناةً عرضها متر واحد في عمق ٥٠ سنتيمترًا وقد نجز منها الى جهة بيروت ٨٠٠ متر

ولا ننكر انّ القوّة المحرّكة البالغة ١٢٥٠ حصانًا بخاريًّا ذات بال جديرة بالاعتبار

١) راجع تقريرًا في استخدام نهر ابراهيم تاريخهُ ٢١ ك ١ سنة ١٨٩٢ وضعهُ المهندس كوانيه (Ed. Coignet)

الّا انّها لسوء الطالع لا تأتي بفائدة كبيرة لبعد مقامها ولو كانت هذه القوّة على جوار مدينة كبيرة مثل بيروت لأمكن استخدامها للتنوير الكهربائي. وكذلك تصلح هذه القوّة لتسيير عجلات الترامواي اللبناني بالكهرباء الّا انّ شركة الترامواي لم تفكّر في هذا الامر حتى الآن ولعلّها لن تفعل قبل سنين طويلة . وخلاصة القول يصعب الان الاستفادة من نهر ابراهيم لما يحول دون ذلك من العقبات

وقد اتّسعنا قليلًا في البحث عن نهري الكلب وابراهيم لنبيّن بمثل الاول ما فازت بهِ الهمم وبمثل الثاني ما يمكن فعلهُ قلّما يكون للانهار التي هي احسن موقعاً من نهر ابراهيم فان للمياه شروطاً جغرافيّة لا بدَّ ان تستوفيها لفائدة الانتفاع بها ولذلك ترى عيوناً غزيرة في لبنان تجري دون عائدة لوقوعها في وسط الجبال وبعيدًا عن المراكز المأهولة . وهذا ما علّل الاضراب عن ذكرها في هذه العجالة عن مجاري لبنان

(نهر الجوز) هذا النهر ربّما نضبت مياههُ صيفاً عند مصبّهِ . وعليهِ فلا نظنّ انهُ يمكن استعمالهُ في غير سقي البساتين وتحريك الطواحين كما يُفعل بهِ اليوم

وليس الامر كذلك في نهر قاديشا (ابو علي) فانهُ كافٍ ليس لسقي سهول طرابلس فقط بل لتشغيل عدَّة معامل صناعيَّة لو اراد ذلك ارباب الصناعة. ومما يسهّل هذا المشروع قرب النهر من مدينة كبيرة غنيَّة بالمحاصيل الاوّليَّة ولديها الوسائط الكافلة بتصرّف بضائعها ومحصولاتها

ثم يأتي بعد نهر قاديشا (نهر البارد) و (نهر عكّار) ولا يُبنى عليهما املٌ كبير وذلك لقلّة مياه الاوّل ولوقوع الثاني في مسيل عميق ضيّق. امَّا النهر (الكبير) فانهُ خطير الشأن كما رأينا . فان تحقّقت امانينا وعاد لواديهِ مكانهُ من الاقتصاد ازدهرت تلك السهول المخصبة واغنى السكّان بارباحهِ الطائلة

واعلم انَّ السواحل الفينيقيَّة لم تكن فقط في القرون الغابرة مراكز لتجارة العالم بل ايضًا مواقع مهمَّة لمرافق الزراعة واعمال الصناعة. فنال القدماء بهذه الموارد الثلاثة ارباحاً طائلة. وعندنا انَّ هذه الثروة لا تعود الى ايدي ابنائهم اذا حاولوا احياء الزراعة والفنون الَّا بشرط استخدام القوى الطبيعيَّة التي قسمها الخالق على بلادهم لاسيَّما الكنوز المائيَّة المخزونة في جبالهم . ويا حبَّذا لو استطعنا بهذه السطور ان نستلفت الخواطر الى هذه الامور النافعة او حرّكنا الهمم لمباشرة بعض هذه الاعمال الشريفة

١٥

الاحوال الجوّيَّة في لبنان

هذا بحثٌ يصعب الخوض في غماره على طريقة علميَّة بالضبط والتدقيق وسببهُ انهُ ليس لدينا أرصاد تفي بالمرام · اجل اننا لعالمون بان ميازين الحرارة ومقاييس ثقل الهواء صارت شائعةً في بعض انحاء لبنان لكنَّ اصحابها يكتفون في الغالب بالنظر اليها عند الحاجة وليس من احد يفكّر في تدوين درجات الترمومتر او البارومتر واذا باشر احد في ذلك لم يُعنَ بضبط العمل او يهملهُ بعد حين بحيث تضيع الفائدة العلميَّة · وغاية ما لدينا من ذلك قوائم رصديَّة دُوّنت في بعض الاماكن وهي لا تتجاوز السنتين او الثلاث سنوات وكلها مقصورة على رصد واحد في اليوم بدلًا من ثلاثة رصود فضلًا عن انها لا تدلُّ على معظم درجات الحرارة او اقصى درجات هبوط الميزان (١ فينتج من ذلك انهُ لمستحيل تعريف معدَّل الحركات الجويَّة وبيان درجاتها مضبوطةً

وعلاوةً على ذلك انَّ احوال الهواء في لبنان تختلف اختلافاً عظيماً لِما في تركيبهِ وموقعهِ من التباين · فانهُ من حيث العلوّ يُقسم الى ثلاثة اقسام الساحل والوسوط والجرد · فالساحل يشبه في آثارهِ الجويَّة البلاد الحارَّة · وهواء الوسوط معتدل · امَّا الجرد فاشبه بجبال الالپ وبرده كبردها · ويُقسم لبنان من حيث وجهتهِ الى منعطف شرقيّ يتحدَّر الى البقاع والى منعطف غربي يوازي بحر الشام فانَّ هواء المنعطَف البحريّ ثابت في الغالب معتدل نوعاً · امَّا الوجهة الشرقيَّة فعلى خلاف ذلك فانها في تقلُّبات هوائها من حرارة ورطوبة اقرب الى داخليَّة البلاد في آسية المتقدّمة ·

---

١) لو اراد احد قرَّائنا ان يسدّ هذا الخلل ويدوّن على طريقة نظاميَّة رصود حركات الجوّ لخدم العلم بذلك خدمة طيّبة · ونحن نؤكد لهُ ان « المشرق » ينشر قوائمهُ شاكرًا وأكثر ما تفيد هذه الارصاد في بشرَّاي مثلًا لبلاد الجرد وفي بكفيا لمنطقة لبنان الوسطى وفي زحلة لمنعطفهِ الشرقي · ولا بدَّ هنا ان نذكر بالشكر مرصد ديرنا في البقاع المنشأ في كسارا منذ سبع سنين فننشر ملحوظاته الجويَّة شهرًا بعد شهر بكل تدقيق في مطبعتنا · امَّا ساحل لبنان فلا تختلف درجات حرارتهِ عن بيروت حيث تُدوَّن هذه الملاحظات

فترى من ثمَّ صحَّة قول القائل بان المسافر الذي يرتقي في سوريَّة من ساحل البحر الى غابات الارز في مشارف لبنان يلقى في يوم واحد من اختلاف حالات الجوّ ما يلقاهُ مسافر آخر يرحل من ضفَّة النيل الى شواطئ البحر الشمالي المعروف بالابيض واذا استثنينا حمارَّة قيظ بلاد خطّ الاستواء وصبارَّة اقاصي الانحاء الشماليَّة وجدنا في جهاتنا ما يتوسَّط بين هذين الطرفين من المظاهر الجويَّة

وعليهِ ليس بامر سهل مع هذا التفاوت البعيد ان تخصَّص الوجوه التي تشمل كل جهات لبنان فحسبنا ان نثبت هنا بعض ملحوظات عموميَّة موجلين التفاصيل الى فرصة اخرى عند ما نبحث عن احوال الجوّ في سوريَّة فنضيف اليها ما يختصُّ بالبنان

*

سواء تعتبر طبقات لبنان الثلاث او منعطفَيهِ الشرقيّ والغربي لا تكاد تجد لهُ في حصر المعنى الَّا فصلين وهما الشتاء والصيف او قُل بالحري فصل الامطار وفصل اليبوسة . ولعلَّ الراقي الى مشارف الجبل يشعر بالفصلين الاوسطين اعني الخريف والربيع شعورًا اوفر على قدر توقّلهِ في الطبقات العليا وذلك لتخلُّف زمن الحرارة وتأخُّر نموّ الزروع . الَّا ان هذه الاختلافات ليست بكافية لتمنح لبنان ذينك الفصلين المعروفين بالربيع والخريف . وعليهِ يمكنَّا القول اجمالًا بانَّ احوال لبنان فيما يخص فصول السنة متساوية متشابهة في كل طبقاتهِ

امَّا اذا صرفتَ النظر الى الامطار فتجد اختلافاً يُذكر بين اقسام الجبل من حيث طول الشتاء فانَّ الوجه البحري يُجاد قبل المنعطف الشرقي الذي تتأخر فيهِ الامطار وهو في ذلك اشبه بجهات سوريَّة الداخليَّة فيبتدئ زمن امطاره بعد المنعطف البحري وينتهي قبلهُ . ولكن هل تكون مياه المطر اوفر في الجبل منها في السواحل ذلك امرٌ ذهب اليهِ البعض ولا يبعد قولهم من الصواب فانَّ السماء ربما امطرت لبنان دون ان تخصّ الساحل بقطرة من سحبها . وقد يجري الامر على عكس ذلك الَّا انهُ اندر وقوعاً . اما معدَّل المطر فاننا لا نظنّ انهُ يختلف كثيرًا بين لبنان والساحل ولعلَّ هذا الفرق لا يتجاوز عشرة سنتيمترات الى خمسة عشر س . وما قولنا الَّا على الحدس والتخمين اذ ليست لدينا قائمة نستند اليها

وممّا ثبت بالامتحان ان الامطار تتقسّم بين شهور السنة على قدر ابتعاد البلدان عن خط الاستواء فيتقارب فصلا اليبوسة والرطوبة . فانَّ معدّل الامطار من أيّار الى ايلول (وهو فصل اليبوسة في سوريّة) يبلغ :

في رومية	٢٥	في المئة بالنسبة الى مجمل مطر السنة
في برلين	٥٢	〃 〃
في بطرسبرج	٦٧	〃 〃

وهو امرٌ مقرَّر ايضاً في نواحي الشام . ففي اسكندرونة مثلاً حيث الحرارة اشدّ من بيروت بكثير ليست الامطار نادرةً في شهري تموز وآب . وكذلك بلاد قيليقية المجاورة اسكندرونة فانَّ حرارتها فوق حرارة سواحل الشام ومع ذلك تهطل في صيفها الامطار بمعدَّل ستة في المئة فان قابلت ذلك بالشام وفلسطين وجدت من هذا القبيل فرقاً عظيماً اذ لا يبلغ معدّل المطر الصيفيّ عندنا الّا سُدس المئة فقط . وكذلك قد لحظ الاهلون في شمالي غربيّ الشام من السنة ١٨٩١ الى السنة ١٩٠٠ ثلاثة اطوار فقط من اليبوسة دام كلٌّ منها مئة يوم . امَّا لبنان فايُّ طبقةٍ رقيتَ منهُ تجد انقطاع المياه في صيفهِ يدوم اربعة اشهر بل خمسة وكذا قُل عن بقيَّة بلاد الشام وفلسطين

وكذلك اذا اعتبرنا جبل لبنان بين الليطاني جنوباً ونهر الكبير شمالًا وهو طول يبلغ ١٨٠ كيلومتراً نجد فرقاً بين امطار الجهة الشماليَّة والجهة الجنوبيَّة صيفاً . والمياه المنهملة في جبال عكَّار ووادي النهر الكبير من أيَّار الى ايلول تقلّ عن مطر بلاد الشقيف وعلى ضفَّتي القاسميَّة (١ . فيمكن اذن القول عموماً بان كميَّة الامطار في المنعطف البحري على طولهِ متساوية كما ان الزمن الفاصل بين اشهر القحولة واشهر المطر لا يكاد يختلف

وليس الامر كذلك في الضباب فانَّهُ في لبنان اوفر جدًّا منهُ في الساحل وهذا يصحُّ ايضاً في البرَد . امَّا تعليل كثرة الضباب فمن طبيعة الجبل اذ انَّ لبنان كجدار صخري عظيم يقوم كحاجز في وجه الابخرة المتصاعدة في البحر مدفوعةً الى داخل البلاد

١) راجع المجلَّة الفلسطينيَّة (ZDPV ج ٢٥ ص ٣٥)

بقوَّة الرياح الغربيَّة . وعند هذا الجدار تتكاثف الغيوم التي تُرى في اعالي الجبل بين ٨٠٠ متر و ٢٠٠٠ م علوًّا . وفي بعض جهات لبنان يتكاثر الضباب حتى انهُ يتصاعد اليها كل يوم مدَّة ثمانية اشهر من السنة وليس سببهُ علوّها فقط بل موقعها ايضاً بالنسبة الى الجبل والى الاودية المحدقة بها فان كل ذلك لَمِمَّا يساعد على تراكم الضباب

ولا نرى هنا داعياً للكلام عن حرارة لبنان فانهُ غنيّ عن القول بان الحرارة تختلف مع اختلاف علوّ الامكنة ثم انَّنا ذكرنا سابقاً ما يختصّ بالثلوج اللبنانيَّة (١

امَّا نقاوة الهواء وصلاحيَّتهُ للصحَّة في لبنان فذلك امر مشهور لا يحتاج الى وصفٍ فان كل هذا الجبل قد خُصَّ بهواء جيّد منعش للقوى اللهمَّ الَّا الامكنة الواقعة بجوار مصبّ الانهار وفيها الحمّيات . وكذلك لبعض القرى سمعةٌ سيئة من هذا القبيل وهو امر مستغرب لاسيَّما انَّ اكثرها واقع في بلاد يابسة لا تستنقع فيها المياه . فنطلب الى الاطبَّاء الذين في تلك الجهات ان يفيدونا عن سبب تفشّي الامراض في الامكنة المذكورة . امَّا بقيَّة لبنان فان صفاء جوّهِ وجودة مياههِ يقوّيان هيكل الجسم ويجعلان سكَّانهُ اشدَّاء . واللبنانيُّون في الغالب متوسّطو القامة مفتولو الاعصاب محكمو البنية والفضل في ذلك لعيشتهم في الهواء الطيّب ولعدم ارتزاقهم بالصنائع المضنكة ولهذا ايضاً لا تجد بينهم الَّا امراضاً بسيطة . واذا علوت المشارف ربَّما وجدت منهم من هو ناصع اللون ابيضهُ . وقد مرَّ لنا كلام في ما يخصّ الشعوب اللبنانيَّة واختلافها في الصورة والهيئة الى غير ذلك مِمَّا لا فائدة في تكرارهِ

١٦

الفلاحة والاحراج اللبنانيّة

لا يستطيع اهل لبنان ان يرتزقوا بالصناعة وحدها فهذا حكمٌ راهن ابرزناه غير مرَّة في ابحاثنا السابقة والسبب ظاهر لانَّ الصناعة تحتاج الى المعادن ولا سيَّما الى مناجم الفحم وكل ذلك نزر قليلٌ في لبنان . ومن ثمَّ ينبغي لاهل لبنان ان يسعوا في فلاحة الجبل وزراعتهِ وعليهما يتوقف مستقبل لبنان لتفي غلَّاتهُ بمعاشهم . وممَّا

١) راجع الصفحة ١١١

يضطرّهم الى السعي وراء ذلك وفرة السكّان ونموّهم سنة بعد سنة فانهم يجدون في ارضهم موارد رزق اوفر ممّا يظنّون. وها نحن ذا نبيّن لهم ذلك في الاسطر التالية وليست غايتنا ان نكتب كتاباً مسهباً في احوال الزراعة اللبنانيّة وانّما ندوّن فقط ما ينبئنا بهِ تاريخ الجبل فان الماضي عبرة للمستقبل . ونقسم كلامنا في هذا الباب الى قسمين نخصّ القسم الاوّل بالغابات والثاني بانواع المزدرعات التي يمكن اللبنانيين ان يستدرّوا منها ارباحاً جزيلة

١

الغابات اللبنانية سابقًا وحاضرًا

قد اطرأ الكتبةُ لبنان وأفاضوا في مدح غاباتهِ الباسقة منذ الاجيال الغابرة العريقة في القدم . كما اثبتنا الامر في مقالتنا المعنونة جبال الالب ولبنان (المشرق ١ : ٧٢١) وشفعنا ذلك بمقالة ثانية (١عن ارز لبنان فروينا ما كان لغاباتهِ من الشأن الخطير حتى انّ كل الشعوب القديمة في الشرق لاسيّما البابليين والفراعنة كانوا يجدون فيها حاجتهم من الخشب لابنيتهم الفاخرة . ومن الآثار الهيروغليفيّة ادلّة واضحة على انّ المصريين كانوا يعتبرون جبل لبنان كغابة متّسعة كثيرة الاشجار متكاثفة الاغصان لا يرى السائر فيها اديم السماء لظلّها الوارف(٢ وكان الغرباء لا يتجوّلون في هذه الاحراج لأنهم يتوجّسون منها خوفاً لما يُرَى فيها من ضواري الوحوش كالاسود والنمورة والدِببة . وكان الاهلون قليلين وهم يرتزقون بما يقطعونهُ من الاخشاب كما ترى في صورتنا المنقولة عن بعض الآثار المصريّة القديمة . امّا الاشوريون والبابليّون فلم يشاؤوا ان تبقى هذه الكنوز في ايدي اخصامهم المصريين فلذلك ننظر اصحاب العاديّات البابليّة يفتخرون بما جلبوه من اخشاب لبنان لمبانيهم العظيمة كما انّ نقوشهم المنقورة في الصخور تنطق

---

١) راجع الجزء الاوّل (ص ١٢٩)

٢) اطلب: Chabas: *Voyage d'un Egyptien en Syrie*, p. 312 – W. M. Müller: *Asien und Europa*, p. 197-198 – Joret : *Les Plantes dans l'antiquité.*



قدماء اللبنانيين يقطعون الشجر

بآثرهم في صيد كواسر لبنان . مثال ذلك صورة توفَّقنا باكتشافها في جبل اكروم شمالي هرمل فوصفناها في بعض تآليفنا (١

امَّا قدماء اليونان فلم يجسروا ان يتوغَّلوا في هـذه الغابات التي كان البابليُّون والفراعنة نالوا من اطرافها فقط حتى قام الرومان تحت امرة پومپيوس فتعقَّبوا فيهـا المتلصّصين من الايطوريين (٢ وضربوا على ايديهم ومذ ذاك العهد ساد الامن واتخذ السكَّان لهم منازل ثابتة فجعلوا يقطعون تلك الاحراج لحـاجتهم الى المزدرعات (٣ وصار عدد القرى ينمو شيئاً فشيئاً وغرس الاهلون الكروم واهتمُّوا بزراعة الزيتون فتوفَّرت وانتشرت وتخوَّف اصحاب الامر من ان تتلف الغابات فوضعوا الرسوم لقطعها

(١ راجع Notes épigraphiques et topographiques sur l'Emésène, p. 50

(٢ راجع (ص ٤٩) والمشرق (٥ : ٨٢٥)

(٣ راجع (ص ٢٥)

واستثنوا منها بعضها . غير انَّ لبنان لم يُمسِ جبلًا حافلًا بالسكَّان الَّا عند انتشار الموارنة كما اثبتنا ذلك سابقاً (١ فكانت الغابات تنقص على قدر ما كان ينمو عدد القطين . وفي ذلك العهد احتاج الخليفة معاوية الى عمارة فجهَّز سفنها من خشب لبنان في عكَّا وصور وطرابلس كما ورد في فتوح البلدان للبلاذري (ص ١٥٣) وفي تاريخ تاوفانوس وتاريخ البطريرك ميخائيل الكبير (ed. Chabot. II, 445) . وكانت هذه الاساطيل تتركَّب من عدد وافر من السفن بلغ مجموع بعضها ١٧٠٠ سفينة شراعيَّة . وكان اذا ذهبت الانواء بقسمٍ منها اسرع فجهَّز غيرها بدلًا منها لانهُ لم يشاء ان يكون اسطولهُ اقلّ من ٥٠٠ مركب . وهو لعمري عدد بالغ يشهد بلسان حالهِ على غنى لبنان بالاحراج والغابات كما انهُ دليل واضح على ما فقده بتوالي الاعصار من هذه الكنوز الخشبيَّة . ودونك اسباباً اخرى قد سوَّلت انتقاص هذه هذه الغابات ما عدا توفُّر السكَّان الذي سبق ذكرهم

سيأتي الكلام في فصل آخر عن معادن لبنان في القرون الوسطى . وهناك ترى ان استخراج الحديد كان شائعاً في لبنان وكانوا يعدّنون هذا المعدن على الطريقة المنسوبة للكتيلان وهي طريقة تقتضي احراق الخشب الكثير . وكذلك استحضار الكلس فقد اتسع نطاقهُ في لبنان لكثرة حجارتهِ الكلسيَّة والكلس لا يتهيَّأ الَّا بايقاد نار شديدة فذهب بذلك قسمٌ من غابات الجبل

ثمَّ انتشرت في لبنان تربية القزّ فشغلت اشجار التوت قسماً من مكان الغابات . وزد على ذلك رعية المعزى واصطناع الفحم الخشبيّ وقلَّة اكتراث الاهلين لنصب اغراس جديدة فكانت هذه الاسباب كلها داعية الى تلف الغابات فاصبح الجبل اليوم اجرد اصلع لا تقرُّ لناظره عين بما كان يزينهُ سابقاً من خضرة احراجهِ وارزه الشهير الذي انشدت في محاسنهِ الاسفار الالهيَّة

وان قيل انَّ اهل لبنان اصابوا بدلًا من هذه الغابات مرافق اخرى استعاضوا بها اجبنا انَّ هذه الخيرات التي حظي بها القوم انما كانت مقصورة على منافع وقتيَّة ولو فطنوا وادركوا كنه الامور لامكنهم ان ينالوا هذه الخيور دون ان يخسروا هذه

١) اطلب الصفحة (٥٢ الخ) ثم المشرق (٦ : ١٣٠)

الخسائر الجسيمة. ومن المعلوم انَّ اعمال الخشب تترقَّى يوماً بعد يوم مع ترقي المدنيَّة فتتعدَّد منافعهُ لغايات لا يضبطها احصاء وكلُّها فوائد جليلة . لانَّ منهُ يتَّخذ الاثاث وامتعة البيت وادواتهُ المختلفة ومنهُ يُستحضر اليوم ورق الكتابة وثمنهُ يتصاعد كل يوم . حتى ان بعض المتولّين اعمال السكك الحديديَّة يرون انَّ الحديد ارخص منهُ في عوارض هذه السكك. وكذلك ترى الكهرباء بترقّيها وانتشار استعمالها تقوم اليوم مقام الفحم كما ان غاز البترول ينوب ايضاً عنهُ في اعمال صناعيَّة عديدة فيُستخدَم في تحريك الالات في المعامل والمراكب والسكك الحديديَّة بل في طبخ الاطعمة . وبينما ترى بقيَّة الموادّ تنقص قيمتها او يتهاود سعرها تجد الخشب بخلاف ذلك يرقى سلَّم الصناعات ولا يُستغنى عنهُ بحيث يمكن القول انَّ حرفة الحطَّاب كحرفة الفلَّاح اقدم ما عُني بهِ المرء في بداية كونهِ وستبقى الى آخر الكون . فترى من ثمَّ جهل الذين عبثوا بهذه الثروة فضحّوها مع انَّ قسماً من لبنان لا يصلح في الغالب لما سوى ذلك. وقد جرَّ خراب هذه الغابات آفات اخرى نشأت عن قطعها . فمن ذلك فَقْد قسم كبير من التربة الزراعيَّة التي تجرفها كلَّ عام امطار الشتاء . ومنها نضوب عيون معينة انقطعت مياهها او قلَّت . وكذلك تلفت الحواجز التي كانت كسدود في وجوه الانهار عند طغيانها واستنقعت المياه في البطائح فانبعثت منها الجراثيم الوبيئة وذلك بدلًا من الروائح العطرة التي تفوح من اشجار الارز والصنوبر والشربين. فانَّ الخالق كان اقام لبنان ليجعلهُ كبيمارستان للمرضى وكمستشفى يعالج بهِ اهل العاهات اسقامهم ويجدّدون فيهِ كما في جبال سويسرة صحَّتهم بعد ان انهكتها الاتعاب او تثاقلت عليها اعباء القيظ فينعشوا قواهم بصفاء جوّه وطيب هوائـهِ وشذا عطورهِ وازهارهِ . ولا غروَ انَّ الزوار كانوا يتواردون اليهِ تترى ليسرّحوا انظارهم في مشاهده الفتَّانة وآثاره الفريدة المجمَّلة بمناظر الطبيعة كما انَّ المرضى منهم كانوا يستطيعون ان يتعالجوا بالمعالجات الطبيعيَّة التي اختبر نفعها اطبَّاء زماننا كالعلاج بالهواء والاستحمام بالماء والنور والتطبُّب باللبن والعنب وترويض الجسم بالرياضات المقوّية . ففي لبنان صلاحيَّة لكل هذه الاسباب الصحيَّة التي لا ينالها الاوربيُّون في جبال سويسرة مع كثرة ضبابها وكدورة سمائها الَّا بان يتعرَّضوا لامراض شتَّى كوجع المفاصل والصداع . وكان امكن اهل لبنان مع هذه الخيرات العميمة ان يوسّعوا مصادر ارتزاقهم ببناء الفنادق

للغرباء وانشاء الشركات لنقل المسافرين وغير ذلك مما يجلب لسويسرة ارباحاً فاحشة . وقد فُقدت هذه العوائد كلّها وخسر لبنان كل هذه المكاسب مذ جرَّد الاهلون قممهُ عن غاباتهِ بل قل عن موارد سعادتهم

*

اعلم ان تجارة الخشب قد صارت اليوم في ايدي اهل اوربَّة فيكسبون منها مبالغ طائلة . مع انَّ تربة تلك البلاد لا تصلح كتربة لبنان لنموّ الشجر وذلك انَّ شجرةً من الصنوبر مثلًا لا تبلغ في بلاد اسوج ونروج عشرين مترًا طولًا في دائرة متر ونصف الَّا بعد ١٥٠ الى ٢٠٠ سنة امَّا في جنوبي فرنسة فان نموّ هذه الاشجار اسرع من ذلك باربعة اضعاف ولا نشكّ انها في لبنان تنمو بزمن اقلّ من ذلك بستة اضعاف لحسن موقع هذا الجبل واعتدال هوائهِ . فترى من ثمّ انّ اللبنانيين لو ارادوا امكنهم ان يزاحموا اهل شمالي اوربَّة في هذه التجارة الرابحة بدلًا من ان يدفعوا لهم مالهم لجلب اخشابهم

وهذا وانَّ تغافل السكّان والحمد لله لم يفنِ تماماً هذه الغابات فانّ في لبنان حتى الان امكنةً تظلّلها الاحراج وتشهد على غناها القديم . وقد تكلَّمنا في خلال بحثنا عن ارز لبنان في المراكز الثلاثة التي تزهو فيها غابات هذا الشجر الثمين واستلفتنا انظار اللبنانيين الى ما يتهدّد غابة الباروك من عوامل الفساد

امَّا بقيَّة الاشجار غير الارز فان طلبنا لها غابات كبيرة ليس غياضاً صغيرة لا نكاد نجد منها الَّا في بعض الامكنة السحيقة كجبل اكوم شمالي شرقيّ لبنان وهذا الجبل من ملحقات جبل عكّار تراه موازياً لبحيرة حمص وهو قليل السكّان وفيهِ غابة واسعة من السنديان الباسق الافنان . بيد ان اهل تلك الانحاء يصطنعون منها الفحم فلا تلبث بعد مدّة ان تتلف كما تلفت اخواتها في لبنان . وياليت هؤلاء الحطَّابين يكتفون بقطعها فيبقى املٌ لان تعود فتنمو بعد سنين الَّا انَّهم تخفيفاً للعمل يلقون النار في اصول اكبر اشجارها فتجفُّ مائيَّتها وتتلف دون ان يرجى لها اخضرار فيضحي مثل هؤلاء كمثل المرأة التي لم تقنع ببيضة من ذهب كانت تبيضها لها كل يوم دجاجتها فلمَّا طمعت بما هو اوفر فقدت رزقها . وكان قدماء اللبنانيين اوفر عقلًا كما ترى في الصورة التي اثبتناها آنفًا (ص ١٨٣) فانهم كانوا ينتفعون بخشب غاباتهم دون ان يستأصلوا شأفتها

وكذلك مقاطعة الهرمل فانها كثيرة الاحراج ينمو فيها خصوصاً ناعم الشجر وذلك على مساحة نحو ٢٥٠٠٠ هكتار . ومع كثرة النبات ترى ايضاً امكنة عديدة خالية منهُ . واشجار معاملة الهرمل دون جبل اكروم في بسوقها وحسنها وهذا مما يبخس شيئاً من قدرها . والفحَّامون يعيثون ايضاً في هذه الاحراج كعيث رصفائهم في احراج اكروم غير انهم لا يحرقون الشجر من اصلهِ كما يفعل اولئك

وترى في مقاطعة الضنيَّة وفي منعطف لبنان الشرقي بين الهرمل وعيناتا بعض الغابات الحسنة واشجارها في الغالب متوسّطة الكبر ليست متواصلة . ومن اشجارها الخاصَّة بها الشوحُ (abies cilicia) وهو شجر جبلي نادر الوجود في الاصقاع الشامية لا يُعرف في غير جبال اسكندرونة ومديرية الضنيَّة ويستحقّ ان يُغرس في نواحي لبنان لحسنهِ فانهُ ينمو الى علو ١٥ مترًا وينبت في مشارف الجبال بين ١٥٠٠ الى ٢٠٠٠ متر

وفي غير هذه المحالّ لا تجد الغابات الَّا في بعض الاودية المعتزلة او على جوانب بعض السيول ومنحدرات الغياض يمتاز بينها الصنوبر والسرو . اما غابات السنديان التي كانت تزيّن منعطف جبال جزّين عند تومات نيحا فانها صارت اثرًا بعد عين . وترى بدلًا منها بُقعاً سوداء تشهد على مساوئ الفحَّامين . ونذكر هنا بعض الغياض لا لاتساعها بل تنشيطاً لمن غرسها واستلفاتاً لنظر الاهلين منها احراج بيت مري وعين زحلتا وبكاسين وبكفيا . فياليت اللبنانيين يأتسون بهذه الامثال فيعيدون لجبلهم زينتهُ السابقة

وممَّا يجدر بنا ذكره مزارع الزيتون . وهي كثيرة في بعض الجهات حتى انَّ الذي يراها يحسبها آجاماً وغابات . منها مزارع الكورة التي تمتدّ على طول خمسة كيلومترات في عرض الف متر . واوسع منها مغارس المختارة وعمَّاطور الَّا انَّ بينها صنوفاً اخرى كالتوت والاشجار المثمرة وقد استوقفنا ابصار قرَّائنا على تلك الغياض البديعة المنظر التي تجاري في خصبها غوطة دمشق واجمل مواقع سوريَّة . الَّا انَّ السهم الافوز بين مزارع الزيتون هو للشويفات فان صحراءها تبلغ سبعة كيلومترات طولًا في عرض يختلف بين كيلومتر وثلاثة كيلومترات وهي دون اغراس المختارة طولًا لكنها مرصوصة متواصلة لا يدخل فيها صنفٌ آخر من الاشجار . ومن نظر اليها من علٍ خالها بحيرةً كبيرة من الخضرة لتلاحم اشجارها وكلها في علوّ واحد نُصب اكثرها

قبل ستين سنة . وكذلك مزارع قصبة زغرتا العامرة فانها واسعة جميلة وان تكن اصغر من المغارس السابق ذكرها وتختلط بما سوى الزيتون

ويهمّ اللبنانيين ان يوسّعوا نطاق هذه المزارع لما وراءها من الارباح التي تبلغ اربعة اضعاف ربح الغلّات . لانّ معدّل مــا يُستغلّ من زيتونة واحدة يساوي في السنة بين ١٥ الى ٢٠ فرنكًا ولو بيع الزيت في الخارج لاتى بمكاسب طيبة لحاجة كثير من البلاد الاجنبية اليــهِ فانّ فرنسة مثلًا تحتاج الى ٢٥,٠٠٠ طن من الزيت فضلًا عمّا تجده في مقاطعاتها . فيأتيها من مستعمراتها ٨٠٠٠ طن لسدّ هذا النقص فيبقى ١٧,٠٠٠ طن يمكن اللبنانيين ان يزوّدوها بهــا . وانما ذلك على شرط واحد وهو ان يتّخذ الزارعون الطرائق المستحدثة لعصر الزيتون فان الزيت الطيب المستحبّ لا يُنال الّا بالادوات الخصوصيّة التي شاعت اليوم في اوربّة (١

٢

مزروعات شتّى

نكرّر هنا ما سبق لنا قولهُ انّ الغاية من بحثنا الحاضر ليست تأليفاً في الفلاحة او في ضروب النبات التي تزين لبنان . والمواليد النباتيّة متوفّرة فيهِ لما خُصّ بهِ هذا الجبل من الدوائر المنطقيّة والطبقات المتباينة واختلاف التركيب الجيولوجي والمواقع من قمم واودية وغير ذلك (٢ . والقصد من هذه النبذة ان ندوّن بعض الملحوظات المفيدة نسندها الى تعاليم التاريخ والى نتائج علم الجغرافية

اننا لا ننكر ما اصاب لبنان من الخسائر بتجرُّدهِ عن غاباتهِ القديمة الّا انهُ لا يجوز القول بان الجبل فقدَ خصبهُ وثروتهُ الارضية بدعوى ان الزراعة اليوم لا تأتي بالارباح المأمولة . والحقُّ يُقال انّ بعض العيون قد نضبت وان السيول وغيرها من دواعي الخراب سحت بقسم كبير من التربة الزراعية وابرزت صخورًا جرداء لا يمكن فلاحتها .

---

١) اطلب كتاب الفاضل وديع افندي مدور في الفلاحة السوريّة (Syrie agricole, pp. 206, 212)

٢) فليراجع كتاب المسيو جوره في النباتات القديمة ولهُ فصل في نبــات بلاد الشام عمومًا ونبات لبنان خصوصًا (ص ٢٢٤-٢٢٦)

لكنّ الجبل في ما سوى هذه الامكنة لا يزال طيّب الثرى صالحاً للزراعة . ألا ترى مثلًا ما يناله لبنان من حاصلات الكرم والتوت والتبغ الذي تعود على اهلهِ بالمكاسب الطائلة وقد كانت مدةً من مرافق الجبل الخاصّة بهِ . وان كانت هذه موارد الثروة قد خفّت فلا تثريب على الارض اللبنانيّة وانّما تغيّرت فقط احوال سوقها التجاريّة ولعلّ ارباب الزراعة في لبنان لم يصرفوا نظرهم الى تحسين طرق زراعتها على الاساليب المستحدثة . مثال ذلك زراعة الكرم فانّ لبنان يوافقها ايّ موافقة وترى اليوم اصحاب الشركات الاسرائيليّة والالمانيّة في جهات فلسطين قد سبقت اللبنانيين في استثمارها

ولا غروَ فانّ عصرنا هذا عصر التقدُّم وقد اصاب الفلاحة من ذلك نصيب كبير فلا بدّ اذن من استعمال الاساليب التي اختبر العلماء منافعها لئلا يذهب شغلنا سدًى بمزاحمة الغير . فما قولك مثلًا في جند اليابان لو نزلوا ميدان الوغى وفي ايديهم القوس والنشّاب لمحاربة الروس المتسلحين بالبنادق وهم يطلقون عليهم المدافع . فكذلك الفلاحة فانّ لها اليوم ادوات تسهّل طرائقها وتوفّر غلّاتها اضعافاً كثيرة ومع هذا ترى الاهلين لا يسعون في اتخاذها ويجرون على آثار اجدادهم في اساليبهم المخلّة التي شاعت بينهم قبل الفين او ثلاثة الاف سنة . مثال ذلك عصر الزيت فانّ اللبنانيين يستخرجونها في معاصرهم كما فعل الفينيقيون . أليس هذا شططاً وكيف يستطيع الاهلون بعد ذلك ان يلوموا الزراعة ويشكوا قلّة أرباحها

هذا ويؤخذ من دروسنا السابقة انّ لبنان منذ الطور التاريخيّ لم يختلف في هوائهِ اختلافاً يُذكر وان امطاره لم تكن اذ ذاك باوفر منها في عهدنا مهما زعم الزاعم ليثبت خلاف ذلك

وغاية ما يمكن التسليم بهِ انّ الامطار مع اتساع الاحراج قديماً كانت مقسمة على كل انحاء لبنان تقسيماً نظامياً يعمّ فصول السنة فيدوم زمانها اكثر دون ان تتوفر بذلك كميّة مياهها . وهذا ايضاً ضرب من الحدس لا يمكن ان نحكم بصحتهِ قطعيّاً

وعليهِ يسوغ القول بان النبات اللبناني هو اليوم كما كان سابقاً الّا اجناساً قليلة . فمن ذلك البُردي (papyrus) الذي ينبت بوفرة حتى اليوم على مقربةٍ من بحيرة الحولة . وعلى رأينا انهُ كان ينبت في الاجيال الغابرة في اودية الجبل الحارّة الكثيرة

المياه وعلى ضفاف الانهار ومصابها وذلك لمَّا كانت غابات لبنان باسقة تسرح فيها سباع الحيوان كالأُسود والفيلة وتمرح في انهارها التماسيح كما سيأتي (١

ومن النباتات المنسوبة الى لبنان شجرة اللُبان او الكندر وهذا الرأي تراهُ مكرَّرًا في اسفار الكتبة من اهل القرون الوسطى لكنهُ بلا سند وانَّما هو مبنيّ على وهم لغوي فزعموا ان لبنان معناهُ اللُبان لتوافق اسمها في اليونانيَّة (Λίβανος) كلَّا لم ينبت لبنان قطّ شُجَيرة اللبان التي هي من خواصّ اليمن وضواحيهِ . على ان هذا الجبل غني بغروس أُخرى واشجار نُقلت اليهِ فصائلها بعد تاريخ الميلاد على ما نظنّ . منها المشمش المعروف بالبرقوق(٢ والبرتقال وقصب السكَّر . ومما جاءَنا من اميركة التبغ والصبَّير . وقد دخل ايضاً لبنان نباتات حديثة العهد مختلفة الاجناس الَّا انَّ كثيرًا منها بعد برهة من الدهر تضعف وتفقد خواصّها الاصليَّة لاختلاف التربة عليها او بالحري لجهل الاهلين بتربيتها . وما يصحُّ قولهُ اجمالًا ان لبنان يصلح لنموّ اكثر النباتات والاشجار بحيث يُضحي كحدائق غنَّاء وبساتين فيحاء جامعة لشتات نبات المعمور . والسبب في ذلك اختلاف طبقات الجبل وتباين مواقعهِ . وهذه لعمري منحةٌ فريدة تكرَّم بها الخالق على لبنان فلو انتفع بها الاهلون لأَغنتهم عن شكواهم من عقم الجبل وضؤولة غلَّاتهِ

*

وقد ذكرنا آنفاً الصبَّير او التين الشوكيّ . وغاية ما ينتفع بهِ الناس انهم يتخذونهُ كسياج لبيوتهم او يأكلون ثمرهُ التَّفه . ولو دروا لامكنهم ان يستعملوهُ لفوائد أُخرى اعظم واجلّ . وما نقولهُ عن هذه الشجرة يصحّ في كثير غيرها . فمن ذلك انهُ يؤخذ على الفلاحة اللبنانيَّة قلَّة اهتمام اصحابها بتربية المواشي

ومن المعلوم انَّ الجبال انسب الى ذلك من سواها لاسيَّما انهُ يلحق برعية المواشي اعمال اخرى يرتزقون بها كبيع اللحم واصطناع الجبن والحليب والزبدة واللبن . وما السبب في قلَّة تهامل اهل لبنان لتربية المواشي الَّا قلَّة المراعي والاعشاب فانَّ بعض

١) راجع الكتاب السابق ذكره (ص٢٩٠)
٢) ويدلّ على ذلك اشتقاقهُ من اللاتينيَّة

الامكنة قاحلة جدا لا تجد فيها الطرش لماظاً طول السنة وفي غيرها تُمحل التربة في فصل القيظ وتيبس المراعي . فلايّ سبب لا يُزرع الصبّير الذي ينبت في اي تربة كانت وهو يثبت على اشتداد الحرّ

ولكي يمكن الانتفاع بهذا النبات لا بُدَّ من نزع شوكهِ عنهُ . والاولى ان يُغرس ضربٌ آخر منهُ لا شوك لهُ . واعلم انَّ ثمرهُ ولاسيما اوراقهُ (الواحهُ) الضخمة المكتنزة من احسن ما يُعلف بهِ الحيوان . وبعض الزارعين يرونهُ شبيهاً بالجزر بل افضل منهُ لقوت المواشي . والجزر كما لا يخفى يُتَّخذ في اوربَّة كعلوفة الانعام . والصبّير اذا غُرس وطلع يقضّب في سنتهِ الثالثة او في الرابعة وهو انسب. فاذا أتى على غرسهِ ستّ سنوات اتى بثمره وبقي نامياً الى السنة الاربعين فحينئذٍ تشذَّب ساقهُ فيعود وينمو جديداً. ومجموع ما يُستغل منهُ كل سنتين بين ٣٠,٠٠٠ الى ٣٥,٠٠٠ كيلوغرام من العلف في كل هكتار

وليس الرأي هنا ان تزرع الاراضي الطيّبة بالتين الشوكيّ بل الاراضي البور فقط التي لا تصلح لغير ذلك من المزدرعات وان يُغرس منهُ ثلاثة او اربعة صفوف حول البساتين والاملاك الواسعة بدلًا من اكوام الحجارة التي تقوم في وجه السابلة واذا احتاج الناس الى علف الماشية في بعض السنين التجأوا الى هذه المؤونة القريبة المنال (١

ويوجد غير ذلك من الاشجار التي تؤدي لاصحابها خدماً مشكورة منها شجرة الخرّوب الذي ينبت من نفسهِ في لبنان (٢ وكان هذا الشجر كثيراً في لبنان حتى انَّ اقليم الخرّوب دُعي بهِ (٣ امّا اليوم فلا يرى منهُ في لبنان الّا اشجار متفرّقة قليلة البسوق مع انهُ شجر كثير المنافع في تلك الجهات . وما يقال عن اقليم الخرّوب يصحّ في بقيَّة اقاليم لبنان فانَّ مديريَّة البترون كما يشهد على ذلك المعمّرون من الشيوخ كانت غنيَّة بهذا الشجر قبل نصف القرن واكثرهُ اليوم قد قُطع وتلف فلم يسَع الاهلين ان يستبدلوا تلك الاراضي البائرة باغراس غيرهِ . وهذا المثل يبيّن للقراء انَّ الفلاحة

١) راجع كتاب الاديب وديع مدوَّر في فلاحة سوريَّة (ص ٢٦٤)

٢) كتاب جوره (ص ٢٥١)

٣) وهو اسم قديم ورد ذكره في كتاب شمس الدين الدمشقي (ص ٢٠٠) وفي تاريخ بيروت لصالح بن يحيى (ص ٨٨)

اللبنانيَّة اذا ما قصَّرت في بعض الاحيان عن الترّقي والتحسين ربّما سهت ايضاً عن امثال الاقدمين وعدلت عن آثارهم المحمودة · وكان اجدادنا يعرفون فضل الخرنوب ويقدّرونهُ قدره كما يؤخذ من هذا النصّ الذي سطَّرهُ الشريف الادريسيّ في كتابهِ عن الناعمة التي هي اليوم قرية حقيرة قال (١ :

« والناعمة مدينة حسنة واكثر نبات ارضها الخرنوب الذي لا يُعرف في معمور الارض مثلهُ قدرًا ولا طيباً ومنها يُجهَّز بهِ الى الشام والى ديار مصر واليها يُنسب الخرنوب الشامي امًّا وان كان في الشام كثيرًا وطيباً فهو بالناعمة اكثر واطيب »

فهـذا الكلام شاهد لامع على ان الخرنوب كان متوفّرًا في الاقليم الذي دُعي باسمهِ وان زراعتهُ كانت معدودة كاحد مرافق لبنان الجنوبي · فيا رعاك الله ماذا يمنع من ان يعود الاهلون الى توفير اغراسهِ لاسيَّما انهُ يأتي عفوًا في كل الامكنة القاحلة ولا يحتاج الى عناية خاصَّة كما انَّ قلَّة الامطار او كثرتها لا تؤثر فيهِ واللبنانيُّون بغرس هذا الشجر لا يعيدون فقط لجبلهم بعض نضارتهِ بل يرتزقون ايضاً بحاصيلهِ كما كان الامر في عهد الادريسي

وممَّا يزيد الخرنوب نفعاً انَّ ثمره سكَّري وقد اثبت الذين يعتنون بنظارة المواشي انَّ العلف انفع للانعام اذا دخل فيهِ السكَّر · وقد عرف قدماء العبرانيين منفعتهُ فاطعموهُ الخنازير (راجع انجيل القديس لوقا ١٥ : ٦ وكتاب التلمود) وغيرها من الراعية · وبهِ ايضاً علف اليونان والرومان مواشيهم · واليوم يدخل فرنسة في كل سنة ١٩,٠٠٠ طن من الخرنوب لحاجتها وهذه الكميَّة تتسوَّقهُ فرنسة من بلاد شتَّى ولا تفيدها الجزائر منهُ سوى الف الى الفَي طنّ · ومحمول الخرنوب يختلف على حسب عمر الشجرة وحسنها ومداراتها فيُجنى من الشجرة سنويًا بين ٢٥٠ كيلوغراماً الى ١٠٠٠ ك من الثمر يساوي ثمنها من ١٠ فرنكات الى ٤٠ ف · وفي هذه الاعداد دليل ظاهر على فوائد غرس هذه الشجرة التى لا تطلب عناءً كبيرًا · وان لم يقصد الاهلون منها الرُّبح ببيع ثمرها الّا انهم يجدون فيها منافع غيرها كرعية المواشي · وثمرهـا كما سبق افضل عُلف الدوابّ يقوم مقام غيرهِ من النَّجوع الذي يندر في بعض المواطن · وقد لحظ الاجانب فضلهُ فصاروا

١) راجع وصف بلاد الشام للادريسي (ص ١٦ ed. Gildemeister)

يقبلون عليهِ اقبالًا يزيد مع الاعوام وهم يستعملونهُ في الصباغة وفي عمل السكَّر ويعلفون بهِ انعامهم . والبعض منهم يحمّصون حبوبهُ فيجعلونها بدلًا من القهوة (١ . وكذلك خشبهُ صلب مسمط يصبر على الزمان دهرًا طويلًا فيُرغب فيهِ لذلك . وغاية ما يؤخذ على الخرنوب انهُ كالزيتون لا يأتي بثمرهِ قبل سنتهِ العاشرة . لكن هذه الصعوبة ليس من شأنها ان تمنع من غرسهِ . ومن نظر الى الربح العاجل فقدَ المكساب الطائلة الآجلة (٢

ويوجد غير ذلك من النباتات التي تصلح للاراضي اليابسة نذكر منها شجر التين واللوز . ومن المعلوم ان ١٠٠ كيلو من التين اليابس ربَّما بيعت بمائة فرنك اللهمَّ اذا كان التين من الجنس الحسَن وجُعل في عُلَب مكبوساً كما يصنع اهل ازمير وهو من اكبر موارد الرزق لديهم (راجع المشرق ٧ : ١٠٦٠) فلو صرفنا النظر الى اثمارنا لتحسين اجناسها وتهيئتها لزادت الرغبة فيها وأجدت باعتها نفعاً عظيماً

امَّا اللوز فهو من الاشجار الوطنيَّة (٣ التي لا يُنكر فضلها . وزراعتها اسهل من سواها في لبنان لانَّ شجر اللوز كالزيتون واكثر منهُ ينمو في الاراضي القاحلة والتربة الكلسيَّة ومعظم لبنان تركيبهُ من هذا الصنف . ثمَّ انَّ الشجر لا يقتضي عناية خصوصيَّة وثمره يبلغ في الشجرة من ١٥ كيلوغراماً الى ١٠٠ ك ويُباع باسعار حسَنة فانَّ مئة كيلو منهُ يُدفع فيها من ٤٠ الى ١٢٠ فرنكًا على حسب اختلاف الاجناس فيكون معدَّل محصول الشجرة بين ستة فرنكات وستين فرنكاً . وهذا ما ساق الشركات الاسرائيليَّة في سواحل يافا الى ان تُكثر من أنصاب اللوز فيقوم منهُ غابات في بعض حدائقها . ومن خواص ثمر اللوز انَّ تهيئتهُ لا تستدعي شغلًا لنقله وهو يبقى زمناً طويلًا

وليس الامر كذلك في زراعة اشجار غيرها التي تسارَع بعض الاهلين الى غرسها كالليمون مثلًا (٤ فكلٌّ يعرف فضل ليمون صيداء على البرتقال اليافوي وكثرة مائيَّتهِ

١) راجع معجم التوراة للاب ڤيكورو على لفظة « خرنوب » (ج ٢ ص ٣٠٨)

٢) ومن اراد غير ذلك في هذا الصدد فعليهِ بكتاب الاديب ودبع مدوَّر (ص ٢١٢ و ٢٦٥ و ٤٢٢)

٣) طالع كتاب جورهْ (ص ٢٩٥)

٤) راجع في المشرق (٦ : ٢٨٩) مقالة الاديب توما افندي كيَّال في برتقال صيداء

وطيب طعمهِ الَّا انَّ برتقال يافا اروج سوقاً عند الانكليز . والسبب انَّ ثمر يافا اغلظ قشرةً فيبلغ انكلترَّة وهو على حسن حالتهِ بخلاف الليمون الصيداوي الذي يفسد في الطريق فيذهب رونقهُ . ولعلَّ لهذا الداء دواء وهو ان يخصّص الصيداويون قسماً من جنَّاتهم الغنَّاء للشكل اليافوي فيُصدرون هذا الصنف للبلاد الاجنبيَّة . امَّا البلاد المجاورة او المتَّصلة بخطوط نظاميَّة كمصر وسواحل الشام والاستانة العليَّـة وجنوبيّ روسيَّة فيزوّدونها باشكالهم الوطنيَّة الطيِّبة لاسيَّما ان تربة صيداء تصلح لكل ضروب البرتقال ولأَجناسهِ المختلفة . والمهمّ أن لا يجري الاهلون على مألوف عاداتهم المخلَّة لانَّ ملازمة الطريقة الواحدة تؤدي بهم الى خسائر جسيمة . ألا ترى مثلًا انَّ بعض المراكب قطعت سيرها الى صيداء وكانت قبل اربع سنوات في فصل الاثمار تمرُّ بهـا لنقل محصولاتها . فلمَّا رأت كساد سوق ليمونها كفَّت عن المجيء اليها

ومن الزراعات النافعة الخطيرة الشأن شجر المشمش واشهر اصنافهِ صنفان معتبران هما المشمش الكلابي تكون نواتهُ مرَّة والمشمش اللوزي حلو النواة . وهذا الصنف هو الافخر والالذّ والفرق بينهما من حيث الثمن بعيدٌ جدًّا الَّا انَّ رغبة الفلَّاحين في الصنف الاوَّل اعظم . وما هو ياتُرى سبب ذلك ؟ قلَّة انتشار المشمش اللوزي . ولو اراد الزرَّاع لامكنهم توفير الجنس الفاخر بعمليَّة صغيرة سهلة جدًّا

☆

ومجمل القول ان الفلاحة اللبنانيَّة لم تنهض حتى الآن من خمولها . وكثيرًا ما نحمل الشكاوى على الطبيعة او تركيب التربة او العناية الصمدانيَّة ولو كنَّا من ذوي الانصاف لشكونا سهونا وغفلتنا . نعم انهُ لا يمكن استغـلال الحبوب والبزور من اراضٍ محجرة او ماحلة . ولكن ما لنا لا نوجّه همَّتنا الى اصناف شتَّى . ترى اكثر اهل لبنان لا يهتمُّون الَّا بالتوت ويكتفون بغرسهِ فقط كانهم لا يجـدون في سواه من الاشجار ما يقوم بحاجاتهم او لا يُربحهم ارباحاً مثلهُ واوفر منهُ لاسيا ان بعضهـا لا يقتضي كالتوت فلاحة كبيرة ولا ابتناء سافات وسطوح تراب فاذا كان لدى الاهلين اصناف مختلفة زادت ايضاً مآتيهم وآمالهم . وعلى فرض انَّ صنفاً منها في بعض السنين لم يأتِ بالارباح المأمولة استعاضوا عنها بما يجدونهُ في غيرهِ . وعلى هذه الصورة يقسّم الفلَّاحون شغلهم على كل فصول السنة ولا يدعون قطعةً من ارزاقهم دون فائدة

هذا وان قولنا السابق مبني كلُّهُ على العلوم التاريخيَّة والجغرافيَّة والاقتصاديَّة وذلك لا يمنع صرف النظر الى خبرة ارباب الزراعة ومراجعة الكتب الخاصَّة التي صنَّفها العلماء في هذا الشأن مكرّرين الثناء خصوصاً على التأليف الذي وضعهُ الكاتب الضليع وديع افندي مدوّر وقد استفدنا منهُ لتسطير هذا النظر في الفلاحة السوريَّة. ونتمنَّى ان يعرَّب قريباً لفوائده

١٧

ما فُقد في لبنان من قديم الحيوان

قد لحظ العلماء الباحثون عن طبائع الحيوان في الشرق انَّ البلاد السوريَّة غنيَّة باصناف الحيوان بحيث ترى في القطر السوريّ مع قلَّة اتساعهِ من سباع الحيوان والمواشي والدوابّ ما تجدهُ متفرّقاً في اقطار عديدة ومناطق مختلفة من العلوّ. وهذا لعمري من المشاهد النادرة التي لا تكاد ترى لها شبيهاً اللهمَّ الَّا في المنعطف الجنوبي من جبل حملايا اعظم جبال الهند بل اعظم اطواد المعمور. وانَّا نجد تعليلًا لهذا الامر في موقع سوريَّة وتركيبها الجغرافيّ فانك اذا استثنيت غور نهر الشريعة الذي هو اسفل من سطح البحر المتوسط باربعمائة متر (وذلك امرٌ فريد ليس لمثلهِ ثانٍ في الارض) ثمَّ نظرت فقط الى هيئة لبنان تذكَّرت ما سبق لنا بيانهُ من ان هذا الجبل جامعٌ لخواصّ بلدان شتَّى متباينة كلّ تبايُن ومن ثمَّ يصلح لان يكون مأوى لمواليد الحيوان المختلفة

على انَّ غايتنا في هذه المقالة ان نقتصر على حيوان لبنان فقط وفي كثرة حيوانهِ ما يغنينا عن ذكر بقيَّة البلاد الشاميَّة. لاسيَّما اذا اعتبرنا لبنان في ايامهِ القديمة اذ كانت تزيّن قمَمَهُ غاباتهُ الكثيفة قبل ان تُقطع اشجارهُ وتُستبدل بالمزارع. فرأينا من ثمَّ ان نبسط الكلام في قديم حيوان لبنان فنستقري الاصناف الحيوانيَّة التي خلا منها الجبل مستندين في ذلك الى شواهد التاريخ الصادقة

☆

الاسد ملك السباع فلهُ السبق وبهِ نفتتح كلامنا. لم ينكر احد وجودهُ في بلاد

الشام وانَّما ادَّعى المسيو ستاپفر في كتابهِ المعنون «فلسطين في زمن المسيح» (ص٢٢٥) انهُ لم يبقَ لهُ من اثر في اوائل تاريخ الميلاد . وكذلك الدكتور هـ. پروتس (H. Prutz) قد زعم انَّ روايات كتبة الفرنج في القرون الوسطى عن الاسود من الاساطير التي لا يوثق بها (١ ويوافقهُ في هذا رأي الرحَّالة الشهير سيتسن (Seetzen II, 228)

فان اعتبرنا بلاد الشام اجمالًا عثرنا على نصوص تثبت وجود الاسد فيها حتى في اوائل القرن السابق (٢ بل لا يُستبعد وجوده حتى اليوم في بادية تدمر (٣

امَّا لبنان الذي يهمُّنا الآن اعتبارهُ فانَّ الشواهد على وجود الاسد فيهِ عديدة على اختلاف اطوار تاريخهِ . لا بل قد وجدت قبل طور التاريخ في آثار هياكل اسود كانت تأوي الى الكهوف (٤ . ومن شواهد الازمان التاريخيَّة ما ورد ذكرهُ في سفر نشيد الاناشيد حيث أُشير الى أَسد لبنان عمومًا وحرمونِ خصوصًا قال (٤ : ٨) : « انظري من رأس امانة من رأس سنير وحرمون من مرابض الاسود من جبال النمور » وحيثما جاء في الكتابات الهيروغليفيَّة قبل ذلك العهد ذكر « لَمْنانا » وهو جبل لبنان فانَّ كاتبها يمثلهُ كجبل ذي احراج متكاثفة لم تُمتهن بالقطع تتجوَّل فيها الضباع والدببة والاسود . وكان الفراعنة اذا خرجوا الى مصاد سباع البهائم والأسد قصدوا لبنان او لحفهُ في سهول البقاع او سهول حمص ووادي العاصي حيثما كانوا يتصيَّدون الفيَلة كما سترى

وكذلك ملوك بابل واشور فانهم بعد الفراعنة بقرون كانوا يحاولون قنص الاسود في لبنان . لنا على ذلك دليل محسوس في نَصَب اكتشفناهُ قبل بضع سنوات جنوبي غربي حمص على مسافة نحو عشر ساعات منها في سلسلة جبال متفرّعة من لبنان يفصل بينها وادي خالد واسمُ الجبل أَكوم . والنصب في وادٍ حَرِج حيث يسيل جدول ماء

---

١) راجع كتابهُ Kulturgeschichte der Kreuzzüge, p. 332

٢) راجع الكتاب The City and the Land, 83 – وكذلك ورد في كتاب صبح الاعشى للقلقشندي انَّ الاسد كان موجودًا في القطر الشامي في عهد المؤلف اي في اوائل القرن الخامس عشر (راجع النسخة المخطوطة التي في خزانة كتبنا الشرقية (ص ١١٣٢)

٣) راجع مجلة العالمين Revue des 2 Mondes, 11 Juillet 1897, p. 403

٤) راجع كتاب الاب زُموفن اليسوعي (Esquisse géolog. du Liban, p. 65)

يُدعى نهر السبع شكلهُ مربَّع تقريباً يبلغ قياس كل جانب من جوانبهِ مترين ونصف ترى فيهِ صورة اسدٍ يصارعهُ رجلٌ (انظر الصورة) والمصارع منتصبٌ حافي الرجلين تراهُ يقبض بيدٍ شديدة فكَّ الاسد الواسع المفغر بينما هذا ينصب قائمتيهِ ليهجم عليهِ . وصورة الرجل مهشَّمة ولا يُرى السلاح الذي كان في يدهِ والمرجَّح انهُ كان يمسكهُ باليمنى ومع خلوّ هذا الاثر من كتابة لا شكَّ في انهُ من مآثر الاشوريين (١



صورة نصب اكروم

وقد اكتُشف ليس بعيداً من هذا النصب اثرٌ آخر يبيّن معناهُ والواقف عليهِ

١) راجع كتابنا الذي عنوانهُ Notes épigraph. et topogr. sur l'Emésène, p. 49 etc. وللاب س. رنزفال بحث في هذا الاثر الجليل نشرهُ في المجلَّة الكتابيَّة (R. B., 1903, p. 600-604)

هو المسيو بونيون قنصل فرنسة سابقاً في حلب وجدهُ منذ نحو عشرين سنة في وادي بريسة على مسافة نحو ساعتين من الهرمل في شمالها اعني في وسط لبنان . وهذا الاثر عبارة عن صفيحتين نصبهما ملك بابل نبوكدنصَّر الثاني وعليهما كتابات مسماريَّة وضمن احدى هاتين الصفيحتين صورة كصورة نصب جبل اكوم تمثّل صراع رجل واسد. وليس الرجل سوى ملك اشور بعينهِ كما يلوح من مضمون الكتابة . وذلك انَّ نبوكدنصَّر سكن برهةً من الدهر في رَبْلة وهي قريبة من الهرمل ومن جبل اكروم فلا عجب ان تكون الآثار المكتشفة في تلك الجهات ممثّلةً لبعض وقائع الصيد التي تولَّاها الملك الاشوري على مقربة من مقام عسكرهِ . وهذا دليل باهر على وجود الاسد في لبنان في القرن السادس قبل المسيح

وان تتبَّعنا سياق الاجيال من بعد نبوكدنصَّر لا نجد شواهد واضحة على صدق مقالنا والسبب انَّ الكتبة اليونان والرومان لم يرووا عن لبنان الَّا النزر القليل فلا غروَ ان سكتوا عن مثل هذه الحقائق . ولا ينقصنا مع هذا بعض الدلائل المشيرة اليها فمن ذلك اسم «اللبوة» وهي قرية شمالي بعلبك على مسافة اربع ساعات منها واسمها القديم كما في العربيَّة ليبوا (Liboa) يشبه اسم قرية بيت لباوت (בית לבאות) في فلسطين(١ وناهيك بهذا الاسم شاهداً على وجود الاسد في تلك الجهات عند سفح لبنان . ومثل هذا اسم مدينة ليونتوبوليس (Léontopolis) اي مدينة الاسود واسم نهر الاسد (Λέοντος ποταμός) وكلاهما على سواحل لبنان وان لم يتبيَّن العلماء بضبط نقطة موقعهما . ولا بأس اذا قيل بانَّ في اسميهما دليلًا على وجود الاسد بجوارهما في لبنان

وزد على ذلك نصوصاً وردت في كتاب فتوح البلدان (ص ١٦٧) للبلاذري تنبئ بوجود الاسد قريباً من انطاكية . وكذلك جاء في كتاب الاعتبار انَّ اسامة ابن منقذ كان يصيد الاسود في نواحي شيزر . ومن غريب الشواهد ما اثبتهُ فرسان الهيكل في قانونهم انهُ لا يجوز لهم الخروج الى الصيد ما خلا الاسود . وكان لهؤلاء الرهبان كما هو معلوم مراكز عديدة في لبنان (٢

وما لا يترك شبهة في الامر خبرٌ رواهُ صالح بن يحيى في كتابهِ تاريخ بيروت عن

١) راجع معجم الكتاب المقدس في باب الاسد

٢) راجع G. Schnürrer: *Die ursprüngliche Templerregel*, p. 146, n° 46

بعض امراء الغرب في القرن الرابع عشر للميلاد في قرية عرمون الداخلة اليوم في مديريّة الغرب الاقصى من عمل الشوف. قال ما حرفهُ (ص ١١٣ من طبعتنا) :

« ومن جملة مكايدهم معهُ (١ انَّ احدهم رأى اسدًا قد تطرَّق الى بعض الاماكن القريبة فحضر عند زين الدين بن علي وقال لهُ انَّ دبًّا يجاورُ المكان الفلاني (يريد مكان الاسد . وكان تموجهُ بالدب عن الاسد غرورًا بزين الدين وطمعًا ان يُحدث لهُ الاسد حادثًا) فتوجَّه زين الدين ليلًا الى المكان الذي قيل لهُ عنهُ ولم يصحب معهُ احدًا ومعهُ قوسهُ فكمن هناك فلمَّا مرَّ بهِ الاسد علم انهُ مغرور بالقول الذي قيل لهُ ورمى الاسد بسهم واحد معتمدًا على بيت القلب فمات الاسد منهُ . وعاد زين الدين الى منزلهِ وعند الصبح ارسل الى من اخبره انهُ دبٌّ يقول لهُ : اذهب وائتِ بالدبّ الذي قلت عنهُ فانهُ مقتول بالمكان الذي ذكرتهُ . قال ذلك متهكّمًا »

وهذه بيّنة واضحة تدلُّ على وجود الاسود في جهات الغرب في القرن الرابع عشر وعلى الاقلّ بعض الافراد منها . وانما توارت الليوث بقطع الاحراج من الجبل وانتشار زرع التوت لصناعة الحرير

امَّا الاسد السوري فكان جنسهُ قائمًا بذاتهِ وكان اصغر قامةً من اسد افريقية واضعف منهُ قوّةً وكانت لبدتهُ صهباء يخالطها شعر ارمد (٢ وهو كالنوع الفارسي (leo persicus)

*

قال حضرة الاب زموفن (٣ : ليس لفينيقية انهار وسهول كافية لراعي كبار الحيوان ذوي الجلد الغليظ (pachydermes) ومن ثم لا يُنتظر وجود هياكل حيوانات خرطوميَّة قديمةً » . لكنَّ الكاتب عينهُ قد اردف هذه الاسطر بقوله انهُ « وجدت في الكهوف السابقة لطور التاريخ في لبنان بقايا عديدة من هياكل الكركدّن (rhinocéros) الذي يجانس نوعاً آخر قديمًا يُدعى تيكورينوس (tichorhinus) كان يرافق جبّار الحيوانات المعروف بالمموث »

وفي مقالاتنا السابقة عن مياه لبنان (راجع ص ١٢٣ و ١٢٥ و ١٢٨) اثبتنا

---

١) يريد بني ابي الجيش المعادين لزين الدين بن علي امير الغرب

٢) طالع Nowack : *Hebraeische Archeologie*, 78 ; Dictionnaire de la Bible, *art.* Lion

٣) راجع كتابهُ Esquisse géologique, 65

بعض الدلائل التي يمكن ان يُستدلّ بها على وفرة المياه الجارية سابقاً من عيون لبنان وانهارها . وكان ينتج عن هذه المياه الغزيرة تساعد على نموّ المزارع وخصب المراعي التي تحتاج اليها هذه الحيوانات لاسباب معاشها

ووجود الفيل في لبنان امرٌ ليس تحتهُ ريب تُقرّر صحّتهُ الدروسُ الشرقيَّة . روى المسيو مسپرو في تاريخ الشعوب الشرقيَّة القديمة (ك٢ ص ٢٦٥) انَّ الفرعون تحوتمس الثالث لمَّا عاد ظافرًا من ضفَّة الفرات نزل في نيّ (Nîi) التي نظنُّها افامية الموافقة لقلعة المضيق حيث تستنقع مياه العاصي في سهول واسعة كثيرة الادغال كثيفة الاعشاب . وكان هناكِ فِيَلة عديدة فاراد الفرعون ان يلتهي بصيدها فوكل الى جنودهِ بان يحدقوا بالسهل لئلّا تفلت الفيلة من الصيد فكان عدد القتلى ١٢٠ فيلًا نقل عاجهـا الى مصر (١ فكفى بهذا العدد دليلًا على وفرة ذوي الخرطوم في سوريَّة

ثم انَّ في الآثار الاشوريَّة ما يزيد على هذا دليلًا . قيل انَّ العاج كان من جملة الجزية التي ادَّاها لملوك نينوى اهـلُ بيت عديني وباطناي وهو يوصف كمحصول بلديّ . امَّا موقع هذين البلدين فانهُ كان في شمالي سوريَّة في ما يوافق حالًا ولاية حلب . وكذلك يفتخر الملكان الاشوريَّان تغلات فلاسر الاوَّل واشور بانيبـال بانهما قتلا في تلك الجهات عددًا عديدًا من الفيلة واسرا منها بعضها فنقلاها الى حاضرة ملكهما وكل ذلك دليل لامع على وجود الفيلة مهملةً وحشيةً في بلاد سوريَّة (٢

امـا داخل لبنان فليس لدينا شهادة جليَّة على كيان الفيلة فيهِ اللهمَّ الَّا بعض الاسماء كسنّ الفيل لقرية بجوار بيروت وخرطوم لضيعـة في بلاد الشقيف لكنَّ اشتقاق هذين الاسمين يمكن شرحهُ على غير طريقة . وعلى كل حال لمَّا كان وادي « نيّ » اي افامية السابق ذكرهُ ملاصقاً للبنان يمكن القول بانَّ فيلتهُ كانت تصعد الى رأس العاصي في البقاع . فانهُ لمعلوم انَّ الفيل الوحشيّ يقطع المسافات البعيدة انتجاعاً للمراعي . وكانت حالة بلاد البقاع في ذلك العصر كحالة بلاد افامية . وكانت السهول المتوسّطة بين لبنان والجبل الشرقي يتغلب عليها البحيرات والمستنقعات وتكثر فيهـا

١) راجع ايضاً تاريخ مسپرو في الصفحة ١٨ ومعجم الكتاب المقدَّس في مادَّة « فيل »
٢) راجع كتاب حضرة الاب ديلاتر اليسوعي L'Asie occidentale dans les inscriptions assyriennes, 25, 74

المروج الخصبة . ولا شكّ ان بعض هذه الحيوانات كانت تتردّد الى جهات بحيرة حمص وعيون العاصي المنيعة قريباً من هرمل فكانت تتوغل في الغابات الكثيفة النامية في منعطف لبنان الشرقي لا سيّما عندما اخذ عدد السكّان ينمو في وادي العاصي فاضطرّت الفيلة ان تهرب وتطلب لها مآوي هادية امينة

اما منعطف لبنان الغربي فلتوفّر سكّانهِ كانت احوالهُ قليلة المناسبة لمعاش هذه الحيوانات المحبّة للعزلة الّا في القرون الغابرة قبل منشأ المدن الفينيقيّة الكبرى كطرابلس وبيروت وصيداء اذ كانت السواحل مقاماً لبعض اكواخ الصيادين. فلا بأس ان يقال انّ الفيلة كانت تطوف وقتئذٍ غابات لبنان الساحليّة قريباً من الاسود والدببة وانّ بعضاً منها قدمت من وادي العاصي فتبعت وادي النهر الكبير وجاءت ترعى عند شواطئ البحر وتمرح في نهر ادونيس وفي نهر بيروت والدامور اذ كانت مياه هذه الانهار اوفر منها في عهدنا تتدفّق في السهول القريبة من مصبّها وتخصبها بمستنقعاتها. بيد انّ نموّ السكّان لم يلبث ان يلجئها الى الهرب من وجه الانسان طلباً للامكنة المنفردة في شمالي سوريّة او بلادها المتوسّطة

ثم زادت عليها المخاطر في تلك الاقفار ايضاً كما رأيت في ذكر صيد تحوتمس الثالث ومنهُ يستنتج ان الفيلة توارت بزمن قليل وباد جنسها في بلاد الشام . واذا تصفّحنا تاريخ ملوك اسرائيل في عهد سليمان لم نعد نجد ذكرًا للفيلة الوحشيّة . ولعلّها كانت تناءت الى جهات الشمال حتى بلغت وادي الفرات وسواعدهُ وهناك كان يتصيّدها ملوك اشور اذا ارادوا صيد الفيلة كما أُولعوا بصيد اسود لبنان وفقاً للشواهد الواردة في انصاب وادي نهر السبع ووادي بريسا

وممّا وُجد ايضاً في لبنان من الوحوش المفقودة البقر الوحشي (aurochs) تصيّدهُ الملك الاشوري تغلات فلاسّر الاوّل في القرن السابق لعهد داود (١ كما ورد في الكتابات المسماريّة . ووجوده في لبنان مقرَّر ثابت . لانهُ لا احد ينكر وجوده في بقيّة جهات سوريّة وعيشتهُ بين احراج لبنان انسب لطباعهِ

انّ وجود حيوانات كبيرة كالاسد والفيل في لبنان كان من شأنهِ ان يجعل لغاباتهِ

(١ راجع Dict. de la Bible I, 1262 — Delattre, op. cit., 29

هيئةً غير مألوفة ولا مأنوسة ومن ثمَّ نفهم لماذا كان يشمل الرعب عند قطعها قدماء المصريين الذين كان يسوقهم الدهر او طلب الارتزاق الى المرور بها . فكان الرجل من وادي النيل أليف الاماكن المنبسطة والمناظر المنكشفة في بلادهِ اذا قصد الاقطار الشامية يوصي بمالهِ لاهليهِ لخوفهِ من السباع (١ فلم تكن سوريَّة في عينهِ سوى غابة سوداء اجتمعت بها افواجاً وزرافات اصناف الحيوان الضارية كالاسد والنمر والفيل واشباهها

*

ولم يكن مشهد الحيوان في مياه الانهر والبحيرات باضعف حركة منها في الصحراء والجبال فكان يلعب فيها فرس الماء ويعبث التمساح وقد وُصف ذلك في سفر ايوب وصفاً بديعاً فائضاً في الشعر بالغاً في التأثير فمنها بهموت ولوياثان في نصّ المؤلف الالهي (٢

وقد ارتأى قومٌ من مفسّري الكتاب المقدَّس ان واضع سفر ايوب اخذ معلوماتهِ عن مصادر مصريَّة في وصف هذه الحيوانات المشتركة العيشة بين البرّ والماء . واماَّ نحن فعندنا وجه اسهل لحلّ هذه المسألة فلم يكن من حاجة لأَيُّوب ان يبتعد عن سوريَّة لوصفها اذ كانت هذه الحيوانات موجودة فيها منذ ذلك الحين البعيد العهد

واعلم انَّ وادي الاردن من غريب ما شوهد على سطح الكرة بوضعهِ الطبيعي وتركيبهِ الجغرافي بحيث يتمثَّل للعين انخفاضٌ يبلغ عمقهُ عند منتهـاه (عند بحر لوط) زهاء ٤٠٠ متر دون البحر المتوسط ففي هذا الغور الذي لا مثيل لهُ في الدنيا يسود حرٌّ شديد ابتداؤهُ في اوائل اَيار فيتراوح وقتئذٍ ميزان الحرارة في النهار بين ٤٠ و٥٠ درجة من ميزان سنتغراد وينشأُ في تربة ذلك الوادي الحـارَّة نبات اشبه بنبات خطّ الاستواء في افريقية لا يشبه نبات سوريَّة وفلسطين بشيء

فعلى شواطئ بحيرة الحولة تنمو طاقات البرديّ الخضراء حتى يومنا والبرديُّ نبات كان قديماً زينة مصر ومجدها ولا يرى منهُ الان في كل وادي النيل اللهمَّ الَّا في بلاد السودان الجنوبية . وايُّ عجبٍ اذا وجدنا بارضٍ تشبه ارض افريقية بتربتها الحارَّة

١) راجع Maspéro : *Histoire ancienne*, II. 17

٢) سفر ايوب (ف ٤٠ و ٤٢)

ونباتها الخاصّ ما نجدهُ من الحيوان في قارَّة افريقية . وهذا ما كان بلا ريب في عهد ايوب فنتخيل عهدئذٍ بحيرة الحولة تحرّك مياهها التماسيح والافراس النهريَّة وهي تمرح بين غياض البردي فايوب حسب التقاليد قطن حوران وسكن ناحية جولان فلا غروَ اذا ما شاهد من اعالي شرفات هـذا النجد المطلّ على الحولة والاردن حيوانات البرّ والبحر العظيمة ووقف على احوالها دون ان ينحدر الى مصر . على ان فرس الماء في الوقت الحاضر قد خلت منهُ نواحي الشام ولم يزل فيها التمساح وهاك البرهان :

ذكر بطليموس وبلين واسطرابون مدينة بجانب الكرمل اسمها مدينة التمساح (Crocodilopolis) (١ وقد اتى باين (٢ فوق ذلك على ذكر نهر بهذا الاسم في تلك الحدود وهذا النهر العميق الماء الخامد الحركة يُظنُّ بهِ عموماً انـهُ نهر الزرقاء المجاور قيصارية شماليّ هذه المدينة وهناك يتكوَّن منهُ مستنقع غريب المنظر ويدعى حتى اليوم باسم يعبّر عن حقيقة حالهِ اي مستنقع التمساح وعلى حافتـهِ تنمو بكثرة غيـاض البردي وغيره من الشجيرات فاسم المدينة واسم النهر يسوّغان لنا ان نحكم بوجود تلك الزّحافات فيهما في غابر الزمن على الاقلّ فضلًا عمّا لدينا من الشهادات الجمّة قديمةً وحديثةً تبيّن نفس الشيء باستفاضةٍ لا تبقي في العقل شكًّا . . .

ففي الجيل الحادي عشر ذكر الجوَّالة الفارسي نصري خسرو جنوبيَّ الكرمـل وادي التماسيح (٣ . وشهد على مثل ذلك في الجيلين الثالث عشر والرابع عشر مارين سانوتو وجاك دي فيتري . فالثاني يقول : التمساح موجود في نهر قيصاريَّة وهو يفترس الانسان والحيوان وطولهُ في الغالب قدر عشرين ذراعاً (٤ وأمّا نزل ريكاردوس قلب الاسد ملك انكلترة عند نهر الزرقاء افترس التمساح اثنين من جنودهِ (٥ . ويقول برخارد الصهيوني المنتمي الى رهبنة مار عبد الاحد والذي تجوَّل في سوريَّة في اواخر الجيل الثالث عشر : ان التماسيح كثيرة في بحيرة قيصاريَّة وانهُ لم يفلت هو من شرّها الّا باعجوبة

١) راجع Strabon : *Geogr.* XVI

٢) Plin. : *Hist. natur.* V, XVII

٣) راجع الترجمة الفرنسية لشيفر (Schefer)

٤) راجع Gesta Dei per Francos (ص ١١٠٢)

٥) راجع Hstoire de la guerre sainte (éd. Paris) ص ٥٢٦

وقد قال قوله من بعده كثير غيره من زوّار الارض المقدّسة غير انّنا لا نورد اسماءهم لانهم رُواة يروون ما سمعوا وليسوا شهود عين يحكون ما نظروا اللهمّ الّا پوكوك الانكليزي سنة ١٧٧٣

*

هذه شواهد الماضي وامّا في الحاضر فلدينا اصرح الادلّة واصدق الشهود عن وجود التمساح في الزرقاء بل وفي غيره من مياه فلسطين

فالاحاديث المقولة والاسانيد المرويّة عن نهر الزرقاء يبلغ عددها الى ما لا يكاد ينتهي واوّلهم المرسل الاميركاني تومسون الذي كتب سنة ١٨٥٧ (١ ثمّ العلّامة پياروتي (Pierotti) مهندس ولاية القدس وقد عثر في سيره نحو منبع الزرقاء على بقايا سلخ تمساح اخصُّها بقايا الرأس (٢ وفي سنة ١٨٧٧ قبض الالمانيون في حيفا بالموضع نفسهِ على انثى التمساح (٣ وقد تعدَّد مثل هذه الاكتشافات في السنين الخمس والعشرين الاخيرة. وفي سنة ١٨٩٣ وجدوا فيهِ هيكل تمساح وستّ بيضات فحُشي الهيكل بالتبن وأُرسل الى القدس

وامّا البيض ففُقست واحدة منها وأُرسلت واحدة الى العلّامة صموئيل ميريل قنصل اميركة في اورشليم وبُعث بالأُخر الى باريس (٤ فهذه الاكتشافات المتعدّدة تدلُّ على انّ التمساح يعيش ويتناسل في بطاح نهر الزرقاء وغدرانهِ الّا انهُ ليس بكثير التناسل لانّ سطح الارض الذي تغمرهُ الاغدرة لا يبلغ عشرة هكتارات

وهذه الزحّافات موجودة في غير اماكن من فلسطين ففي السهل الكثير الرمل المدقع ذي الكثبان المتعدّدة الممتدّ بين حيفا وعكّا مصبّ نهر القطّع المعروف عند الاقدمين باسم قيسون فهذا النهر تغزر مياههُ عند آخر حدوده على مسافة ثلاثة الاف

---

١) راجع The Land and the Book (ص٤٩٧) . ثمّ ZDPV, XIII, 340

٢) راجع مقالة التماسيح في فلسطين للاب دي سنت انيان (de S^t Aignan) ص١٠

٣) اطلب دليل بيدكر الطبعة الرابعة الالمانيّة (ص ٢٦٥) ولورته (Syrie d'aujour- d'hui ص ١٧٤)

٤) راجع المجلة الفلسطينية الانكليزيّة (P E F) سنة **١٨٩٣** (ص ١٨٢ و ٢٦٠)

متر عن البحر لانهُ لا يصادف هناك انحداراً كافياً وتنتصب في وجههِ الرمال المتكونة عند مصبّهِ فتحول الحواجز بينهُ وبين البحر فيستنقع السهل وتتسع مستنقعاته وينبت فيها النباتات وتنمو فتتشبَّك سبلهــا ففي سنة ١٨٦٩ ارتاد الجوَّالة الانكليزي ماك كريكور على زورق غدرانَ نهر المقطَّع ومجراه الاوطأ فطلع عليهِ بغتةً من الماء تمساح وكاد يقلب الزورق فاذهلهُ ما اتّفق لهُ ممَّا لم يكن في الحسبان فرفأ بقاربهِ الى الشاطئ فابصر عليهِ آثار تماسيح متعدّدة . وقد التقى مرّة ثانية في تلك النواحي بهذا الحيوان الهائل الذي لم يعد من سبيل للارتيــاب بوجودهِ في نهر المقطّع (١ . وحتى اليوم لم يكتشفوا على شيء منهُ في بحــيرة الحولة ولا في بحــيرة طبريَّة وفي حكمنا انهُ كان فيهما قديمًا وترجّح وجوده في نهر الشريعة اليوم

وممَّا يحملنا على هذا الترجيح مــا جاءَ في رِحَل الزوَّار الاقدمين من القصص والاخبــار عن نكبات بعض السوَّاح ممَّن ذهب بهم التمساح عند استحمامهم في الاردن

وبعض حوادث اقرب عهدًا تزيدنا في الامر صدقاً والى اليوم ليس من حادث او اكتشاف في الاردن كما في الزرقاء والمقطّع ممَّا ينزّه الحقيقة عن كل ريب وذلك متــأتٍ عن عسر سبر الاردنّ في مجراه الاسفل (٢ ولعلّ التمساح موجود في النهر الاخضر جنوبيّ قيصاريّة كما وفي غيره من مياه تلك الناحية . وفي رأي العلّامة لورتِه الذي فحص تمساحاً محشوًّا (مصبّرًا) انّ تمساح فلسطــين يختلف نوعاً عن تمساح النيل (٣ ومن المقرَّر الثابت ان تماسيح فلسطين اصغر جدًّا ولا يزيد طولهــا على متر ونصف ولا بأس منها الّا على المواشي فتفتك بها احياناً

☆

وانَّما الصعب في هذا بيان طريق وصول هذه الزحّافات الى الاقطــار الشاميَّة . أهي اصليَّة ووطنيَّة ام نُقلت من خارج . فالرأي الاوّل قريب من الصحّة على ما نرى

---

١) راجع كتاب « ماك كريكور » المعنون (The Rob Roy on the Jordan, 398)
٢) راجع مقالة الاب دي سنت انيان السابق ذكرها
٣) راجع كتاب الدكتور لورته (Syrie d'aujourd'hui)

وهو رأي العلّامة لورتِه الذي ينكر كون اصلها من مصر . فالمواضع التي ثبت بها وجود هذا الحيوان في فلسطين تشبه مصر بنوع نباتها فان كانت الواردات واحوال الجوّ والهواء واحدة في القطرين فلمَ لا يتشابهان ايضاً بنوع الحيوان . فلا شيء اذن يحول دون وجود التمساح بل كلُّ شيءٍ يدعو اليهِ . على انَّ بعض العلماء يستصوبون القول بنقل هذا الحيوان الى فلسطين ورأيهم ان المصريين نقلوهُ اليها . ونحن نعلم ان فلسطين كانت جيلًا طويلًا في حكم الفراعنة فلا يبعد ان يكون من اقام في هذه البلاد من المصريين قد احبُّوا جوار هذا الحيوان الذي هو من معبوداتهم فاستصحبوهُ

وممَّا نعلمهُ ايضاً ان رعمسيس الثالث بعث بالتماسيح وافراس الماء هديَّةً الى تغلات فلاسّر ملك اشور (١ وربما وصل التمساح الى فلسطين لحادثٍ نظير هذا ومهما يكن من امر هذه التأويلات والايضاحات فقد تقرَّر لدينا وجود هذه الزحَّافات في كثير من مياه فلسطين الشماليَّة وكل شيءٍ يحملنا على التسليم بانها كانت اوفر عدداً في الازمنة العريقة في القدم وسواء كانت اصلية ام منقولة فقد توالدت وانتشرت على وجه القطر

ولا يصعب علينا القول انهُ في عهد ما كان الفيل يجوب احراج لبنان كان التمساح يعبث في مياه الجبل ومستنقعاتهِ كالليطاني القريب من بحيرة الحولة والاردن وقد كان بلا ريب وافر العدد فيهما قديماً على عهد ايوب البار . انما نموّ العمران واتساع الزراعة وامتداد المساكن اصبحت بعد ذلك ضربة قاضية على وجودها في تلك النواحي النديَّة . ولم يكن للفينيقيين حاجة في عبادتها كالمصريين ولا بدَّ انهم بذلوا المجهود في استئصال شأفة تلك الجيرة المؤذية او في حملها على المهاجرة الى جهات اعرق في الجنوب حيث نجد منها بقايا في ايَّامنا



١) راجع مسپيرو : تاريخ الشرق (الطبعة المختصرة . ص٢٥١)

١٨

المعادن في لبنان

نقسم كلامنا في المعادن اللبنانيَّة الى قسمين . فاننا نبحث اولًا عن احوالها الحاضرة ثم نستقري الشواهد التاريخيَّة

١

حالة المعادن حاضرًا

كلامنا في هذا القسم عن ثلاثة امور : اصناف الوَقود ثمَّ المناجم المعدنيَّة ثمَّ الحجارة وانواعها

اولًا الوقود

١ فلنباشرنَّ بالفحم الحجريّ الذي نال في علم المعادن واعمال الصناعة مقامًا راجحًا لا يحتاج الى بيان . انَّ الذين بحثوا في بلادنا عن طبقات الارض وتركيبها مجمعون بانَّ سوريَّة خالية من الفحم الحجريّ (houille) ولا يخرج لبنان عن هذا الحكم العمومي . على انَّ في هذا الجبل طبقات من القِضَّة (grès) تتضمَّن مستودعات عديدة من الفحم الخشبي المتحجّر (lignite) غير كامل التفحّم لكنها بلغت في نموّها ما هو كافٍ لاستثمارها

وهذه الاخشاب المتحجّرة على ضربَين . فمنها ما تظهر فيهِ تقاطيع الخشب وهو الخشب الحُمَري . ومنها ما استفحم الى ان فقد تمامًا أثر النسيج النباتي . وهذا الصنف الثاني يكون فحمهُ اسود كالقِير لامعًا وقريبًا من الفحم الحجري . واغلب المناجم التي تُرى فيها هذه الاخشاب المتحجرة يمتزج فيها الپيريت (pyrites) الابيض (وهو مزيج الكبريت بالحديد) مع الصلصال ويصعب فصلها عنهُ وهما يجعلان هذا الوقود غير صالح لاعمال الصناعة . وزد على ذلك انَّ فحمها اذا تكشَّف للهواء لا يلبث ان يتفتَّت وتعلوهُ قشرةٌ من عنصر الشبّ . ومستودعات هذا

الخشب المتحجّر في الجبل هي في الغالب قليلة الاتساع لا يتجاوز عمقها مترين . امّا مواقعها في لبنان فدونك ما يستحقّ منها الذكر مباشرةً بنواحي الجبل الشماليَّة

شاع انَّ في قائمقاميَّة البترون قريباً من بشرّاي منجماً من المستحجرات الخشبيَّة . وليس لدينا شيء من الاعلامات المدقَّقة في هذا الخصوص فنكتفي بالاشارة . امّا جهات لبنان الجنوبيَّة فعندنا من الايضاحات ما هو اوفى بالمرام فانَّ في المقاطعة الكسروانيَّة في قرنطبة وميروبا والمنيطرة مناجم متعدّدة من الحجر الخشبي كان يهتمّ باستخراجها اصحاب المعامل الحريريَّة ولعلّهم يستثمرونها حتَّى اليوم . امّا منجم ميروبا فاولا بعده عن المراكز الكبرى لصلح للحاجات البيتيَّة وناب مناب ضروب الوقود

واشهر طبقات الفحم الخشبي المتحجّر في قرنايل من مقاطعة المتن وقد صار الاعتناء باستخراجه من سنة ١٨٣٥ الى ١٨٣٨ لكنَّ قيمة هذا الفحم كانت ارفع من فحم انكلترَّة بعد نقله الى بيروت . وكانت علّة هذه الاسعار الفاحشة قلّة وجود اسباب المواصلات فيُحتاج الى الدوابّ لنقل ما يُستخرَج من المناجم . ولولا هذه الصعوبة لاضحى هذا العمل رابحًا لانَّ اربعين معدّناً فقط كانوا يستخرجون من هذا المنجم مئة قنطار في اليوم . والفحم جيّد رغماً عن انقطاع طبقاته وتجعُّداتها . وهذا المنجم قليل السعة وسمكهُ لا يتجاوز مترًا

وفي المتن الاعلى مناجم فحميَّة أُخرى متعدّدة يستفيد من بعضها ارباب المعامل الحريريَّة المجاورة . منها منجم مار يوحنَّا الّا ان اختلاط فحمه بالكبريت والحديد يصدُّ عن استعماله . وفي فالوغا منجم آخر يوجد فيه جذور شجر تحوَّلت الى هذه العناصر الغريبة فاذا انكشفت للهواء صارت فتاتاً بعد قليل . وفي بزبدين منجم ثالث ليس بذي شأن

وهذه المناجم الفحمية يصعب استثمارها لقلّة اسباب المواصلة ولبعدها عن المراكز الكبيرة فضلًا عن كونها قليلة العمق ضيّقة النطاق تكثر فيها الموادّ الغريبة التي لا يمكن إفرازها الّا بعد النفقات البالغة . فهذه العوائق كلُّها تقوم في وجه العمل وتزيد في صعوبته وتقلّل ارباحهُ المأمولة

وخلاصة القول انَّ طبقات الفحم المتحجّر السابق وصفها لا يمكن تعدينها وانّما

يجوز استخدامها للمعامل الصناعيَّة الصغيرة والحاجات البيتيَّة بشرط ان يُختار منهـا أجودها وتُنقَّى تنقية حسنة من موادّها الغريبة

☆

وان اعتبرنا قائمقاميَّة جزّين وجدنا مناجمهـا الفحميَّة في حالة اصلح وان عدمت ايضاً الوسائل الجامعة بينها وبين المراكز الكبرى حيث يمكن بيعها . نعم انَّ صيداء اقرب الى جزّين من قرنايل الى بيروت ببعض كيلومترات لكنَّ صيداء مركز قليل الشأن فتكون قطعيَّتها لهذا الفحم زهيدة

وهاك ما يُعرَف من طبقات الفحم الخشبيّ المتحجّر في قائمقاميَّة جزين :

اذا خرجت من صيداء في وجهة الجبل رأيت بازائك على حدود الافق من جهة الشرق جبلين تنتصب قمتهما على شبه المخروط مع استـدارة قليلة كان ارباب البحر لغرابة شكلهما يستدلُّون بهما الى موقع صيداء قبل شيوع السفن البخارية . والقمَّتان قريبتان لا يفصل بينهما الَّا مهبط قليل العمق فدُعيتا لهذا السبب بتَوْمـات نيحا او بالتَّوأمـات . وكان الاولى بان تُدعيا بتومات جزّين لوقوع جزين عند سفحهما . فان غلب اسم نيحا فذلك على رأينا دليل على خطر قرية نيحا قديماً . ومن زار هـذه القرية تحقَّق صحَّة هذا القول لاسيَّما اذا رأى على مقربةٍ منها تلك القلعة المنقورة في الصخر الشهيرة بشقيف طيرون او بقلعة نيحا وقد سبق لنا وصفها (١

ويتشعَّب من تومات نيحا غرباً من جهة البحر شِعَبٌ تُرى فوقهـا جنوبيَّ جزّين مناجم من مستحجرات الفحم الخشبي نريد هنا وصفها . ولا يخرج من دائرة الجبل الغربيّ سوى منجم واحد يُرى على وجه الارض طولهُ ٥٠٠ متر وارتفاعه ٨٠٠ م بين قريتي مشغرة ونيحا اعني في منحدر تومات نيحا الشرقيّ

فان اعتبرنا اذن المنعطف البحري وجدنا موقع اوَّل منجم فحمي على مسافة ١٣ كيلومترًا فقط من صيداء . وفحمهُ شديد الحلكة لامع ذو قطع جامدة يُكسر كسرًا ولا يتفتَّت وهو على وجه الارض يعاينهُ الناظر في وادٍ صغير قرب المراح في علوّ يختلف بين ٧٥٠ الى ٨٠٠ م وهو يتّصل بعين التنغرا فوق الوادي الى حدّ ٩٠٠ متر . وان سرت

١) راجع الصفحة (١١٦)

من ثمَّ الى جهة الجنوب امكنك ان تتبَّع آثارهُ متواصلةً بين قريتي خرخيًّا وزحلتا على طول ١٢٠٠ متر وهناك لا يعود يُرى على وجه الارض غير انَّ الصلصال المختلط بموادّ فحميَّة وشِسْتيَّة (schiste) يدلُّ على وجودهِ في مسافة نحو كيلومتر . وفي بعض الانحاء قد استخرج منهُ الاهاون بعض القناطير ولم يحفروا في عمقٍ يتجاوز سبعة امتار . امَّا سمك هذه المناجم فيتراوح بين ٥٠ سنتيمترًا و ١,٦٠ . وهذا ممَّا يدلُّ على قلَّتها

وعلى مسافة نحو ٣٠٠ متر شمالًا من عين التغرا حجارة من الشِسْت حُمَرَّية تمتدُّ بين طبقتين من الحجارة الكلسيَّة وتحتهما طبقة من الفحم الخشبي المتحجّر . سمكها يختلف بين ٧٠ سنتمترًا الى ثلاثة امتار ونصف وامتدادها يبلغ زهاء الف متر

وكذلك قرب الطريق المؤدية من حيطورة الى جزين طبقات أُخرى من الشِسْت الممزوج بالحُمَر يراها الرائي على طول امتدادهـا تقريباً ثمَّ تتوارى تحت قرية زحلتا وعمقها في بعض المواقع يبلغ من اربعة الى خمسة امتار . ومعدَّل ثخانتها اربعة امتار واستخراجها لا يستدعي شغلًا كبيرًا . وهذا المنجم لا يغطّيهِ سوى غشاء خفيف من التراب ويمكن تعدينهُ من الخارج دون فتح اسراب . وصلاحيتهُ في الغالب استخراج غاز التنوير منهُ

من المقرَّر ان اهمَّ مستودعات الفحم الخشبي المتحجّر في قائمقامية جزين واقع جنوبي غربي حيطورة على مسافة عشرين دقيقة منها وصاحب امتياز المنجم سعادة المركيز موسى دي فريج ومسافة ارض الامتياز زهاء مائتي هكتار

فمن التفاصيل التي نوردها وابحاثنا السابقة تعرف مـا يمكن استثماره من مستحجرات لبنان الخشبية . فالمنجم القريب من حيطورة لا تظهر آثارهُ على وجه الارض الَّا في بعض الانحاء ومستودع الفحم محصور فيهِ عادةً بين طبقتين من صلصالٍ صلب خشن قليل السمك ويختلف سمكهُ بين ٦٠ سنتيمترًا وثلاثة امتار فيلزم قبل تعدينه إزالة ربع التربة او ثلثها لاحتوائها على مواد غريبة غير صالحة كتقاطيع الشست الاسود الصلصالي الممزوج بالحديد والمحتوي على قليل من الفحم

وبعد هـذا العمل الاستعدادي يتوصل الى الفحم الخشبي الحقيقي وهذا الفحم يختلف نوع تركيبه فهو سريع العطب في بعض الانحـاء فيتفتت بسهولة وفي غيرها حالك لامع كثيف وكلا النوعين من الوقود الجيد

امَّا طبقة الناحية الغربية فانها تتخذ خواص البيريت لقربها من مستودعات هذا المعدن وفحمها مخطط بتقاطيع البيريت الذي يبلغ سمكهُ بعض ملّيمترات ولهذا السبب لا بد من تنقيتهِ تنقيةً حسنة واطّراح كمية وافرة منهُ مع انهُ من نوع الوقود الجيّد — فكل ما اوردناهُ يستلزم زيادة النفقة في استخراجهِ

وممَّا يلزم تلافيه في هذه الناحيـــة تطاير روح الزاج المتكاثر والمسبب عن ضغط طبقات الردم المعرَّضة لحرارة الشمس الَّا انهُ يمكن ملافاة الامر ذلك بتشييد الاتاتين في معامل التعدين

على انَّ مناجم حيطورة بل اكثر مستودعات الفحم الخشبي المتحجر في لبنان تتضمَّن شيئاً من العنـبر المعدني الذي يتولَّد من صمغ الصنوبر والسرو واشباهها . فهذا العنـبر اصفر كالشمس لامع ومكسرهُ زجاجي شفَّاف واذا تكشفت كِسَرهُ للهواء تفتَّتت

امَّا طرق استثمارهِ فالطريقة المستعملة الى اليوم في منجم حيطورة هي الحفيرة ولا بُدَّ من فتح اسراب معها فهذه الطريقة تمكّن مع بعض ضرباتٍ في اللغم من البلوغ الى عمق ٥ امتار وفي استعمالها ربح لان نفقة الاستخراج لا تتجاوز فرنكاً و ٥٠ س في الطنّ . ولولا ارتفاع اجرة النقل لكانت زيادة التعميق في الحفر تزيد في الربح

غير انَّ المنجم في الجملة يسهّل طرق الاستثمار بواسطة الاسراب او الدهاليز فالمعدن بالاجمال قليل الانحناء فتنصبُّ منهُ المياه اذ ذاك في الدهاليز وهذه تصبُّها في المسيل المجاور ولا يحتاج لتجديد الهواء وجلبهِ الى القوَّات المحرّكة وبمـا ان ليس فيهِ من الصخور الصمَّاء الصلدة فـلا حاجة الى استعمال قوَّة خارقة كالديناميت . فبعض دفعاتٍ من البارود في اللغم تكفي لرفع الطبقة الخزفية الموجود فيها الفحم المطلوب ولا يلزم لهذا الفحم الَّا استعمال الآلات المعتادة كالمحفر والمعول فلا يقتضي اذن لهذا العمل نقَّابون مخصوصون وكل هذا ممَّا يخفف النفقة في استخراجهِ

*

فبقي علينا ان نبحث عن المحصول . فبحساب بسيط يمكنَّا ان نقدّر بالتقريب مقدار المنجم جملةً اعني مقدار المحصول الصالح للوقود الممكن الانتفاع منـهُ مباشرة وهذا امرٌ ذو اهميَّة كبرى وبدونهِ لا يكون لتفاصيلنا السابقة الَّا فائدة نظريَّة . فتحت

موقع المنجم مباشرةً ببعض امتار عن سطح الارض ترى طبقة بسمك ثلاثة امتار ونحن نكتفي بتعديل مترين ونزيد على ذلك بان نطرح متراً آخر وهذا كثير — بسبب الكثيب العقيم والفحم الممزوج بالمواد الغريبة التي تقلّل صلاحيتهُ للاستعمال

ومن بعد تنقية المستخرجات الحجرية وطرح العناصر الغريبة اذا قدَّرنا مساحة المنجم الصالح التعدين ١٠٠ متر فقط يمكن استخراج حجم من الفحم قدرهُ ١,٠٠٣,٩١٦ متراً مكعَّب والحال قد شوهد في العمل ان المتر المكعَّب من الفحم الخشبي المتحجر وزنهُ زهاء الطنّ فتكون كامل الكمّيَّة بوزن ١,٠٠٣,٩١٦ طناً فلو فرضنا استخلاص ١٠,٠٠٠ طن في السنة فيدوم عمل التعدين ٨٠٠ سنة

فاذا كان الى الان لم يُبذل الجهد في استخراج منجم حيطورة مع وجود الظروف الموافقة فسبب ذلك بلا شك العوائق التي اتينا على ذكرها مراراً والتي تحول زماناً طويلاً دون الانتفاع من كنوز لبنان المعدنيَّة التي على قلّتها لا يسوغ لنا ان نستخفّ بها

وزد على ما ذكرنا المباراة الاجنبية التي يبقى اثرها الى اجيال عديدة فيلزم ان نضيف الى مناجم اوربة والعالم الجديد التي كانت دائماً وتبقى زماناً طويلاً في الاستعمال مناجم الفحم الحجري الصينيَّة التي لم تُعدَّن لحدّ الآن وهي وحدها تكفي وقوداً للعالم باسرهِ مدَّة الوف من الدهور وفي المهالك المحروسة سيَّما في برّ الاناضول (١ مناجم حسنة لا بدَّ من استثمارها مع اكتشاف غيرها من المستودعات المرجَّح وجودها (٢

فلو فرضنا انَّ الفحم اللبناني يعادل بجودتهِ الفحم الانكليزي وفحم هيرقلة العثماني فانهُ يقصر عنهما بالرواج في السوق السوري . فمناجم هيرقلة وبلاد الغال يجديها قربها من البحر فائدة كبرى فانها تُنقل توّاً من المنجم الى مراكب الشحن ولا يجهل احدٌ رخص اجرة النقل في البحر (٣ فمن هيرقلة ومن كرديف (انكلترة) الى بيروت

---

١) قد اكتشفوا في بلجكة على مناجم فحم حجري عظيمة وقد حُسب دخلها لالوف من السنين ٢) راجع كتاب (Verney et Dallmann) والمشرق ١٩٠٢ ص ٧٧٣

٣) وحقيقة ذلك تظهر بمثل نوردهُ – فطريقة ايصال الحنطة من روسية الى سويسرة على وجهين الاول على طريق مرسيليا او جنوا ومنهما بالسكة الحديدية والثاني على طريق انفرس او روتردام ومنهما بالنهر . فبالطريق البحري وهو اطول من طريق البر بثلاثة اضعاف يبلغ الاقتصاد نحو خمسين فرنكاً في كل عجلة من القطار فهاك السنَّة المتبوعة في التجارة الحاضرة : اكثر ما يمكن على طريق البحر واقلّ ما يمكن على طريق البرّ

لا تزيد نفقات النقل على نفقات الفحم المنقول اليها من داخل لبنان على متن البغال والجمال . فتأمَّل

٢ الحُمَر

يُستدلّ عند اول وهلة على ان هذا المعدن كثيرٌ في لبنان . ففي الشرق والجنوب تحيط بالجبل اراضٍ يُشاهد فيها الحُمَر بكثرة ففي بلاد بشارة يُرى الحمر في عينبل وحُريقة وفي غير مواضع من قائمقامية صور . غير ان اشهر مستودعات الحُمَر في قضاء مرجعيون واغناها منجم حاصبيّا الذي هو من املاك الحضرة السلطانية . وكفاه وصفاً ان يُقال انهُ قد كان يُستخرج منهُ في اليوم ٨٠ صندوقاً وزن كل منها ١٠٠ كيلو

فمع ذلك ليس لبنان على شيء من غنى الاقضية المجاورة لهُ ولا نعرف في الجبل الّا منجماً واحداً وهو منجم مايخ في قائمقامية جزين غير انهُ قليل المادَّة . ولذلك عدلوا عنهُ بعد ان باشروا باستثمارهِ لقلّة دخلهِ لان نفقات الاستخراج باهظة والمحصول طفيف لذلك لا سبيل للمباراة مع منجم حاصبيّا . امّا في قضاء البترون فآثار الحُمَر دون ذلك فلا يُعتدّ بها ولا نتيجة لها ترغّب باستثمارها . امّا غير ما ذكر من اصناف الوقود المعدنيَّة كالبترول فلا اثر لهُ في تربة لبنان

*

ثانياً المواد والمناجم المعدنية

ليس للبحث في هذا الموضوع مجالٌ واسع وما نوردهُ في هذا الفصل دون ما قدّمناه في فصل الوقود

فلنباشرنّ بالحديد ولولا مخافة الالتباس لسمّيناهُ سيّد المعادن بدلًا من الذهب الذي خُصّ بهذه التسمية على غير حقّ . نعم ان الحديد من حيث اللمعان الظاهر والقيمة المجرَّدة اقلّ قدراً من بقية المعادن كالذهب والفضة والنحاس والزئبق وغيرها لكنهُ اكثر منها انتشاراً في الكون واعظم منها فائدةً للانسانية ولا يضاهيهِ في ذلك الّا الفحم الحجري الذي يشبههُ بسواد لونهِ وقلة نضارتهِ

ولقد يتبادر الى الذهن ان اغنى البلاد مالًا واوسعها اتجاراً واقدرها صناعةً هي

البلاد التي توفَّرت فيها معادن الذهب ومناجم الالماس والصحيح ان اغنى بلاد الله هي ما كثرت فيها معادن الحديد ومناجم الفحم الحجري فالمعادن الثمينة انما ينتفع منها بعض الخاصَّة المُنعَم بها عليهم فتفيدهم زهوًا وتزيدهم لهوًا وان توارت عن وجه المعمور فلا يلتحق بالانسان ضررٌ كبيرٌ بل يتخلَّص من اكبر مُهيِّج للاهواء البشريَّة . امَّا فقد الحديد فيُحدث في الهيئة الاجتماعيَّة اضطراباً شديدًا وفي اعمال الصناعة اختلالًا عظيماً ويكفي لاثبات ذلك ان الزراعة التي هي اهمّ الحرف واوجب الصناعات لا قيام لها بدونهِ

فان كان حقُّ التقدُّم لمستحقيهِ بما يؤدُّون من الخدم الجليلة فليس بين المعادن من يستحقّ التقدُّم والسيادة نظير الحديد

ولقد اعتاد شعراء اليونان واللاتين الاقدمين ان يختصروا تاريخ العالم ويقسمونهُ الى ثلاثة اطوار ملقبين كلَّ طور باسم معدن فيدعون الاوَّل والاقدم بالعصر الذهبي والثاني بالفضيّ والثالث بالحديديّ فلم يؤيد الاختبار تمام التأييد اعتقاد الشعراء ولا حقَّق التاريخ امانيَّهم لاسترسالهم الى مخيِّلتهم الساعية وراء الصور اللامعة والتشابيه الساطعة غير مبالين بتطبيقها تطبيقاً كاملًا على الحقيقة الراهنة

على اننا لو نظرنا الى استعمال الحديد المتعدّد ونموّهِ المتواصل الى حدّ انهُ كاد يقوم مقام كثير من المواد كالخشب والحجر لتجرَّأنا ان نسمّي عصرنا العصر الحديديّ ومن هذا الوجه يكون قد سبق الشعراء فعرفوا المستقبل وهم لا يدرون. لكنَّهم لم يدركوا ان الحديد يمشي مع التمدّن قدَماً على قدم ويسير كتفاً لكتف مع النجاح الذي لا يكون بسواه. وما لا يُنكر ان اكثر الاشياء استعمالًا واعظمها نجاحاً الحديد والورق فالورق وهو أرقّ الاشياء والحديد وهو اصلبها كانا العاملين العظيمين المساعدين على التقدُّم والنجاح ادبياً وماديًا — نعني النجاح بالنسبة والتقييد لا على الاطلاق نريد النجاح الذي احتجَّ عليهِ الشعراء الاقدمون كما يفعل اليوم اصحاب الفنون الجميلة وطالبو الحسن المعقول. ثمَّ ان للحديد شبهاً بالعصر العمليّ الذي نما بهِ نموَّه الغريب اي كثرة الفوائد على قلّة المحاسن . فحيثما اعتدى الحديد على الخشب والحجر وحرمهما حقَّهما ما امكنهُ ان يقوم مقامهما في مقامات الفنون الجميلة فهو الخادم الذي لا بُدَّ منهُ وان قلَّت ظرافتهُ بازاء الجاذب الفتَّان وهو انَّما يُحَبُّ لفائدتهِ لا لملاحتهِ

على انَّ في عصرنا الحاضر لا يحلّ شيءٌ محلّ الفائدة · فحبّ الانتفاع عمل على انتشار الحديد ونموّ الصناعة والتجارة وهذان الفرعان قد اصبحا من اعظم العوامل في انفاذ الحديد · فمن قبل مائة سنة لم تكن المراكب والآلات والسكك الحديدية ولوازم الطوبجية فان كل هذه لم يكن يُعتَدُّ بها بالنسبة الى العصر الحاضر ثمَّ اضحت آخرًا الزراعة وصناعة البناء من اعظم « أَكَلة » هذا المعدن · وقصارى الكلام انهُ ايسر علينا ان نعدّد حاجاتنا الى الحديد من ان نبيّن الحدّ الذي تقف عندهُ تلك الحاجات · فهذه التفاصيل توضح لنا على الاقلّ عظم شأنهِ فترى اننا لم نُعزِها التفاتنا عبثًا

*

امَّا معدن الحديد فهو لحسن الحظ كثيرٌ في قَضَض لبنان وأَتربتهِ ويشاهد في طبقاتٍ تتركَّب من حبَّات متازّجة كبيض السمك أو كالعدس او الحمّص المتحجّر · وقد يُرى احياناً مختلطاً ومحصورًا في كُتَل كلسيَّة ملبَّدة او في موادّ معدنيَّة معروفة باسم سپاث (Spath) · وهذه الموادّ غنيَّة بمعدنها غزيرة (١ لانَّ كميَّة الحديد فيها من ٥٠ الى ٦٠ بالمائة ومن هذا الوجه لا يدانيهِ الَّا معدن « مقطع الحديد » في جزائر الغرب اذ تصل كميَّة الحديد فيهِ الى ٦٥ بالمائة

وهذا المعدن منتشر في اكثر انحاء لبنان وعلى سطح الجبال وفي بطن الوديان سيما في اقضية البترون وكسروان والمتن وقد استُثمرَ منذ الازمنة الغريقة في القِدم كما نثبتهُ فيما بعد وكما يلوح من عُرَم الخَبَثِ والفُسالة المنتثرة في كثيرٍ من انحاء الجبل · ونخصُّ بالذكر جهات عكَّار ودوما وبيت شباب والمشغرة والفرزل واودية المجاري النهرية مثل نهر الكلب ونهر ابرهيم · فمن هذه المعادن كانت تؤخذ موادّ المسابك والمعامل الحديديَّة المقامة في تلك الانحاء ولبثت هذه المعامل مستعملة الى اوائل العصر المنصرم

وممَّا يزيد اهميَّة المعادن اللبنانية فضلًا عن غزارتها وغنائها جودةُ مادَّتها فانها تعطي اجود الحديد الذي يُتَّخذ منهُ افضل الفولاذ واصلحهُ لادقّ الاعمال وارقّها كالآلات والمدافع وتصفيح المراكب وقد اشتهر حديد لبنان بلدونتهِ ومرونتهِ ولا يبعد انَّ منهُ كانت تُعمل اسلحة دمشق الطائرة الشهرة كالسيوف الشاميَّة التي طالما

١) ان معدن الحديد يُعتبر غنياً اذا كانت كميَّة الحديد فيهِ تتجاوز ٤٠ في المائة

أُغرم بها العارفون واثنى عليها الولعون وقد فُقِـد اليوم سرّ اصطناعها . والمّا دخل الحديد الغريب الى لبنان في الجيل الماضي كانت الافضليَّة للحديد اللبناني في عمـل أنعال الدوابّ وصناعة المسامير وما شاكل ذلك

على ان معادن لبنان مع غزارة مادّتهـا وجودتها لا تُجدي نفعاً معتبراً لقلَّة الذرائع في استثمارها اذ ليس من وقود لتشغيل المسابك وقد مرَّ بك آنفاً ان لا وجود للفحم الحجري في لبنان غير انَّهُ يمكن الاستعاضة عنـهُ بالخشب كما كانوا يصنعون قديماً وذلك كان من اعظم البواعث على اتلاف الاحراج في لبنان وهاك بيانهُ :

فقديماً وقبل اكتشاف الفحم الحجري كانت تُعالج معادن الحديد بالحطب في لبنان كما في اوربَّة . فانهم كانوا يوقدون الحطب في المواقد المعدَّة لتذويب الحديد وصبّهِ . وبعد الحساب وجدوا انهُ يلزم مائة كيلو من الحطب للحصول على ١٧ كيلو من فحم الحطب ويجب احراق مائة كيلو من الفحم لسبك ٣٤ كيلو من الحديد وذلك كناية عن اتلاف ١٧٠٠ كيلو من الحطب لاستغلال ١٠٠ كيلو من الحديد . وكان المسبك الواحد يستغرق من الحطب ما تغلُّهُ سنوياً مساحة ٢٠٠٠ هكتار من الاحراج (١ فعلى ذلك لم تكن لتكفي اوسع الاملاك . الَّا انَّ حركة المعامل كانت اذ ذاك خفيفة لان الحاجة الى الحديد لم تكن شيئاً بالنسبة الى العصر الحـاضر فالكور القديم كان يصبّ من ١٠٠٠ الى ١,٥٠٠ كيلو يومياً اماَّ الان فانهُ يُسبك في اليوم زهـاء ١٢٥,٠٠٠ كيلو وفي بعض المعامل ثمانية او تسعة اكوار . فاذا اتَّضح ذلك ظهر جلياً الضرر الجسيم اللاحق بشجر لبنـان والناجم عن مسابك الحديد القديمة وعرفتَ ان لا سبيل للانتفاع من معادن الجبل الحديديَّة على كثرتها ووفرة مادّتها

ولا سبيل ايضاً لصبّ هذه المعادن والاعتناء بهـا بنفقات قليلة الَّا باستحضار الذرائع الموجودة في اعظم البلاد الصناعيَّة نظير انكلترة وبلجكة . اعني بوجود مناجم فحم حجري قريباً من معادن الحديد وقـد عرفت ممَّا مرَّ بك أن لا وجود لهذه المناجم في لبنان ولا يَسدُّ هذا الخلل استجلاب الفحم الحجري من الخارج لمـا يستلزم من النفقات الباهظة

١) راجع كتاب *Vicomte G. d'Avenel : Le mécanisme de la vie moderne* t. I, p. 94

فعليهِ لا يستطيع لبنان مباراة البلاد الاجنبية في معادن الحديـد مع سهولة استخراجها وجودة صفتها . لذلك نرى مسبك لبنان الوحيد في بيت شباب مضطرًّا الى استعمال الحديد الاجنبي . ولا مناص من هذا الاضطرار الَّا باستعمال المياه كقوَّة محركةٍ في معالجة المعادن ولا يمكن ذلك الَّا حيث المعادن قريبة من مجاري الميـاه والينابيع القويَّة كما في وادي نهر الكلب وفي جوار ميروبا فهناك المعادن الجيّدة

وممَّا يزيد الاسف أنَّ لبنان لا يمكن ان يستعيض عن استثمار الحديد باستخراج غيرهِ من المعادن اذ لا وجود لها . فاننا لا نتكلَّم عن الذهب والفضة اللذين ذكرهما بعض الكتبة ممَّن لا يتروّون في الامور ولا ينقبون في المباحث فقد اكدوا وجودهما في لبنان بجانب غيرهما من المعادن كالنحاس والتوتيا (١

فلا حاجة لنا بنقض هذه المزاعم التي لا صحة لها ولا سند . ولقد تباهى غيرهم باكتشاف مناجم الزيبق في لبنان (٢ فالزيبق معدن ثمين (٣ واستثمارهُ يعود على الجبل بفائدة عُظمى الَّا انَّ هنا ايضاً تغلَّب الوهم على الحقيقة فبُهرت الاعين بدلائل وهميَّة كاذبة . فالزيبق المكتشف وُجد بكميَّة زهيدة في موضعين بجانب السكة الحديديَّة من بيروت الى الشام اعني في عين صوفر وعين مشرح فقد كان ذلك بلا ريب موضع المعامل القديمة ايَّام مـدّ السكة وما الزيبق المكتشف الَّا كميَّات وقعت من آلات المهندسين . ولقد سمعنـا باكتشاف معدن نحاس في المتن الاعلى . فهذه الاكتشافات لا تستلفت الانظار لعدم كفاءة اصحابها فعلينا ان ننتظر حكم رجال الخِبرة وفحص المساطر . ونحن نتمنَّى ان يكون ذلك صحيحاً وليتنـا نستطيع تكذيب الدكتور لورتهْ (٤ القائل ان ليس في لبنان من المعادن ما يُعوَّل عليهِ

☆

ثالثًا الحجارة ولوازم البناء

ان الحجارة كثيرة في لبنان ويمكن استثمارها طويلًا ونقلها الى البلاد الاجنبيَّة

---

١) راجع كتاب فضل الله فارس ابي حلقه : جغرافية سوريا وفلسطين (ص ٢٢١)

٢) راجع الرسالة المبعوثة الى البشير (في ٢٣ ايلول سنة ١٩٠١)

٣) راجع المشرق (٤ : ٨٨٧-٨٩١)

٤) راجع كتاب – الدول الاجنبية – المقدَّمة ص ١٩

ولقد تأخذ الدهشة الغريبَ اذ يطوف لبنان ويسرّح نظرهُ في حجارة ابنيتهِ فهذه الحجارة الجميلة سواء كانت منحوتة او غير منحوتة تجعل لأبسط المساكن هيئة جليلة لا يألفها السائح الّا في قصور وطنهِ. فباعتناء قليل يستحكم البناء ويحصل لهُ هيئة صلابةٍ ومكانةٍ تزدري بكرور الاجيال. ولحسن الحظ ليست الصلابة بالظاهر فقط بل بالحقيقة ايضاً فقلّما نرى على سطح المعمور بلداً فيهِ مــا في لبنان من لوازم البناء بكثرتها وحسنها وصلابتها . فلا طاقة للرطوبة ولعوامل الجوّ الاخرى على إتلافها . فهذه الحجارة الكلسيَّة لها تقاطيع زجاجيَّة في المواضع المنحوتة حديثاً ولونها ابيض كامد وقد يتحوَّل على مرور الزمان بفعل اشعَّة الشمس الى شيء من الصفرة الذهبيَّة

امَّا في منحدرات الجبل السفلى وعلى الشواطىء البحريَّة فتكثر مقالع الحجارة الرمليَّة وهذا الصنف لونهُ اصفر وحجرهُ جيّد صالح للبنيان وكل المحلّات العــامرة والاماكن الآهلة بالسكان من صور الى طرابلس مبنيَّــة بحجرهِ . ومن خواصّهِ انهُ سريع التفتُّت سهل النحت لدى خروجهِ من المقلع فيتصلَّب في الهواء ويصلح للملاط اكثر من الحجارة الكلسيَّة الجميلة المقتلعة داخل الجبل

والحجر الرملي مثقوب غالباً بثقب طويلة اسطوانيَّة ضيّقة على شكل لولب كانها صنع المخرز وربما كان ذلك من قرض الهوام الحجريَّة (١ مــدَّة الاطوار الاولى الجيولوجية . وقد فات هذا الشرح فهم رينان فذهب فيــهِ مذهباً غريباً فان اكثر مدافن جبيل محفورة في هذا الحجر ففيما كان رينان يفحصها شاهد ثقوباً اسطوانيَّة في قبَّة القبور القديمة فتوهَّم تعليــلًا لوجودها أنَّ الاقدمين كانوا يلجأون قبل حفر المدافن الى سبر الحجر لقصد امتحانهِ (٢

على انهُ ليس بوسعنا ان نعدّد بالتفاصيل كلَّ ما في لبنان من موادّ البناء على وفرة اصنافهــا ولا يسعنا الّا ان نذكر انواع الحجارة الجميلة الممتازة بكثافتهــا وصلابتها فانها تُستعمل للاعمدة وللدرج وعتبات الابواب واسكفَّاتها الى غير ذلك من الاعمال المعتبرة كرصيف المرافئ اذ ان امتداد طرق العربات في لبنــان يسهّل نقلها الى البحر . ومن اصناف الحجر الجيّد ما يستخرج من المقالع الموجودة في اسفل

١) راجع Dawson : *Egypt and Syria*, 79

٢) راجع الجزء الاول ص ٦٥ و ٦٦

قرنة شهوان وبيت مري بالقرب من دير مار روكس وفي غير مواضع

واينما سرت من الجبل ترى من الحجارة الصالحة للتبليط والتلبس وحجارة لعمل الكلس والرحى امَّا البلّور فهو كثيرٌ في لبنان . وبعكس ذلك الرخام فهو نادر الوجود في الجبل وليس من الصنف الجيّد اللهمَّ اذا استثنينا بلاد الجبَّة فانَّ فيها مقالع رخام صالحة للصقل والجلي الحسن ونذكر اننا شاهدنا امثلةً منها في بعض بيوت اهدن القديمة وكذلك في الديوان في الكرسي البطريركي الجديد . وممَّا يستحقّ الذكر مقالع الرخام الموجودة في جمهور ودير القلعة فرخامها ذو عروق حمراء (١ وفي دير القلعة ايضاً حجر صلب معتبر وفي تخوم في قضاء البترون و بعض انحاء البقاع مقالع حجرها صلب لونهُ ابيض يجعلهُ الصقل لامعاً كالرخام و يؤخذ منهُ البلاط المصقول والاعمدة الصغيرة اللامعة (شمعات) . امَّا الرخام الابيض الجميل من صنف رخام ايطالية والرخام السمَّاقي وحجر الصوان فلا وجود لها في لبنان . وما يشاهد في المدن الفينيقيَّة القديمة من اعمدة الصوَّان مثل جبيل الحاوية على عدد وافر منها فانها منقولة من مصر

على أنَّ حجارة لبنان لم تكن تُستعمل الى السنين الاخيرة إلَّا في محلّها والمدن المجاورة نظير بيروت وقد راجت السوق فيها رواجاً عظيماً ومن بضع سنوات باشرت مصر بأخذ لوازم البناء من لبنان لندرة الحجر فيها وقلّة صلاحيَّتهِ كما ان الامر جارٍ في مقالع لبنان القريبة من البحر مثل نهر الكلب والعاملتين فانَّ المراكب تستطيع ان تصل اليها وتشحنها بأقلّ نفقة أمَّا المقالع البعيدة فالوسيلة لنقل صادراتها ان تكون من الصنف الاعلى كمقالع قرنة شهوان ومار روكس ودير القلعة وغيرها فانها تُطلب الى البلاد الاجنبيَّة وما من مانع يحول دون اتّساع تجارتها اذ ان امتداد طرقات العربات في لبنان يسهّل كثيرًا طرائق ايصالها الى البحر . وقد أخذت شركة ترعة السويس على ما نظنّ حجارةً من لبنان لتوسيع احواض بورسعيد فكان العمل مرضياً والاقتصاد حسناً

فهذا كلّهُ يدعو الى التنشيط ويحمل على مواصلة العمل للانتفاع من حجارة

١) فمن مقلع دير القلعة اعمدة الكاتدرائيَّة المارونيَّة وكنيسة كليَّتنا

لبنان ولا يخامرنا ريب أنَّ مقالع لبنان لم تُكتشَف جميعها سيَّما مقالع الحجر الحسنى والرخام العادي فاذا اتَّسع نطاق هذه الصنعة عادت بالفائدة على الكثيرين من الفعلة كعملة المقالع والنحّاتين فتسدّ مسدّ المعادن المفقودة من لبنان

٢

معادن لبنان القديمة

لقد انجزنا الكلام عن غنى لبنان المعدني والحقُّ اولى ان يُقال ليس لبنان من هذا الوجه ذا ثروة طائلة وغنًى وافر . فلوازم البناء متوفّرة فيهِ إلَّا انها ليست من اعلى درجة في الجودة . ومعادن الحديد كثيرة الانتشار في الجبل الَّا انَّها قليلة لعدم وجود الوقود لتشغيل المسابك والمعامل . وكذلك الفحم الخشبي المتحجّر فانَّ في لبنان منهُ شيئاً . فاذا شئنا ان نعرف ما لهـذا الوقود من الشأن والاعتبار في نفس مركزهِ يكفي ان نردّد في ذهننا ان اصحاب المعامل الحريريَّة المجـاورة لمستودعاتهِ عدات عنهُ تباعاً الى الفحم الاجنبي . فوالحالة هذه ليس لاهل لبنان ان يبنوا الآمال على استحضار المعادن ولا يُمنُّوا النفس بتحسين مستقبل البلاد بسببها

لكن هنا بحثاً آخر تُرى هل كانت هذه الحال حال لبنان القديمـة ؟ ألم يتفق للبنان مـا اتّفقَ لاراضٍ كثيرة كانت مخصبة غنيَّة ففرغت على توالي الاجيـال واصبحت عقيمة ؟ أوَ لم تنتزع من اعماق لبنان كنوزهُ المعدنيَّة القديمة ؟ فلهذا السؤال محلَ ومجال لانَّ ارباب البحث والاقتصاديين منذ الان قـد وجدوا بعد الحساب ان اغنى مناجم الفحم الحجري في اوربة لا بدَّ ان تنفد يوماً ولا يمرُّ على بعضها جيـلان او ثلاثة حتى تكون قد نفدت فلِمَ لا يصحّ ذلك في لبنـان وقد ظهرت فيهِ آثار العمران وحركة الاشغال من نحو ٤٠٠٠ سنة والادلَّة على ذلك صحيحة راهنـة فهذه المدَّة الطويلة تكفي كل الكفاءة لتعليل ما حدث في حال معادنها من التغيير والانقلاب

وممَّا يزيد في ارجحيَّة هذا الرأي كون لبنان قسماً من فينيقية والحال ان بـلاد

فينيقية كانت من اقدم الازمان كنقطة للاشغال المعدنيَّة وكمحور للاعمال الصناعيَّة (١ فقد وجدوا الوفاً من آثار هذه الصناعة القديمة وضروبها المتنوّعة كآنية فضة ونحاس وقلزّ وحليّ من كل الاصناف واشكال الاسلحة وادوات زجاجيَّة وغيرها · فهذه التُحف مَلأَت المتاحف التي غصَّت بها وضاقت عن ان تسعها ومع ذلك لم تُصرَف العناية الى جمعها ووضعها في المتاحف إلَّا من نحو نصف قرن وكم من تحفٍ غيرها بادت او لم تزل مدفونةً في بطون المدن الفينيقيَّة وهي تتوقَّع يوماً من الدهر لتظهر للعيان

على انَّ هذه الحال من نموّ الصنائع وانتشار الاشغال المعدنية لم تكن خاصَّةً بعهد الفينيقيّين بل بقيت بعدهم اجيالاً عديدة واستمرَّت الى اواخر الاعصر المتوسطة · ولم تبطل هذه الاشغال في المدن الممتدَّة على طول الشواطئ البحريَّة من عكا الى اللاذقية فكانت العمَّال من نحو خمسة او ستة اجيال منكبَّة على العمل وكانت تصنع مصنوعات عظيمة وتُصدر صادرات وافرة · ففي اواسط الجيل الرابع للميلاد يذكر يونيور (Junior) الفيلسوف اللاتيني « مدينتي طرابلس وجبيل الصناعيَّتين ومدن صيداء وصرفند وعكا الزاهرات وخصَّ من بين هذه المدن اللاذقية وجبيل وصور وبيروت بانها ترسل انسجتها الى جميع الارض وتنشر صرفند فوق ذلك ارجوانها » (٢

ولنا في الجيل العاشر شهادة المقدسي الجغرافي العربي وبما انهُ سوريّ النشأة فتكون لشهادتهِ قوة كبرى فانهُ يعدّد بين صادرات سوريَّة المحمولة الى الخارج عن مرافئ البحر من قيصريَّة الى السويديَّة انسجة الحرير والصابون والمرايا والزجاج والابر والسُرُج وآنية النحاس والحُرُض او الأُشنان والحديد والكبريت والملح والرخام (٣· وفي الاعصر التابعة يصف الادريسي والدمشقي وابن بطوطة حركة الاشغال الصناعيَّة

١) راجع كتاب بيرار (Bérard : *Les Phéniciens et l'Odyssée*, I, 306 - 307; 367 376 ; 409, 414, etc. Benzinger : *Hebraeische Archeologie*, 253)

٢) وهذا نصهُ بحرفهِ: Tripolis et Byblus, ipsæ civitates industriosæ sunt: iterum optimæ civitates Sidon, Sarepta, Ptolemaïs . . . Laodicia, Byblus, Tyrus, Beritus omni mundo linteamen emittunt, Sarepta vero purpuram præstat.

٣) راجع في تأليفهِ «احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم» وصف سورية (ص ١٥١ – ١٨١)

في مدن سوريَّة والسيَّاح الغربيُّون الذين ساحوا في سوريَّة في ذلك العصر يؤدون الشهادة نفسها (١

*

والحال هل يخطر على بال ان هذه الصناعة وفيها للمعادن حظٌ صالح تتخذ لوازمها الاوَّلية وموادَّها الضروريَّة من الخارج لا غير . امَّا نحن فلا نخال ذلك لان في مثل هذه الحال لا تأتي المصنوعات بارباح طائلة الى حدٍّ انها تُحمل الى جميع الجهات . فالاعمال المعدنيَّة في فرنسة مع ما هي عليهِ من جودة الطرق وكمال الاساليب لا تستطيع مجاراة اشغال البلاد المجاورة لها وعلَّة ذلك انها مضطرَّة الى ان تستجلب من الخارج قسماً من معادنها . فنستنتج اذن ان الصناعة الفينيقية وهي اقدم الصنائع كانت تتخذ مواد اشغالها من محلها وجبال بلادها وبغير عبارة تقول انهُ يلزم التسليم بان مستودعات معادن لبنان كانت قديماً اوفر عدداً واغزر مادَّةً واكثر نوعاً ممَّا هي اليوم . وليت شعري هل يمكن اثبات هذه النتيجة بشواهد تاريخية

امَّا ايضاح ذلك عن الحديد فايسر شيء عندنا بل لا حاجة الى ذلك وقد اثبتنا وجودهُ في ايامنا فلهذا لا نفيض في ايراد الشهادات بل نقتصر على بعضها . على انَّ بين هذه الشهادات شهادةً هي اعظمها اهميَّة واشدّها اعتبارًا تدلّ على ما كان لتجارة الحديد من الشيوع والشأن في قديم الزمن . ففي الجيل السابع قبل الميلاد كانت العبارة « با ان برت » تستعمل في اللغة المصريَّة للدلالة على الحديد (٢ ومعنى هذه الكلمة حرفيًا « بضاعة بيروت » فيُستنتج اذن من استعمال هذه الكلمة ان شغل الحديد كان شائعاً في بيروت وانهُ كان بجوار هذه المدينة معادن يُستخرَج منها الحديد بكثرة وكما انهُ من لفظة « بضائع باريس» سوف يستدلّ المؤرخون في المستقبل أن بضائع الزينة والتبرّج كانت تُصنع في باريس . فهكذا قُلْ عن الكلمة المصريَّة التي اوردناها فانها تشير الى أنَّ وادي النيل وذلك لا اقلّ من ٨٠٠ سنة قبل المسيح

١) راجع كتاب راي (Rey: *Colonies franques*, 211) واما عن بيروت فراجع هيد (Heyd) تاريخ تجارة المشرق . الترجمة الفرنسوية ص ٤٥٦ و ٤٥٩ و ٤٢٠ و ٤٨٨ الخ

٢) راجع المجلة الاسيوية (Journal asiatique, 1904. I, 155 - 56)

أَلِف الحديدَ اللبناني المحمول اليهِ من مرفأ بيروت الى حدّ انَّ اهلهُ لم يميّزوا بين اللفظين اعني « الحديد » و « صناعة بيروت » . وكمثل ذلك جرى في اللغة العربية الفصحى للهندي والمشرفي فانهما اصبحا مرادفَين للسيف وقد كانا في الاصل يدلّان على السيوف المصنوعة في الهند وفي « مشارف » البلقاء شرقي بحيرة لوط . وقد كان زمام تجارة الادوات البيتيَّة وآنية الحديد والقلز والنحاس في الجيل التاسع قبل المسيح بايدي الفينيقيين في سوق مصر عينهِ (١ . والمقدسي (٢ يأتي على ذكر معادن الحديد في بيروت الموجودة في عصرهِ . وبعدهُ بجيلين يقول الشريف الادريسي اثناء كلامهِ عن بيروت : « وبقربة منها جبل فيهِ معدن حديد طيّب جيّد القطع يُستخرَج منهُ الكثير ويُحمَل الى بلاد الشام (٣ » . وقال ابن بطوطة (٤ : « ان الحديد يُحمَل من بيروت الى مصر » فهذه الشهادات معتبرة فانها تدلُّنا على نموّ صناعة الحديد في لبنان حتى اواخر الجيل الرابع عشر . وامّا ما قدَّمنا من تفاصيل نقل الحديد وحماهِ الى الخارج فيدلّ ليس فقط على رواجهِ في سوق مصر بل يرجّح ايضاً على ان اسلحة دمشق كانت تُصنع من معادن لبنان كما اوردنا آنفاً

ولقد يُشتَفُّ من وراء هذه الشهادات ما التحق باحراج لبنان من الضرر الجسيم بسبب تلك الصناعة التي نستطيع ان نتتبع حركتها مدة الفي سنة . فمواقد المسابك كانت بمثابة لجّة التهمت غابات الارز العظيمة

*

على انهُ ليس بعد الحديد معدن شاع ذكرهُ بين صادرات الصناعة الفينيقية القديمة نظير النحاس . والعجب في ذلك ان هذا المعدن لم يبقَ لهُ اليوم أقلُّ اثر في لبنان كما سبق لنا ذكرهُ ففي هذا سرٌّ غامض على المؤرخين ويستلفت انظار الجيولوجيين الذين يحوّلون ابصارهم عن كل شهادة لا يجدونها مسطَّرةً في بطون الارض

فلنباشر بايراد التوراة شهادة اولًا : فانهُ مذكور في سفر الملوك الثاني (٨ : ٥–٨)

١) راجع كتاب موللر (W. M. Müller : *Asien und Europa*, 306)

٢) في كتابهِ السابق ذكره (ص ١٧٤)

٣) طبعة جيلدميستر   ٤) I. 133,

ان داود اخذ من ملك صوبة نحاساً كثيرًا جدًّا . فاين محلُّ صوبة المذكورة ؟ من المرجَّح انها كانت قائمة في سهل البقاع وذهب بعض علماء عصرنا على انها نفس المدينة المدعوَّة « مات نحاسي » في كتابات تلّ العمارنة (١٥٠٠ قبل المسيح) ثم سماها اليونان (١ فيما بعد كلسيس . فما اغرب هذا الاتفاق فلفظة كلسيس معناها في اليوناني نحاس وفي مات نحاسي كلٌّ يرى كلمة نحاس . وعليهِ اذا صحّ ان صوبة وكلسيس ومات نحاسي ما هي الَّا ثلاثة اسماء لمسمَّى واحد فيكون المقصود بها المحل المشهور بمعادنهِ القائم في جوار لبنان

غير ان الآراء متضاربة في تعيين موضع كلسيس فقال بعضهم انها معلَّقة — زحلة ورجَّح غيرهم ونحن من رأيهم (٢ انها عين جار في اسفل الجبل الشرقي المقابل للبنان (٣ — فعلى كل حال ليست المسافة بين الموقعين بعيدةً انما على حلّ هذا المشكل الجغرافي يتوقَّف تخصيص معادن النحاس القديمة بلبنان او بالجبل الشرقي الذي يقابلهُ

ثم اننا نرى الكتابات المصريَّة والكتابات الاشوريَّة قبل التوراة تشير الى وجود كميَّات عظيمة من النحاس في لبنان او في ما يجاورهُ ومنها ٨٤,٠٠٠ كيلو من النحاس اخذها رمَّانيرار الثالث ملك الاشوريين من ملك دمشق فهذه الكميَّة الوافرة الموجودة في محلّ واحد تدلّ على انها من صادرات المحلّ وليست من الخارج واننا نجد فضلًا عن ذلك في كتابة تحوتمس الثالث ذكر « نحاس اسيوي أَتى بهِ فرعون مصر من بلاد راتانو بعزٍّ وانتصارٍ (٤ » وراتانو كما هو الشائع في كتابتها الان هي الناحية التي يسقيها الليطاني وقد سبق لنا تفصيل ذلك (٥

على انَّ هذا النهر ينبغي ان يُعتبر تابعاً للبنان لانهُ يجري على شواطئهِ او يمرّ في اراضيهِ — امَّا العلَّامة ينسِن (Jensen) فانهُ لا يقف عند هذا الحدّ بل يزعم ان

---

١) راجع كتاب Buhl : *Geogr. des alt. Palaestina*, p. 115

٢) راجع (الصفحة ٤٠)

٣) Pauly - Wissowa. Encyclop., III 2091

٤) راجع كتاب Müller : *Asien und Europa*. 126, 127

٥) راجع (ص ٢٢ و ٣٢)

راتانو او لاتانو من اسامي لبنان نفسهِ او لا اقلّ من ان تدلّ على ناحية الليطاني (١ وفضلًا عن ذلك فالكتابات المصريَّة تسمّي عادةً فينيقية باسم « ذاهي » وتجعل بين صادرات هذه البلاد ليس فقط الزيت والعسل والخمر ممَّا لا يندهل لهُ انسان بل ايضاً النحاس والرصاص واصناف الحجارة المتنوعة الخ (٢ . وفي غير موضع تذكر آنية الحديد والنحاس كصناعة مختصة بفينيقية (٣ ومن المعلوم انها كانت تُملأ منها اسواق اشور وبابل (٤ واسواق بلاد اليونان في اوربَّة واسيَّة . افلا يسوغ لنا بعد هذا كلهِ ان نستنتج وجود معادن النحاس في جبال فينيقية ؟ رويدك ايها القارئ فلا تعجلنَّ باستنتاج النتائج لئلّا تبدي حكماً عن غير تروٍّ كافٍ . ومن المحتمل ان الفينيقيين كانوا يستخرجون النحاس من املاكهم في جزيرة قبرس او من « الاسيا » (٥ الشهيرة بمعادنها النحاسية والمظنون موقعها على مصبّ نهر العاصي ولعلَّ اسم النحاس العربي مأخوذ عن اللفظة الاشوريَّة « الاسيا » كما ترى . وزعم غيرهم انها قبرس استناداً على وجود معادن النحاس فيها وعلى رأيهم أنَّ منها كان يؤخذ النحاس لتشغيل معامل فينيقية . فليست المسألة اذن جليَّة كما يُظنّ . امَّا نحن فنرجّح رأياً متوسطاً

فاننا نعلم مع كثيرٍ من العلماء الذين اوردنا شهاداتهم وغيرهم نظير كيبرت (٦ ويَنْسِن وغيرهما (٧ بوجود معادن نحاس في لبنان لكنها قليلة . لذلك اضطرَّ الفينيقيون ان يستجلبوا من الخارج ما كان ينقصهم في لبنان . ولهذا السبب نفسهِ نفدت هذه المعادن وفرغت بجملتها حتى لم يبقَ لها اثر على حدّ ما نراهُ في جزيرة إلبا في البحر المتوسط فمعادنها الحديديَّة التي لا يكاد يُصدَّق غناها الغريب لا يزال

(١ Zeitsch. f. Assyriologie, 1895, 345-346

(٢ راجع مولّر (ص ١٨٢)

(٣ مولّر (ص ٢٠٦)

(٤ Zeitsch. für Assyr. 1887, p. 36, 37 ومنها هذه العبارة الواردة مراراً في شعر هوميروس « صيدا الغنيَّة بالنحاس »

(٥ Zeitsch. f. Assyr. 1895, 262 وكانت تسمى ايضاً اصيا

(٦ راجع تأليفهُ H. Kiepert : *Alte Geographie*, 167

(٧ Zeitsch. für Assyr., 18953,63 ,365

يُستخرج حديدها منذ الفي عام (١ . امَّا النحاس الذي كان من اعظم صادرات هذه الجزيرة في اقدم الازمان فانَّ ذكرهُ قد باد منها فيما بعد

فعليهِ إمَّا ان نعدَّ الشهادات المختلفة التي اوردناها اوهاماً مختلقة وامَّا ان نسلّم بوجود معادن غير الحديد في لبنان ومنها النحاس فلولا هذه المعادن لما كانت وُجدت صنائع الفينيقيين المعدنيَّة ولما كانت انتشرت انتشارها الغريب

فهولاندة مع ما هي عليهِ من النشاط والاستعداد الفطري للتجارة والملاحة لا تنال الفوز بشغل المعادن نظير انكلترة وذلك لخلوّها من المعادن لان نجاح الملَّة يتوقَّف على النواميس الطبيعيَّة التي مع كل قوَّتها تعجز عن مقاومة النفوذ الخارجي . وهذا ممَّا يزيد فضل الجغرافية التاريخيَّة فانها تُطلعنا على بعض هذه النواميس

فاذا اتقنَّا درس لبنان وطبقاتهِ الجيولوجيَّة سوف نجد بلا محالة براهين طبيعيَّة وادلَّة ماديَّة تثبت غنى لبنان الاعظم في قديم الزمان (٢

امَّا الحجارة ولوازم البناء فاننا لا نعلم عنها شيئاً الَّا انَّ غوديا ملك بابل كان يستجلب لابنيتهِ من لبنان قبل المسيح بثلاثة آلاف سنة ليس فقط اخشاب الارز بل ايضاً الرخام الابيض وغيرهُ من الحجارة . وما زالت ملوك اشور تحذو حذوهُ الى الجيل الثامن قبل الميلاد . على انهُ لم يُذكر شيء عن صنف الحجارة المنقولة مع الرخام ولا عن طبيعتها إلَّا ان ما يقتضيهِ نقلها الى البلاد البابليَّة من المشقَّة والنفقة لبعد المسافة يسوغ لنا ان نستنتج انها لم تكن من الحجارة العاديَّة بل من اصناف الرخام الجيِّد وانواع الحجر الغالي الثمن . فعلى هذا يتَّضح ان لبنان كان من هذا القبيل ايضاً اغنى ممَّا هو اليوم

لكن لا بدَّ من ابداء ملاحظة هنا كما فعلنا اثناء كلامنا عن النحاس : ان الكتابات الاشوريَّة والبابليَّة البالغة حدَّ الايجاز والمتصلة باقدم الازمان ليست بغاية الضبط والتدقيق بنوع انهُ لا يتيسر لنا الحكم الفصل فيما اذا كان الكلام عن لبنان

Elisée Reclus : *Europe Méridionale* 432 - 433 (١

٢) ففي سنة ١٧٣٦ يؤكد السائح كرانجه الفرنساوي وجود معادن نحاس يشوبها قليل من الفضة بين عجلتون والعاقورة . . فهذه التعليمات المبهمة تدل على ان السائح نقل ما سمعهُ ولم يفحص بنفسهِ . وإلَّا لكان حدَّد موضع هذه المعادن

الشرقي او الغربي وبعبارة اخرى عن لبنان الحقيقي او عن الجبل الذي يقابلهُ . فبخصوص هذه المباحثة الثانويَّة فلتراجع التآليف التي اوردنا ذكرها في هذا الصدد . فيستطيع القارئ ان يتمّ الجاثةُ الشخصيَّة ويقابل بين التعليمات التاريخيَّة التي جمعناها عن غنى لبنان المعدني في الزمن القديم

١٩

النتائج التاريخيَّة

من درس اعلام الاماكن اللبنانيَّة

ليس بين المطَّلعين على اساليب علم التاريخ في عصرنا من يجهل فائدة البحث عن درس اسماء الامكنة فنستأذن قبل الخوض في الموضوع بتعداد منافعهِ بما امكن من الايجاز لندرك معناه الحقيقي وارتباطهُ الجوهري بتاريخ لبنان وجغرافيَّتهِ . فبوصفنا لهذه الفوائد نستدرك ما لعلهُ يطرأُ على بال القارئ من سوء التفاهم . ليس غرضنا في هذه المقالة لغويًّا لكن تاريخيًّا محضاً وجغرافيًّا صرفًا اذ لا نقصد البحث عن اسماء المواضع اللبنانيَّة من حيث تركيبها اللغوي ومعناها الاصلي بل جلُّ ما نتوخَّاه ان نستنتج من درس هذه الاسماء ومن سياقها وتقسُّمها على سطح الجبل نتائج تؤدي بنا الى معرفة ماضي لبنان

١

١ً اعلم ان درس اصل الاسماء المكانيَّة اعظم ظهير واكبر نصير للتاريخ لان اعلام المكان ترجع الى اقدم اصول اللغة اذ المتبادر الى الذهن ان الرجل اول ما يبدأ بهِ تسمية محل اقامتهِ باسم يعرّفهُ ويميّزهُ . لذلك نرى اعلام المواضع ابقت لنا ذكر حوادث ومواقع لا نجد لها اثرًا في اعظم التواريخ اسهابًا واكثرها

تفصيلاً (١ . وقد يتفق ان اعلام المكان وحدها تذكرنا بما جرى لبعض الشعوب من الحروب وما طرأ عليها من الحوادث السياسيَّة والدينيَّة . فهكذا كل موضع دخل في تركيبهِ اسم دير وقصر وبرج ومجدل (٢ يدلُّ على انهُ كان ثمَّة دير او قلعة ولو كانت غيَّر الدهر قد درست ذلك البناء ولم تُبقِ لهُ لا طالاً ولا رسماً وربَّما كنَّا لا ندري اصل الاماكن اللبنانيَّة ولا نعرف قدم عهدها فاذا ما عثرنا على اعلام فينيقيَّة او آراميَّة استطعنا ان نستدلَّ على انَّ اصل تلك المواضع يتَّصل بالعهد الذي كانت فيهِ تلك اللغة شائعة في لبنان . واذا وجدنا موضعاً مدعوًّا باسم احد الآلهة القديمة كنعانيَّة كانت او بابلية فلَنا ان نستنتج انهُ سبق التاريخ المسيحي وانهُ وُجد في عهدٍ كان الاهلون يعبدون تلك الالهة . وعليهِ فدرسُ اعلام المكان يقوم مقام ما اغفلتهُ الادلَّة الكتابيَّة ويدعم التقاليد المحليَّة وبدونهِ لا نستطيع سبيلاً الى تحقُّق المنصوصات المبهمة الخالية من الحجة والعارية عن البرهان فضلاً عن انهُ يجدينا علماً عن اقدم الآثار التاريخيَّة وافضل الاسانيد ويسوّغ لنا ان ننسب تلك الدلائل الى قرون سبقت اختراع الكتابة وتحديد اللغات على خطّ علمي منظَّم . فمن المعلوم ان الانسان سبق الى تطلق قبل الكتابة واوَّل ما استعمل في كلامهِ تسمية المواضع التي تكتنفهُ باسماء النابقها . وقد فُقد شيءٌ كثير من تلك الاسماء الاوليَّة وهذا ممَّا يحثّنا على بذل الجهد وصرف العناية الى جمع ما بقي من تلك الاعلام والاستفادة منها ما امكن فسواء كانت تلك الاسماء لمسميات داثرة او وضعيّة فانها تعين على احياء الحوادث الجغرافية التي باد ذكرها

٢ً وتساعد اعلام المكان على معرفة آثار الشعوب الذين عمَّروا البلاد وخلَّفوا اسماءهم في بعض الاماكن . وممَّا بيَّنَّا في ابحاثنا المتقدّمة عن اصل الامم اللبنانية القديمة انَّ اللغة التي تسمّت بها الامكنة هي اشدُّ دلالةً واوضح برهاناً على الاحوال السالفة من الكتابات عينها . فالكتابات باللغة اللاتينيَّة وقس عليها اليونانيَّة انما تدلّ على انَّ تلك اللغة التى كانت هي المعوَّل عليها في الاحكام الشرعية وليست اللغة الشائعة

١) ان پروتز (Prutz : *Kulturgesch. der Kreuzzüge, 397*) يبدي مثل هذه الملاحظة عند الكلام على الالفاظ العربيَّة الداخلة في اللغات الاوروبيَّة اثناء القرون المتوسطة

٢) مع فروعها « مجيدل ومجدليون ومجدليا »

بين الشعب. وعلى عكس ذلك اسماء المواضع فان الشعب لا يضعها الّا في لغة يفهم معناها فينتقي في لغته اسماً يطابق المسمَّى بدلالته على مميّزات ذلك المكان المأهول حديثاً. وقد يتَّفق ان يخلف شعبٌ شعباً آخر فيغيّر الاسم القديم باسم احدث يدرك معناهُ. مثال ذلك جبل قريب من جزين يسمّى «جبل طورا» وهو مركَّب من اسمين عربي فسرياني وكلاهما الجبل فمثل هذه التسمية المكرَّرة تدلّ على وجود شعبين (١

٣ً تُطلعنا اعلام المكان على نظامات الشعوب وعباداتها وعوائدها القديمة كالاسماء التي تضاف مثلاً الى سوقٍ وجسر. وذلك بعد ان تكون السنون والدهور طوت الحوادث التي دعت الى تلك التسمية مثل «سوق الغرب» في قضاء الشوف وليس الآن هناك سوق

٤ً تسوّغ لنا ان نقف على حالة الارض السالفة ونطّلع على العوارض الجغرافية من مناجم وغابات وغدران بادت حتى لم يبقَ لها اثر إلا طرأ عليها من التقلّبات الجيولوجية والاقتصاديّة والاجتماعية. ولسنا نرى حاجة الى ايراد امثلة على ذلك

٥ً وبما انَّ جميع الاعلام المكانيَّة إلَّا ما قلَّ كانت في الاصل اسماء جنس لا اسماء علَم فيكون درسها جزءًا مكمّلاً لمعجم اللغات القديمة ومساعداً على احيائها فمن هذا القبيل تكون اسماء المواضع احسن طريقة في دراسة اللغات وافضل وسيلة للتوصّل الى ابعد اصولها

٦ً تبيّن لنا ما كان في اقدم الازمان للاحوال الجغرافيَّة والطبيعيــة من التأثر في عقول اجدادنا (٢ وتكفي وحدها الدلالة على اهميَّة الينابيع والانهر لا سيَّا في الشرق حيث الماء من الشروط التي لا بدَّ منها لترقي العمران. فاوَّل ما استوطن البشر بجوار الينابيع وضواحي الانهر واقدم المدن عهدًا مدينة نشأت على مجرى المياه. فما مدينتنا بيروت الّا مدينة الينابيع والآبار كما يُتّخذ من مدلول اسمها الفينيقي

٧ً تظهر لنا ما كان للجبال من التأثير في الرجال الاوَّلين حتى عبدوها في الاصل

---

١) وفي صقلية جبل إتنا (Etna) يدعى احيانًا «جبل جبل» (mont Gibel) بتكرار اسمين اعجمي فعربي ومعنى كليهما الجبل

٢) راجع مجلَّة الشركة الالمانية في فلسطين (ZDPV, 1904, p. 95)

كآلهة على حد ما حدث في لبنان وجبل حرمون (جبل الشيخ) ورأس الشقعة والكرمل والجبل الاقرع كما سبق لنا بيانهُ

بقي علينا ان نكرّر التنبيه بان بحثنا الحالي يكون جغرافيًّا محضاً اي اننا نقتصر على ان نتخذ من اسماء الاماكن في لبنان ادلّةً تكشف لنا عن جغرافية لبنان التاريخيَّة في الزمن القديم . واماًّ ما تعلّق بالمباحث اللغويّة كالتغييرات التي توالت على اسماء الامكنة فاننا نحيل القرّاء الى الكتاب الذي ألّفهُ الدكتور كمفميير (Kampff-meyer) في هذا الموضوع وعنوانهُ « الاسماء القديمة في سوريّة وفلسطين الحاليّة » (١ حيث يبحث عن هذه المشاكل بدقّة وحذاقة وسعة اطّلاع كما هو دأبهُ في كل تآليفهِ

*

ولكي يمكننا ان نجنى من هذا البحث جميع الثمار التي نشتهيها ونحصل على جميع الفوائد التي يتضمّنها كان لا بدَّ ان نحصل على لوائح كاملة لجميع اسماء الامكنة الموجودة الان في لبنان مع الردوم وتقاسيم المقاطعات والاحراج والينابيع والاودية . وفوق ذلك كان ينبغي لنا ان نبحث في الكتابات القديمة عن الاسماء المكانية التي فُقدت وقصارى الكلام كان يلزم ان يكون لدينا فهارس تتضمَّن اسماء المواضع فقط كاللائحة التي وردت في مجلّة الحفريّات الفلسطينيَّة (P E F) (٢ لبلاد فلسطين بل مجموع شامل لاوصاف لبنان ورسومهِ على نمط المجموعات الكتابيَّة المؤلَّفة لجمع الكتابات القديمة (٣ . فلا حاجة الى القول انهُ لا يوجد نظير هذه اللوائح والفهارس للبنان امّا لائحة روبنسون وعالي سميث فلا تخلو من فائدة (٤ إلّا انها غير مُحكمة الوضع فضلاً عن انها ناقصة . فالذي يسعى بعمل لائحة تفي بالمطلوب يخدم العلم خدمة جليلة ويمكنهُ ان يبني جداول على تقسيم قائمقاميات الجبل ومديريّاتهِ مُتَّبعاً التعليمات التي ألمعنا اليها قبل الآن ثمَّ يجمع التقاليد والاسانيد المحليَّة التي تتعلّق باسماء الامكنة . والمشرق مستعدّ

١) راجع المجلة ذاتها (ZDPV, XV et XVI)

٢) المشروع حسن الّا انهُ غير كامل ولا يمكننا ان نعتمد دائماً على روايات المؤلفين الانكليز

٣) راجع مقالة العلّامة جوليان التي عنوانها « الحاجة الى مجموع الأعلام المكانية في العالم القديم » (Beitraege z. alt. Gesch. 1902, II, p. 1)

٤) وهي منشورة في (Biblical researches in Palestine, vol. III)

انشر هذه اللائحة مع الشكر لمن يتفضّل عليهِ بها . وكما نودّ لو نُشرت سالنامة لجبل لبنان تودع فيها اسماء الاعلام المكانيَّة. فيُتَّخذ لهذه الغاية كمثلٍ «دليلُ لبنان» المنشور في ادارة جريدة لبنان فانَّ فيهِ لائحة لمحلات الجبل الحاليَّة الَّا انهُ ينبغي ان يكمّل ما فيهِ من النقص مع التمييز والتفريق بين القرى والمزارع واضافة بعض دلائل

ونحن لم نقف على كتاب في هذا الموضوع جامع للفوائد نظيرِ تاريخ بيروت الذي نشره في المشرق حضرة الاب لويس شيخو ثمَّ طبعهُ على حدة . فهـذا التأليف الجليل لم يقابلهُ ادباء الجبل بالمقابلة التي هو حقيق بها لاسيَّما من يهمُّهم تاريخ لبنـان وجغرافيته . فانهُ قد يسدُّ خلل اللوائح الوصفيَّـة الى حدٍ ما . وأَخصُّ فوائد هذا الكتاب بل اهمُّ ما يتضمّنهُ من الايضاحات قائمة في وفرة اسماء لبنان الجغرافيـة المذكورة فيهِ كاسماء القرى والاملاك وايضاحات عن حدود المقاطعـات القديمة وغير ذلك ممَّا لم يرد ذكرهُ الَّا في هذا الكتاب . فاننا لا نجد التواريخ الكبيرة تكترث كثيرًا للبنان كما اهملتهُ تآليف الجغرافيين الكبار فاذا اتوا على ذكر هذا الجبـل فانهم يذكرونهُ عرَضًا دون اسهاب ولا تفصيل . ثم ان كثيرًا من المحـلَّات القديمة بادت برمَّتها ولم يبقَ من آثارها الَّا اسمهـا الذي لم يزل منسوباً الى حقل او خربةٍ لا شأن لها ولا اعتبار . ففي تاريخ بيروت نجد كثيرًا من هذه الاسماء المندثرة كاسم «رمطون» مثلًا . وكأنَّهُ الصكُّ الاول الشاهد لوجود عدد من قرى لبنـان إنْ لم يَجُز القول بانَّ فيهِ قد دوّن تاريخ ميلادها. فيجدر بنا اذ ذاك ان نثني اطيب الثناء على ناشرهِ ولا يسعنا الَّا ان نحضَّ طُلَّاب العلوم التاريخيّة والجغرافية على الامعـان في مطالعتهِ ونحن نتعهَّد لهم باللذة والفائـدة معاً فقد جنينا منهُ فوائد شتَّى ولا نزال نواظب على مطالعتهِ استزادةً لجدواه

٢

واوَّل ما نجد في بحثنا عن اسماء المواضع في لبنان تغلُّب اللغتين السريانيّـة والعربية عليها. امَّا العربيّة فانها تدلُّ على حداثة عهد المساكن والمنازل لانَّ هذه اللغة خلفت اللغة الآرامية من عهد قريب كما اشرنا اليهِ في بحثنا عن لغات لبنان القديمة (١

١) راجع الصفحة ٩٢

وفي اوَّل وهلة تستحوذ علينا الدهشة ويشملنا العجب لقلّة ما نشاهد من الاسماء الكنعانية او الفينيقيَّة البحتة مع ان اهمّ الامم التي استوطنت لبنان واقدمها كانت تنطق بهذه اللغة . وليس الكلام عن اسماء مدن الساحل نظير صيداء وبيروت وجبيل وغيرها اذ لا مشاحَّة في ان اصلها بالفينيقية وتسميتها كافية لان تطلعنا على حالة الفينيقيين الاولى (١ وامَّا ما كان منها في داخل لبنان فمثل مجدل وفروعها مجيدل ومجدليا (٢ ثم البيرة (٣ وعرامون (٤ وغيرها ممَّا يأتي ذكرهُ

فهذه الاسماء لقدم عهدها عانت مشقَّة عظمى في صبرها على صروف الدهر . ولو امكنَّا تجريدها من قشرتها الاراميَّة او العربيَّة التي تحجب صورتها فتجعلها مجهولةً لوجدناها اوفر عددًا واقرب الى المعرفة ومثال ذلك البيرة التي مرَّ ذكرها فانها تظهر لاول وهلة انها كلمة عربية لشبهها بلفظ البئر وهكذا قل عن كثير من الاسماء التي اوَّلها عين او بيت او كفر . فهذه الالفاظ لا تختلف بالعبرانيَّة والاراميَّة والفينيقية وقد نقلت كما هي الى العربية (٥ . فلشدَّة الشبه بين اللغات الثلاث يحصل غالبًا القلب والتبديل في صيغ الكلمات فيصعب اذ ذاك معرفة الصيغة الفينيقيَّة الاصليَّة كما في كفر تبنيت بجانب النبطية حيث نجد اسم تبنيت الطائر الشهرة في تاريخ فينيقية . وفي شمالي بيروت جدول ماء كان يُدعى باسم الاله «مُوت» وهو اله الجحيم بلوتون (Pluton) عند الفينيقيين . فلما أُلغيت فيما بعد الديانة الفينيقيَّة وأُهملت اساطيرها وأُغفلت اسماء آلهتها أُبدل مُوت بمَوْت وأُضيف اليها اداة التعريف فقالوا «نهر المَوْت» وزاد الشعب على ذلك فاختلق حكاية حربٍ هائلة جرت فيها الدماء مدرارًا . فهذه سُنَّة العوامّ في اشتقاق الكلمات فانهم يُفسدون صورها شيئًا فشيئًا ثمَّ يجدون لها معنًى في لغتهم فيخدعون انفسهم ويختلقون قصصًا وحكايات لتفسير الوهم الذي توهَّموهُ وسوف نورد امثلة جديدة في سياق كلامنا على هذا النحو . لكنَّا نأسف على ان بعض المؤرخين

١) راجع تاريخ الفينيقيين (Pietschmann: *Geschichte der Phœnizier*, 129)
٢) اطلب المجلة الاسيوية الالمانية (ZDMG, 1875, p. 442)
٣) راجع Kampffmeyer, ZDPV, XVI, 20
٤) راجع كتاب العلَّامة كلرمون غانو Recueil d'Arch. Or., VI, 70
٥) راجع كتاب الآثار العبرانية للعلَّامة نواك (Nowack)

ينخدعون لهذه الترّهات فيقدّمون لنا كأدلّة حقيقيّة اختلاقات الشعب الوهميّة

اما بقيّة اللغات كاليونانيّة واللاتينيّة فانها قليلة في اسماء المواضع اللبنانية فليس في هذا ما يُدهشنا بعد النتائج التي توصّلنا اليها بابحاثنا عن اشتقاق الالفاظ في لبنان ولا يصعب التسليم بهذه الملاحظات اذا سرّحنا الطرف في خريطة لبنان شمالًا ووسطاً وجنوباً في المنحنيات البحريّة والمنحدرات الجبلية فيستفزّنا الاندهال لما نرى من كثرة الاسماء السريانيّة صِرْفاً مثل كَفْر وكفور وشير وتصغيرها العربي شُوَير بمعنى الصخر وغيرها ممّا لا يُحصى عددهُ مثل نيحا وشقيف وكفرحتّا وداريّا ورشعين وكل كلمة تألّفت من « راش » كنايةً عن راس ومن « طور » اي الجبل الخ . والاسماء التي تنتهي بصيغ اواخر الكلمات السريانيّة مثل آيا (ܐܝܐ) وآتا (ܐܬܐ) واون (ܘܢ) علامات الجمع والتصغير . وكفى بهذا المجموع وحدهُ شاهدًا على انّ لبنان ارضٌ اراميّة ان لم يشهد بذلك التاريخ . فهذا الموضوع لا يكاد يُبلَغ كنههُ او يُسبَر غَورُهُ اذا اردنا التوغل فيهِ . فهاك بعض امثلة زيادةً على ما اوردنا فمن طورا هي ܥܝܢ ܛܘܪܐ (عين الجبل) ورشميّا ܪܝܫ ܡܝܐ (راس الماء) ودير قرقفة وهو اليوم دير للملكيين هو دير الجمجمة (ܩܪܩܦܬܐ) وبيت مري (ܒܝܬ ܡܪܝ) بيت السيّد وترعون (ܬܪܥܐ) الابواب وجزين (ܓܙܐ) الكنوز

وبين هذه الاسماء السريانيّة ما يستلفت نظرًا خاصًّا وهي الاسماء الكثيرة في لبنان المبتدئة بحرف ب (ܒ) اختصار (ܒܝܬ) بيت وهو اختصار قديم مختص بلغات سوريّة . وقد ورد نظير هذا الاختصار في اللغة الفينيقيّة وفي التلمود وفي اسماء قريبًا من الفلسطينية المذكورة في التوراة ومنها بيشان בישן = ביתשאן التي تُرى حتى اليوم قريباً من نهر الاردن جنوبي بحيرة طبريّة (١

وذكر كتبة اليونان مدينة في جزيرة العرب قريبة من البحر الاحمر باسم (Βαίσαμψα) وغنيٌّ عن البيان انها بيت شمس ܒܝܬ ܫܡܫܐ ويكتبونها ايضاً (٢

(١ راجع المجلة الاسيويّة الالمانيّة (ZDMG, 1860, 651 ; 1873, 325) ثمّ كتاب بعثة فينيقيّة (Mission de Phénicie, 853) ومقالة الدكتور كمبفاير (G. Kampffmeyer ZDPV, XV, 87, 111) ورحلة فتشتين الى حوران (Wetzstein : *Reisebericht über Hauran*, 110

(٢ راجع ZDMG, XXVII, 325

(Βαίτσαμφα) وهذا يؤيد كلامنا . اما امثال ذلك في لبنان فكثيرة نورد منها بكفيا (ܒܝܬ ܟܐܦܐ) اي البيت الصخري وهي مركّبة من ܒܝܬ و ܟܐܦܐ صخر ومثلها بكيفا في اقليم الخروب وبحمدون وبياقوت اي بيت حمدون وبيت ياقوت (١ وقس على ذلك برمّانا وبزمّار وبتاتر وغيرها مما سوف يرد ذكرهُ

وقد يسوغ لنا ان نحكم على الفور والبديهي ان بلداً نظير لبنان غزير الينابيع ومناخهُ يقتضي وجود المياه لا بدّ من ان يكون لعنصر الماء دخلٌ في تركيب اعلامهِ . وصحّة هذا الحكم تظهر بالمشاهدة فقد استمال افكارنا اسمُ قرية ميّوميه (وليس « ميّه وميّه » كما يكتبها دليل لبنان) قريباً من صيداء في اقليم التفّاح فاعتقدنا ان الكلمة الفينيقيّة الدالّة على الماء داخلة في تركيب هذا الاسم ويقابلها في العبراني « מים » فحكمنا بقدم عهد القرية وبوجود ينبوع ماء مشهور كان سبب تسميتها بهذا الاسم . غير ان الاعلامات كانت في اول الامر سلبيّة . فلمّا جلنا متأخراً في نواحي صيدا لم نعثر على معين ماء في وسط ميوميه لكنّا شاهدنا في سفح القرية ينبوعاً من اجود ينابيع تلك الاطراف القاحلة واعذبها . ففي حين مرورنا كان جميع الاهلين في قلق واضطراب لان بعض اصحاب المطامع سعوا بحكر المياه التي يستقي منها الناس والحدائق المجاورة فعند تأملنا تلك المياه الحسنة الخارجة من بطن الارض ادركنا سبب تسمية ميوميه بهذا الاسم الفينيقي

ثمَّ في لفظة ميروبا الماء الغزير ورشميّا رأس الماء تظهر للعيان كلمة ܡܝܐ السريانية امّا الاسماء التي تبدأ بكلمة عين فهي اكثر من ان تُحصر (٢ وهذا دليل آخر على تأثير المياه وفضلها في تعمير المساكن والاماكن . وهنا نُبدي نفس الملاحظة التي ابديناها على الباء المختصرة من « بيت » وذلك ان عين تُختصر احياناً فتُلفظ عَنْ فعين طورا تُلفَظ « عنطورا » وعين دارا « عندارا » واليونان يسمونها عندريس (Andaris) . وهذا مما يدل على أنَّ عادة ابدال عَين بعَنْ هي قديمة وامّا هل ان عندريس من لبنان فراجع الجزء الاول (١١٢) وكذلك قرية عنبال (٣ في ناحية الشوفين فاصلها عين بال .

١) نسبة الى حَمدون وياقوت ولا يُعلمنا التاريخ من اخبارها شيئاً

٢) اننا نُهمل ذكر الاسماء التي تبدأ بساقية وغدير

٣) يظهر ان عنبال وعينبل في بلاد بشاره من اصل واحد وفي البشير ١٢ كانون الاول

وقس عليها مواضع اخرى من سوريّة نحو عِنجار « عين جار » في البقاع وعندقت «عين دقت» في عكار وعين دُور في فلسطين وهي تُلفَظ وتُكتب اليوم «اندور»(١٠ وقد تُدغم النون بالحرف الذي يليهِ نحو عماطور واصلها « عين ماطور »(٢

*

امّا الاسماء العربية المحضة فهي كثيرة ومعروفة ولا حاجة الى ايراد امثلة عليها ويكفينا ايراد اسم « الجُدَيدَة » لكثرة انتشارهِ . والاسماء التي تتألّف من « راس وظهر ووادي ودير ودوير » واشباهها وكثيرًا ما يتّفق ان اللغتين تشتركان بالاسماء اللبنانيّة كما رأينا في الامثلة المتقدّمة فتختلطان وتمتزجان امتزاج الماء بالراح بحيث تشتبك الكلمة العربيّة بالسريانية او تلتصق صيغة الجمع والتصغير العربية بكلمةٍ من صيغةٍ اراميّة ويسهل تحقّق ذلك من الامثلة التي سبق لنا ايرادها . وفي بعض الاسماء كما في « انفه » يتعذّر الفصل بين اللغتين فلا نعرف أسريانية هي ام عربيّة

وقد ابقت لنا اعلام الاماكن آثارًا شتّى تدلّ على مرور العرب والآراميين بلبنان بخلاف بقيّة الشعوب التي ورد ذكرها في الفصل الذي بحثنا فيهِ عمّن سكن لبنان من الامم القديمة فنرُدُّ اليهِ القرّاء ليطالعوا خاصةً المقالة التي دار الكلام فيها على الحثّيين فاننا اتينا فيها على ذكر اسمين جغرافيين يتصل عهدهما بهذا الشعب على ما نظن . امّا الفراعنة فمع طول عهد استيلائهم على فينيقية لم يهتمّوا باستعمارها ولم يُعنَوا باقامة الآثار فيها لكنهم كانوا يعهدون تدبير شؤونها الى عمّال وطنيين مكتفين بوضع مراقبين عليها (٣. امّا جنودهم فيها فكانت قليلةً وكانوا من المتطوّعين (٤ فضلًا عن انّ قسماً كبيرًا من لبنان لم يدخل تحت حكمهم زمناً طويلًا . لاننا نعلم ان املاك الفراعنة في فينيقية ايام رعمسيس الثاني كانت تنتهي عند نهر الكلب

امّا الرومان فلا نستطيع ان نعزو الى لغتهم إلّا اسم غوسطا التي عُورضت

١٩٠٤ يذكر مراسل من عينبل ان الرسائل المبعوثة الى قريتهِ ترسلها ادارة البريد غالبًا الى عنبال

١) راجع Kampffmeyer, ZDPV , XVI, 55

٢) راجع تاريخ بيروت (ص ٨٨) والمجلة الفلسطينية ZDPV, XV, 111

٣) راجع الجزء الاول (ص ٧١) كتابات تلّ العمارنة

٤) راجع كتاب مكس مولّر W. Max Müller, : *Die Aegyptier als Eroberer*

بأُغوسطا (Augusta) نسبةً الى اغوسطس ونحن نسلم بهذا الاشتقاق لكن باحتراز. وبين غسطا وميروبا مزرعة صغيرة تُدعى طبريَّة فهل يا تُرى تشتقّ من اسم طيباريوس نظير طبريَّة الجليل الشهيرة ؟ وان صحَّ هذا التأويل فمن يكون طيباريوس هذا ؟ قد زعم حضرة الخوري غبريل صاحب تاريخ الموارنة (ص ٥٧٦) أنهُ الامبراطور طيباريوس البيزنطي لكن هذه الشهادة ليست بكافية اذ لم يذكر ذلك احد من المؤرخين الاقدمين

ثمَّ اننا لا نعدُّ من اصل لاتيني اسم «اسطبل» في اقليم التفاح ولا المحلات العديدة التي تبدأ بقصر وبرج فان هذه الاسماء وان كانت في الاصل مشتقة من اللاتيني الَّا انها قد دخلت في اللغة العربية من عهدٍ بعيد حتى اصبحت كأَنَّها اصليَّة ومثلها الكورة اسم احد الاقضية في لبنان فأَصلها يوناني « χώρα » اي الناحية . والهري قريباً من شكَّا فلا يبعد من انها تشتقّ من الكلمة اليونانية « ὡρεῖον » ومثلها اللاتينيَّة horreum وكلاهما بمعنى الهري والمخزن ومن الاسماء التي يمكن نسبتها الى اللغة اليونانية طبرجا وجربتا (١ . امَّا طاميش فلعلَّها من ارطاميش « Ἄρτεμις » وهي إلاهة الوثنيين كما ان جونية يُحتمَل اشتقاقها من اليوناني « γωνία » اي الزاوية . وامَّا البترون والقلمون جنوبي طرابلس فانهما من الاسماء السامية صحَّفهما اليونان في لغتهم وجعلوهما منها كما صيروا جبيل « بيبلوس » وكذلك دفنه في كسروان يشبه لفظها « δάφνη » وهي شجرة الغار كما ان ناووس (قريباً من كسبا وشبطين) هي « ναός » . لكنَّ رنان يتساهل كثيراً فيرى الاصل اليوناني في عدَّة اعلام لبنانيَّة نظير دلبتا وريفون وعجلتون مع أنَّ اصلها السرياني لا شبهة فيهِ . وفي رأيهِ ان كلَّ الاسماء اللبنانية المنتهية في إين وأُون وأُوش مثل غرفين وريفون وحنوش هي يونانية الاصل (٢ فهذا الزعم لا يستحقُّ ان نعيره التفاتاً . وبالجملة ليس في لبنان اكثر من عشرة أعلام

١) راجع الجزء الاول (ص ٢ و ٥٨ و ٦٩) ما قلناه عن انطلياس فانَّ اشتقاقها من اليوناني هو من الامور المشكلة . وقد ذكر الشريف الادريسي شمالي صيداء بلدة باسم فلمون لم نعرف من امرها شيئاً ولعلها تحريف « علمان » القريبة من نهر الاولي . وكذلك قلمون المرسومة على الخريطة الفرنساوية شرقي البترون هي تصحيف قزنعون

٢) راجع كتابه بعثة فينيقيَّة (Mission de Phénicie 141, 246, 229 238)

مكانيَّة يمكن ردُّها الى اصلٍ يوناني فهذا العدد اليسير لا يكاد يُعبأُ لهُ بالنسبة الى الاعلام اللبنانية المتعدّدة التي ثبتت ساميَّتها

اما اكثر الاسماء توغُّلاً في الابهام فهو اسم كسروان فمن المعلوم اننا نستخلص منهُ بلا عناء اسم العلم كسرى ولكن كيف نفسّرهُ ؟ ومن هو كسرى هذا ؟ وكيف وقع اسمهُ على هذه القاطعة اللبنانيَّة ؟ يقول قائل انهُ اسم احد متقدّمي المردة وليس ذلك جواباً شافياً لانَّ المردة كما افاد التاريخ نزحوا عن لبنان ولم يخلفوا فيهِ سلالتهم . وكذلك لا نسلّمُ بالتقليد الذي يردُّ «قب لياس» (في البقـاع) الى قبر الياس . وهو زعيم اخر من زعماء المردة في قولهم . وليس قبّ لياس في رأينـا اشدّ وضوحاً او بالحري اقلّ ابهاماً من انطلياس (١ والمسيو غوبرناتيس في تأليفٍ حديثٍ لهُ (٢ يسلم برأي من يُرْجع هذه الاسماء الى المردة ويزعم بانهم اتوا الى لبنـان من بلاد الفرس لكن قبل العهد الذي يذكرهُ تاوفان المؤرخ اليوناني وهم الذين دعوا كسروان باسمٍ أتوا بهِ من بلادهم . لكن التاريخ لا يذكر شيئاً من امرهم ما خلا تاوفان وهـذا المؤرخ اليوناني يخالف كلَّ المخالفة رأي غوبرناتيس في عهد دخولهم لبنان . امَّا نحن فلا يسعنا الَّا ان نشاطر سيادة المطران يوسف دريان رأيـهُ ويلوح لنا انَّهُ دحض بسديد براهينهِ زَعْم العـالم الايطالي دحضاً مفحماً . وعندنا ان اشتقاق اسم كسروان مشكل لم يحلَّهُ احد الى الان

امَّا اللغة الفرنجية فلم يبقَ منها في لبنان الَّا ما قلَّ وندر فكانوا يسمّون المنيطرة (Le Monestre) ويطلقون اسم (Franche-garde) على قلعة يُقال لها الان المنطرة وهي بجوار صيدا . ويدعون قلعة نيحا القريبـة من جزّين (Cavea de Tiron) ويسمُّون قلعة الشقيف جنوبي النبطيَّة (Beaufort) . ولم يبقَ من هذه الاسماء الَّا الاسم الاول الذي صحَّفوه ونقلوهُ الى اللغة الفرنساويَّة وكذلك اسم دير

---

١) قرأنا في ذخائر لبنان لجناب ابراهيم بك الاسود : «كلمة انطلياس لا تخلو ان تكون منحوتة اما من انطون وايلياس واما من انطش ايلياس واماَّ من ايقونة الياس وهذا الاخير هو الارجح» (كذا)

٢) راجع Gubernatis : *Rassegna Nazionale, Mardaïti e Maroniti,* 16 Juillet, 1903

البلمند فهو منقول عن كلمة (Belmont) كما اثبتنا ذلك في موضعهِ (١

وقد رأى حضرة الاب ابراهيم حرفوش في « خربة السويس » تلميحاً الى الشعب السويسري (٢ فنحن لا نخال التسليم بهذا التفسير ممكناً لان السويسريين لم يُعرفوا في اقطارنا فضلًا عن انَّ اطلاق اسم السويس على الشعب السويسري كان بعد ذلك العهد . ومن المحتمل انَّ اسم « روس الفرنج » (في قضاء جزين) و « جرف الفرنج » بجوار تنورين من آثار ذلك العصر غير اننا لا نستطيع ان نبتّ بهذا المعنى حكماً جازماً

وامَّا اسم جرمق (بناحية جبل الريحان) الذي ورد ذكرهُ اثناء كلامنا عن الجراجمة فانهُ يخلّد اسم الجرامقة وهو شعب اراميّ (٣ تذكرهُ كتبة العرب وهم لا يفرقون احياناً بين الجراجمة والجرامقة فهولاء الجراجمة ليس لهم اثر في اسماء المواضع اللبنانيَّة وذلك دليلٌ على انهم اجتازوا لبنان اجتيازًا ولم ترسخ فيهِ اقدامهم

ومن الاسماء التركية اسم الزوق وهذا الاسم من الاعلام المكانيَّة الموجودة معاً في كسروان وفي عكّار (٤

امَّا النتيجة التي نستمدها مما قدَّمناه في هذا الفصل فهي عجز اللغات غير الساميَّة وقصورها عن التأثير في تسمية الامكنة اللبنانيَّة العجيبة بوحدة نوعها . وهذا مما لا نشاهدهُ الَّا فيما قلَّ من البلاد امَّا اوربَّة فانك تجد في اسماء مساكنها اشكالًا والواناً

١) تسريح الابصار (١ : ١٤٩)

٢) المشرق (٥ : ٢٩٨)

٣) او فرقة من الاشوريين الاقدمين او « هم اهل الموصل في الزمان القديم » (القلقشندي ١ : ٢٢٠) راجع Chwolson : *Die Ssabier*, II. 697 وياقوت في معجم البلدان (٢ : ٦٤) يومئ الى وادي جرمق على مقربة من صيدا وهو وادي جبل الريحان . ثمَّ قابل بين نصَّي ابن الفقيه الهمذاني قال الاول (ص٧٧ سطر ٢٠) : « الروم ملكانيّة يقرأُون الانجيل بالجرمقانيَّة » وقال الثاني (ص ١٢٦ سطر ١٦) وشرحُ قولهِ اصعب لان الكلام فيهِ عن روم اوربَّة : « الروم كلهم ملكانيَّة يقرأُون الانجيل بالجرمقانيَّة » . فمن يتقدَّم الينا بشرح معنى الجرمقانيَّة يقلّدنا فضلًا وجميلًا ومن المقرَّر انهُ ليس المراد بها السريانيَّة اذ انّ الجرمقانيَّة على قول ابن الفقيه لغة روم اوروبة الطقسية

٤) Robinson : *op. cit.* 183

☆

انّنـا قد بيّنّا في سياق الكلام عن دخول النصرانيّة الى لبنان قبـل الهجرة بثلثمائة سنة ما عانت من المكاره ولاقت من المصاعب حتى استتبّ لها الامر وتوطّدت دعائمها (١ ولم يتمّ انتصار النصرانيّة على الوثنيّة قبل اواخر القرن السادس واوائل السابع وذلك بفضل الشعب الماروني واسماء المساكن تؤيد هذه النتيجة التي لا سند لها الّا الادلّة التاريخيّة

انّهُ لامر شائع في جميع البلاد النصرانية أن تُسمّى المساكن باسماء القديسين فشيوع هذه العادة يظهر ما لعبادة القديسين من الشأن والاعتبـار عند بني جلدتهم ويبيّن لنا اهمية الابنية الدينية التي نشأت حولها المدن الخطيرة. فمن هذه المدن سانت اتيان في فرنسة وسان لويس في الممالك المتحدة وسان باولو في البرازيل. فممّا يقضي بالعجب انّ الاسماء المكانية التي تنسب الى اسم قديس قليلة جدًّا في لبنان نعرف منها مار شينا في الزاوية ومار ماما في بلاد البـترون اما في بلاد عكار فان روبنسن يذكر في لوائحهِ (٢ مار ليًّا وهو اليوم خربة. ونزيد عليهِ اسم مزرعة مار توما (٣

اما الاسماء التي تتألّف من دير ودوير فهي اكثر شيوعًا لكنّها اقلّ مما ينبغي ان تكون في بلدٍ اغلبُ سكانهِ نصارى. وعلّة ذلك على ما نظنّ انحصار الطائفة المارونية زمنًا طويلًا في شمال لبنان فانها لم تجاوز حدود نهر ابراهيم كما اثبتنا في جملة مواضع الّا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. ونحن نعلم ان كثيرين يرفضون حتى الان التسليم برأينا. فما علينا الّا ان نوضح للمُناظر أنّ تسمية الاعلام الوضعية لا تقضي لهم ولا تتناول رأيهم. فقد ظهر من الابحاث التي نشرها حضرة الاب ابراهيم حرفوش في المشرق عن اديرة كسروان القديمة انها متأخرة عن الجيـل الخامس عشر. فايُّ تفسير لهذا الشذوذ غير تفسيرنا. ثم علينـا ان نعتبر أنّ الاديرة الكبيرة كانت قديمًا

١) تسريح الابصار (١: ٩٧-١١٢)

٢) راجع تأليفهُ (ص١٨٣)

٣) وهذا الاسم مذكور في لائحة تفضّل علينا بها حضرة الخوري بولس طعمه وقال انّ اهلها اليوم مسلمون

نادرة في لبنان لانّ العيشة الرهبانية فيهِ كانت في بادئ امرها تقوم في الخلوة والعزلة شأن النساك والزُّهَّاد فاكثر الاديرة الكبيرة سيما جنوبي نهر ابراهيم بُنيت بعد تأسيس الرهبنة البلدية . وهذه بعض الاسماء التي تبدأ بدَير : دير القمر ودير قُوبل ودير بابا ودير دوريت وقد ورد ذكر جميعها في تواريخ الفرنج في القرون الوسطى(١ وفي تاريخ بيروت (١٩٢-٢٨٢) . فهذه القرى سبقت عهد القرن الحادي عشر ولعلّها قامت على انقاض اديرة مبنية قبل الاسلام . وما يحملنا على هذا الاستدلال وجود تلك الاديرة بناحية لم يستوطنها غير الدروز قبل القرن السابع عشر . وقد يعنُّ لنا أنَّ في هذه الناحية موضع الدير الذي اقامهُ في لبنان القديس رُبولا وقد ورد ذكر هذا القديس في كلامنا عن ابتداء النصرانية في الجبل (٢ . وها نحن نورد بعض اسماء مما يبدأ بدير غير ما ذكرنا . ففي منحنى لبنان الشرقيّ دير الاحمر (شمال غربيّ بعلبك) ودير طحنيش على منحدر جبل الباروك المشرف على البقاع ودير دالوم ودير جانين في بلاد عكار (٣ ودير الزهراني في وادي النهر المذكور

ولقد تبيَّن لنا من ابحاثنا المتقدّمة عن العاديَّات اللبنانية أنَّ لبنان بلد تأصلت فيهِ العبادات الوثنية ورسخت اصولها وانتشرت فيها الهياكل والابنية التي تحيي ذكر الديانات الساميَّة . فاسماء الاماكن تدعم شهادة العاديَّات وتوضحها على منوالها (٤ فبفضلها نُدرك جليًّا امر تلك الانقاض الدارسة وغايتها وبفضلها نكمل نقص التأريخ ولايضاح ذلك نتَّخذ بعض امثلة ممَّا يحضر الخاطر على سبيل الاتفاق :

فان كنا نجهل انتشار عبادة الإلهة الفينيقية تانيت في لبنان فالاعلام المكانية تُطلعنا عليها فمن تلك الاعلام كفر تانيت الواردة في تاريخ بيروت (٥ وعقتنيت جنوبي

---

١) راجع المجلة الفلسطينية (ZDPV, X, 276, 277) اما تفسير اسم دير القمر في كتاب اخبار الاعيان (ص٢٩) فهو الى الغرابة اقرب منهُ الى المكانة والسداد على ما لاح لنا

٢) راجع الجزء الاول (ص١١٢-١١٤)

٣) وغيرها في تلك الناحية . راجع روبنسون (183—190)

٤) راجع ابحاث غلدتسير (Goldziher: *Mohamm*, *Studien*, II 334 336)

٥) لصالح بن يحيى (ص ٢٢٩)

شرقي صيداء (١ وعيتنيت على منحنى لبنان الشرقي على سفح تومات نيحا الى الشرق. وليست تانيت وحدها الإلهة الساميَّة التي عاش ذكرها في الجبل

كُنَّا الى اليوم نشتبه بوجود إلهة كان الاراميون يوَدُّون لهـا اكراماً خصوصياً ويدعونها شيما. وقد استلفت اليها الانظار بمقالاتهِ حضرة الاب سبستيان رنزڤال (٢ فقد اكتشف بحذقهِ المعروف اسم هذه الإلهـة في «كفرشيما» قريباً من بيروت «وبيت شاما» (على طريق زحلة الى بعلبك) «وشامات» في بلاد جبيل ونحن نضيف الى ما تقدَّم اسم «بعلشميه» (في المتن الاعلى) فهذا الاسم الذي يبدأ ببعل هو عندنا من اغرب الاسماء الاوليَّة والاصلية في لبنان (٣ . فكلٌّ يعلم أنَّ الآلهة كانت تُعبَد في الهياكل الساميَّة ازواجاً فكل من الآلهة كان بازائهِ ما يقابلهُ ذكراً كان او أُنثى وحتَّى اليوم لم يكُن مقابل شيما الهاً معروفاً وان كان يسوغ الاستدلال على وجوده بالاستقراء. اما الان فقد اكتُشفت حديثاً كتابة يونانيَّة شماليَ سوريَّة فيها ذكر الاله (Σεμιος) (٤ فهـذا الاله لا نخالهُ الَّا زوج شيما الذَّكَر لانَّ بعلشميه لا تعني الَّا بعل شيما اعني مُقابلها الذَّكر لانَّ لفظ البعل عند الساميّين اذا جاء منفرداً كان يدلُّ على كبير الالهة ويشير الى اله محلّي او خصوصيّ اذا أُضيفت اليهِ صفة كما نراهُ واقعاً

ثمَّ انَّ قرية درب السين (وعلى الاصحّ دربسين (٥) شرقيّ صيدا بمقربة منها تذكّرنا بالهٍ آخر هو الاله سين او القمر المكرَّم خاصَّةً في بلاد بابل ومـا بين النهرين وكان لهُ في حرَّان هيكل مشهور ومنها امتدَّت عبادتهُ الى سوريَّة لانَّ حران كانت مبنيَّةً على طريق القوافل التي كانت تتعاطى الاتّجار في تلك الاصقاع

وفي سوريَّة الشماليَّة مواضع يدلّ اسمهـا على انتشار عبادة القمر. فمن ذلك كفرباسين في جبل سمعان (غربي حلب) وبجوار افامية القديمة موضع آخر يدعى بهذا الاسم. فلفظة باسين تتركَّب من با وسين: والتأويل بيت سين اي مسكن او هيكل

١) راجع Guérin, *Galilée*, II, 516 وقد أُهملت هذه البلدة في الخريطة الفرنساوية للبنان وهي غير كاملة في الجنوب

٢) راجع المشرق (٧: ٢٣١ — ٢٣٥)

٣) وقد ظنَّ بعضهم انهُ تصحيف «بعل شمين» اي بعل السماوات وهذه التسمية شائعة عند بني سام راجع اخبار الاعيان (ص ٢٦)

٤) راجع Bullet. corresp. hellénique, 1902, p. 182

٥) ZDPV, VII, 115

الاله سين . وكان العرب في الجاهليَّة يعبدونهُ ايضاً (١ ولعلَّ هذه العبادة نقلتها عنهم الى لبنان قبيلة الايطوريين وهي عشيرة من عشائر العرب سكنت قديمًا في لبنان كما سبق لنا اثباتهُ

ونرى ايضاً في لفظة «كفرقاهل» شمالي الكورة اسم قاهل ومعناهُ القدير وهو من اسماء الجلالة عند العرب الاقدمين (٢

وما نبَّهنا اليهِ في بعلشميه ودربسين ينطبق ايضاً على اسم دار بعشتار. فهذه اللفظة كما سبق شرحها في غير موضع (الجزء الاول ص ١٣٧) ما هي الَّا بيت عشتار اي هيكل عشتروت . وعشتروت هذه من معبودات اللبنانيين الخاصة ولذلك كان اليونان ينسبونها الى لبنان فدعوها «Λιβανίτις» (٣ فالجزء الاول من الكلمة جرى عليهِ من الإبدال ما جرى في لفظة دربسين التي كانت في الاصل داربسين فحوَّلها الشعب الى درب السين (٤ ولم ينتبه الى أنَّ الباء الابتدائية هي اختصار بيت ثم قدَّم على بعشتار لفظة دار ومدلولها البيت ولا عجب في هذا اذ انَّ في العامَّة ميلًا فطريًا يحملهم على وضع معنًى للالفاظ القديمة التي يفوتهم ادراك سرّها . وبناءً على هذا المبدأ كتب العامَّة «مجد البعنا» (٥ (ضيعة في الجرد الشمالي) وكان حقها ان تُكتب مجدل بَعنا. وهكذا قُل عن «مجد المعوش» والصحيح «مجدل معوش» وجرى الشعب على هذه الطريقة لانهُ لم يكن يعرف ان مجدل هي لفظة كنعانية قديمة ومعناها قلعة فنقلها الى لفظٍ عربي متشابه

ومن المرجَّح ان اسم بزيزا المجاورة لدار بعشتار هو ادغام بيت عزيز. وعزيز هذا كان الهاً عند الساميين تتَّصل عبادتهُ بعبادة الشمس (٦ وكان لهُ مزيد الاكرام في

١) قابل ايضاً اسم جبل طورسينا Grimme : *Mohammed*, 29-31

٢) راجع Grimme, 39, *op. cit.*

٣) (راجع الجزء الاول ص ٤٥ وتجد هناك صورة عشتروت ص ٤٦) Clermont-Ganneau : *Rec. Archéol. Orient.*, III, 188

٤) اما رنان (Mission de Phénicie, 512) فيريد ان تحذف الباء و يكتب الاسم دير السين . غير انهُ من الضرورة ابقاء الباء كما يستدل من اسم كفرباسين الشائع في شمال سورية

٥) وهكذا كتبها صاحب دليل لبنان

٦) راجع (Revue Archéol., 1903, p. 129-130)

الرُّها وفي حمص كما يُستدلّ من الكتابات اليونانيَّة العديدة التي قرأنا فيها اسم « Ἄζιζος » (١

امَّا الاعلام المركبة التي اول جزءَيها «عبد» فثانيها اسمٌ الهيٌّ عادةً ولذلك لقبوا هذه الطائفة من الالفاظ بالاسماء الالهيَّة . وعندنا ان عبدِلّي (من بلاد البترون) تتضمَّن اسم الله ولعلَّهُ بصيغتهِ الملطفة إيلو في اللغة البابلية او في العبرانية بدلًا من الصيغة السريانية او العربية المشبعة والمفخمة . وممَّا يؤيد هذا التأويل هو انها لا تلفظ عبد الله بالتفخيم والاشباع بل عَبْدِلّي ܥܒܕܠܝ بكسر الدال الملطفة او بالاشمام

واقد اطاعتنا كتابات تلّ العمارنة على شدَّة نفوذ بلاد بابل في اقطارنا الشامية . فلا عجب اذن ان وجدنا شيئاً من آثار الديانة البابلية في سوريَّة وقد شاهدنا مثالًا على ذلك في ادخال عبادة الاله سين . وقس عليهِ الاله البابلي نَبو (وفي العربي نبأ) فاننا نجد اسمهُ في «قصر نَبا» شمالي زحلة على منحنى لبنان الشرقي (٢ . ولا بدع ان اوردنا كتذكار بابلي اسم «كفر نمرود» في بلاد جبيل وهي خربةٌ وقد ذكرها عدَّة من علماء الافرنج (٣ ونحن لم نشاهد هذا المحلّ كما اننا لم نشاهد «قلعة تدمر» . فلذلك نكتفي بالاشارة اليها ولا نزيد على اسمَيْها تأويلًا . على اننا نرى قرى كثيرة ومزارع عديدة تسمَّى باسماء الالهة القديمة فمن هذه القرى بدادون (في الغرب الشمالي) فانها تتركَّب من ب = بيت والصيغة السريانية أُون المزيدة في اواخر الاسماء . امَّا داد فإله قديم لبني سام ونجده في لفظة دده (الكورة الشماليَّة) كما نجد في عفصديق (الكورة الوسطى) اسم الاله صدق (٤ . وفي «مراح كَيْوان» في اقليم التفاح يظهر اسم زُحل احد معبودات الشعوب السامية وقد كان معروفاً عندهم باسم كَيْوان (٥ . قال ابو العلاء المعرّي :

اذا عظَّموا كَيْوانَ عظَّمتُ واحدًا فكان لهُ كيوانُ اوَّلَ ساجدِ

---

١) راجع تأليفنا في آثار حمص *Notes sur l'Emésène*, passim

٢) ومثلها «كفرنبا» في جبل سمعان غربي حلب . وجاء في «ذخائر لبنان» (ص ١٢٥) ان نبا اسم امير عربي . وهو تفسير قصصي

٣) راجع بعثة فينيقية (ص ٢٠٢)

٤) راجع Winckler, *op. cit.* 473, 483

٥) راجع Winckler, *op. cit.* 409

الّا انّ اكثر الالهة شيوعاً عند الكنعانيين والفينيقيين هو البعل فلم يكن ممكناً ان يُغفَل اسمهُ في تسمية الاماكن اللبنانيَّة وانا دليل في اسم بعلشميه ومثلهُ شَلَبعل في بلاد الشقيف (١ . وكبعل قريباً من الغينة (كسروان) . وكفربعال في وادي فيدار . وسبعل وبسبعل (٢ شمالي قضاء البترون . وعَنبال بدلاً من عين بعل (٣ في الشوف . فهذه الاسماء لا تزال محافظة على اسم زعيم آلهة الفينيقيين

امّا صاليما فلعلّها الكلمة الكنعانيَّة « צלם » وهذه الكلمة ليس معناهـا صورة وصنم فقط بل هي اسم احد الالهة الساميَّة المسمَّى صاليم (٤ فيكون اذن معنى بصاليم (في المتن) بيت صاليم اي بيت الصنم او هيكل الاله صاليم

ومن العبادات التي شاعت كثيرًا في سورية هي عبادة الشمس والى هذه العبادة ينتسب اسم « عين الاسد والشميس » في اقليم الخروب . وما يزيد هذا الاسم اهميَّة هو تضمُّنهُ لاسم اله آخر وهو الاله الاسد الذي اظهرتْ وجودهُ للعيان كتابةٌ اكتُشفت حديثاً في جبل سمعان (٥ يُقرأُ منها اسم الاله الاسد باليوناني(Λέων) . وفي بعلبك كان الاله جنايوس « Γενναῖος » يُعبد بصورة اسد . وتمثيل الآلهة بصورة اسد كانت عادة شائعة في سوريَّة (٦ . وقد تُحدّثنا النفس بان نعزو الى تلك العبادة الاسدية (٧ اسم مدينة الاسد (Λεοντόπολις) ونهر الاسد (Λέοντος ποταμός) وكلاهما على منحدر لبنان الشرقي (٨ بين نهر الليطاني ونهر الكلب لكنَّ مركزهما لم يُعرف تماماً (٩

١) راجع V. Guérin, *Galilée*, II, 530, 541

٢) والفظها الحالي لا يناقض رأينا في شيء فالعادة جارية في جميع البلدان على الاعلام التي لا يفهم معناها الوضعي بان يحدث تبديل في لفظها اولاً ثمَّ في كتابتها

٣) راجع اخبار الاعيان (ص ٢١)

٤) راجع Winckler, 473

٥) راجع Bullet. corresp. hellénique, 1902, p. 182

٦) راجع مجموع الآباء اليونان لمين (Migne, *PP. GG.*, CIII, c. 1292)

٧) راجع مقالة الاب رونزفال بهذا الخصوص : (*Revue Archéol.* 1905, 48 - 53)

٨) وكان اللبنانيون الوثنيُّون ينذرون لآلهتهم تقدمة صور الاسد (Mission de Phénicie, 397)

٩) راجع مقالتنا عن اسماء انهر لبنان القديمة

وامَّا ما يتعلَّق بعبادة الشمس فقابل « بيت شمس » وهو من الاعلام الكثيرة الشيوع في فلسطين (١

ومثلها العبادة للاله رمَّان (٢ التي شاعت في طرَفي العالم الساميّ في بلاد اشور كما في بلاد العرب وفي جميع البلدان المتوسطة بينهما . فمن تلك العبادة دُعيت اماكن عديدة باسماء تدخل في تركيبها لفظة رمَّان نحو عين الرمَّانة وبرمَّانا ولعلَّها بيت الاله رمَّان . ولمَّا أُغفل على مدى الزمان اسم هذا الاله حُسبت هذه التسمية نسبةً الى شجر الرمان وليس لهُ وجود في تلك القصبة وقد يتفق ان يكون ذلك في بعض الاماكن بشرط ان لا تكون في مواقع باردة لا يعيش فيها الرمَّان . وليس لنا ان نهمل اسم « كفرعميّ » الغريب وقد يمكن ان يكون اسماً الهيّاً لان « عمّ » من صفات الالهة عند بني سام الاقدمين (٣

فهذه هي الآثار المهمَّة التي ابقتها العبادات الوثنيَّة في اعلام الاماكن اللبنانية وهي كلّها عبادات سامية وهذا طبيعيٌّ في اراضٍ سكَّانها ساميُّون . وامَّا ما اختصَّ بالعبادات اليونانية والرومانية فيدلّ عليها اسماء بلُّوني وطاميش ولعلَّهما مشتقَّان من اسمي ابولُّون وارطاميس او دِيانة (Diane) . لكنَّ هذا الاشتقاق لا يتجاوز حدود التخمين وقد يمكنَّا ان نقابل بطاميش دير ارطاميس (ܕܝܪܐ ܕܐܪܛܡܝܣ) في حوران وهو مذكور في كتابة سريانيَّة من الجيل السادس (٤ . وظنَّ البعض انهُ ورد لابلُّون ذكرٌ آخر في لبنان وهو اسم مغارة بالقرب من صيدا يدعونها مغارة « ابلُّون » وهذا الاسم مصحَّف والصواب « مغارة طبلون » وهو اسم مكانيّ نجهل اصلهُ لكنَّنا لا نظنُّهُ متعلّقاً بعبادة ابلُّون اله الرومان . ولقد اوردنا في الجزء الاوَّل (ص ١٤١) اسماً غريباً في بابهِ وهو اسم « وجه الله » الذي كانت تسمّي بهِ اليونان رأسَ الشقعة وكذلك اسم ضيعة « وجه الحجر » القائمة على ذلك الرأس فاسم وجه الحجر من آثار عبادة قديمة والمكان يُدعى باليونانيَّة (Θεουπρόσωπον) او (Λιθοπρόσωπον)

١) راجع معاجم التوراة و Winckler, 369

٢) راجع كتاب حضرة الاب لاكرانج (Lagrange) في الديانات الساميَّة (ص٩٢-٩٣)

٣) Winckler, 480

٤) ZDMG, 1875, 436

وكلاهما ترجمة الاسم العربي فقد كان بين طواغيت العرب صنم اسمهُ حجر وكان الايطوريين مركز على هذا الرأس من اهمّ مراكزهم يقال لهُ جيجارتا فلعلّهم هم الذين ادخلوا تلك العبادة الى لبنان (١

وفي بعض كتابات دير القلعة ذُكر اله يدعى (Ἀρεμθηνος) وقد استلفتت هذه الكتابة انظار المستشرقين ايَّ استلفات فتساءلوا عما عساهُ ان يكون ذلك الاله المجهول الى هذا الحين واين هيكلهُ . فاذا حذفنا آخر الكلمة « ηνος » الدالّة في اللغة اليونانية على النسبة بقي « Αρεμθ » وبهذه الطريقة نحصل على اسم المحلّ المنسوب اليهِ هذا الاله . وقد بحثنا عن حقيقة هذا العلم فعنَّ على فكرنا باديء بدء اسم رمطون التي ورد ذكرها مرارًا في تاريخ بيروت (٢ لصالح بن يحيي وهي قرية من كفرمتّى بينها وبين نهر الداءور . فرمطون هي اليوم خربة ولا ريب انها كانت قديمًا ذات بال وشأن كما يستدلّ من نسبة الرمطوني الذي عُرف بهِ كثيرون من امراء الغرب فهذا الاسم يشابه الاسم اليوناني ولا فرق بينهما سوى ان ال التعريف داخلة على الاسم اليوناني بخلاف العلم العربي الخالي منهُ

الّا ان في الاسماء اللبنانيَّة المكانيَّة اسماً آخر يوافق كلَّ الموافقة لحلّ هذا المشكل وهو اسم القرية عَرَمتى او عرمتى في ناحية جبل الريحان (٣ وبقربة منها مزار ابي ركاب الذي تبالغ في اكرامهِ متاولة الناحية وما هو الّا الاله المعبود قديمًا في عرمتى والاله (Ἀρεμθηνος) المذكور في كتابة دير القلعة

فممَّا مرَّ بك من التفاصيل يتبيَّن عظم قدر العبادات الوثنيَّة في لبنان والمصاعب الكثيرة التي ناصبتها النصرانيَّة حتى توصَّلت الى نصر الحقّ على الباطل وبها تدرك معنى كثرة الابنية الوثنيَّة في لبنان . فدرس الاعلام المكانيَّة يطلعنا على انَّ العبادات الوثنيَّة كانت مع الابنية المختصَّة بها اوفر عددًا في قديم الزمن وانهُ لم يبقَ من اثرها الّا اسماء بعض المواضع فاذا ما حصلنا على لوائح وصفيَّة وافية بالمطلوب امكننا ان نضيف زيادات كثيرة على ما قدّمنا

١) اطلب بعثة فينيقية لرينان (Mission, 402)
٢) راجع مثلًا الصفحات ٧٦ و ٨١ و ١٢٢ و ١٢٧ و ١٢٩ و ١٨٠ و ١٨٥
٣) و يوجد موضع آخر يدعى عَرَمْتى في جبل النصيريّة

☆

واعلم انَّ فائدة درس اعلام الاماكن لا تنحصر في معرفة عبادات المشركين فقط فانَّ الجغرافية والتاريخ يجنيان منهُ اعظم جدوى . فمثال ذلك « خربة صَيدون » في قائمقامية جزين تُحيي وتحفظ ذكر صيدون وهي صيدا وتدلّ على انَّ نفوذ ام المدن الفينيقيَّة امتدَّ الى داخل الجبل

وقد نبَّه بعضهم الى أنَّ فُرَيديس وهي كلمة فارسيَّة شائعة الاستعمال في سوريَّة تدلّ عموماً على حظائر صيد قديمة لملوك الفرس (١ وهي عادةً مواضع تكثر فيها المياه ومن ثمَّ الغابات والطرائد شيئان يستلزم احدهما الاخر . وما من موضع احقّ بهذا الاسم من فريديس الباروك فهناك سهل بهيج تسقيهِ ينابيع الباروك الغزيرة يشبه في تنظيمهِ وترصيفهِ حظيرة صيد كبيرة وعلى اكنافهِ ارز الباروك (٢ هو بقيَّة من الغابات القديمة التي كانت تختلف اليها حيوانات متنوعة

وفي بطرَّان من قضاء الكورة آثار عديدة من قبور واحواض كبيرة كلها منحوتة بالصخر قد وجدنا بينها اخربة تدعى اشمونيت نرجح كونها انقاض هيكل اشمون الاله الفينيقي (٣ الذي ينطبق على الاله اسكولاب اله الطبّ عند اليونان . وكانَّ النصارى القدماء ارادوا تقديس ذلك المكان فاقاموا هناك معبداً باسم القديسة اشموني اضحى اليوم خراباً والاهل يكرّمونهُ وقد اعتادت النساء اللواتي يشعرنَ بألم في الصدر ان يمسحنَ موضع الوجع بماء مصبوب على حجر من حجارة المعبد القديم . واشموني عند الشرقيين امُّ السبعة الفتية الشهداء المذكورين في سفر المكابيين لكنَّ الكتاب المقدَّس لا يذكر لها اسماً ولعلّ الشرقيين اشتقُّوا اسمها اشموني من العبرانية שמונה اي الثامنة لانها قُتلت بعد اولادها السبعة

☆

قد ابنَّا غير مرَّة أنَّ لبنان يمتاز بنباتهِ الزاخر وغاباتهِ الملتفَّة . امَّا اليوم فمن يسرّح الطرف في ذرى هذا الجبل ويراهُ اجرد في اكثر اماكنهِ قليل الاحراج والاشجار نسب

١) راجع الجزء الاول (ص ١٢٤)
٢) اطلب المشرق (١ : ٢٧٧)
٣) راجع المجلَّة الاسيويَّة الالمانيَّة (ZDMG, 1905, 459 etc.)

الينا التحمّس والمبالغة وارتاب بصدق ما روينا من الادلّة القديمة . غير أنّ تسمية الاماكن تشهد بكثرة الاشجار والنبات في لبنان قديماً . ومن ذلك المساكن المسمّاة « غابة » او « غابات » والتي يدخل في تركيبها اسم شجرة كالاعلام الآتي ذكرها : « سنديانة وبلّوط وصفصافة وجوز وحور ودلبة ودلبتا وزَعْرور ورمّانة وخرّوب ولوز ولويزة وبُطم ومشمش وزيتون » مع اشتقاق هذه الاسماء وفروقها وتصغيرها واضافتها الخ. فاسم نهر الدامور او كما يدعوهُ اليونان تاميراس يتضمّن اسم النخل الذي يقال لهُ بالفينيقية تامير (تمر) ويدلّ على قدم هذا الشجر في لبنان (١ . وبعض هذه الاشجار كانت بالغة في الكثرة حتى تسمّت بها المقاطعات والاقاليم على نحو : « جبل الريحان واقليم التفاح واقليم الخروب » كما بيّنّا ذلك فيما سبق من مقالاتنا عن الزراعة والاحراج في لبنان.

وممّا يقضي بالعجب هو اننا لا نرى في جملة النباتات الداخلة في الاعلام اللبنانيّة اسم الارز سيّد الاشجار في لبنان. فعلّة ذلك أنّ الاهلين بادروا في اوّل امرهم الى قطع غابات الارز واستثمار اخشابهِ باثمان غالية حتى تجاوزوا في عملهم كلّ حدود التروّي والفطنة كما سبق لنا ايضاحهُ (٢ فالارباح الفاحشة هي التي عرّضت اشجار الارز الى العيث بها وخرابها حتى لم يبقَ منها الّا القليل وهذا القليل لم يسلم من تعدّي الانسان الّا بفضل القمم المنيعة التي نبت عليها مع انّ الارز يُؤْثر المواضع العالية المعتدلة الهواء فلا يكاد ينبت في موضع ينقص ارتفاعهُ عن ثمانمائة او سبعمائة متر والمراكز المأهولة نجد اكثرها قائماً في الوسوط . على انّ الشرائع الرومانيّة (٣ المختصة بالاحراج كانت تلاشت او كادت حينما شرع العمران يتأصّل حقيقةً في لبنان اي في عهد وصول الموارنة اليهِ وقد كان اقتلاع الاشجار بلغ مبلغاً عظيماً حتى لم تبقَ احراج تستحقّ الاعتبار الّا في الصرود العالية. فمجرّد وجود هذه الشرائع والكتابات

---

١) راجع غراماطيق اللغة الفينيقيّة للعلامة شرودر قنصل عام الدولة الالمانية سابقاً في بيروت (P. Schrœder : *Phœniz. Sprache*, 135) وكتاب جوره Ch. Joret : *Les Plantes dans l'antiquité*, 369 ; ثم (Clermont-Ganneau : *Rec. arch. orient.*, v, 328)

٢) راجع الجزء الاول (ص ١٢٩)

٣) راجع الجزء الاول (٢٢-٢٣)

العديدة المنصوصة فيها وهي تُربي على المائة لمَّا يوضح لنا جليًّا الحاجة الماسَّة الى تلك الوسائل لوقاية الاشجار وبما انَّ هذه الكتابات ليس لها وجود الَّا في لبنان فيسوغ لنا ان نستنتج أنَّ غايتها انما كانت حماية ارز ذلك الجبل

ومهما كان من الامر فكثرة المواضع اللبنانيَّة التي تُسمَّى باسماء الاشجار او بما يُرجَع اليها من الحِرَف والمهن كمعصرة ومعاصر دليلٌ على انَّ لبنان كان ارضًا سادت فيها الزراعة بخلاف سواها من الصنائع كشغل المعادن مثلًا . فالاسماء العلميَّة لها اهميَّة كبرى من هذا القبيل فانها تؤيد نتائج بحثنا السابق . فاننا لا نكاد نصادف في جميع لبنان اسماً يلمحُ الى تلك الصنائع الَّا اسم « معادن » في ناحية المنيطرة و« الفرزل » على السفح الشرقي وهي لفظة سريانيَّة معناها مسبك او معمل حديد

وهذه الملاحظة نفسها تتناول الينابيع المعدنية او الحارَّة فكثيرًا ما نجد في اسماء الاماكن لفظة عين . امَّا اسم حمام او ما هو بمعناها فلا وجود لهُ البتة . ويؤيد ذلك علم طبقات الارض فانهُ يبيّن لنا ان الطبيعة لم تجُدْ على لبنان بوفرة المعادن كما ضنَّت عليهِ بالينابيع المعدنيَّة والمياه الحمَّة اذ ليس فيهِ صخور بركانيَّة

واما ما يدلُّ على وجود الحيوان من اسماء المواضع اللبنانيَّة فليس بالواضح الصريح فلعلَّ اسمَي « مدينة الاسد » و« نهر الاسد » اللذَين ذكرهما يشيران عند جغرافيي اليونان الى وجود الاسد قديمًا . واليوم لا نعرف من الاعلام الحاضرة المشتقَّة من اسم الحيوان الَّا اسم بنمرة اي بيت نمرة وكفرنبس . اما سنّ الفيل قريباً من بيروت وخرطوم في بلاد الشقيف فلا يكفيان للدلالة على ان الفيل وُجد قديمًا في لبنان لو لم تكن عندنا غير ذلك من الادلَّة التي اوردناها في ابحاثنا السابقة (١

٣

ولعلهُ يخطر على بال كثيرين من القرَّاء اننا اسهبنا في هذا الموضوع . ويقول قائل : ما الفائدة من جميع هذه الافتراضات الوهميَّة ومن هذا التشريح اللغوي وما المنفعة من هذا الدرس بالمكرسكوب والتنقيب عن البقايا المتحجرة في بطن اللغة

١) راجع مقالتنا المعنونة : « ما فُقِد لبنان من قدم الحيوان »

والتاريخ التي لا سبيل الى احيائها ؟ فلقد اجبنا على هذا الاعتراض في افتتاح مقالتنا وفي سياق كلامنا ونجيب عليهِ الان لآخر مرَّة

انَّ كل من تروَّى في مطالعة المقالات التي ادرجناها منذ ظهور المشرق عن احوال لبنان القديمة وتاريخهِ وجغرافيتهِ لا بُدَّ لهُ من ان يكون لاحظ ما لاحظناهُ نحن انفسنا وهو اننا نعرف ماضي لبنان بئس المعرفة اذا لم نعتمد إلَّا على الشهادات والادلَّة الكتابيَّة التي تومئ اليهِ لاسيَّما اذا كان مدار الكلام على ما تقادم عهدهُ . فبالحقيقة ان هذه الشهادات جميعها من كتابات مرسومة على الحجارة وادلَّة في كتب المؤرخين والجغرافيين وآيات من مؤلفي الكتب المقدسة او غيرهم من الكتبة بلغات الشرق والغرب لا تتناول الَّا بعض صفحات

لكن ما قولنا عن بقايا الابنية القديمة المتفرّقة على سطح الجبل ؟ فانها عجماء بكماء لا تنطق ببنت شفة ومن النادر ان نجد بين انقاضها جزءًا من كتابة او عبارة ضائعة في كتاب تفصح عن تاريخ بنائها واسمها والغرض منها . ومن طالع الجزء الاول من «تسريح الابصار» عرف ذلك حق المعرفة

فماذا ندري وماذا نعلم عن مساكن لبنان القديمة ؟ لعمري انَّ ذلك يكاد ان لا يكون شيئاً . فلو استثنينا مدن الساحل فاننا لا نجد ذكرًا لموضعٍ مأهولٍ في لبنان قبل التاريخ المسيحي . ومن بعد التاريخ المسيحي لا نصادف كتاباً يصف اماكن لبنان قبل القرنين الحادي عشر والثاني عشر . فجلُّ قصدنا كان اذن ان نعوّض بعض التعويض عن سكوت التاريخ ونسدّ بملاحظاتنا المتقدّمة ذلك الخلل فاذا لم نتوفَّق الى سدّهِ جميعه فلا اقلَّ من ان نسدَّ بعضهُ وما لا يُعلَم كلّهُ لا يُترك جلّهُ فان العلم بالبعض خير من الجهل بالكثرة

فكم من موضع في الجبل ليس لهُ ذكر في كتاب وليس فيه شيءٌ من العاديات حتى ولا لحدٌ منقور في صخر يدلّ على مرور الانسان فيهِ . فهذا مما يحضُّنا على ان نلتمس من اشتقاق اسمهِ أثرًا لماضيهِ وان نستمدّ من دراسة اصول اللغات الفوائد التي ضنَّ علينا بها التاريخ والنصوص المكتوبة . فان كان العَلَم يونانيًا او لاتينيًا فيسوغ لنا ان نستدلّ من ذلك على ان الموضع الذي يُدعى بهذا الاسم يتَّصل تاريخهُ لعهد شيوع هاتين اللغتين في سوريَّة . وان كان الاسم يدلّ على عبادة وثنيَّة فنرجح أنهُ

من عهد انتشار تلك العبادات في الجبل اعني في الاربعة الاجيال الاولى للمسيح او قبل ذلك لاسيّما ان كانت تلك الاسماء ترجع الى عبادة فينيقيَّة او آراميَّة او اشوريَّة. فتلك نتيجة ابحاثنا وهي على ما نظنّ من الاهميَّة بمكان اذ تمهّد طريقاً لمعرفة تاريخ نشأة المساكن وهي في بيان الحقيقة بمثابة لا تقلّ كثيراً عن الادلَّة الكتابيَّة

اما اولئك الذين لا يعوّلون الَّا على الآثار المكتوبة فيبقى عليهم ان يستنتجوا انهُ لم يكن في داخل الجبل من مراكز مأهولة قبل التاريخ المسيحي الَّا ما ندر لانَّ التواريخ لا تذكر قبل الجيل العاشر الَّا ثلاثة اسماء مسمَّاة صريحاً باسمائها اوردها اسطرابون (١ وهي جيجارتا وبورُوما وصِنان

فلا ننكر ان العمران لم يبدأ حقيقة في لبنان قبل عهد الرومانيين غير انهُ من المعلوم ايضاً انهُ كان في لبنان اكثر من ثلاث قرى قبل التاريخ المسيحي فمن اراد الوقوف على الحقيقة فليطالع ما كتبناه في مقالاتنا عن كيفيَّة استعمار لبنان وعن سكَّانهِ الاقدمين الَّا اننا في عرض هذه الابحاث لم نتوصَّل حينئذٍ الَّا الى نتائج بعيدة وادلَّة غير وافية بالمرام. امَّا الدليل الصريح على انَّ لبنان لم يكن خالياً من السكَّان في قديم الزمان كما يوهمهُ سكوت التاريخ والكتابات فاننا نجدهُ خاصَّةً في اعلام المواضع التي لخصناها وبيَّنَّا انَّ بعضها فينيقيَّة وبالتالي متقدّمة على التاريخ المسيحي بزمن طويل

على انَّ هذه النتائج وغيرها من الدلائل التي لا حاجة الى العود اليها تحتجّ عنَّا ان كان من حاجة وتعذرنا فيما اذا كنَّا توقفنا طويلاً واسهبنا كثيراً في مثل هذا الموضوع الذي مع عُقمتهِ لهُ فضل الحداثة والابتكار فيما يختصّ بلبنان على الاقلّ وغاية ما نتمنَّاه ان يستنهض بحثنا هذا الضعيف الهمَم العالية لابحاثٍ حديثة فنهنئ اذ ذاك نفسنا لاننا باسطرنا السابقة مهَّدنا السبيل الى ذلك وفتحنا باباً يطرقهُ بعدنا من هو اقدر منَّا

١) كما مرَّ بك في كلامنا عن الايطوريين

خاتمة الكتاب

فهنا وعند هذه الامنية نقف بعد استئذان القرَّاء الافاضل الذين بكل لطف ومجاملة رافقونا في سياحاتنا الطويلة في ماضي لبنان . على اننا لا ندَّعي اننا في مقالاتنا المتقدّمة وفينا بالمطلوب او استنفدنا المادة واستفرغنا الموضوع فاننا نغادر لبنان ونحن نعلم ان مسائل كثيرة فاتتنا دون ان نتعرَّض لها ومشاكل شتَّى تركناها او لم نحلّها حلًّا مرضياً

وعسى ان يأتي بعدنا من هو اسعد منَّا فيتخذها ويحكم فيها حكماً نهائيًّا او يوضحها احسن ممَّا اوضحنا — ونحن نتمنَّى في الختام ان ما بذلناه من الجدّ والكد يرفع طرفًا من النقاب الذي يحجب عنَّا ماضي لبنان ويحثّ ذوي الفضل واهل العلم على ان يحذوا حذونا ويكملوا ما بدأنا بهِ فيُظهروا للعيان فضل هذا الجبل الشهير الذي اذاعت مديحهُ الكتب المقدَّسة وهو لا يزال من ابدع محاسن واجمل مشاهد سورِيَّة الحالية



فهرس

تسريح الابصار في ما يحتوي لبنان من الآثار

الجزء الثاني



فهرس الاعلام والموادّ

التي وردت في جزئي كتاب تسريح الابصار على ترتيب حروف المعجم . فالحروف الرفيعة تدلُّ على صفحات الجزء الاوَّل ما لم يتقدَّمها عدد ٢ الاسود الدالّ على الجزء الثاني مع ما يتبعهُ من الاعداد الرفيعة

* ن *

* ه *

* و *





DEUXIÈME PARTIE.

Géographie et Ethnographie du Liban.

TABLES

DES MATIÈRES DES DEUX VOLUMES

PREMIÈRE PARTIE.

Archéologie et histoire du Liban

AU LECTEUR.

Les études, réunies dans ces deux petits volumes, ont paru dans la revue arabe Al-Machriq (1898-1906). Dans le premier on s'est proposé de vulgariser parmi les lecteurs orientaux les conclusions les plus certaines, concernant l'archéologie et l'histoire ancienne du Liban. Sans prétendre épuiser la matière, l'auteur l'a enrichie d'observations personnelles, recueillies sur place. La seconde partie, consacrée à la géographie et à l'ethnographie du Liban, contient la substance de plusieurs cours, professés à la Faculté orientale de l'Université de Beyrouth (1904-1905). On en trouvera le sommaire dans l'index français. Les sigles et abréviations sont celles depuis longtemps en usage parmi les orientalistes. Les autres références renvoient à des ouvrages trop connus pour qu'il soit nécessaire d'en dresser ici la liste et les titres complets.

La langue archéologique étant encore à créer en arabe, on voudra bien tenir compte de l'imperfection de l'instrument, mis à notre disposition. Peut-être nous sera-t-il donné un jour de revenir à ces matières en un idiome de l'Occident !

Dans cette seconde édition, faite en l'absence de l'auteur on s'est contenté de corriger les fautes d'impression et de retoucher quelques passages, à cause des modifications survenues depuis la 1re édition. On y a ajouté une Table analytique par ordre alphabétique.

Beyrouth, 15 *Juin*, 1914.

LE LIBAN

NOTES ARCHÉOLOGIQUES, HISTORIQUES, ETHNOGRAPHIQUES ET GÉOGRAPHIQUES

Par le P. H. LAMMENS S. J.



Extrait de la Revue « **AL-MACHRIQ** »



SECONDE PARTIE

GÉOGRAPHIE ET ETHNOGRAPHIE DU LIBAN

2e *édition, revue et augmentée d'une Table analytique*



BEYROUTH
Imprimerie Catholique
1914

LE LIBAN

NOTES ARCHÉOLOGIQUES, HISTORIQUES, ETHNOGRAPHIQUES
ET GÉOGRAPHIQUES

Par le P. H. LAMMENS S. J.



Extrait de la Revue « **AL-MACHRIQ** »



SECONDE PARTIE

GÉOGRAPHIE ET ETHNOGRAPHIE DU LIBAN

2[e] *édition, revue et augmentée d'une Table analytique*



BEYROUTH
Imprimerie Catholique
1914

ܒܝܬ ܐܪ̈ܟܐ ܕܒܝܬ ܡܪܕܘܬܐ
History: Regions
Beth Mardutho Library



LE LIBAN

NOTES ARCHÉOLOGIQUES, HISTORIQUES, ETHNOGRAPHIQUES
ET GÉOGRAPHIQUES

Par le P. H. LAMMENS S. J.



Extrait de la Revue « **AL-MACHRIQ** »



SECONDE PARTIE

GÉOGRAPHIE ET ETHNOGRAPHIE DU LIBAN

2e *édition, revue et augmentée d'une Table analytique*



BEYROUTH
Imprimerie Catholique
1914